AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
14 OCT 1972
Tel. 260458

892.709
S163a A
V.1
Pt.2
c.1

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه

العلمي والأدبي

تأليف

محمود رزق سليم

المدرس بكلية اللغة العربية

القسم الثاني

من الجزء الأول وهو تتمة الجزء التاريخي ويحتوى على خلاصات فى سير ملوك العصر وأحوال الدولة ونظمها وعاداتها وما يتصل بذلك من شئون مع ترجمة كثير من رجالها

69537

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

مطبعة التوكل بالجماميز : القاهرة

١٩٤٧

مكتبة العرب
لصاحبها
الشيخ يوسف توما البستاني
شارع الفجالة
بمصر

Cat. Sept. 1950



رفع الشك وسقا

٢٢٦١٥-٧٣٢١ م

٧٣٢١

مراجع القسم الثانى من الجزء الأول

أثبتنا فى صدر القسم الأول من هذا الجزء عددا من مراجعه، ذاكرين الكتاب والطبعة التى اعتمدنا عليها. وهذه المراجع هى نفسها مراجع القسم الثانى أيضا، ونزيد عليها ما يلى:

١ - تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى. طبع بالمطبعة المنيرية عام ١٣٥١ هـ

٢ - المختصر لأبى الفداء طبع الآستانة عام ١٢٨٦ هـ

٣ - تحفة الأحباب للسخاوى على هامش نفح الطيب، طبع المطبعة الأزهرية بالقاهرة عام ١٣٠٤ هـ.

٤ - الفوائد البهية للكنوى الهندى طبع الهند سنة ١٩٢٣ م

٥ - الطالع السعيد للادفوى طبع مطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ

٦ - رفع الاصر عن قضـــاة مصر لابن حجر العسقلانى، مخطوط بدار الكتب المصرية.

٧ - نهاية الأدب للنويرى طبع دار الكتب المصرية

٨ - تاريخ ابن الوردى «تتمة المختصر» طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٥هـ

٩ - تقويم النيل لأمين باشا سامى طبع مطبعه دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٦هـ

١٠ - النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى طبع دار الكتب المصرية

١١ - عجائب المقدور فى أخبار تيمور، لشهاب الدين أحمد بن عربشاه. طبع المطبعة العثمانية بباب الشعرية بمصر عام ١٣٠٥ هـ

١٢ - إغاثة الأمة بكشف الغمة لتقى الدين المقريزى. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠ م

١٣ - المدخل لابن الحاج. طبع المطبعة المصرية بالأزهر عام ١٣٤٨ هـ-١٩٢٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حمداً لله على ما أولاه ، وشكراً له على ما أنعم به وأسداه ، وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد رسوله ومصطفاه ، وعلى آله وصحبه أولى النبل والفضل ، وذوى الأدب اللباب والعلم الجزل .

وبعد فقد أعان الله على إظهار القسم الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب الجامع « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » . وقد لمس القارىء الكريم فيه - بلا ريب - ما استنفد من جهد ، وما احتاج إليه من مشقة ، وما استغرق من زمن ، وما بذل فيه من عناية .

وها نحن أولاء نصدر قسمه الثانى ، مستمدين من الله فى الإرادة قوة ، وفى العزيمة مضاء ، وفى الهمة توثبا ، وفى النشاط جدة ، راجين منه سبحانه ، أن يلهم السداد فى كل خطوة ، ويهب الصواب فى كل مرحلة ، وأن يهيىء السبيل لنجاز هذه الموسوعة وإظهارها للناس متتابعة فى عهد قريب .

وهذا القسم - الذى نقدمه - يتمم سابقه ، ويتألف منهما الجزء الأول ، الذى خصصناه للموجزات التاريخية وتراجم بعض الرجال المتصلين بموضوعاتها .

ويرى القارىء فى هذا القسم - على غرار سابقه - عدة من نواحى الحياة فى العصر المذكور . الحديث عنها قد يوضح غامضا ، ويجلى مبهما ، أو يركز حائرا ويسكن قلقا ، أو يكشف الغطاء عن مخبوء ، أو يلم الشعث من متفرق . وفى خلال

هذا وذاك طرف من القول محمودة ، وملح من الحديث معجبة فريدة .

وقد بدأناه بفصل عن الخلافة العباسية الثانية ، وتراجم خلفائها . ثم أتبعناه بفصل آخر عن القضاء وأحواله ، مع تراجم رجاله ، من أول العصر إلى آخره . ثم بفصول أخرى عن المحمل والحج والفيضان والرسل والقصاد « السفراء » ، والهدايا . وتحدثنا فى فصل طويل عن حسنات العصر ومساوئه ، وركزنا فى هذا الفصل جملا من الحديث عن بعض نواحى الحياة فى سياسة العصر وإدارة الدولة واتجاهاتها . فتحدثنا فى إجمال ووضوح معا ، عن حروب المماليك مع التتار ومع الفرنجة ، وعن استقلال البلاد فى عهدهم ، وعن التعليم وسياسته ، وعن الجيش والسجون والثورات الداخلية ، وغير ذلك . ويرى القارىء فى ثنايا هذا الفصل ألوانا من الرأى جديدة نافعة.

وأتبعنا الفصل المذكور بحديث عن التقاليد والعادات المرعية فى الحياة الرسمية وغير الرسمية ، وأثبتنا نصوصا مأثورة ، وحكايات مروية تنطق بلسانها ، وتتكلم معبرة وشاهدة بنفسها ، عما كان فى العصر من مزاج واتجاه ، تاركين للقارىء أحيانا أن يستنبط من بعضها ما يشاء ، ويصل بنفسه منها إلى ما يريد .

وحرصنا فى كل ما نورده على ذكر مرجعه وسنده ـ كد أبنا ـ معونة لمن شاء التثبت والتزيد . وقد يرى القارىء أننا أكثرنا من أبواب الجزء الأول ، دون أن نستقصى جميع المسائل فى كل باب ، وقد نوهنا فى مقدمة الكتاب بالقسم الأول ، بأن الاستقصاء لم يكن غاية من غاياتنا ، فتركناه لظروف أخرى أو لباحثين آخرين ، وإنما أكثرنا فى الأبواب لنضع بذلك عدة لبنات متواضعة فى بناء بحوث جديدة ، نرجو أن تصلح كل لبنة منها لإقامة صرح من البحث مفيد .

والله نسأل أن يهب التوفيق والسداد ، ويهدى إلى سبيل الرشاد ، لنؤدى لأمتنا المصرية الكريمة بعض ما يجب علينا إزاءها ، فى ظل مليكها المحبوب فاروق الأول حفظه الله والسلام ؟

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة العباسية الثانية (١)

لما اكتسح التتار ملك العراق ، وأسقطوا مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وعاثوا فى أرجائها فسادا ، وضموا ملكها إلى ملكهم ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسى آخر خلفائها ، وولى عهده ، فزالت بزوالهما الخلافة العباسية الأولى ، ومثلوا بعلمائها وأحرقوا كتبها ، كان لذلك أثر بالغ ، وصدى بعيد المدى ، فى مدينة القاهرة والبلاد المصرية ، التى كانت قد أصبحت تحيا تحت سيطرة سلاطين مماليكها ، وهم مسلمون ، هالهم ما لقى الدين والعلم وأهلهما ، على يد التتار ببغداد . وخشوا أن يصيبهم مثل ما أصاب القوم فيها . فتهيئوا للقائهم خير تهيء ، وأعدوا العدة لقتالهم أحسن إعداد ثم وقعت بين الفريقين وقائع عدة ، كان النصر فيها سجالا . وانتصر سلاطين مصر فى بعضها انتصارا حاسما .

آلت تركة بغداد بذلك إلى القاهرة ، وحملت مصر من الأعباء ما كان يحمله العراق . وصارت عاصمتها ومدنها الكبرى موئلا لعلوم الدين واللغة ، وملجأ لذويها يفدون إليها من شتى الممالك والأمصار ، أو ينشئون فى أفيائها ، فيجدون فى كنف ملوكها وأهلها ، مراحا خصبا وظلا ظليلا . وأصبحت القاهرة من ذلك الحين مركزا للعلوم الإسلامية والعربية .

---

(١) مرجع هذا الباب : تاريخ الخلفاء ، وحسن المحاضرة ج ٢ ، كلاهما للجلال السيوطى وبدائع ابن اياس ، وسلوك المقريزى فى حوادث الاعوام ٦٥٣ هـ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ هـ ونهج ابن ابى الفضائل ومختصر أبى الفداء وصبح الاعشى ج ٢ ، وتاريخ ابن خلدون ٣ ص ٥٤٠ تحت عنوان « فصل عن الخلفاء العباسيين بمصر »

وكما آلت هذه العلوم والمعارف إلى مصر ، وآلت إليها أعباء حماية المسلمين وبلادهم من أعدائهم ، آلت إليها كذلك الخلافة الزائلة من بغداد ، فجددت نفسها ولبست بها ثوبا من الحياة قشيبا . ووجد سلاطين المماليك فى تجديدها هذا شرعية لمكانهم من الملك ، ومكملا لمظهرهم الإسلامى ، وسبيلا إلى جمع قلوب الخاصة والعامة من المسلمين فى سائر الأقطار حولهم . فيدعمون بذلك عرشهم ، ويثبتون سلطانهم . لذلك عاونوا معاونة كبرى على إنشائها واستمرارها .

فمنذ عصر الملك الظاهر بيبرس - فى سنة ٦٥٩ هـ - أنشىء منصب خلافة إسلامية فى مصر ، مركزه القاهرة . وأصبح أحد مناصب الدولة الرئيسية . وظل كذلك حتى آخر العصر الذى نحن بصدده - سنة ٩٢٣ هـ - أى نحو ثلاثة قرون .

وتوالى على هذا المنصب ، ستة عشر ، أو سبعة عشر خليفة من سلالة العباسيين أولهم الإمام المستنصر بالله أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسى الهاشمى . وآخرهم الإمام المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن الخليفة المستمسك بالله يعقوب. وبعض المؤرخين يسقط المستنصر بالله - أول الخلفاء - من عدادهم . ويعتبر أولهم هو الذى وليه ، وهو الحاكم بأمر الله .

وتسمى كل منهم بأمير المؤمنين . وتوالوا على هذا المنصب بطريق الوراثة . وأعنى توريث الولد عن أبيه أو قريبه من العصب . ولم تخرج الخلافة عن أسرة الحاكم بأمر الله ، ثانى هؤلاء الخلفاء . غير أن هذا كان منوطا إلى حد كبير بإرادة السلطان . فقد يعهد الخليفة إلى ابنه ، ثم لا يقر السلطان هذا العهد ، ويختار رجلا غيره من الأسرة نفسها ، ينصبه خليفة ، كما وقع فى عهد الناصر بن قلاوون - كما سيأتى -

وبلغت الفترة التى خلت فيها الدنيا من الخلافة الإسلامية نحو ثلاث سنوات

ونصف من زوال خلافة بغداد فى صفر عام ٦٥٦ هـ إلى إنشاء الخلافة الثانية بمصر فى رجب عام ٦٥٩ هـ .

وصاحب الفكرة فى إنشائها ، هو ـ بلا ريب ـ الظاهر بيبرس . فلما نفذت فكرته ، واستقرت دعائمها ، أصبحت حالة مرعيه وسنة متبعة .

وخلاصة ما رواه المقريزى فى سلوكه ـ فى حوادث عام ٦٥٩ هـ ـ بصدد إنشائها ما يلى ، قال :

وفيها (١) ـ أى سنة ٦٥٩ هـ ـ سار الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى . . . مع جماعة من العرب بنى مهنا ، يريد دمشق ، وكان قد فر من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله ، ونزل عند عرب العراق فى هذه المدة . ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بيبرس بمصر . فوردت مكاتبة الأمير علاء الدين إيدكن البندقدار ، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب دمشق : « بأنه ورد إلى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الأمام الظاهر ابن الامام الناصر . وهو عم المستعصم وأخو المستنصر . ومعه جماعة من عرب خفاجة فى قريب الخمسين فارسا (٢) . وأن الأمير سيف الدين قلج البغدادى عرف أمراء العرب المذكورين . وقال بهؤلاء يحصل المقصود »

« فكتب السلطان إلى النواب بالقيام فى خدمته ، وتعظيم حرمته . وأن يسير معه حجاب من دمشق ، فسار من دمشق بأوفر حرمة إلى جهة مصر . فخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع (٣) شهر رجب إلى لقائه (٤) ومعه الوزير الصاحب

---

(١) كان ذلك فى شهر رجب من عام ٦٥٩ هـ (٢) قيل عشر من بنى مهارش (٣) فى ابن اياس : يوم الاثنين ١٩ رجب وفى حسن المحاضرة ٢ منه (٤) قيل : خرج السلطان الى لقائه بالمطرية ، وعادا معا الى القاهرة.

بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وسائر الأمراء وجميع العسكر ، وجمهور أعيان القاهرة ومصر ، ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين . وخرجت اليهود بالتوراة ، والنصارى بالإنجيل . فسار السلطان به إلى باب النصر ودخل إلى القاهرة ، وقد لبس الشعار العباسى . وخرج الناس إلى رؤيته . وكان من أعظم أيام القاهرة وشق القصبة إلى باب زويله ، وصعد قلعة الجبل وهو راكب . فأنزل فى مكان جليل قد هيء له بها ، وبالغ السلطان فى إكرامه وإقامة ناموسه » .

« فلما كان يوم الاثنين ثالث عشرة ، - أى ١٣ رجب - حضر قاضى القضاة ونواب الحكم وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية ، والأمراء ومقدمو العساكر ، والتجار ووجوه الناس ، وحضر أيضا الشيخ عز الدين بن عبد السلام . فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد ، وجلس السلطان متأدبا معه بغير كرسى ولا طراحة ولا مسند ، وشهد العربان وخادم من البغاددة ، بأن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين ابن الإمام الناصر أمير المؤمنين . وشهد بالاستفاضة القاضى جمال الدين يحيى بن عبد المنعم بن حسن المعروف بالجمال يحيى ، نائب الحكم بمصر . والفقيه علم الدين محمد بن الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق . والقاضى صدر الدين موهوب الجزرى ، ونجيب الدين الحرانى ، وسديد الدين عثمان بن عبد الكريم بن أحمد بن خليفة . وأبو عمرو بن أبى محمد الصنهاجى التزمنتى : أنه أحمد بن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر - فقبل قاضى القضاة تاج الدين شهادات القوم ، وأسجل على نفسه بالثبوت ، وهو قائم على قدميه فى ذلك المحفل العظيم ، حتى تم الإسجال والحكم »

« فلما تم ذلك كان أول من بايعه القاضى تاج الدين ، ثم بعده قام السلطان وبايع أمير المؤمنين المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، على العمل بكتاب

الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها فى مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام ، ثم الأمراء وكبار الدولة (١) .

«فلما تمت البيعة قلد الإمام المستنصر بالله ، السلطان الملك الظاهر البلاد الاسلامية وما ينضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . ثم قام الناس فبايعوا الخليفة المستنصر بالله على اختلاف طبقاتهم . وكتب فى الوقت إلى الملوك والنواب بسائر المماليك ، أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة المستنصر بالله أبى القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، وأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما » انتهى

ومما يذكر أن الخليفة المستنصر بالله ، خطب خطبة منبرية فى جامع القلعة ، فى يوم الجمعة التالى ليوم بيعته - ١٧ رجب - وذكر فى خطبته شرف بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر ، وحض على الجهاد .

هذا وقد ذكر السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » أن السلطان رتب للخليفة أتابكا واستادارا وشرابيا ، وخازندارا ، وحاجبا وكاتبا وعين له خزانة ، وجملة مماليك ، ومائة فرس وثلاثين بغلا ، وعشرة قطارات جمال إلى أمثال ذلك .

تمت إذاً بيعة الخليفة ، وأصبح مصدرا للولايات الشرعية ، وكان لا بد للملك الظاهر من أن يبايعه الخليفة ويقلده عرشه ، حتى تصبح ولايته شرعية . وقد رأينا

---

(١) وهكذا قال السيوطى فى تاريخ الخلفاء ولكنه قال فى حسن المحاضرة : كان أول من بايعه شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ثم السلطان الظاهر بيبرس ثم القاضى تاج الدين بن بنت الاعز ثم الامراء . . الخ وروى السبكى فى طبقاته فى سياق ترجمة الشيخ عزالدين أن الملك الظاهر لم يبايع واحدا من الخليفة المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدم الشيخ عز الدين للمبايعة

فى حفلة مبايعة الخليفة ، كيف بايع بدوره الملك الظاهر وولاه الأمور فى بلاد المسلمين مبايعة سريعة عقب الانتهاء من مبايعته هو . - وفى يوم ٤ شعبان من السنة نفسها أقيمت حفلة مبايعة رائعة ، قلد فيها الخليفة الملك الظاهر عرش البلاد وألبسه بيده خلعة سوداء ، وعمامة سوداء ، وطوقا من الذهب فى عنقه وقيدا من الذهب فى رجليه ، وفوض اليه الأمور فى البلاد الإسلامية ، وما سيفتتحه من بلاد الكفر وسماه « قسيم أمير المؤمنين » .

ولا ندرى بالضبط ما هى الدوافع التى دفعت الملك الظاهر بيبرس إلى أن يعجل بتجهيز هذا الخليفة بمال ورجال ويشخصه لقتال التتار واسترداد بغداد وبلاد العراق منهم - وأشخصه وحده ولم يرحل معه ... ربما كان ذلك نتيجة لإلحاح هذا الخليفة على السلطان بتعجيل الغزو ، ليسترد بلاده وبلاد أجداده ، أو لكى يظهر السلطان للملأ صدق نيته وصفاء طويته لنصرة الاسلام والمسلمين ، أو ليكون هذا الخليفة وجيشه بمثابة الطليعة لجيوش السلطان ، فإن أصابوا غنما تبعوهم ، وإلا تريثوا. وقد يكون السلطان أحس بروح من الحماسة الاسلامية تسرى فى نفوس المسلمين جميعا بمناسبة تنصيب هذا الخليفة ، فخشى أن يلتفوا حوله ويجتمعوا اليه دونه، فتفلت من يديه أزمة الأمور ، وهو إنما نصبه ليكون صنما يعمل باسمه وليس له من الأمر شىء ، فدفعه دفعا إلى قتال التتار ، منتهزا رغبته فى هذا القتال ، وهو يعلم أنه إنما يدفع به إلى أتون محرق .

ومهما يكن من شىء ، فقد سار هذا الخليفة إلى قتال التتار وخرج فى ذى القعدة عام ٦٥٩ هـ ، مجهزا بكل ما يحتاج إليه ، وسار معه الظاهر بيبرس إلى دمشق (١)

---

(١) هذه رواية المقريزى والسيوطى ، وذكر ابن اياس أنه سار معه الى المطرية ثم عاد (ج ٢ ص ١٠٢)

ثم عاد إلى القاهرة. ولقى التتار بقيادة مقدمهم قرابغا ، جيش الخليفة ، على مقربة من «هيت» فدحروه ، وفر منه من فر ، ولم يعثر للخليفة على أثر ، قيل أنه قتل فى المعركة فى ٣ المحرم عام ٦٦٠ هـ ، وقيل إنه فر مجروحا فى طائفة من العرب ، فمات لديهم .

كان فقد هـذا الخليفة ، مجددا لمشكلة الخلافة مرة أخرى ، وقد انتهز الفرصة رجل آخر اسمه أحمد ، قال إنه من أمراء العباسيين ، وإنه كان فى عداد جنـــود المستنصر بالله ، وأنه استطاع أن يفر بنفسه من القتل ، وقدم إلى مصر فلقيه الظاهر بيبرس. وأعيد تمثيل الرواية السابقة ، فأقيمت حفلة لمبايعته بالخلافة بعـد ثبوت نسبه ثم بايع السلطان بالسلطنة وتلقب بالحاكم بأمر الله . ويعتبره بعض المؤرخين أول الخلفاء بمصر ويغضون النظر عن سابقه المستنصر . ومن سلالته جميع من ولى الخلافة بمصر من بعده .

كان وفود الحاكم بأمر الله إلى مصر فى ٢٧ ربيع الآخر عام ٦٦٠ هـ ، ولبث بها مكرما حتى ٨ المحرم عام ٦٦١ هـ ، وفى هذا اليوم تمت مبايعته ، ثم كتبت بيعتـه إلى الآفاق ليخطب له ، وتـكتب السكة باسمه .

ويلاحظ أن الظاهر بيبرس تريث هذه المرة فى مبايعة هذا الخليفة الثانى . ولم يعجل إليها كما عجل فى الأولى . فقد بقى الحاكم بأمر الله نحو ستة شهور مقيما بغير مبايعة بعد قدومه إلى مصر ، ولعل مرجع هـذا التريث رغبته فى التثبت من مقتل المستنصر ، أو رغبته فى اتخاذ الأهبة لـكبح جماح الخليفة ـ فيما بعد ـ إذا أحاط به ما يدفعه إلى الجموح ، والتطلع إلى الاستئثار بشىء من الأمر . ولذلك قال السيوطى فى حسن المحاضرة ، بعدما تمت مبايعة الحاكم بأمر الله ما نصه :

«ثم خاف الظاهر عاقبة أمره فأسكنه عنده فى القلعة وعنده حريمه وخدمه وغلمانه موسعا عليه فى النفقات والـكساوى ، يتردد إليه العلماء والقراء على أكمل ما يـكون

من أنواع الإكرام ، وملاحظة جانب الإجلال والمهابة ، ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة ، ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر » .

واستمرت الخلافة من ذلك الحين قائمة ، حتى زالت بزوال الدولة .

والخلافة العباسية المصرية قريبة الشبه بالخلافة العباسية البغدادية فى طورها الثانى - أى منذ عام ٣٣٤ هـ - تقريبا ، ومنذ احتل البويهيون بغداد وأصبحوا فيها أهل الأمر والنهى ، وأصبح خلفاؤها لا حول لهم ولا قوة . يقدم إليهم الطعام والشراب ، ولهم مرتب من المال يكفيهم حسب مقتضيات الأحوال .

كذلك فعل سلاطين مصر مع خلفائها ، وهم فى الواقع ذوو نعمتهم . وكان الخلفاء لا يملكون إزاء السلاطين حولا ولا طولا ، وتلك هى السياسة التى وضع قواعدها ، ودعمها ، الظاهر بيبرس كامر . فعاشوا كالأسرى قد هيئت لهم الدور ، ورتبت الأجور ، وقدمت الأطعمة والأشربة والكسى ، وما إلى ذلك من مطالب الحياة ليضمنوا عيشا رغدا هادئا صامتا ، وليسبغوا على من حولهم ألوان الرضا ، ويبذلوه كلما طلب إليهم بذله . وهل كانوا يملكون سواه .. ؟ وإذا ماخطر لأحدهم ما يغضب السلطان ، عرض نفسه للسجن أو النفى أو نحوهما .

كان من العجيب أن يفيض خليفـــة من هؤلاء ، أسباب الولاية على غيره ، ويسبغ السلطنة على من يرشح لها ، ولكن هذا هو الوضع الذى كان مرعيا ، والسنة التى كانت متبعة ، ومع أنه قيل : إن فاقد الشىء لا يعطيه ، كان الخليفة الذى لا يملك ملكا ولا يعتلى عرشا ، يمنح الملك ، ويُعلى العرش ! وهو الضعيف المغمور ، والدعى المنكور ، الذى لا يملك من أمر نفسه شيئا ، ولكنه كان يؤمر فيصدع بالأمر . فهو ذو سلطة شكلية اسمية فحسب ، أما صاحب السلطة الفعلية الحقيقية فهو السلطان .

وأعتقد أن هذا الوضع - وإن سلم من الناحية الشكلية - لا تبدو فيه روح

الاسلام ولا سياسته ، وما هو إلا ضرب من خداع السلاطين ، ونفاق الخاصة وتمويه أولى الأمر ليبهروا أنظار العامة .

وقد اتبع فى اعتلاء منصب الخلافة طريق الوراثة - كما ذكرنا - ولكن أمره كان منوطا برغبة السلطان . فهو الذى يبت فى الرجل الذى يبايَع بالخلافة. ولو عهد الخليفة إلى ولده مثلا .

وقد حدث فى عهد الناصر محمد بن قلاوون من - عام ٧٤١ هـ - ان الخليفة المستكفى بالله أبا الربيع سليمان - أمير المؤمنين إذ ذاك - عهد بالخلافة من بعده ، إلى ولده أحمد وسجل عهده ، وشهد عليه أربعون شاهدا . ولكن الناصر لم يُمض هذا العهد ، ولم يرضه ولم يجزه . فلما مات الخليفة المذكور دعا السلطان ابن أخيه المسمى ابراهيم ، وعهد اليه بالخلافة على الرغم من معارضة بعض الناس فى ذلك ، فلم يكترث السلطان ، وأنفذ عزمه وصار إبراهيم هذا هو الخليفة . ولقب بالواثق بالله .

ولما مات الناصر وخلفه ابنه المنصور أبو بكر ، عقد مجلسا للنظر فى أمر الخلافة ، كانت نتيجته عزل الواثق بالله إبراهيم وتولية أحمد بن المستكفى بالله ، وتلقيبه بالحاكم بأمر الله .

ومما وقع أيضا أن الخليفة المتوكل على الله أبا عبد الله محمدا ، خُلع بناء على رغبة الأمير أينبك البدرى مدبر الدولة فى عهد السلطان المنصور على بن الأشرف عام ٧٧٩ هـ . وولى مكانه ابن عمه زكريا بن ابراهيم من غير عهد ولا مبايعة ، ولقب بالمستعصم بالله . فلبث فى خلافته نحو خمسة عشر يوما ، ثم خلع . وأعيد المتوكل على الله .

وكذلك خُلع المتوكل على الله مرة ثانية ، فى عهد الظاهر برقوق - عام ٧٨٥ هـ - وسجن وأجبر الناس على خلافة عمر أخى زكريا بن ابراهيم ، ولقب بالواثق بالله .

وهكذا ترى أن منصب الخلافة كان أدنى شبهـا بأى منصب آخر من مناصب الأمراء وأمثالهم ، رهنا بإرداة السلطان .

وكان أهم عمل يتولاه الخليفة ، مبايعـة السلطان الجديد بالسلطنة ، وتفويض أمور المسلمين اليه . وكان بعض ملوك المسلمين فى الأقطار النائية يرسلون إلى مصر يستمنحون خليفتها أمرا بولايتهم لتكون شرعية . وقد روى ابن إياس من ذلك ، ج ٢ ص ١٣١ ، ما نصه :

«وفى جمادى الآخرة ـ أى عام ٨٧٦ هـ فى عهد قايتباى ـ قدم قاصد من عنـد صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين . وأحضر على يده هدية إلى السلطان ، وإلى الخليفة المستنجد بالله يوسف . وأرسل يطلب منه تقليدا بولايته على إقليم الهند ، عوضا عمن كان قبله من ملوك الهند . فأكرمه السلطان وخلع عليه ، وكتب له الخليفة تقليدا بما سأل» .

وحقا لم تكن سلطنة السلطان تتم إلا بمبايعة الخليفة له . ولكن الخليفـة كان لا يستطيع أن يمتنع عن هذه المبايعة ، متى تمت مشورة الأمراء ، ووقع اختيارهم على شخص الملك الجديد . وفى عام ٩٠٦ هـ أعلن طومان باى بنفسه سلطانا فى بلاد الشام ، وتلقب بالعـادل ، وتم ذلك بغير حاجة إلى موافقة خليفة أو بيعة . غير أنه لما زحف على مصر وامتلكها ، أجريت له مراسيم التوليـة كالمعتاد ، وتمت مبايعة الخليفة له .

كان للخليفة بجوار هذا أعمال إضافية تافهـة بالقياس إلى ما ينبغى لمنصبه من جلال . وذلك كنظر مشهد السيدة نفيسة أحيـانا ، وكالركوب مع السلطان أحيانا أخرى فى طليعته تجريدة . وذلك من باب الدعاية فحسب لا اشتراكا فى القتال ، كما كان يصاحبه يوم حفل ، أو يستقبله يوم أوبة من قتال أو حج ، أو رحلة أو نحو

ذلك . ويُستدعى أحيانا لشهود مجلس منعقد للنظر فى تقرير حرب أوفرض ضريبة. ويستدعى لمجرد الاشتراك فحسب لا لإبداء الرأى ، وقد يطلب إليه تحليف الأمراء على المصحف الشريف ، على ألا يخونوا السلطان ، وقد يستخدم استخداما أدبيا لإطفاء ثورة أو تهدئة فتنة . وهكذا .

ولا ندرى! هل كان له من الأمر شىء فى سماع القصص والمظالم . ! نقول ذلك لمناسبة ماقرأناه فى سيرة الخليفة المستكفى بالله ـ الأول ـ على عهد الناصر بن قلاوون، إذ قيل :إن السلطان المذكور غضب على الخليفة المستكفى لأنه رفعت إليه قصة وعليها خط الخليفة : « ليحضر محمد بن قلاوون إلى مجلس الشرع أو يوكل » . فشق عليه ذلك ، ونفاه إلى قوص»(١) .

وكان الخليفة بين هذا وذاك ، يقدم إلى السلطان التهانىء مع القضاة ، بمناسبة عيد أو موسم . وقد تأبّى الناصر محمد بن قايتباى ـ عام ٩٠٢ هـ ـ على الخليفة المتوكل على الله ، حينما قدم اليه يهنئه،فلم يقابله ، وبعث اليه من شكره وصرفه .

ولم أجد فى سيرة أحد الخلفاء ، من كان له سطوة أو نفوذ . بل لم يصل واحد منهم إلى مثل ما كان للشيخ أبى السعود الجارحى ـ مثـــلا ـ من نفوذ فإن الشيخ المذكور كان ذا مكانة عالية ، ورأى مسموع . وقد لجأ اليه الأمراء حينما اجتمعوا على ترشيح طومان باى للسلطنة عام ٩٢٢ هـ ، وأباها طومان باى ، فتدخل الشيخ بينهم فرضيها . وهذا الشيخ من الصوفية .

وقد عبث الزمان مرة فى عام ٨١٥ هـ ، بعـد مقتل فرج بن برقوق ، إذ انحصر أمر السلطنة بين أميرين كبيرين هما شيخ المحمودى ، ونوروز الحافظى ، فرأيا حسما

---

(١) ابن اياس ج ١ ص ١٧٠ حوادث عام ٧٣٨ هـ

للنزاع بينهما أن يوليا السلطنة خليفة عصره المستعين بالله أبا الفضل ، على أن يكون الأمير شيخ أتابكيا له ، والأمير نوروز نائبا عنه فى الشام ؛ فأصبح المستعين بالله العباسى خليفة وسلطانا معا ، فجمع بذلك بين السلطتين الدينية والزمنية . هبطت عليه إذاً سعادة مفاجئة ، لم تهبط على غيره من الخلفاء . ولكنه كان يعرف أن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن هذا الوضع شاذ لا ينسجم مع سياق عصره ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون ريبة من ريب الزمان ، وأنها سحابة ستتكشف عن حوادث قد تطيح به وبخلافته وسلطنته ، وأن هؤلاء الأمراء من الأتراك أو الجراكسة لن يتركوا هذا العرش لدخيل مثله ، فامتنع عن قبول السلطنة امتناعا شديدا ، خوفا من عواقبها . فقال له الأمير نوروز « لا تخف أنا ظهرك لا يصيبك إلا ما يصيب رقبتى » ، فرضى بعد لأى مشترطا لذلك شروطا عدة ، هى فى دخيلتها مثار السخرية الشديدة ، والاشفاق الشديد . منها أن يُحتفظ له بمنصب الخلافة ، حتى إذا ما خلع من السلطنة ، استمر فى خلافته على حاله الأول . . ! فأجابوه إلى ذلك . غير أنه لم يلبث فى السلطنة إلا نحو ستة أشهر لم يكن له خلالها من الأمر شىء - مع أنه السلطان - ثم وثب عليه أتابكيه الأمير شيخ وخلعه من السلطنة ، واستقر فيها مكانه بدعوى أن المملكة فى حاجة إلى سلطان تركى ، له سطوة يقمع بها أهل الفساد ، وتصلح الأحوال على يده (١) . وقد بايعه الخليفة المستعين بالله بالسلطنة . . وقنع هو بخلافته . ومع ذلك فسرعان ما خُلع من خلافته وولى مكانه أخوه المعتضد بالله .

وقد وقعت حادثة مماثلة تقريبا قبل الحادثة التى رويناها ، غير أنها لم تصل إلى حدودها ، وتلك سنة ٧٥٨ هـ بعد مقتل الأشرف شعبان حفيد قلاوون . إذ طلب

---

(١) راجع ابن اياس ج ١ ص ٣٥٨ تحت عنوان ذكر سلطنة الخليفة المستعين بالله

عدد من الأمراء إلى خليفة ذلك الزمان ، وهو المتوكل على الله محمد ، أن يتبوأ العرش مكان المقتول ، فامتنع وصمم على الامتناع ، قانعا بمنصبه المتواضع .

ومن طريف ما يذكر أن الخليفة المتوكل على الله أبا العز بن يعقوب ، أسند في عام ٩٠٢ هـ ، إلى صديقه « جلال الدين السيوطى » وظيفة قاض كبير على جميع القضاة يولى منهم من يشاء ويعزل من يشاء ، فلما علم هذا الخبر احتج عليه القضاة واستخفوا عقله ، وأنكروا هذه الوظيفة ، وأنكروا هم وذوو السلطان أن يكون للخليفة حق تولية شخص ما . وأعلموه أنه لا يملك هذا التعيين . . ! فسرعان ما اعتذر واسترد الوظيفة من السيوطى ، واحتج بأن السيوطى هو الذى زين له ما فعل وأوهمه أن له حق التعيين (١) . وقال عن نفسه « إيش كنت أنا » ! وقيل إن هذه الوظيفة لم يلها إلا القاضى تاج الدين بن بنت الأعز فى عهد الأيوبيين .

ولعل هذا الخطأ من الخليفة دليل على الجهل ، وقد كان كثير من هؤلاء الخلفاء جهلاء ، أو على الأقل ذوى بضاعة من العلم هزيلة ، بل لقد رشح رجل من هؤلاء العباسيين نفسه للخلافة - واسمه خليل - وكان ابن عم الخليفة القائم حينذاك وهو المستمسك بالله يعقوب ، وذلك عام ٩١٤ هـ فى عهد الغورى (٢) وجهد فى سبيل بلوغها ، حتى بذل كثيرا من المال ، فعيره منافسه - وهو ابن المستمسك بالله - بأنه لا يحسن قراءة الفاتحة وأنه لا تصح خلفه الصلاة . ! وكان خليل هذا ألثغ لا يحسن النطق بالراء . فاختبره الغورى فتعثر فى قراءة الفاتحة . ! فأبعد عن الخلافة بعد رسوبه فى الاختبار . ولو قد اجتازه لأصبح للخلافة أهلا ....!

ومما يذكر بصدد هؤلاء الخلفاء أن أكثرهم من أم فارسية أو تركية أو حبشية

---

(١) ابن اياس ج ٢ ص ٣٠٧ فى سياق حوادث عام ٩٠٢ هـ

(٢) راجع ابن اياس ج ٤ حوادث السبت ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ

وقليل منهم الهاشمى الأبوين مثل المستمسك بالله يعقوب أبى الصبر بن عبد العزيز .

ومما يذكر أيضا أنه إذا اختير خليفة، كتبت له تولية، يدبجها كاتب سر السلطان وتتلى فى حفل المبايعة ، وتكون عبارة عن خطبة أدبية رائعة بأسلوب أهل العصر (١) .

ومهما يكن من شىء ، فقد لبثت الخلافة فى مصر قائمة، إلى أن احتلها العثمانيون عام ٩٢٢ هـ ، ٩٢٣ هـ ، فحمل السلطان سليم - فيما حمل - أثناء خروجه من مصر إلى بلاده ، آخر خلفاء العباسيين بمصر ، وهو المتوكل على الله الثالث - وهناك فى القسطنطينية استلب الخلافة منه ، وأصبح هو أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، إن طوعا أو كرها . وبذلك انتقلت الخلافة الاسلامية من الجنس العربى والسلالة الهاشمية إلى الجنس التركى وسلاله آل عثمان ، فلبثت فيهم زهاء أربعة قرون ومركزها القسطنطينية عوضا عن القاهرة . حتى قضى عليها الكماليون القضاء المبرم فى سنة ١٩٢٣ م ، ومنذ تلك السنة والعالم الإسلامى يعيش بغير خلافة .

ونلاحظ أن مصر شهدت خلافة أخرى، غير الخلافة العباسية الثانية ، وأعنى بها الخلافة الفاطمية ، وهى بالرغم مما بها من مآخذ ، أنبه شأنا وأسمى حياة وأشرف موضعا . وإن لم يعترف بها بعض المؤرخين.

ونورد فيما يلى تراجم يسيرة لخلفاء هذه الفترة .

---

(١) انظر الجزء الرابع من كتابنا هذا

الخلفاء العباسيون فى مصر

١ – المستنصر بالله ٦٦٠ هـ

هو أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الخليفة الناصر لدين الله ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى الهاشمى (١) . كان أسمر اللون وأمه حبشية ، وهو أول من بويع بالخلافة فى مصر ، كان معتقلا ببغداد منذ سقوطها على يد التتار ، ثم أطلق أو فرّ ، فقدم إلى مصر مع جماعة من الأعراب ، منهم الأمير ناصر الدين مهنا ، لعله يجد فيها كنفا رحبا بجوار ملكها الظاهر بيبرس فبلغ القاهرة فى ٢ (٢) رجب عام ٦٥٩ هـ ، فخرج الظاهر للقائه واحتفل بقدومه احتفالا شائقا ، ولقيه الناس بالقاهرة على اختلاف نحلهم وأديانهم ومراتبهم لقاء باهرا .

ثم عقد الظاهر مجلسا لمبايعته بالخلافة فى ١٣ رجب – تصدره الشيخ عز الدين ابن عبدالسلام وتقدمه قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، وشهده السلطان والأمراء وكبار رجال الدولة وتقدم الشهود فأثبتوا نسبه . فبايعه الشيخ عز الدين ثم القاضى تاج الدين ، ثم بايعه السلطان فالأمراء فالحضور (٣) . وكتبت الرسائل باسم السلطان إلى الآفاق لأخذ البيعة له من أهلها ، ولقب بالمستنصر بالله ، ودعى له على المنابر ، وضربت السكة باسمه مشاركا السلطان .

---

(١) راجع ما كتب عنه فى الفصل السابق وقال فى السلوك إنه أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى

(٢) قال ابن اياس ان قدومه كان فى الاثنين ١٩ رجب عام ٦٥٩ هـ

(٣) وقيل بايعه أولا القاضى تاج الدين فالسلطان فالشيخ عز الدين فالامراء ألخ

وقد قام الخليفة بدوره ، بمبايعة السلطان بيبرس - فى ٤ شعبان - وقلده السلطنة وفوض إليه أمور البلاد الاسلامية وما يفتتحه ، ولقبه «بقسيم أمير المؤمنين» وألبسه جبة وعمامة سوداوين ، وطوقا وقيدا من الذهب وقلده سيفا .

ورتب السلطان للخليفة أتابكا واستادارا وشرابيا وخازندارا وحاجبا وكاتبا ، وعين له خزانة وجملة مماليك، ومائة فرس وثلاثين بغلا وعشرة قطارات جمال ، إلى أمثال ذلك .

سكن الخليفة المستنصر بالله بقلعة الجبل . وفى يوم جمعة خطب بالناس وصلى بحضور السلطان، ثم جهزه السلطان بعد زمن قليل بجندوسلاح ومال ، وسار إلى قتال التتار . ورحل معه السلطان إلى دمشق ، فدخلاها يوم الاثنين ٧ ذى القعدة عام ٦٥٩ هـ - وقيل إلى المطرية - ثم عاد السلطان. فزحف الخليفة بمن معه، فلقيهم التتار بقيادة مقدمهم «قرابغا» فى ناحية الأنبار ، فهزموهم هزيمة منكرة . وفر منهم من فر، وقتل من قتل، ولم يعلم للخليفة خبر . قيل إنه قتل بالمعركة فى جهة «هيت» فى ٣ المحرم عام ٦٦٠ هـ . وقيل إنه فر مجروحا فى طائفة من العربان ، ثم توفى لديهم . وهكذا ذهبت خلافته بعد أقل من ستة أشهر - وبعض المؤرخين لا يعتبرونه أول الخلفاء ويسقطونه من عدادهم .

(ابن إياس ج ١ ص ١٠٠ الى ١٠٢ - وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٩ ، الى ٥٢ - وصبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٤ - سلوك المقريزى ج ١ حوادث عام ٦٥٩ هـ ٦٦٠ هـ - وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣١٦) .

٢ — الحاكم بأمر الله ، الأول ، ٧٠١ هـ

هو الإمام أحمد الحاكم بأمر الله أبو العباس ابن الأمير أبى على الحسن القُبّى ابن

الأمير على ابن الأمير أبى بكر ابن أمير المؤمنين المسترشد بالله العباسى . يقال إنه أقيم خليفة من قبل فى مدينة حلب، ولقب بالحاكم أيضا. ثم يقال انه كان ممن انضم إلى جند الخليفة المستنصر بالله أثناء قتاله مع التتار، منطويا تحت لوائه هو وأهل حلب . فلما انهزم الخليفة وفقد فر الأمير أحمد المذكور وسار الى الرحبة ونزل إلى عيسى بن مهنا أحد الأمراء بها . فكاتب هذا فيه الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر ، فبعث إليه يستقدمه فقدم إلى القاهرة ومعه ابنه سليمان (١) وعدد من تابعيه . فبلغها فى ٢٧ ربيع الآخر عام ٦٦٠ هـ . فلقيه السلطان لقاء حسنا ، وأنزله بقلعة الجبل وظل بلا مبايعة إلى آخر العام المذكور . وفى يوم الخميس ٨ المحرم عام ٦٦١ هـ عقد له السلطان مجلسا كالذى عقده من قبل للخليفة المستنصر بالله . وأثبت نسبه بين يدى القضاة والأمراء ، وبايعوه جميعا بالخلافة وبايعه الناس من بعدهم . ثم لقبوه بالحاكم بأمر الله ، ثم بايع هو بدوره السلطان وفوض اليه أمور المسلمين . وخطب بين يدى السلطان فى الجمعة التالية ، خطبة منبرية طلية حض فيها على الجهاد وصلى به .

أقام الحاكم بأمر الله فى مصر وسكن مناظر الكبش التى أنشأها الأمير أحمد بن طولون وهى مطلة على النيل ، ثم تحول عنها بعد زمن الى قلعة الجبل فى زمن الأشرف خليل وفى زمن لاجين عاد الى مناظر الكبش ثانيا، ورتب له ما يكفيه هو وأهله وأمر بالصعود إلى القلعة فى مستهل كل شهر ليهنىء السلطان به .

وقد ضربت السكة باسمه واسم السلطان بيبرس ودعى لهما على المنابر . وبعد زمن خاف الظاهر عاقبة هذا الأمر ، فنقل الخليفة عنده فى القلعة هو وأهله وحاشيته

---

(١) فى صبح الاعشى أن الحاكم بامر الله وفد على مصر وهو ابن خمسة عشر سنة وهذا غريب فقد كان يحارب مع المستنصر قبل قدومه إلى مصر وقدم ومعه ابنه . وذكر أيضا أنه قدم عام ٦٥٩ هـ وأن مبايعته كانت سنة ٦٦٦ هـ

كالمسجون ، ثم أسقط اسمه من النقود وأبقاه فى خطبة الجمعة .

وقد عاش هذا الخليفة فى منصبه زمنا طويلا يقرب من أربعين عاما. وشهد عددا من ملوك مصر فى ذلك الحين ، منهم ابنا بيبرس والمنصور قلاوون وابناه خليل ومحمد والمنصور لاجين . ويعتبره بعض المؤرخين أول خلفاء العباسيين فى مصر . لأنه هو وابنه سليمان ينتمى اليهم جميع خلفاء العباسيين بها .

وقد شهد هـــذا الخليفة أحداثا عدة ، لطول المدة التى أقامها . وكان يتردد على الخطابة المنبرية يوم الجمعة بين يدى السلطان من آن لآخر ، وقد كان سفيرا بين الأمراء الثائرين والسلطان الملك السعيد بن بيبرس ، وكانت نتيجة سفارته خلع السلطان وتولية أخيه .

وكان - عامة - غير مطلق التصرف مضيقا على حريته خصوصا فى عهد بيبرس .

وفى عهد الأشرف خليل نال بعض الحرية ، ورتبه هذا السلطان خطيبا بجامع القلعة . ومن العجيب أنه خطب أول خطبة له بعد ترتيبه هذا يوم الجمعة ١٤ شوال عام ٦٩٠ هـ وتلا نفس الخطبة التى تلاها من قبل فى زمن بيبرس أى منذ نحو ثلاثين سنة ووضع مكان اسم بيبرس اسم الأشرف خليل - وهذه الخطبة كانت من إنشاء شرف الدين أحد كتاب عصر بيبرس - . وفى عهد السلطان لاجين أبيح له التصرف والاختلاط بالناس والركوب مع السلطان ، وعاونه هـذا السلطان على الحج عام ٦٩٧ هـ فأعطاه بهذه المناسبة سبعمائة ألف درهم .

وقد توفى فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، بعد أن عهد بالخلافة لابنه سليمان . وكانت وفاته فى جمادى الأولى عام ٧٠١ هـ فى ليلة الجمعة ١٨ من الشهر ، ودفن بمشهد السيدة نفيسة فى قبة خاصة .

ابن إياس ج ١ ص ١٠٢ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٤ - حسن المحاضرة ج ٢

ص ٥٢ . ٥٣ . ٥٤ - سلوك المقريزى ج ١ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٣١٧ - والدرر ج ١ رقم ٢٢٢».

٣ — المستكفى بالله « الأول » ٧٤١ هـ

وهو أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أحمد الخليفة السابق . ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه . وقد أقر هذا العهد السلطان الناصر بن قلاوون سلطان هذا الحين ، بعد أن سأل قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد عن صلاحه للخلافة لصغر سنه إذ كان دون العشرين إذ ذاك ، فأجابه بصلاحه لها . وكان ذلك بعد وفاة أبيه . فلما أقر له السلطان بالخلافة بويع ودعى له على المنابر بعد موت أبيه بثلاثة أيام فى جمادى الأولى عام ٧٠١ هـ . وكان ابن أخيه ابراهيم وهو أسن منه ينازعه الخلافة ولكنها تمت لسليمان . فلما بويع أشهد على نفسه أنه ولى الملك الناصر جميع ما ولاه والده وفوضه اليه . ومن ثم نقش اسمه على السكة مع اسم السلطان وحسنت صلتهما ، وسكن زمنا فى مناظر الكبش ثم رسم السلطان له بعد قليل أن ينتقل بأهله جميعا إلى القلعة ، وأجرى عليهم الرواتب الكافية . والى هذا الخليفة تنسب خلفاء بنى العباس بمصر .

وخرج مع السلطان فى عام ٧٠٢ هـ إلى بلاد الشام لقتال التتار ، ثم عادا إلى القاهرة فى شوال من ذلك العام منتصرين . وظلت صلته بالسلطان على خير ما تكون حتى سعى السعاة بينهما ووشى الوشاة فغضب عليه السلطان الناصر محمد ، وقيل إن سبب غضبه أن الخليفة كتب على إحدى القصص الخاصة بالسلطان : « ليحضر محمد ابن قلاوون إلى مجلس الشرع أو يوكل » . فشق عليه ذلك وأضمرها له فى نفسه . وكان ذلك عام ٧٣٦ هـ ، فرسم له أن ينتقل من القلعة إلى مناظر الكبش ثانيا .

ثم نفاه إلى قوص هو وأهله فى ذى الحجة عام ٧٣٧ هـ - وقيل أوائل عام ٧٣٨ هـ - فسافر الخليفة إليها ولبث بها منفيا حتى توفى . وقد ألم الناس لهذا أشـــد الألم - وكانت وفاته فى شعبان سنة ٧٤١ هـ - وقيل سنة ٧٤٠ هـ . وكان مولده فى منتصف المحرم عام ٦٨٤ هـ . وقيل ولد عام ٦٨٣ هـ .

وقد عهد بالخلافة من بعده لابنه أحمد ، وأشهد على هذا العهد أربعين عدلا . فلم يقره الناصر وولى مكانه ابن أخى المستكفى المدعو ابراهيم .

وكان المستكفى مشتغلا بالعلم محبا للألعاب الرياضية مجالسا للعلماء والأدباء مشاركا لهم فى كلامهم .

« ابن اياس ج ١ ص ١٤٤ . ١٤٥ . ١٥٣ . ١٥٤ . ١٦٩ . ١٧٠ - سلوك المقريزى ج١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٤ إلى ٥٨ - صبح الأعشى ج٣ ص ٢٦٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٢١ ج ٢ رقم ١٨٢٨ الدرر الكامنة لابن حجر ج ٢ رقم ١٨٢٨ » .

٤ — الواثق بالله « الأول » ٧٤٨ هـ

اسمه ابراهيم بن محمد بن الخليفة الحاكم بأمر الله وهو ابن أخى المستكفى الخليفة السابق .

كان الخليفة الحاكم بأمر الله قد عهد أولا إلى ابنه محمد ولقبه المستمسك بالله فمات فى حياة والده ، فعهد الحاكم الى ابراهيم ابن ابنه محمد ، ثم شهد فيه أمور امر دولة دعته إلى العدول عن العهد اليه ، ثم عهد الى ابنه الثانى وهو المستكفى بالله سليمان . فاغتاظ ابراهيم وحاول منازعة عمه المستكفى بالله وقت ولايته ، وزاحمه فلم يلتفت اليه السلطان الناصر وولى المستكفى .

ثم غضب الناصر على المستكفى فنفاه هو وأولاده وأهله الى قوص - كما مر فى

ترجمته ـ وامتد غضبه عليه إلى أنه لم يقر عهده إلى ابنه أحمد . واستدعى ابن أخيه ابراهيم المذكور وبايعه ، ودفع الناس إلى مبايعته ، على الرغم من نصح كثيرين له بعدم بيعته ، وكان من ناصحيه قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة. فلم يأبه الناصر لكل أولئك . فتمت بيعة ابراهيم وسمى الواثق بالله ، بعد أن لبث منصب الخلافة شاغرا زمنا . وتمت هذه البيعة فى رمضان عام ٧٤١ هـ وهو العام الذى مات فيه الناصر محمد بن قلاوون .

وقيل إن الناصر ندم بعد ذلك على تولية هذا الخليفة . ولذلك أوصى قبيل وفاته بخلعه وتولية ابن المستكفى وهو احمد . فلما ولى الملك ابنه أبو بكر المنصور نفذ وصية والده وعقد مجلسا لذلك فى ذى الحجة عام ٧٤١ هـ وطلب الخليفة الواثق بالله ابراهيم وأحمد ابن الخليفة المستكفى وبين يديه القضاة وحقق المسألة ووازن بينهما ، وراجع عهد المستكفى بالله الى ابنه احمد ، ثم خلع ابراهيم وولى مكانه أحمد ، ولقبوه بالحاكم بأمر الله كلقب جده . ومات فى ٤ شعبان سنة ٧٤٨ هـ

وكانت مدة خلافة الواثق بالله عدة شهور . ومات فى ٤ شعبان سنة ٧٤٨ هـ .

ابن اياس ج ١ ص ١٧٠ ـ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ ـ صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ ـ سلوك المقريزى ج ١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٢٤ ـ الدرر لابن حجر ج ١ رقم ١٤٧ ،

٥ ـ الحاكم بأمر الله « الثانى » ٧٥٤ هـ

لقب بلقب جده وهو أبو العباس احمد بن المستكفى بالله بن الحاكم بأمر الله ، لما مات أبوه عام ٧٤١ كان قد عهد اليه بالخلافة وهو منفى بقوص وأشهد على عهده أربعين رجلا عدلا ، وسجل العهد لدى قاضى قوص ، ولكنه لما مات لم يأبه الناصر

محمد بعهده إلى ابنه أحمد ، وولى مكانه ابراهيم الواثق بالله - كما مر بيانه - فلما ندم الناصر على توليته ابراهيم ، ثم أوصى بإعادة الأمر الى احمد ثم مات ، عقد الملك المنصور أبو بكر مجلسا من القضاة ، ونفذ وصية أبيه وأقر عهد المستكفى بالله إلى ابنه احمد وبايعه بالخلافة بعد أن خلع الواثق بالله وبايعه الناس قاطبة ، وكان ذلك فى ذى الحجة عام ٧٤١ هـ ولقبوه بالحاكم بأمر الله .

ويقول القلقشندى فى صبح الأعشى ج ٣ ، وكذلك ابن خلدون فى العبر ج ٣ ص ٥٤٠ ، إن هذا الخليفة ولى الخلافة زمنا يسيرا قبيل الواثق ودعى له على المنابر فى أواخر شوال عام ٧٤٠ هـ ، يقصد السنة التى مات فيها المستكفى بالله إذ يعتبرها سنة ٧٤٠ هـ ، ثم لم يرض الناصر بذلك واختار بدلا منه ابراهيم الواثق بالله .

ويقول السيوطى فى حسن المحاضرة عن الحافظ ابن حجر - وهكذا قال ابن حجر فى الدرر ونقله أيضا السيوطى فى تاريخ الخلفاء : ان هذا الخليفة لقب أولا بالمستنصر بالله ثم غير لقبه ، ولقبه القلقشندى بالمستعصم بالله .

وقد توفى هذا الخليفة فى عهد الملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد عام ٧٥٤ هـ بعد أن شهد عدة من الملوك . وقيل فى حسن المحاضرة أنه مات بالطاعون فى منتصف عام ٧٥٣ هـ وفى صبح الأعشى أنه مات سنة ٧٤٨ هـ ولم يعهد بالخلافة لأحد من بعده . وكانت مدة خلافته نحو ثلاث عشرة سنة . وقد ولى بعده أخوه.

« ابن اياس ج ١ ص ٢٠٠ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ - وتاريخ الخلفاء ص ٣٢٥ - والدرر الكامنة لابن حجر ج ١ رقم ٣٨٤ »

٦ - المعتضد بالله « الأول » ٧٦٣ هـ

وهو أبو الفتح أبو بكر بن الخليفة المستكفى بالله وأخو الخليفة السابق الحاكم

بأمر الله ، مات أخوه ولم يعهد لأحد بالخلافة فوقع الاختيار على أبي بكر هذا، ولقب بالمعتضد بالله وذلك فى ١٧ شعبان عام ٧٤٨ هـ . على رأى القلقشندى ، وعام ٧٥٤ هـ كما يقول ابن اياس ، وعام ٧٥٣ هـ كما يقول السيوطى .

وقد أسند اليه نظر مشهد السيدة نفيسة ، ثم توفى ليلة الأربعاء ١٨ جمادى الأولى عام ٧٦٣ هـ وكانت مدة خلافته نحو عشر سنوات ، وعهد بالخلافه بعده لابنه فتقلدها ولقب بالمتوكل على الله .

« ابن اياس ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢١١ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٥ - تاريخ الخلفاء ص ٣٢٣ » .

٧ — المتوكل على الله « الأول » ٨٠٨ هـ

وهو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الخليفة المعتضد بالله ، بويع بالخلافة بعد أبيه بعهد منه فى جمادى الأولى عام ٧٦٣ هـ فى عهد الملك المنصور محمد بن المظفر بن الناصر بن قلاوون .

ظل فى دست الخلافة إلى سنة ٧٧٨ هـ ، وفى هذه السنة خرج مع السلطان الأشرف شعبان قاصدين حج بيت الله الحرام . وهناك فى العقبة وقع تخاذل وعدوان بين الأمراء أدى فى النهاية إلى قتل الأشرف شعبان . هناك عرض عليه بعض الأمراء منصب السلطنة فخاف من عواقبها ، وصمم على عدم قبولها ، فوقع الاختيار على المنصور على بن الأشرف شعبان ، فصار سلطانا وهو فى سن السابعة تقريبا . ثم استبد بملكه الأتابكى أينبك البدرى وصار مدبر دولته ، فجرت بينه وبين الخليفة المتوكل حوادث أدت إلى كراهية شديدة وحقد عظيم . فما كان من البدرى إلا أن خلع الخليفة المتوكل عنوة عام ٧٧٩ هـ . وأقام مكانه خليفة جديدا هو زكريا ابن

الخليفة ابراهيم الواثق بالله . ولقبه بالمعتصم بالله وقيل المستعصم بالله .

خلع المتوكل إذن من منصبه ـ غير أن الأمراء لم يرتضوا هذا التغيير الجائر ، ولم يبايعوا ولم يبايع الناس هذا الخليفة الجديد ، حتى وجد الأتابكى أينبك البدرى أنه لا بد من عودة المتوكل إلى منصبه ، فأعاده بعد خلع دام نحو خمسة عشر يوما أو عشرين وهكذا خلع أيضا المعتصم بالله .

سافر الخليفة المتوكل فى نفس العام وهو عام ٧٧٩ هـ ، مع السلطان المنصور على فى تجريدته إلى بلاد الشام . غير أنهما اضطرا إلى العودة الى القاهرة بعد بلوغهما بلبيس لفتنة قاصمة شبت بين الأمراء حينئذ .

وعاش هذا الخليفة حتى شهد أول دولة الجراكسة وعهد منشئها وهو السلطان برقوق بن آنص العثمانى . وما بدأت سنة ٧٨٥ هـ حتى نمى الى السلطان برقوق أن الخليفة يريد أن يستبد بالملك دونه وأنه يراسل الأمراء والعربان بذلك وأنه يدبر مؤامرة لاغتياله فحقد عليه وجمع القضاة ليفتوه فى شأنه فتوى تتفق وهواه . فلم يظفر منهم بشىء . فاستخار الله وأعلن خلعه عنوة فى رجب عام ٧٨٥ هـ وقبض عليه وسجنه بالقلعة فى البرج . وهكذا خلع للمرة الثانية .

استقدم السلطان برقوق بعد ذلك عمر بن الخليفة ابراهيم الواثق بالله وأخا زكريا الخليفة المعتصم بالله ، وولاه الخلافة ولقبه بالواثق بالله كلقب أبيه ابراهيم . وفى ذى القعدة من نفس العام أطلق سراح المتوكل وأنزله الى داره مكرما .

ومهما يكن من شىء فإن المتوكل قاسى ضروبا من الضغط والأذى بعد ذلك كانت تمليها الظروف على السلطان . حتى أنه فى سنة ٧٩١ هـ أمر نائب القلعة بأن يضيق الخناق على الخليفة المتوكل ويمنعه من الاجتماع بالناس ، ويبقيه بالبرج مقيدا وذلك بمناسبة اضطراب الأمور فى السنة المذكورة .

وفى تلك الأثناء كان الخليفة الجديد الواثق بالله عمر قد توفى عام ٧٨٨ هـ، فأسندت الخلافة إلى أخيه الخليفة الأسبق، وأعنى به المعتصم بالله زكريا بن ابراهيم. فظل حتى عام ٧٩١ هـ. وهنا اتجهت نفس برقوق من جديد الى الخليفة المتوكل، فاستقدمه من سجنه بعد قبوعه فيه نحو ست سنوات، فنزع منه قيده وقدم اليه المعذرة وندم اليه على مافرط منه فى حقه. وأعاده الى الخلافة بعد أن خلع منها المعتصم بالله زكريا الذى عاش بعد ذلك حتى توفى عام ٨٠١ هـ مخلوعا.

عادت الخلافة اذن إلى المتوكل على الله. وهذه ثالث مرة يتبوأ فيها منصبه. وبعد قليل زال برقوق من السلطنة، وأسندت إلى الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان للمرة الثانية وذلك عام ٧٩١ هـ، فتنفس المتوكل الصعداء، وانضم إلى عصابة السلطان الجديد، وهموا باستصدار فتوى بكفر برقوق لخلعه الخليفة المتوكل واضطهاده، ولقتله البرىء فى الشهر الحرام. وكان برقوق قد أخذ نجمه فى الظهور مرة أخرى بناحية الشام، حتى خرج السلطان الصالح للقائه وقتاله فى بلاد الشام، وخرج معه الخليفة المتوكل عام ٧٩١ هـ، إلا أنهما شعرا بالهزيمة ففرا فى أوائل عام ٧٩٢ هـ، بعد انكسارهما أمامه فى موقعة «شقحب». غير ان الملك الصالح فضل الانسحاب من السلطنة، فخلع نفسه وعادت السلطنة إلى برقوق، فتولاها مرة أخرى وشهد المتوكل على هذا الخلع وهذه التولية... ودخل المتوكل فى ركاب برقوق وهو عائد من الشام إلى مصر...

ولما كانت ثورة منطاش ضد برقوق فى بلاد الشام وحلب عام ٧٩٣ هـ، خرج اليه برقوق فى حملة كثيفة، وكان فى ركابه هنا أيضا خليفتنا المتوكل على الله. وخرج معه كذلك لقتال التتار فى عام ٧٩٦ هـ - وهكذا

ثم زالت دولة برقوق بموته، وتولى ابنه الناصر فرج عام ٨٠١ هـ فبايعه المتوكل

على الله ، وأقره هو أيضا على خلافته . وكان أحد أعضاء المجلس المنعقد فى نفس السنة من القضاة والعلماء والأمراء للتشاور فى أمر العثمانيين واعتدائهم على بلاد السلطان . وقرر هذا المجلس محاربتهم . ولكن هذه المحاربة لم تتم ، لنكوص العثمانيين عن أعمالهم العدائية . ثم أن المتوكل خرج الى الشام ضمن حملة ، لتأديب الأمير تنم نائب الشام ، الخارج على السلطان عام ٨٠٢هـ ثم خرج معه أيضا فى حملته على تيمورلنك ملك التتار عام ٨٠٣ هـ ، ثم عاد معه على حين غفلة فى يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة من العام المذكور .

شهد هذا الخليفة أحداثا كثيرة هامة وتقلبات عدة . ثم توفى فى أول السلطنة الثانية لفرج بن برقوق عام ٨٠٨ هـ ليلة الثلاثاء ٢٨ رجب بعد أن قضى فى خلافته نحوا من خمسة وأربعين سنة . ودفن بمشهد السيدة نفيسة . وتولى الخلافة خمسة من أولاده وهم داود وسليمان وحمزة ويوسف والعباس. وينسب اليه البر وحب الخير وفعل الجميل وبذل الصدقة . كما أنه أول من أثرى من خلفاء بنى العباس فى مصر . ورزق أولادا عدة . وقيل أن بايزيد ملك العثمانين التمس منه تقليدا بملك الروم فقلده .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١١، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٥، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٥٠، ٣٥١ - وحسن المحاضرة جزء ٢ ص ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨ - صبح الأعشى جزء ٣ ص ٢٦٦، ٢٦٧ - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٣»

٨ - المستعصم بالله : ٨٠١

وسماه السيوطى فى حسن المحاضرة « المعتصم بالله » . وفى تاريخ الخلفاء « المستعصم » وهو أبو يحيى نجم الدين زكريا بن الخليفة الواثق بالله إبراهيم . — وبيت إبراهيم

هذا كثيرا ما نافس بيت المستكفى بالله ، فى الخلافة .

وقد ولى المستعصم بالله زكريا أمره فى عهد الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان . أسندها اليه أتابكيه الأمير أينبك البدرى عام ٧٧٩ هـ ، حينما حقد هذا الأمير على خليفة العصر المتوكل على الله محمد ابن المعتضد ، فخلعه عنوة ، ونصب مكانه زكريا . فظل فى الخلافة بلا مبايعة نحو أسبوعين ثم اضطر أينبك أن يعيد المتوكل ، ويخلع زكريا .

ظل زكريا بعد ذلك زمنا حتى وقع النفور بين المتوكل المذكور وبين السلطان برقوق ، فخلعه وقيده وسجنه ، ثم استدعى عمر أخا زكريا وولاه الخلافة فلبث بها حتى توفى عام ٧٨٨ هـ ، فاستدعى على إثره أخاه زكريا وولاه الخلافة ولقب بالمستعصم بالله كما كان . فظل فى الخلافة حتى عام ٧٩١ هـ . ثم بدا لبرقوق أن يعيد المتوكل فخلع زكريا فى ذلك العام . وهذه ثانى مرة يخلع فيها . فظل مخلوعا حتى توفى عام ٨٠١ هـ فى شهر جمادى الأولى . وقال عنه السخاوى « كان عاميا صرفا » .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٦٥ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٦ ، ٦٧ صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ » . الضوء ج ٣ رقم ٨٨٩

٩ - الواثق بالله « الثانى » ٧٨٨ هـ

وهو أبو حفص عمر بن الخليفة الواثق بالله ابراهيم . وأخو الخليفة السابق المستعصم بالله زكريا . دعاه برقوق لتسلم مهام الخلافة بعد أن خلع منها المتوكل على الله فى رجب عام ٧٨٥ هـ ، فبقى بها حتى سنة ٧٨٨ هـ . ثم توفى فى شوال من العام المذكور . وقيل فى ابن اياس : إن برقوقا عزله قبيل وفاته . فعلى هذا الرأى يكون الواثق قد مات معزولا . وقد خلفه أخوه زكريا ثم المتوكل ثم ابن المتوكل

وهو الخليفة المستعين بالله .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٦٥ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٧ »

١٠ - المستعين بالله « الخليفة والسلطان » ٨٢٣ هـ

هو أبو الفضل العباس ابن الخليفة المتوكل على الله محمد. وأمه أم ولد تركية اسمها خاتون . ولى الخلافة بعد موت أبيه بعهد منه ، وكانت ولايته فى رجب عام ٨٠٨ هـ فى عهد السلطنة الثانية لفرج بن برقوق . وقد كان أبوه المتوكل قد عهد إلى ابنه الأول المسمى أحمد ، ولقبه المعتمد على الله . ثم عدل عنه إلى ابنه الثانى أبى الفضل العباس المذكور .

ولما ولى الخلافة شهد أحداثا كبرى ومر بظروف متقلبة ، وشهد من العز والهوان ضروبا . فهو فى هذا شبيه بأبيه المتوكل على الله محمد .

ظل يقوم بالمراسيم التقليدية لمنصبه حتى كانت سنة ٨١٤ هـ . فى هذه السنة شق عصا الطاعة على السلطان الأميران شيخ المحمودى ونوروز الحافظى ، وتحصنا فى بلاد الشام ، وهناك قويت شوكتهما . فجرد عليهما السلطان الناصر فرج جيشا تحرك به فى نفس العام إلى بلاد الشام ، وسار صحبته الخليفة العباس المستعين بالله ، ولكن كانت العاقبة وخيمة على السلطان ، فانكسر ثم قبض عليه ثم قتل عام ٨١٥ هـ. وفى هذه الأثناء انضم عدد كبير ممن معه إلى المنتصرين وهما شيخ ونوروز ، فاشتور الجميع فى الأمر ، وفكروا فيمن يلى السلطنة . وكانت قد انحصرت بين هذين الأميرين فحسب . فخوفا من وقوع النزاع بينهما ، ودرءا للتباغض استقر رأيهما ورأى من معهما على أن يكون الخليفة المستعين هو السلطان .

خشى المستعين مغبة الأمر فامتنع عن قبول السلطنة ، ولكنهما ألحا عليه وقدم اليه نوروز من المواثيق وعهود الأمان ما لم يجد معه بدا من القبول . واشترط شروطا كثيرة كان فى عدادها أن يحتفظ بمنصب الخلافة ، وأنه إذا خلع من السلطنة

يوما ما فإنه يعود إلى ذلك المنصب كما كان ، فرضوا بشروطه .

أصبح المستعين بالله خليفة وسلطانا مما على البلاد المصرية والشامية والحلبية وما يتبعها وذلك عام ٨١٥ هـ . وفوض البلاد الشامية من غزة إلى الفرات للأمير نوروز الحافظى ، وفوض أتابكية مصر للامير شيخ المحمودى وجعله مدبر المملكة ونظام الملك . وعاد الجمع إلى مصر فى ركب عظيم وحفاوة باهرة وهنأه الشعراء، وكان فى جملة مهنئيه ابن حجر العسقلانى القاضى والعالم والأديب الشاعر بقصيدة عصماء أولها :

الملك فينا ثابت الآساس بالمستعين العادل العباسى
رجعت مكانة آل عم المصطفى لحلها من بعد طول تناسى

سكن الخليفة السلطان بالقلعة . وظل يصرف أمور الدولة . ولكن الواقع أن الذى كان يصرفها من الوجهة العملية هو الأتابكى شيخ وظل يضيق الخناق على خليفته السلطان ويستأثر بكل الأعمال ، حتى ضاق المستعين بالله ذرعا به .

كان ذلك كله بمثابة تمهيد من الأتابكى شيخ ليستولى على السلطنة . وقد نفذ هذه الرغبة فعلا فى مستهل شعبان عام ٨١٥ هـ أى بعد مضى نحو ستة شهور على سلطنة المستعين بالله . وتلقب بالمؤيد .

كانت حجة الملك المؤيد شيخ أن الأحوال فسدت وأن أهل السوء اجترءوا ، وأصبح الحال يتطلب سلطانا تركيا يقمع أهل الفساد . . . فخلع الخليفة من السلطنة واستولى هو عليها .

أراد الخليفة المستعين بالله أن يعود إلى منصبه ويفرغ له كما كان أولا . فأبى عليه المؤيد وتركه بالقلعة سجينا ، فظل بها حتى ذى الحجة عام ٨١٦ هـ . ثم خلع من الخلافة أيضا . وقد عوون على خلعه منها بفتوى شرعية من الشيخ جلال الدين

البلقينى أحد قضاة الشافعية ، ويقول السيوطى إنه كان فى نفس البلقينى من الخليفة شىء . ! إذ عزله من القضاء فى مستهل سلطنته فأضمرها له فى نفسه .

فلما خلع من الخلافة ، استدعى أخوه المسمى داود فبويع بها ولقب بالمعتضد بالله . أما المستعين بالله فإنه أرسل إلى سجن الاسكندرية بعد أن سجن بالقلعة مدة فلبث فى السجن سنين طويلة ، حتى ولى الملك الأشرف (١) برسباى عام ٨٢٥ هـ . فكان فى جملة مآثره إخراج هذا السجين وإطلاق حريته ، وأسكنه بعض الدور بالاسكندرية . فزاول التجارة بها حتى كان عام ٨٣٣ هـ . فمات بطاعونه فى يوم الأربعاء ٢١ جمادى الآخرة . وقد كتبت عنه كلمة بين سلاطين الدولة الجركسية .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٥١ ، الى ٣٥٩ - ج ٢ ، ٣ ، ١٣ ، ١٩ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٧ - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ - الضوء اللامع ج ٤ رقم ٧٠ »

١١ — المعتضد بالله « الثانى » ٨٤٥ هـ

وهو أبو الفتح داود بن الخليفة المتوكل على الله محمد ، وأخو الخليفة المستعين بالله ، وأمه أم ولد تركية يقال لها كزل ولى الخلافة فى عهد الملك المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٥ هـ . عقب خلع أخيه المستعين بالله منها ، وظل يقوم بمراسيم الخلافة من مبايعة سلطان وتهنئة آخر فى موسم أو عيد . ورحيل مع ملك فى تجريدة الى بلاد الشام ، وغير ذلك من ضروب الأعمال المنوطة به .

ويقال انه بعد موت المؤيد شيخ ، عارض فى تولية ابنه المظفر أحمد لصغر

---

(١) هذه رواية ابن اياس ، وذكر السيوطى فى تاريخ الخلفاء ، ان الذى أطلقه هو الظاهر ططر ، وأذن له فى المجىء الى القاهرة ، ولكنه اختار الاسكندرية

سنه إذ كان فى نحو سنة وثمانية أشهر . ولما وجـــد إجماعا من المماليك المؤيدية على توليته ، رضى مكرها على أن يكون الأمير ططر - وهو من هو فى ذلك الحين - مدبر المملكة ونظامها ؛ وأرجح أن هـذه الشجاعة واتته من الأمير ططر نفسه ، ولا بد أن يكون هو الموعز اليه بالمعارضة ، لأن فيها منفعة له .

ولما شق الأتابكى الطبنغا عصا الطاعة على هذا السلطان الصغير هو ومدبر مملكته ، سارع اليه الأمير ططر وحمل معه السلطان والخليفة والقضاة . وهزمه عام ٨٢٤ هـ ، ثم خلع المظفر أحمد ، وتسنم عرشه بنفسه ، وبايعه الخليفة ، ومن معه فى دمشق .

ثم شهد هذا الخليفة عصر ططر وابنه وعهد الأشرف برسباى وابنه وعصر جقمق العلائى . ومما يذكر أنه حدث سوء تفاهم بين برسباى وبين قرا ملك أحد ملوك التركمان عام ٨٣٦ هـ ، فخرج من مصر فى ذلك العـــام لملاقاته على الفرات وتأديبه ، فصحبه الخليفة المعتضد بالله فيمن صحبه .

وقد توفى هـذا الخليفة فى سنة ٨٤٥ هـ فى يوم الأحد ٤ ربيع الأول ، مناهزا السبعين وقيل فى سن ٦٣ سنة . وينسب اليه حب الخير وكثرة البر والميل إلى العلماء وحب مجالستهم والاستفادة من فضلهم . وقد خلفه أخوه سليمان ابن المتوكل على الله .

ابن إياس ج ١ ص ٣٥١ ، ٣٥٨ - ج ص ٤ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ - وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٧١ - وتاريخ الخلفاء ص ٣٣٨ ، الضوء ج ٣ رقم ٨٠٥

١٢ — المستكفى بالله الثانى ، ٨٥٤ هـ

وهو أبو الربيع سليمان ابن الخليفة المتوكل على الله محمد ، وأخو الخليفة السالف ، وهو المعتضد بالله . ولى الخلافة بعد وفاة أخيه المذكور عام ٨٤٥ هـ ، بعهد منه كتبه له صديقه والد جلال الدين السيوطى .

وقد كان المستكفى رضى السيرة حسن العشرة ، كثير العبادة كثير التلاوة ، ورعا صالحا . وقد توفى آخر ذى الحجة عام ٨٥٤ هـ ، وقال ابن اياس: فى يوم الجمعة ٢ المحرم عام ٨٥٥ هـ ، بعد خلافة دامت نحو عشر سنوات ، ومات بغير أن يعهد إلى أحد بالخلافة ، وكانت وفاته فى عهد السلطان جقمق العلائى الذى كان يبجله ، فنزل وصلى عليه وشيع جنازته ، وقيل حمل نعشه مسافة . وتولى بعده أخوه حمزة ، ولقب بالقائم بأمر الله . ومما يذكر أن ابنة هذا الخليفة وهى آمنة ، تزوجها الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز فولدت له ابنه يعقوب الذى ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وتلقب بالمستمسك بالله عام ٩٠٣ هـ

« ابن اياس ج ٢ ص ٢٨ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ - حسن المحاضرة ص ٧١ ج ٢ - تاريخ الخلفاء ص ٣٤٠ » . الضوء ج ٣ رقم ١٠١٥

١٣ - القائم بأمر الله ٨٦٣ هـ

وهو أبو البقاء حمزة ابن الخليفة المتوكل على الله محمد ، وأخو الخليفة السالف ، وهو المستكفى بالله . ولى الخلافة بعد وفاة أخيه المذكور عام ٨٥٥ هـ بغير عهد منه ، بل وقع عليه اختيار السلطان جقمق وحاشيته ، ولقبوه بالقائم بأمر الله .

شهد عهد ثلاثة من الملوك هم جقمق وابنه واينال العلائى .

ومما يذكر أنه خلع الملك المنصور ابن جقمق عام ٨٥٧ هـ بناء على طلب أتابكيه إينال ، ثم ارتقى إينال العرش فبايعه الخليفة حمزة ، وكان من أكبر معاضديه على نيل السلطنة إذ أن المنصور لم يكن قد انهزم فى صراعه مع أتابكيه ، ففت خلع الخليفة له فى عضده ، ولما ملك إينال أنعم على الخليفة القائم بأمر الله باقطاع واسع النطاق ومال وخيل وخلع قماش .

ثم دارت الأيام دورتها وثارت ثائرة المماليك على إينال نفسه ٨٥٩ هـ ، فضلع

معهم الخليفة القائم بأمر الله آملا أن يحتاز لنفسه غنيمة جديدة من وراء ذلك ، حتى قيل أنه طمع فى السلطنة ، ثم ان المماليك أخفقوا فى حركتهم،ومن ثم أسقط فى يد الخليفة وأوجس خيفة من السلطان ، وما لبث أن استقدمه السلطان اليه ، ووبخه على سوء عمله ، فما كان من الخليفة إلا أن خلع نفسه وخلع السلطان معا ، ولكن القاضى علم الدين البلقينى أفتى السلطان بأن عمل الخليفة ينطبق عليه هودون السلطان ، إذ بدأ بخلع نفسه فأصبح لا يملك خلع سواه . . .

فبذلك ثبت الملك اينال فى السلطنة رغم أنف الخليفة وأفتاه علم الدين البلقينى بأنه يجوز له خلع الخليفة فخلعه فى مجلس عقد لذلك وشهد عليه الحاضرون ، وقبض عليه وقذف به فى البحرة بالقلعة مسجونا ، فلبث بها أياما وذلك عام ٨٥٩هـ. ثم سيق الى الأسكندرية فسجن فيها ولبث فى سجنه حتى توفى عام ٨٦٣ هـ ودفن فى مقبرة شقيقه المستعين بالله . وقد دامت خلافته نحو أربع سنوات ونصف . وخلفه فى منصبه عام ٨٥٩ هـ أخوه يوسف .

« ابن اياس ج ١ ص ٣٥١ ، ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٢ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ - وتاريخ الخلفاء ص ٣٤١ ، الضوء ج ٣ رقم ٦٣٩

١٤ - المستنجد بالله ٨٨٤ هـ

واسمه أبو المحاسن الجمالى يوسف ابن الخليفة المتوكل على الله محمد ، بويع بالخلافة فى عهد الملك اينال عام ٨٥٩ هـ فى يوم الخميس ١٣ رجب ، وذلك بعد القبض على أخيه الخليفة السابق حمزة القائم بأمر الله . وكان مصاهرا قاضى القضـــاة علم الدين البلقينى ، وينسب البعض تحمس البلقينى فى خلع الخليفة القائم بأمر الله الى هذه المصاهرة والى رغبته فى أن يكون صهره يوسف هو الخليفة مكان أخيه . فتم له ما أراد ، ولبث يوسف هذا وهو الملقب بالمستنجد بالله فى منصبه زمنا طويلا يقدر بنحو ٢٥ سنة .

وشهد بقية عهد إينال وعهد ابنه المؤيد ، وأيام خشقدم وبلباى وتمربغا وقايتباى. وقد توفى فى عهد هذا السلطان يوم السبت ٢٤ المحرم عام ٨٨٤ هـ بعد مرضه بالفالج نحو عامين وقد بلغ التسعين أو جاوزها . وقد كان اينـــال قد أقطعه قرية انبابة فأخرجها عنه قايتباى وأقطعها أحد الأمراء .

ومما يذكر أنه كان أحد أعضاء المجلس الذى عقده الأشرف قايتباى عام ٨٧٢هـ للنظر فى أموال الأوقاف المرصودة على المساجد ، ومحاولة الاستيلاء على جزء منها معاونة للسلطان على تجهيز الجنود بما يحتاجون اليه فى الحروب من سلاح وغيره ، وكان رأى الخليفة الرضا والموافقة على رأى السلطان ، وهو الاستيلاء على جزء من المال . ولولا معارضة شيخ الاسلام أمين الدين الأقصرائى فى ذلك لنفذ هذا الرأى.

ومما يذكر أيضا أن هذا الخليفة هو الذى بعث اليه الملك غياث الدين صاحب بلاد الهنـد رسولا يطلب اليه تقليدا بولايته ، وذلك عام ٨٧٦ هـ . فبعث اليـــه التقليد المطلوب .

ومما يذكر كذلك أنه سكن بالقلعة بعد أن سكن بمنازل إخوته زمنا . ولما مات لم يعقب ولدا ذكرا ، وأنجب بنتا واحدة تسمى ست الخلفاء ، كان الأمير خشكلدى السيفى قد عقد عليها ، ثم فسخ العقد .

وقد وليه فى الخلافة عبد العزيز ابن أخيه يعقوب بن المتوكل على الله بعهد منه.

« ابن اياس ج ٢ ص ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٣١ ، ١٤٣ ، ١٧٥ ، ١٨٥ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ » . الضوء ج ١٠ رقم ١٢٤٧

١٥ - المتوكل على الله « الثانى » ٩٠٣ هـ

واسمه أبو العز عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله محمد ، وهو ابن أخى الخليفة السابق ولم يل أبوه الخلافة ، بويع بالخلافة فى عهد قايتباى بعـد وفاة عمه

المستنجد بالله فى الاثنين ٢٦ المحرم عام ٨٨٤ هـ : بعهد منه ، ولم يكن إذ ذاك بين بنى العباس بمصر من يصلح للخلافة سواه . وكان عمه موسى موجودا ، ولكنه لم يكن كفئا للخلافة ، وقد مات موسى هذا عام ٨٩١ هـ .

أراد أن يلقب بالمستعز بالله ، ثم لم يقع الاتفاق على هذا اللقب الأخير . وسكن بالقلعة بالحوش .

كان هذا الخليفة صديقا لجلال الدين السيوطى ؛ فأسند اليه فى سنة ٩٠٢ هـ وظيفة غير معروفة فى الدولة ، إذ جعله قاضيا على جميع القضاة يولى منهم من يشاء ويعزل من يشاء فى سائر ممالك الاسلام . قيل إن هذه الوظيفة كانت قد أسندت حينا إلى تاج الدين بن بنت الأعز فى دولة الأيوبيين . وكان لهذا التعيين رنة ألم وضجر ونقد مرير لدى قضاة الشرع ، ولدى السلطان . ورموا الخليفة بأنه استخف بالسلطان لصغر سنه . وقد كان السلطان هو ابن قايتباى . وما زالوا به ينكرون عليه حق التولية ، وأنه لاحل له ولا ربط بجوار السلطان ، حتى اضطر إلى سحب الوظيفة من السيوطى ، وتقديم ضروب الاعتذار عما صدر منه قائلا إنه انما فعل ذلك بناء على اقتراح السيوطى نفسه ! . وانتهت المسألة بعد أن كادت تكون فتنة للناس !

وقد صدرت من الخليفة المتوكل على الله فعلة أخرى فى نفس السنة ، إذ اشترك فى خلع الملك الناصر ابن قايتباى ، وضلع من الأتابكى قانصوه خمسمائة ، وبايعه بالسلطنة فلم يلبث قانصوه بها سوى ثلاثة أيام ثم غلب ، وعاد الملك إلى صاحبه وهو الناصر ابن قايتباى ، فعاد الخليفة وبايعه بالسلطنة ، وهذا الخليفة صعد القلعة ، عام ٩٠٢ هـ يهنىء الناصر بن قايتباى بعيد الفطر فلم يقابله السلطان وأرسل اليه من يشكره ويصرفه .

توفى هذا الخليفة فى يوم الخميس آخر المحرم سنة ٩٠٣ هـ بعد أن مرض زمنا فى أخريات عام ٩٠٢ هـ وينسب اليه الاشتغال بالعلم والأدب ودماثة الخلق ، وتوفى

وله من العمر نحو ٨٤ سنة ، ومدة خلافته نحو ١٩ سنة . وتولاها من بعده ابنه يعقوب بعهد منه .

ومما يذكر فى تاريخ المتوكل أنه فى عهد قايتباى وفى سنة ٨٩٩ هـ ، شبت نار قاسية فى القلعة فألحقت بها وبحواصلها تلفا بالغا فقيل للسلطان إن النار اندلعت من مطبخ الخليفة المتوكل - وكان يسكن القلعة - فرسم له توا بإخلاء سكنه بها والنزول إلى المدينة ليختار له بها سكنا . فسكن فى قاعة مجاورة لمشهد السيدة نفيسة ، وظل كذلك حتى عام ٩٠٢ هـ ، فكان عهد الناصر بن قايتباى ، فرسم له بالعودة إلى سكنى القلعة كما كان ، فعاد فى تلك السنة . وهذا الخليفة هو الذى ألف له السيوطى كتابيه فى تاريخ بنى العباس أولها « كتاب الأساس فى فضل بنى العباس » ثانيهما « كتاب رفع الباس عن بنى العباس » .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٨٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ؛ ٢٦٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ . حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ . تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ » . الضوء ج ٤ رقم ٦١١

٩٠٧

١٦ المستمسك بالله ٩٢٧ هـ

وهو شرف الدين أبو الصبر يعقوب بن الخليفة السابق المتوكل على الله عبد العزيز ، وهو هاشمى الأبوين . قال ابن إياس « لم يل الخلافة من هو هاشمى الأبوين غير أربعة من بنى هاشم وهم الإمام على كرم الله وجهه ، وكانت أمه هاشمية ، وهى فاطمة بنت أسد بن هاشم ، ثم ابنه الحسن رضى الله عنه ورحمه . وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ثم محمد الأمين بن زبيدة وكانت أمه هاشمية ، ثم يعقوب بن عبد العزيز وأمه هاشمية تسمى آمنة بنت أمير المؤمنين المستكفى بالله أبى الربيع سليمان.

فهؤلاء الأربعـــة هاشميو الأبوين وغيرهم من الخلفاء كانوا من سراري مولدات وحبش وغير ذلك ،

بعد أن مات أبوه في عهد الناصر ابن قايتباي عام ٩٠٣ هـ ، اختير للخلافة في المحرم من ذلك العام ، وكان أبوه قد عهد إليه بها ، فأقر الناصر هذا العهد ، وزاحمه لدى السلطان على الخلافة ابن عم له يدعى خليـــلا ، فلم يأبه له السلطان . وتلقب بالمستمسك بالله . واكتفى القاضي الشافعي بعهد أبيه إليه عن المبايعة ، فتمت بذلك خلافته ، وهو في سن الخمسين تقريبا وقد وخطه المشيب ، وقد شهد هـذا الخليفة عددا من السلاطين ، وتمت بيعتهم بالسلطنة على يديه وهم :قانصوه بن قانصوه وجان بلاط العادل وطومان باي والغوري والأشرف طومان باي . كما عاصر جملة من الحوادث الرائعة . وامتد به الأجل حتى رأى احتلال العثمانيين لبـــلاده ، وابنه المتوكل على الله هو آخر خلفـاء بني العباس في مصر . ويلخص تاريخ المستمسك بالله يعقوب فيما يلي : كان يسكن بالمدينـة حتى رسم له الأشرف جان بلاط بأن ينتقل الى القلعة ، فانتقل وذلك عام ٩٠٥ هـ . ولما ملك طومان باي بلاد الشام ، وتلقب بالعادل ، دان له أهلها وبايعوه ودعوا له على منابرها ولم يحتج إلى مبايعـة الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، لأنه كان بمصر مع سلطانها جان بلاط . غير أنه سرعان ما بايع العادل لما تم له النصر على جان بلاط . ولا ننسى أن هذه المبايعات رسوم تقليدية فحسب لا تغير من جوهر الواقع شيئا ، ولا أثر لها فيه . !

ولما تمت السلطنة للعادل طومان ـ عام ٩٠٦ هـ ـ خلع على الخليفة بعض خلعه ، وبعـد قليل في مستهل رمضـان رسم له بترك القلعة ، والسكنى بداره بالمدينة . ثم زالت دولة العادل وآلت السلطنة إلى الأشرف الغوري .

ساير الخليفة المستمسك بالله العصر الجديد بنفس الهمة والنشاط اللذين ساير

بهما العصور السالفة ، فبايع السلطان الغورى الجديد ، واشترك فى حفلة تنصيبه وقام الأمراء بين يديه مرات بالحلف على المصحف إخلاصا للسلطان .

وأصيب بضعف فى عينيه ، فعيره (١) بذلك خليل ابن عمه الذى زاحمه من قبل فى منصب الخلافة ، فلم يظفر بطائل حينئذ . فعاود الكرة فى يوم السبت ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ ووقع بينهما تشاجر بمجلس السلطان والقضاة . فقال خليل للخليفة يعقوب : أنت ولايتك ما تصح فانك أعمى ، فقام اليه الناصرى محمد ابن الخليفة ، وقال له : وأنت ما تصح خلفك صلاة ، لأنك ما تحسن قراءة الفاتحة - وكان خليل ألثغ لا يحسن النطق بحرف الراء - فألزمه السلطان الغورى بأن يقرأ بحضرة القضاة فلما قرأ لم يحسن ثم سكت ولم يكمل الفاتحة . وربما كان هذا التشاجر والاختبار والدفاع بسبب هم السلطان بتعيين خليفة آخر جديد بدل المستمسك بالله يعقوب لضعف عينيه . فانفض ذلك المجلس المعقود على أن يكون الناصرى محمد ابن المستمسك بالله هو الخليفة . وقد عاد المجلس فعلا إلى الانعقاد فى يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٤ هـ ، أى بعد يومين ، وقرر الخليفة خلع نفسه من الخلافة عاهدا الى ابنه المذكور ، فأقر الغورى هذا العهد ، ووافق القضاة والأمراء ، وزايل الخليفة المستمسك بالله المجلس مكرما . وانتهت بذلك خلافته بعد نحو إحدى عشرة سنة ونصف .

من ذلك الحين ظل الخليفة المذكور قابعا فى داره ، قليل الاختلاط بالناس ، مختفيا عن الأنظار ، حتى أذن له السلطان بالخروج والظهور فى يوم الخميس ١٥ من ذى الحجة عام ٩١٧ هـ فركب ثانى يوم ، وهو الجمعة للصلاة وزيارة المقابر . وظل مرعى الجانب من السلطان الغورى ، حتى خرج فى تجريدته المشهورة إلى بلاد الشام

---

(١) ذكر ابن اياس خليلا هذا وقال عنه مرة ابن عم يعقوب (ج ٢ ص ٣٣٤) ومرة ابن عم أبيه (ج ٤ حوادث ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ)

للقاء السلطان سليم عام ٩٢٢ هـ ، وخرج معه الخليفة المتوكل على الله . ثم مات الغورى ، وأسر المتوكل . فاستدعى حينئذ الخليفة أبو الصبر يعقوب المستمسك بالله للقيام بمراسيم الخلافة عوضا عن ابنه ، بصفة مؤقتة ليبايع السلطان الجديد طومان باى ، وأظهر هو توكيلا مطلقا كتبه له ابنه المتوكل لينوب عنه فى أمور الخلافة فأقر القضاة هذا التوكيل . وهكذا عاد الى الخلافة فى عام ٩٢٢ هـ .

ثم زالت عنه صفة الخلافة حينما عاد ابنه المتوكل فى ركاب العثمانيين ، وبعد عودته معهم إلى بلادهم لم تبق للخليفة منزلة رسمية مرعية .

وقد توفى المستمسك بالله فى عهد ملك الأمراء خاير بك يوم الخميس ١٩ ربيع الآخر عام ٩٢٧ هـ . ودفن بمشهد السيدة نفيسة ، وينسب اليه الصلاح وحسن الدين وحب الخير والتواضع .

«ابن اياس ج ١ ص ٣٥١ - ج ٢ ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٢٦١ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٢٧٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ ، ٣٩٤ - ج ٤ فى التواريخ المذكورة من عام ٩٠٦ هـ إلى ٩٢٢ هـ - وج ٣ ص ٤٣ ، ٦٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ١٢٥ ، ١٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ » .

١٧ — المتوكل على الله « الثالث »

وهو آخر خلفاء بنى العباس بمصر . واسمه أبو عبد الله الناصرى محمد ابن الخليفة المستمسك بالله يعقوب . ولى الخلافة بعد تنازل أبيه عنها وبعهد منه إليه . وزاحمه فيها خليل ابن عم أبيه كما زاحم أباه من قبل ، ولكنه لم ينتصر عليهما . ولى الخلافة فى عهد الغورى يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٤ هـ ، وبايعه السلطان والقضاة ونزل إلى داره فى موكب عظيم ، وقيل انه بذل فى سبيل الوصول إلى الخلافة ١٢ ألف دينار . ! ولولا ذلك لكان نصيبه النفى من القاهرة واحلال خليل مزاحمه محله .

ظل المتوكل على الله محمد ، يقوم بمراسيم منصبه من تهنئة واستقبال وتحليف وغير ذلك . حتى أذنت سنة ٩٢٢ هـ ، وتحرك العثمانيون ضد مصر وممتلكاتها . فخرج الخليفة المتوكل فى عداد من خرج مع السلطان الغورى ، وأراده السلطان على أن يجهز نفسه من ماله كما أراد القضاة على ذلك . ولكنه لم يستطع ، وبعد لأى ومفاوضة أرسل السلطان إليه ألف دينار . . . . وكانت عادة الخلفاء من قبل إذا خرجوا فى حرب مع السلطان أن تكون نفقة خروجهم جميعا من مال السلطان . .

ولما خرج ركب الخليفه كان أمامه طبل وزمر . . . وعلى رأسه عمامة بغدادية بعذبتين . . وعلى جسده قباء بعلبكى مطرز بحرير أسود . . . واختصر ضروبا من التجمل كان يتبعها الخلفاء السابقون فى مثل هذه المناسبات . وذلك نظرا للضنك المالى الذى كانت البلاد وأعيانها تعانيه .

ثم سار الجميع إلى الشام . وهناك كانت الهزيمة فى « مرج دابق » وفقد سلطان مصر الغورى . وأسر السلطان سليم عددا كبيرا من مرافقيه ، ووفد عليه عدد آخر ، فكان الخليفة المتوكل فى عداد من وفد عليه . وقيل إن السلطان سليما سأله عن أصله . فقال : من بغداد ! فقال له : نعيدكم إلى بغداد كما كنتم ! ـ ولما هم الخليفة بالانصراف أحسن إليه السلطان سليم ، وخلع عليه خلعة ثمينة من ملابسه . وسيره إلى حلب وأمره بالاقامة بها . ووكل به من يحرسه ويمنعه الهرب ! . فظل بها هو والقضاة المصريون الثلاثة الذين وفدوا على السلطان سليم معه . وقام مقامه بمصر « أبوه يعقوب » .

ظل فى الأسر حتى زحف العثمانيون على مصر ، فاحتملوه معهم هو والقضاة الثلاثة . ثم أرسلوهم سفراء إلى القاهرة قبيل دخولهم فيها ، هم وطائفة من وزرائهم وجنودهم ، طلائع لدخول سلطانهم . وبشروا الناس بالأمن والعدل المنتظرين على يد العثمانيين . .

وأضفى السلطان سليم على الخليفة المتوكل ضروبا من الثقة والنفوذ، حتى عظم أمره وهيبت سطوته وقبلت شفاعته . . وأصبحت داره ملجأ لذوى الحاجة سادة وغير سادة . وكانت هذه بلا شك سياسة حازمة من السلطان سليم ليخدع الناس عن رغباته الخفية ، ويفهم المصريين حبه للدين وخوفه على رجاله . ثم هى وسيلة لإدخال الطمأنينة فى نفس المتوكل ، حتى يثق بالسلطان سليم . وحينئذ يسهل على السلطان أن يتخذ منه إكافا إلى غايته ، وأن يمتطيه حتى النهاية . . ثم أمر بعد قليل بالمسير إلى القسطنطينية فى عداد من أمروا بذلك .

وفى يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى عام ٩٢٣ هـ ، خرج الخليفة المتوكل على الله محمد ، ومعه عدد من أقاربه للسفر إلى القسطنطينية . فغادر القاهرة فى ذلك اليوم . ولبث فى جهة بولاق إلى الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى المذكورة . ثم برحها إلى رشيد ومنها إلى عاصمة بنى عثمان . وبسفره انقطعت سلسلة الخلافة من مصر ، وانتهت أيامها .

وقيل إن السلطان سليما نفاه بعد ذلك إلى مكان بعيد عن استانبول . وضيق عليه الخناق . وقيل إنه قهر على أن يتنازل عن الخلافة للسلطان سليم . وقد انتقلت بذلك الخلافة من العباسيين إلى آل عثمان .

ومما يذكر أنه بسفر الخليفة المتوكل انقطع عنه نظر مشهد السيدة نفيسة ، وكان هو ومن قبله من الخلفاء ينالون من وراء هذا المنظر المال الكثير والخير الوفير .

« ابن إياس ج ٣ ص ٢ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٧ ، ١٧٦ ، ٢٠٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٣ »

القضاء

على الرغم من أن النظام الإدارى فى ذلك العصر ، قد اقتضى تحويل مناصب البلاد تقريبا ، إلى مناصب عسكرية ، اختير لشغلها عدد من الأمراء أرباب السيف ، كان لا بد من أن تترك مناصب القضاء والكتابة وما إليها ، لكى يليها أهل العلم ورجال الدين ، وذوو الخبرة باللغة العربية وإنشائها ، من نابتة البلاد ومثقفيها . وذلك لأن الأمراء لا يستطيعون بفطرتهم ونشأتهم وظروف حياتهم ، أن يقوموا بها لقلة خبرتهم بأحكامها ، ولضعف تجاربهم فيها ، ولانصرافهم عنها إلى غيرها من المهام العسكرية .

وقد يكون فى مقدمة الأسباب التى دفعتهم إلى ترك القضاء لعلماء الدين : أنهم مسلمون ، وأن سلاطينهم نصبوا أنفسهم حماة للإسلام ، وذادة عن أهله . فكان لا بد لهم من أن يشجعوا رجال الاسلام ويبجلوهم ، ويستشيروهم ويسترشدوا برأيهم عند الحاجة إليه ، مقتدين بمن سلف من الملوك قبلهم . وفى ذلك كسب عظيم لجانب هذه الطبقة من أبناء البلاد ، وهى أكثر أبنائها ثقافة ، وأنبغها فقها ، وأقواها حجة ، وأشدها تأثيرا . ثم فى ذلك ما فيه من إيهام العامة - إن حقا وإن باطلا - أن سلاطينهم وأمراءهم ، يغارون على دينهم ، ويحرصون على تنفيذ قوانينه وتعاليمه . فيظفرون منهم بالاعجاب والطاعة .

وكان التعليم فى ذلك الحين نوعين :

الأول : مقصور على طائفة المماليك ، يساقون إليه دون استثناء ، ويربون على النمط الموضوع له ، فى أماكن خاصة بهم . وقوام هذا النوع يسير من الكتابة

والقراءة ، وآيات من القرآن الكريم ، وفروض الدين . وعناية كبرى بالرياضة البدنية من جرى وقفز وسباحة ورمى أطواق ، وغير ذلك . واهتمام بالتمرينات العسكرية من ركوب الخيل ، والكر بها والفر ، ورمى النشاب ، وجر الرماح ، وسل السيوف ، إلى غير ذلك . وقد عقدنا لهذا النوع من التعليم فصلا مستقلا فيما مر .

الثانى : مباح لمن يشاء من أبناء الشعب الآخرين فى مصر والشام وسواهما من بلاد المسلمين . لا يساق إليه أحد دون رغبته ومشيئته . وأماكنه المساجد التى كانت فى ذلك الحين ، كالجامعات ، تدرس بها شتى المواد . وأهم ما كان يدرس بها علوم الدين ومذاهبه الأربعة ، وعلوم اللغة ، وقليل من العلوم الأخرى . وسنفرد له فصلا فى الجزء الثانى من كتابنا هذا .

وقد نبغ كثير من أبناء البلاد ، الذين تثقفوا بهذا النوع الثانى من التعليم ، فى الفقه ، والحديث رواية وشرحا ، والتفسير ، والنحو والكتابة ، وماشاكل ذلك من علوم الدين وفنون اللغة العربية . فاختار السلاطين من بينهم ، ومن النابغين فيهم ، من احتاجوا إليهم ، فى مناصب القضاء والكتابة ، وما إليهما .

ويحسن بنا — بهذه المناسبة — أن نشير إلى أمرين :

الأول : أن المتعلمين من أهل الدين واللغة ، كانت لهم عناية بالغة . بأن ينسبوا إلى المذهب الدينى الذى اختاروه ونبغوا فيه ، وكل منهم حريص على أن يضيف إلى اسمه فى النهاية كلمة : الشافعى ، أو الحنفى ، أو المالكى ، أو الحنبلى . حتى أصبحت نسبة كل منهم إلى مذهبه لصيقة باسمه لا تفارقه . وصارت إحدى مميزاته .

الثانى : أن القضاء لم يكن يطلق عليه لفظ « شرعى » إلا نادرا . لأنه لم يكن فى البلاد قضاء غير شرعى ، فلم تكن هناك حاجة إلى تمييزه . غير أن القضاة كان يقال لهم أحيانا « قضاة الشرع » لما لكلمة « الشرع » فى بعض المواقف من تأثير ومعنى خاص .

وفى الحق كان القضاء «شرعيا»، وفى أيدى قضاة الشرع. غير أنه كان بجانبهم شخصان آخران يقضيان فى المنازعات، وهما السلطان، وحاجب الحجاب. ويحسن بنا أن نشير بكلمة إلى كل منهما لأهميته القضائية.

السلطان وجلوسه للقضاء

السلطان ولى الأمر الشرعى فى البلاد. يقضى فيها باسمه، ويستمد منه قضاة المملكة قوتهم القانونية، التى بها يحكمون بين الناس.

وكان من المستطاع أن يترك السلاطين أمر الفصل فى القضايا والخصومات، لمن نصبوهم من رجال الشرع فى مناصب القضاء، إلا فى القضايا العليا ذات الصبغة الهامة. فلا مانع من أن ينظروا فيها نظرا أخيرا، يفصلون به فيها نهائيا. وفى ذلك ما فيه من الثقة برجال القضاء وفيه أيضا ما فيه من توزيع الاختصاص، وعدم شغل السلطان بما يستطيع أحد رعاياه أن يشتغل به. ولكن سلاطين المماليك، أرادوا أن يتشبهوا بالسلف الصالح، وبقادة الأمة فى بداءة أمرها وحداثة عهدها بالإسلام وذلك بتفقد أحوال الرعية، والنظر فى مظلمات الأمة، ونشر العدل بين ربوعها (١) ليكون لهم من وراء ذلك ذكرى حسنة وصيت جميل.

فعل السلاطين ذلك، على الرغم من اتساع الدولة، وكثرة دواوينها، وتشابك أمورها وتشعبها، ووفرة موظفيها، وقيام قضاتها. فعلوا ذلك على الرغم من الفارق البعيد بينهم وبين السلف الصالح، فى فقه الإسلام والعلم بأصول أحكامه.

ولهذا، لم يجدوا بدا من اصطحاب القضاة أنفسهم معهم، إذا ما جلسوا مجلس القضاء. ولهذا أيضا، لم يجدوا بدا من أن لا يواظبوا على هذه العادة الحميدة فكان.

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٦ تحت عنوان «ذكر النظر فى المظالم»

جلوسهم للقضاء بين الناس متقطعا حسب المشيئة والهوى . بل من السلاطين من هجر هذه العادة ، ولم يجعلها من تقاليده . ومنهم من أناب عنه نائب سلطنته لأداء هذه المهمة .

وممن جلس من السلاطين للقضاء : السلطان الظاهر بيبرس ، والأشرف خليل ابن قلاوون (١) وأخوه الناصر محمد . ومن نواب السلطنة : الأمير عز الدين إيدمر الحلى (٢) ، عن الظاهر بيبرس ، والأمير سلار المنصورى عن الناصر بن قلاوون .

فاذا ما استوى أحدهم على منصة القضاء ، قدمت اليه الخصومات على اختلاف أنواعها ، سواء أكانت جنائية أم مدنية ، أومن قضايا الأحوال الشخصية ، فيستشير فيها قضاة الشرع ، ويحكم بما يمليه عليه رأيه ، بعد هذه الاستشارة ، وهو لا يخرج عن الأخذ بها غالبا.

ومن الممتع أن نثبت هنا وصف جلوس السلطان للقضاء فى دار العدل . وكان للسلطان فيها منصة . قال السيوطى (٣) :

قال ابن فضل الله : « إذا جلس السلطان للمظالم ، جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة ، ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر فى الحسبة ، ويجلس عن يساره كاتب السر وقدامه ناظر الجيش ، وجماعة من الموقعين ، تكملة حلقة دائرة .

---

(١) عن سلوك المقريزى ج ١ ص ٥٠٣ ، ٧٧٢ ـ الخطط ج ٣ ص ٣٣٣ ، ٣٣٨

(٢) السلوك ج ١ ص ٥٥٠

(٣) عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٢ بعنوان « ذكر جلوس السلطان فى دار العدل للمظالم » وقد ورد نفس النص بيسير من التفصيل فى خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٩ تحت عنوان « ذكر خدمة الايوان المعروف بدار العدل » وورد كذلك فى صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٤ تحت عنوان « هيئة فى جلوسه بدار العدل لخلاص المظالم » .

وإن كان ثم وزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر . وإن كان الوزير من أرباب السيوف ، كان واقفا على بعد مع بقية أرباب الوظائف ، ويقف من وراء السلطان ، صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية . ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعا ، من يمنة ويسرة ، ذوو السن من أكابر أمراء المئين ، وهم أمراء المشورة . ويليهم من دونهم من أكابر الأمراء ، وأرباب الوظائف وقوفا ، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة ، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان ، الحجاب والدوادارية ، لإحضار قصص الناس ، وإحضار المساكين ، وتقرأ عليه ، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلقا بالعسكر تحدث مع ناظر الخاص وكاتب السر فيه . »

قال : «وهذا الجلوس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس ، إلا أن القضاة وكاتب السر لا يحضرون يوم الخميس .»

وقد عقب القلقشندى فى صبح الأعشى على ذلك بما يفهم منه أن تعديلا طفيفا دخل على هذا النظام ، وأهم ما فيـــه جلوس القاضى الشافعى والمالكى عن يمين السلطان والحنفى والحنبلى عن يساره (١) .

ومما يذكر أن دار العدل بناها الظاهر بيبرس وجلس فيها للفصل فى الشكايات عام ٦٦٢ هـ ، وتعرف بدار العدل القديمة ، ثم هجرت حينا لما بنى المنصور قلاوون بدلا منها « الايوان » ، ثم هدمت جملة فى عهد ابنـه الناصر محمد (٢) . وحل محلها « الايوان » ، وجعله الناصر المذكور وجلس فيه للقضاء والنظر فى المظالم يومى الاثنين

---

(١) صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٥ بالعنوان السابق

(٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » ص ٣٣٥ تحت عنوان « الايوان » ص ٣٣٨ فى نهاية « ذكر فى النظر فى المظالم » .

والخميس . واقتدى به أبناؤه من بعـــده . حتى ملك برقوق ، فاستبدل به الاصطبل السلطانى يجلس فيه للحكم بين الناس يومى الأحد والأربعاء . ثم استبدل بهما السبت والثلاثاء ثم أضاف اليهما يوم الجمعة .

هذا وقد كان للسلطان وحده الحق فى مصادرة أملاك المتهمين كبارا وصغارا دون اللجوء إلى حكم قضائى . فاذا ما اتهم لديه إنسان ما ، من الأمراء أو المباشرين أو غيرهم ، أمر فورا - إذا أراد - بالقبض عليه والاحاطة بمـاله من مال وعقار ونحوهما ، وضمه إلى الخزائن الشريفة . . . ولهذه الحالة أمثلة كثيرة لاعدد لها يراها القارىء فيما مر من سير رجال العصر .

وكان السلطان كذلك يتدخل فى أحكام قضاة الشرع أنفسهم ، ويعنفهم أحيانا إذا لم يقضوا بحكم يرضيه - ومن الأمثلة على ذلك ، ما رواه ابن إياس(١) فى سياق حديثه عن السلطان الغورى ، قال :

« فى صفر - أى عام ٩١٧ هـ - صعد الخليفة إلى القلعة ليهنىء بالشهر ، وكذلك القضاة الأربعـة ، فحصل فى ذلك اليوم للقاضى شمس الدين الحلبى غاية المقت من السلطان ، وكاد يبطش به . وسبب ذلك أنه حكم فى بعض الوقائع بما اعترض عليه فى ذلك ، فتغير خاطر السلطان عليه ، ولم يقبـل له عذرا ، وحط على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين بن الطويل بسببه ، وكان مجلسا مهولا » .

ويبدو لنا أن السلطان كانت تقدم اليه القصص من جميع الأنواع ، حتى التافه منها ، فـكثر عددها وأرهقته كثرتها ، حتى اضطر إلى تحويلها إلى المختصين . ويدلنا على ذلك ما رواه ابن إياس ، قال ما نصه (٢) .

---

(١) البدائع ج ٤ حوادث صفر سنة ٩١٧ هـ .

(٢) البدائع ج ٢ ص ١٢٩ فى سياق ترجمة قايتباى ، وفى سنة ٨٧٦ هـ

« وفيه - أى فى شهر ربيع الأول عام ٨٧٦ هـ - نودى من قبل السلطان بأن لا يشكو أحد أحداً للسلطان إلا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فاذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان . وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان حتى إن امرأة شكت زوجها لأجل أنه وطىء جارية فى ملكه . فما أطاقت زوجته الغيرة ، وشكته للسلطان بقصة » .

حاجب الحجاب

قد أشرنا من قبل إلى شىء من اختصاص هذا الحاجب (١) . ويعرف منصبه بالحجوبية ، ويعرف هو بحاجب الحجاب ، أو الحاجب الأكبر ، وذلك لأن له أعوانا يساعدونه فى أداء عمله . ويعتبر منصبه من أهم مناصب المملكة ، وقد لا يسمو عليه - من الناحية العملية - غير نائب السلطنة .

وقد أنشىء هذا المنصب ، ليشغله أحد أمراء الدولة العظماء . وكان عمله فى بادىء أمره الفصل فى الخصومات المدنية ، وفى جميع ضروب النزاع التى تقع بين الجنود المماليك فحسب ، فينصف ضعيفهم من قويهم ، ويضرب على يد ظالمهم لمظلومهم . ولم يتعد اختصاصه هذه الدائرة .

غير أن أحكامه لم تكن دائما مقتبسة من أحكام الدين الاسلامى ، بل كان يمزج فيها بين رأيه الشخصى وبعض القوانين السابقة المرعية عند أمم أخرى غير إسلامية مثل التتار القدماء .

---

(١) راجع صفحة ١٠٨ من هذا الكتاب - وراجع مقدمة ابن خلدون ص ١٧٠ فى نهاية فصل فى مراتب الملك والسلطان وألقابهما .

وكان جنكيز خان القائم بدولة التترفى بلاد الشرق - على ماروا ه المقريزى (١) قد قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه « ياسه » ونقشه فى صفائح من الفولاذ وجعله شريعة لقومه . فالتزموه بعده . وكان جنكيزخان لا يتدين بشىء من أديان أهل الأرض . فصار « الياسه » حكما بتابقى فى أعقابه لايخرجون عن شىء من حكمه .

ومن جملة ما شرعه جنكيزخان فى « الياسه » - على رواه المقريزى كذلك - أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن . ومن لاط قتل . ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد ، أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان ، وأعان أحدهما على الآخر ، قتل . ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل . ومن أعطى بضاعة فخسر فيها ، فانه يقتل بعد الثالثة . ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير أذنهم قتل . ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل . وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ، ثم يؤكل لحمه . وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح . . . إلى غير ذلك من الأحكام .

وقد حرف أهل مصر كلمة « ياسه » إلى « سياسة » وأدخلوا عليها الألف واللام فصارت « السياسة » . ثم قال المقريزى عن ملوك مصر وأمرائها وعساكرها فى دولة المماليك ما نصه :

« وكانوا إنما ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد إلى الردىء وفوضوا لقاضى القضاة ، كل ما يتعلق بالأمور الدينية ، من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا اليه النظر فى الأقضية الشرعية ، كتداعى الزوجين

---

(١) راجع الخطط ج ٣ ص ٣٥٧ تحت عنوان « ذكر أحكام السياسة »

وأرباب الديون ، ونحو ذلك .

واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيزخان ، والاقتداء بحكم الياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم ، والأخذ على يد قويهم ؛ وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى « الياسه » .

وجعلوا اليه مع ذلك ، النظر فى قضايا الدواوين السلطانية ، عند الاختلاف فى أمور الاقطاعات ، لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب . وكانت من أجل القواعد وأفضلها ، حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأراضى . فشرعوا فى الديوان ما لم يأذن به الله تعالى ، ليصير لهم ذلك سبيلا إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه .

وكان ـ مع ذلك ـ يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور . هذا وستر الحياء يومئذ مسدول وظل العدل صاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهاب ، فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق ؛ ولا يخرج عن قضية الحياء . إن لم يكن له وازع من دين ، كان له ناه من عقل . ثم تقلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكثر الجور أنيابه وقلت المبالاة ، وذهب الحياء والحشمة من الناس . حتى فعل من شاء ما شاء ، وتعدت ـ منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة ـ الحجاب ، وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى ، وتسلطوا على الناس » . أهـ

وكان أول حكم الحجاب ـ على ما رواه المقريزى أيضا ـ فى جمادى الأولى سنة ٧٤٦ هـ ، فى عهد الملك الكامل شعبان بن الناصر بن قلاوون . وأول الحجاب هو الأمير سيف الدين بيغوا . وجلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة ونحوهم بالأعمال . وأقيم الأمير رسلان بصل ، حاجبا معه يعاونه .

وكان أول قضاء الحجاب بما فى « السياسة » من الأحكام عام ٧٥٣ هـ . فى عهد الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون . إذ رسم للأمير سيف الدين جرجى الحاجب ، أن يتحدث فى أرباب الديون ويفصل بينهم وبين غرمائهم ، وكان هذا من اختصاص قضاة الشرع .

وكان سبب ذلك ، أن تجارا من العجم شكوا إلى السلطان بدار العدل - إذ ذاك - أنهم ما خرجوا من بلادهم إلا لكثرة ما ظلمهم التتار ، وجاروا عليهم ، وأن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدة بضائع ، وأكلوا أثمانها . فأثبتوا أمام القاضى الحنفى إعسارهم وأودعوا سجنه . وقد أفلس بعضهم ولم يستفيدوا هم من وراء سجنهم شيئا . فرسم السلطان الصالح للأمير سيف الدين الحاجب بأن يخرج هؤلاء الغرماء من السجن ، وأن يعمل على استخلاص الديون منهم ، وأنكر السلطان على قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى ما عمله ، ومنع من التحدث فى أمر التجار والمدينين .

فأخرج الحاجب غرماء التجار من السجن ، وعاقبهم ، حتى أخذ التجار أموالهم منهم شيئا بعد شىء . قال المقريزى : « وتمكن الحجاب حينئذ من التحكم على الناس بما شاءوا » .

ويُعد نقل اختصاص النظر فى الديون ، والفصل فيها بغير طريق الشرع ، تعديا على الشرع ، ونزعا لاختصاص القاضى الشرعى وتضييقا لنفوذه ، وإضافة للفصل بين الناس فى بعض منازعاتهم إلى الحاجب ، بعد أن كان عمله مقصورا على الجنود .

وقد تدخل الحجاب من بعد فى كثير من اختصاص قضاة الشرع . وصار للحاجب أعوان . وكان له من قوة نشأته وعظمة رتبته ، وقرب مكانته من السلطان معين على توسيع دائرة نفوذه ، واستشراء شره ، وتضخم اختصاصه . ومسعف على

جمع المال والثراء على حساب المتنازعين .

هذا إلى أن كثيرا ما كان الأمراء الآخرون ، يتدخلون فى القضاء كأنما كانوا - إلى جوار أنهم سلطة تنفيذية - سلطة قضائية ، كذلك ، تفصل فى المنازعات ، ولهم فى ذلك أعوان ونقباء . ومما يدلنا على ذلك ، ما رواه ابن إياس فى سياق تاريخ الغورى قال ما نصه :

« لما اشتد أمر الطاعون وفشا ، أمر - أى السلطان - الأمراء بأن يبطلوا النقباء من أبوابهم ، وألا أحد يشكو إلا من طريق الشرع الشريف » . وكأنه فعل ذلك قربى إلى الله وزلفى ، حتى يدرأ البلاء عن البلاد .

ويبدو لنا أيضا أن بعض علماء الشرع ، ممن أهلتهم كفاءتهم العلمية للفتوى ، كانوا يتصدون للفصل فى المنازعات بين الناس ، وبين من يلجأ إليهم للفصل فى منازعاته ، وشبيه بهذا فى عصرنا الحديث ، المجالس العرفية التى يفصل فيها بعض ذوى الرأى من العلماء والأعيان ، ويسرى حكمهم على المتخاصمين . ويبدو لنا كذلك أن من بين هؤلاء القضاة العرفيين من كان يتناول أجرا على قضائه ، ومنهم من كان يقضى بالمجان . ويفهم هذا من عبارات كثيرة ترد على ألسنة مؤرخى العصر ، ومن ذلك ما ذكره السخاوى فى الضوء اللامع - ج ١ ص ٢٠ - فى ترجمة عز الدين الحنبلى وهو أحمد بن ابراهيم بن نصر الله . إذ قال فى سياقها ما نصه : « وصار يقضى فيما يقصد به فى بيته مجانا . ثم تركه جملة » ، أى ترك القضاء .

القضاء الشرعى

اتبعت مصر فى عصر المماليك ، كثيرا من النظم الادارية التى كانت متبعة فى عصر الأيوبيين ، ومن بينها النظام القضائى . وقد أسس الأيوبيون دولتهم على

أنقاض الدولة الفاطمية الشيعية ، وكانوا سنيين يتبعون المذهب الشافعى ؛ فعملوا على نشره فى البلاد ، وقضوا به فى الأحكام ، وجهدوا فى محو آثار المذهب الشيعى .

ويعتبر رجال الشافعية البلاد المصرية من مناطق نفوذهم ، فعودة قضائها إليهم فى عهد الأيوبيين إعطاء للأمور لأربابها ، ورجوع للمياه إلى مجاريها .

وكان القضاء - إذ ذاك - مقسما إلى دائرتين ، الأولى قضاء القاهرة والوجه البحرى ، والثانية قضاء مصر - الفسطاط - والوجه القبلى ، ويعين فى كل دائرة قاض واحد . وقد تجمع الدائرتان لقاض واحد (١) .

وقد جرى المماليك على هذا النظام فى أول عهدهم بالدولة ، فكان بالبلاد حينا قاضيان ، وحينا قاض واحد ، وهو نادر . وممن اجتمع له قضاء مصر كله بدر الدين السنجارى فى عهد المعز أيبك ، وتاج الدين بن بنت الأعز فى عهد الظاهر بيبرس . ثم تعدد القضاة كما سيأتى .

والقاضى فى دائرته هو المتصرف الوحيد فى شئون القضاء ، وتعرض عليه جميع القضايا على اختلاف أنواعها سواء أكانت جنائية أم مدنية أو زوجية . ويدخل فى اختصاصه النظر فى عقود الزواج والبيع والاجارة والوصية ونظر الأوقاف ورعاية بيت المال ، والعناية بشئون الصلاة والزكاة والصوم ، وما إلى ذلك من شئون الدين (٢) . وهو يقضى فى كل أولئك حسبما يرتئيه فقهه وعلمه وذكاؤه .

---

(١) فى ابن اياس ج ١ ص ١٠٣ أنه كان فى الدول المتقدمة قاض فرد كبير شافعى - وفى صبح الاعشى ج ٤ ص ٣٥ أن الامر فى الاول كان مقصورا على قاض واحد بالديار المصرية من أى مذهب كان

(٢) راجع ما سبق فى حاجب الحجاب ، والخطط ج ٢ ص ٣٥٧ تحت عنوان « ذكر أحكام السياسة » ، وصبح الاعشى ج ٤ ص ٣٤

ويبدو لنا أن القاضى ـ حينذاك وقبل عام ٦٦٣ هـ ـ كان اليه الفصل فى جميع قضايا دائرته مما يدخل فى اختصاصه ، وليس له من الأعوان إلا ما دعت إليهم الضرورة ، بغير تدخل من أحد هؤلاء الأعوان فى شئون القضاء . ومع ذلك كان القاضى يلقب بقاضى القضاة .

يفهم ذلك من عبارات المؤرخين ونعوتهم للقضاة قبل عام ٦٦٣ هـ ، فمثلا قال المقريزى فى سلوكه ـ ج ١ ص ٤٤٨ ـ مانصه « فى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى فوض قضاء القضاة بديار مصر للقاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن القاضى الأعز خلف ، المعروف بابن بنت الأعز » . وقال فى ص ٤٧٢ « وفى ثالث رمضان عزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى ، وذلك كان عام ٦٦٠ هـ .

غير أنه لما ولى تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، قضاء الديار المصرية جميعها ، وكان متشددا فى أحكامه ، ومن شأن هذا التشدد أن يوجه الأحكام وجهة خاصة ، أو أن يؤجل وقت الفصل فيها أو يوغر صدر البعض ممن لا يستريح إلى الفصل بمذهب الشافعى ، أو نحو ذلك ، رأى السلطان الظاهر بيبرس فى عام ٦٦٠ هـ أن يستنيب القاضى تاج الدين بن بنت الأعز عنه ثلاثة قضاة ، واحدا من كل مذهب. وقد قال المقريزى فى ذلك ما يلى بالنص (١) :

« وفى ثالث شهر رمضان ـ أى عام ٦٦٠ هـ ـ عزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى ، عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وأعاد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الاعز . فصار بيده قضاء القضاة بديار مصر كلها . وكان متشددا فى أحكامه ، فرسم له فى ذى القعدة أن يستنيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، فاستنابهم فى الحكم عنه ، ولم يعرف ذلك

---

(١) السلوك ج ١ ص ٤٧٢

بمصر قبل هذا الوقت . فجلس القاضى صدر الدين سليمان الحنفى ، والقاضى شرف الدين عمر السبكى المالكى ، والقاضى شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلى ، فى أول ذى القعدة ، وحكموا بين الناس بمذاهبهم » .

ويفهم من ذلك أن قاضى القضاة تاج الدين ، استناب ثلاثة قضاة من المذاهب الثلاثة الأخرى غير مذهبه . ولم يستنب شافعيا . وأن كلا منهم يسمى « نائب حكم » . غير أن المقريزى عاد فى موضع آخر ، فقال ما نصه (١) :

« وفيها - أى فى سنة ٦٦٠ هـ - أمر بتنصيب أربعة قضاة نوابا لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الاعز ، فاستناب حنفيا ومالكيا وشافعيا . ولم يجد من يستنيبه من الحنابلة ، فولى عاقدا حنبليا » .

ويفهم من ذلك أن قاضى القضاة استناب أربعة لا ثلاثة ، وأن بينهم قاضيا شافعيا ، وأن رابعهم الحنبلى كان عاقدا لا نائبا ، والعاقد أقل مرتبة من القاضى ، وهو الذى يتولى تحرير العقود ، كالبيع والأنكحة .

وذكر السبكى فى طبقاته ، ونقل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة (٢) مايوافق المقريزى فى نصه الأول ، حيث قال :

« سئل تاج الدين - أى ابن بنت الأعز - فى أمر ، فامتنع من الدخول فيه . فقيل له : مر نائبك الحنفى ، وكان القاضى وهو الشافعى ، يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة ، فامتنع من ذلك أيضا » .

ومهما يكن من شىء ، فقد أناب قاضى القضاة عنه نوابا يحكمون بمذاهبهم ، وكان ذلك منذ عام ٦٦٠ هـ . فكان هذا الحادث تمهيدا للحادث الأكبر التالى وهو تعدد القضاة .

---

(١) السلوك ج ١ ص ٥٠١ (٢) الطبقات ج ٥ ص ١٣٤ حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١

ولعل بعض فقهاء المذاهب الثلاثة ـ عدا الشافعى ـ كان بهم تطلع إلى القضاء ومناصبه ، وبنفسهم شىء من استئثار فقهاء الشافعية بها . ومن لطيف ما نسوقه بهذه المناسبة ، ما رواه المقريزى فى مطلع عام ٦٦٢ هـ . حيث قال ما نصه (١) :

« استفتح السلطان هذه السنة بالجلوس فى دار العدل ، فأحضرت إليه ورقة مختومة مع خادم أسود ، تتضمن مرافعة (٢) فى شمس الدين شيخ الحنابلة ، أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته ، لأنه ما جعل للحنابلة نصيبا فى المدرسة التى أنشأها بجوار قبة الملك الصالح ، ولا ولى حنبليا قاضيا . وذكر أشياء فادحة فيه ، فبعث السلطان بها إلى الشيخ ، فأقسم أنه ما جرى منه شىء ، وانما هذا الخادم طرده من خدمته » . فقال له السلطان : « ولو شتمتنى أنت فى حل » . وأمر فضرب الخادم مائة عصا » .

هذا وقد لبث نظام النواب الثلاثة أو الأربعة مرعيا ، حتى كانت سنة ٦٦٣هـ ، فتعدد فيها القضاة .

تعـــدد القضاة

كان نظام النواب تمهيدا واضحا لتعدد القضاة ، وقد أدى إلى الحادثين معا ، ما نسب إلى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز من شدة فى أحكامه ، ومن امتناعه حينا عن الفصل إلا بمذهبه ، وحينا عن أن يأمر أحد نوابه للفصل فى بعض المسائل بمذهبه . وكثير من الناس من يغض بمثل موقف هذا القاضى المتشدد النزيه ، وتقف شدته ونزاهته حينا عقبة فى سبيل تنفيذ بعض الرغبات ، وتلبيتها . ثم لعل هذه الرغبات تجد ملبيا لها ومنفذا ومتسعا فى المذاهب الأخرى ، غير الشافعى . ثم إن هذا القاضى كان لا يقبل شهادة كبار الأمراء (٣) . ولعله كان فى ريبة من أمر عتقهم ،

---

(١) السلوك ج ١ ص ٥٠٣ ، والخطط ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » (٢) المرافعة الشكوى وإقامة الدعوى

(٣) يفهم هذا من الرواية التالية ، ومما رواه السيوطى أيضا فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ . والسبكى فى الطبقات ج ٥ ص ١٣٥

ولقد حنق بعض الأمراء فعلا، على القاضى المذكور، فوسوسوا إلى السلطان الظاهر بيبرس أن يعدد القضاة، وأن يقيم من كل مذهب قاضيا، يحكم بين الناس بأحكام مذهبه.

ويروى فى هذا المقام، القصة التالية، وهى من الأسباب المباشرة التى أدت إلى هذا التعدد (١)، قال المقريزى فى السلوك:

«كان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى، يكره قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز. ويضع من قدره، ويحط عليه عند السلطان بسبب تشدده فى الأحكام وتوقفه فى القضايا التى لا توافق مذهبه. فاتفق جلوس السلطان بدار العدل فى يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجة - أى عام ٦٦٣ هـ - فرفع اليه بنات الملك الناصر قصة، فيها أن ورثة الناصر اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته، فلما مات ذكر ورثته أنها وقف، فعندما قرئت، أخذ الأمير أيدغدى يحط على الفقهاء وينقصهم، فقال السلطان للقاضى تاج الدين: «يا قاضى! هكذا تكون القضاة؟». فقال تاج الدين: «يا مولانا! كل شاة معلقة بعرقوبها». قال: «فكيف الحال فى هذا؟». قال: «إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة». فقال السلطان: «فاذا لم يكن مع الورثة شىء؟».

قال القاضى: «يرجع الوقف إلى أصله، ولا يستعاد الثمن»، فغضب السلطان من ذلك.»

وما تم الكلام، حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال: «يامولانا السلطان! سألت هذا القاضى أن يسلم إلى مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده، لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها، فلم يفعل.». فسأل السلطان القاضى عما قاله، فقال:

---

(١) رواها المقريزى فى سلوكه ج ١ ص ٥٣٩، وذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤، ناقلا عن نهاية الارب للنويرى.

نعم". قال السلطان : أنا أمرته بذلك ، فكيف رددت أمرى ؟ » قال : « يامولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته . فإن كان السلطان : يتسلمه منى أحضرته إليه . » فقال السلطان : « تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى » ؟ قال « نعم » قال السلطان : « لا تدفعه إلا لمن تختاره » .

ثم تقدم بعض الأمراء وقال : « شهدت عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته » ، فسأل السلطان القاضى عن ذلك فقال : « ما شهد أحد عندى حتى أثبته » . فقال الأمير : « إذا لم تسمع قولى فمن تريد ؟ » . قال السلطان : «لم لا سمعت قوله» ؟ فقال : « لا حاجة فى ذكر ذلك . » . . .

فقال الأمير أيد غدى : « يا قاضى ! مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضيا» . فصغى السلطان لقول أيد غدى ، وانقضى المجلس . »

« إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشره ، ولى السلطان القاضى صدر الدين سليمان بن أبى العز بن وُهيب الأذرعى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية . والقاضى شرف الدين عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى . . السبكى المالكى . والقاضى شمس الدين محمد بن ابرهيم الحنبلى ، ليكونوا قضاة القضاة بديار مصر . وجعل السلطان لهم أن يولوا فى سائر الأعمال المصرية ، مضافا لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز . وأبقى على ابن بنت الأعز النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال . وكتب لكل منهم تقليداً ، وخلع عليه . فصار بديار مصر قضاة القضاة من حينئذ أربعة ، يحكم كل منهم بمذهبه » .

ويستنبط من هذا النص جملة أمور :

الأول : أن القضاء تعدد فى عصر الظاهر بيبرس ، وصار بمصر أربعة قضاة ، واحد من كل مذهب ، يحكم بأحكام مذهبه . غير أنه مما رواه السيوطى فى حسن

المحاضرة (١) ، يفهم أن القضاء تعدد مرة أخرى قبل عصر بيبرس. وقد قال مانصه :

« قال ابن ميسر فى تاريخ مصر : « فى سنة خمسة وعشرين وخمسمائة ، رتب أبو أحمد بن الأفضل فى الحكم أربعة قضاة ، يحكم كل قاض بمذهبه ، ويورث بمذهبه. فكان قاضى الشافعية سلطان بن رشا ، وقاضى المالكية أبا محمد عبد المولى بن اللبنى ، وقاضى الإسماعيلية أبا الفضل بن الأزرق ، وقاضى الإمامية ابن أبى كامل . ولم يسمع بمثل هذا . — وقال ابن ميسر : « وقد تجدد فى عصرنا هذا الذى نحن فيه أربع قضاة على الأربع مذاهب » .

هذا وعلى الرغم من فرض نظام التعدد ، ومن أنه صار لكل مذهب قاضى قضاة فى البلاد ، ينيب عنه فى الأحكام ، ورد فى بعض النصوص ما يشعر بأن السلطان قد يعين قاضى قضاة شافعيا للقاهرة والوجه البحرى ، وقاضى قضاة شافعيا آخر لمصر والوجه القبلى فى وقت واحد ، على نمط مما كان متبعا فى أول العصر إلى جانب قضاة القضاة الثلاثة الآخرين . وفى هذه الحالة قد يكون قاضى قضاة القاهرة والوجه البحرى مقدما فى مجلس السلطان وفى الجلوس بدار العدل ، على زميله .

ومن تلك النصوص ما رواه المقريزى فى سلوكه (٢) حيث قال ما ملخصه فى مطلع حوادث سنة ٦٨٦ هـ : فى يوم الأحد نصف المحرم استقر برهان الدين خضر السنجارى فى قضاء القاهرة والوجه البحرى عوضا عن قاضى القضاة شهاب الدين محمد بن احمد الخوبى . . . فنزل السنجارى من القلعة ، وجلس للحكم فى المدرسة المنصورية بين القصرين ، ورُسم له أن يجلس فى دار العدل فوق قاضى القضاة تقى الدين بن بنت الأعز ، فشق ذلك على ابن بنت الأعز ، وسعى أن يعفى من حضور

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ باب ذكر قضاة مصر

(٢) سلوك المقريزى ج ١ ص ٧٣٤

دار العدل . فلم يشعر إلا وقد مات البرهان السنجارى فجأة . . . فاستقر ابن بنت الأعز فى قضاء القاهرة ، وجمع له بين قضاء البلدين » .

الثانى : ان نظام التعـــدد بدأ يوم الاثنين ١٩ من ذى الحجة عام ٦٦٣ هـ ، ويوافق هذه الرواية فى تحديد العام القلقشندى فى صبح الأعشى « ج ٤ ص ٣٥ » والسيوطى فى حسن المحاضرة « ج ٢ ص ١١٣ » وابن الوردى فى تتمة المختصر ، وروى ابن إياس « ج ١ ص ١٠٣ حوادث عام ٦٦٠ هـ » ، ان هـذا النظام كان فى أواخر عام ٦٦٠ هـ.

الثالث : أنه ـ على الرغم من التعدد ـ ظل قاضى قضاة الشافعية ممتازا على سائر زملائه ، وكان يقدم عليهم فى مناسبات كثيرة كالمبايعات والخطابة فى الاستسقاء ، وبقى له النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال . وقد روى السبكى فى طبقاته بهذا الصدد ما نصه ، قال(١) . وأما الظاهر فقلد الشافعى يوم ولاية السلطنة ثم لما ضم القضاة إلى الشافعية استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة البر والأيتام ، وجعلهم الأرفعين » ، وهذه العبارة أوضح من عبارة المقريزى ، وتبين ان اختصاص القاضى الشافعى كان أوسع ، وكان يضم ـ فيما يضم ـ الحق فى تعيين نواب الحـكم دون بقية زملائه . وهذا الحق غير واضح فى عبارة المقريزى ، بل فيها ما يوهم نقيضه حيث قال : « وجعل السلطان لهم أن يولوا فى سائر الأعمال المصرية مضافا لقاضى القضاة تاج الدين » . فعبارته مع اضطرابها توحى بأن السلطان جعل للقضاة الثلاثة ـ مع الشافعى ـ الحق فى تعيين نواب حكم ينوبون عنهم فى الأحكام فى سائر الأعمال المصرية .

---

(١) الطبقات ج ٥ ص ١٣٥ فى ترجمة تاج الدين بن بنت الأعز . ونقـل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢

وقد وضح القلقشندى (١) هذا الحق وحدده بما يناقض رواية السبكى بعض المناقضة حيث قال : « وجعل - أى السلطان - لهم الأربعة أن يولوا النواب بأعمال الديار المصرية ، وأفرد القاضى تاج الدين بالنظر فى مال الأيتام والأوقاف وكتب له بذلك تقليد (٢) من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، أوله: « الحمد لله مجرد سيف الحق على من اعتدى » ، ثم كل من الاربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ، ونصب النواب وإجلاس الشهود ، ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب بنواحى الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه غيره » . ويفهم منه أن القضاة ينيبون عنهم نوابا فى القاهرة والفسطاط فقط ، ويمتاز الشافعى بتعيين نواب له فى الوجهين دونهم .

ومهما يكن من شىء فهذا كله يشعر بأن القاضى الشافعى احتفظ له بكثير من مكانته واختصاصه .

هذا ، وقد طبق هذا النظام فى قضاء دمشق فى عام ٦٦٤ هـ ، فى شهر المحرم . إذ أرسلت فى الشهر المذكور تقاليد بتولية كل من شمس الدين عبد الله محمد بن عطا قضاء الحنيفة ، وزين الدين أبى محمد عبد السلام بن على بن عمر الزواوى قضاء المالكية ، وشمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبى عمر محمد بن قدامة قضاء الحنابلة ، وكان بها شمس الدين أحمد بن خلكان قاضى قضاة ، وكان شافعيا ، فلبث فى قضاء الشافعية .

ومما رواه المقريزى أنه لما وردت التقاليد إلى دمشق لم يقبل المالكى ولا الحنبلى وقبل الحنفى فورد مرسوم السلطان بإلزامهما بالقبول أو أخذ ما بأيديهما من الوظائف

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ (٢) التقليد هو مكاتبة رسمية على لسان السلطان موجهة إلى القاضى يقلده فيها أعماله .

إن لم يقبلا . فأجابا ... ثم أصبح المالكى وعزل نفسه عن القضاء والوظائف ؛ فورد المرسوم بإلزامه ، فأجاب .... وامتنع هو والحنبلى من تناول جامكية على القضاء.

ويبدو أن هذا الأخذ والرد استغرق زمنا . إذ ذكر المقريزى أن استقلالهم بالقضاء كان فى ٦ جمادى الأولى (١) .

محاسن التعدد ومساوئه

هكذا تعددت القضاة فى مصر ودمشق ، وأصبح لأصحاب المظالم والقصص الحق فى عرضها على أى القضاة يختارون ، ويتحاكمون بذلك إلى المذهب الذى يرتضون ، وفى ذلك من التوسعة وحرية التقاضى مافيه . ويمكن بهذا التعدد حل مشاكل عدة كان يصعب حلها حلا مناسبا للظروف والملابسات ، لو اقتصر الأمر على مذهب واحد . وبديهى أن أقل مايقال فى مزايا هذا التعدد أنه أضاف مواد قانونية جديدة متنوعة إلى مواد القانون المقضى به ، فاتسع بذلك مجال الفتوى والرأى . وكل مذهب من هذه المذاهب الشرعية ، يستقى من معين واحد ، هو كتاب الله وسنة نبيه ، جهد فيه أصحابه وجاهدوا ، وقلبوا الرأى على وجوهه ، حتى استقام لهم وبثوا تعاليمهم فى أماكن كثيرة ، فارتضى المسلمون منهم ذلك وأجمعوا على أن مذاهبهم خير ما استنبط من الكتاب والسنة . فلا غضاضة على الشافعية ، من أن يشركهم الحنفية أو غيرهم من فقهاء أهل السنة فى القضاء . لأن الغرض الأول من القانون تيسير القضاء وتحقيق العدالة ، ورعاية المصالح العامة والخاصة بما يوافق الحق . فإذا تعددت مواده ، بغير تناقض فى الباطن بينها ، استطاع القاضى أن يجد خلالها من الأحكام ما يتمشى وملابسات القضية . واستطاع المتقاضيان أن يجدا متسعا لتحقيق ما ينشدانه من عدالة . واستطاعت المصلحة أن تتحقق وترعى بوجه من الوجوه .

---

(١) السلوك ج ١ ص ٥٤٢ حوادث عام ٦٦٤ هـ .

وقد حدث فى سنة ٦٦٥ هـ ، أى بعد أن تعدد القضاء بزمن وجيز ، أن أصلح الأمير عز الدين إيدمر الحلى ، الجامع الأزهر ، بعد أن استأذن السلطان الظاهر بيبرس فى ذلك . فلما تم إصلاحه ، اختلف الناس فى صحة إقامة صلاة الجمعة فيه . ـ وكانت الجمعة وخطبتها قد أبطلتا فيه منذ عهد الأيوبيين ـ فعارض فى إقامة الصلاة قاضى قضاة الشافعية ، وهو تاج الدين بن بنت الأعز ، أيضا . وأفتى قاضى قضاة الحنفية بجواز إقامتها . فحل المشكل ، واجتمع فى الجامع الأزهر خلق كثير يوم الجمعة ١٨ ربيع الآخر فى السنة المذكورة ، وأقيمت بهم صلا الجمعة ، ولم يكتفوا بإقامتها فى جامع الحاكم . وظل الأمر كذلك حتى اليوم .

على أن هذا التعدد كانت له ـ إلى جانب ذلك ـ مساوىء . لأنه يمهد الطريق أمام أرباب القضايا ، ليتحيلوا لبلوغ مآربهم ، يهجرون قاضيا إلى آخر ، ويستبدلون مذهبا بسواه ، متى وجدوا فى ذلك إربتهم . وقد ينجم من وراء هذا التحيل والاستبدال اتساع الخلاف بين المتخاصمين ، واضطرابهم بين جهات الاختصاص . ثم إن فى تعدد القضاء فى البلد الواحد مظهرا للتفريق بين بنيه ، وأداة له . وتهيئة لإثارة الفتن والخلاف بين الفقهاء .

ومهما يكن من شىء فقد سرى العمل بهذا النظام طول عصر المماليك . حتى وحده الأتراك العثمانيون بعد فتح مصر . واتخذوا المذهب الحنفى ، مذهبا لهم يقضون به ، وألغوا نظام القضاة الأربعة ، وجعلوا بالبلاد قاضيا واحدا من الأحناف .

وقد ذكرنا أن قاضى قضاة الشافعية ، كان أرفع القضاة منزلة ، وأكثرهم اختصاصا . وهو المقدم على زملائه ، وأقربهم إلى السلطان مجلسا ، هذا إلا إذا اختص السلطان قاضيا آخر بصحبته ومودته ، كالأشرف الغورى فانه اختص قاضى قضاة الحنفية سرى الدين عبد البر بن الشحنة بمودته . فكان أكثر مجالسة له

وأقرب إليه حديثا . ومثل هذا نادر .

شعور الشافعية نحو تعدد القضاة

كان يقضى فى البلاد بمذهب الإمام الشافعى قبل عصر المماليك ، وبخاصة فى عصر الأيوبيين ، وتلك نتيجة طبيعية لانتشار هذا المذهب فيها أكثر من غيره ، ولاعتناق الأيوبيين له ، وهم سلاطين البلاد وأمراؤها .

وقد أشرنا تلميحا من قبل ، إلى ماقد يكون فى نفوس فقهاء المذاهب الأخرى ، من قصر القضاء على الشافعية . ونشير هنا إلى شعور الشافعية أنفسهم نحو القضاء . وكأنما يقسم أئمة المذاهب ، بلاد المسلمين فيما بين مذاهبهم ، فكل مذهب يختص بمصر دون آخر . وكان نصيب المذهب الشافعى أن اختص بالديار المصرية ، وتوطنها ، واتخذها منطقة نفوذ ، لا يصح أن يجور عليه فيها مذهب آخر . وذلك لأن الإمام الشافعى نفسه قد اتخذ هذه البلاد موطنا ، وفيها نشر مذهبه الأخير ، وكثرت بها تلاميذه ، وتوالى فيها الأئمة المجتهدون على مذهبه . فكأنما صار من حق هذا المذهب أن يحتفظ لنفسه بهذه البلاد ، دون سواه من المذاهب الأخرى . وهى إذا عاشت معه فى ربوعها ، فإنما عيش الجار لا صاحب الدار ...

هذا هو الشعور الذى ساد رجال الشافعية فى الديار المصرية ، ورأوا أن من حقهم الطبيعى أن يكونوا وحدهم قضاتها . فلما تعدد القضاة منذ عصر بيبرس ، وأصبحت المذاهب الثلاثة الأخرى ورجالها ، شريكة للمذهب الشافعى ورجاله ، فيه ، وجد رجال الشافعية فى أنفسهم ، ولم يبد منهم هذا الوجد صراحة ، بل لمحوا إليه تلميحا لا يخفى على اللبيب .

ونسوق هنا بعض أقاويلهم فى هذا الشأن ، ومنها يتضح لنا صدق ما ذكرنا .

قال السبكى فى طبقاته (١) ونقل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة - ما يلى :

« وفى أيامه - أى أيام القاضى تاج الدين بن بنت الأعز - جدد الملك الظاهر القضاة الثلاثة فى القاهرة ، ثم تبعتها دمشق . وكان سبب ذلك أنه سئل تاج الدين فى أمر فامتنع من الدخول فيه . فقيل له : « مر نائبك الحنفى » - وكان القاضى وهو الشافعى ، يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة - فامتنع من ذلك أيضا . فجرى ما جرى . ، وكان الأمر متمحصا للشافعية ، فلا يعرف أن غيرهم حكم فى الديار المصرية ، منذ وليها أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقى ، فى سنة ٢٨٤ هـ ، إلى زمان الظاهر . إلا أن يكون نائب يستنيبه بعض قضاة الشافعية ، فى جزئية خاصة . وكذا دمشق ، لم يلها بعد أبى زرعة المشار إليه . فإنه وليها أيضا ، ولم يلها بعده إلا شافعى ، غير التلاشاعونى التركى الذى وليها يوما ت . وأراد أن يجدد فى جامع بنى أمية إماما حنفيا ، فأغلق أهل دمشق الجامع ، وعزل القاضى . واستمر جامع بنى أمية فى يد الشافعية ، كما كان فى زمن الشافعى - رضى الله عنه - ولم يكن بلى قضاء الشام والخطابة والإمامة بجامع بنى أمية ، إلا من يكون على مذهب الأوزاعى ، إلى أن انتشر مذهب الشافعى ، فصار لا يلى ذلك إلا الشافعية » . وقال أيضا :

« وقال أهل التجربة إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية ، متى كان اليد فيها لغير الشافعية خربت . . . ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعى زالت دولته سريعا ، ... وكأن هذا السر جعله الله فى هذه البلاد ، كما جعله لمالك فى بلاد المغرب ، ولأبى حنيفة فيما وراء النهر . » وقال أيضا :

« سمعت الشيخ الإمام - يعنى أباه تقى الدين السبكى - يقول - : « سمعت

---

(١) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٤ فى سياق ترجمة تاج الدين بن بنت الأعز

صدر الدين بن المرحل ـ رحمه الله ـ يقول : ما جلس على كرسى مُلك مصر غير شافعى إلا وقتل سريعا ». وهذا الأمر يظهر بالتجربة . فلا يعرف غير شافعى إلا قطز ـ رحمه الله ـ كان حنفيا ، ومكث يسيرا وقتل . وأما الظاهر فقلد الشافعى يوم ولايته السلطنة . ، وقال أيضا عن بيبرس بمناسبة أنه عدد القضاء ما نصه :

قيل إنه ندم . وقال : « أندم على ثلاث : ضم غير الشافعية إليهم . والعبور بالجيوش إلى الفرات ، وعمارة القصر الأبلق بدمشق .

« وحكى أن الظاهر رأى الشافعى فى النوم ، لما ضم إلى مذهبه بقية المذاهب ، وهو يقول « تهين مذهبى ؟ البلاد لى أو لك ؟ أنا قد عزلتك وعزلت ذريتك إلى يوم القيامة » . فلم يمكث إلا يسيرا ، ومات ولم يمكث ولده السعيد إلا يسيرا ، وزالت ، دولته، وذريته إلى الآن فقراء » . وقال أيضا عن بيبرس :

« وقد حكى أنه رؤى مع ذلك فى النوم . فقيل : مافعل الله بك ؟ . قال : عذبنى عذابا شديدا بجعل القضاة أربعة وقيل : فرقت كلمة المسلمين » . . . إلى غير ذلك .

ولسنا بحاجة إلى رد هذه الأوهام . فقد تمذهب الحكم فى البلاد بمذهب أبى حنيفة منذ فتحها العثمانيون . وتمذهب حكامها بهذا المذهب . ولم يصب أحد منهم بما وقع فى حدس رجال الشافعية . ثم إننا لا نرى غضاضة على الشافعية أن يشركهم فى القضاء رجال المذاهب الأخرى ، ما دامت وجهة الجميع العدالة والمصلحة الحق لا المناصب والحكم.

تعيين القضاة وعزلهم

كان تعيين القضاة الأربعة منوطا بإرادة السلطان وحده وقد يشير عليه أحد خاصته بتعيين قاض ، ولكن مرد الأمر إليه . وهذا جميل غير أنه ـ مع الأسف ـ

كانت مناصب القضاء ـ وكثير غيرها من المناصب ـ يسعى إليها طالبوها بالمال للوسطاء، بل ومنه ما يدفع للوسيط يتوسط للطالب بين يدى السلطان، ومنه ما يدفع للسلطان نفسه. فكان هذا بمثابة رشوة تقدم للوسيط وللسلطان معا ثمنا للوظيفة، وكان هذا فى جملة أسباب الفساد المنتشرة فى ذلك العصر.

وقد يعجب المرء ـ وقد يشك ـ فى أن يسعى قضاة الشرع إلى الوظيفة بالمال، ولكن هذه هى الحقيقة، غير أنه ليس معنى ذلك أن كل قاض كان يعين بعد أن يدفع مالا ورشوة، بل إن من القضاة من عف عن القضاء ـ كما سيأتى ـ ومنهم من سعى إلى الوظيفة بالمال، بل وكان السلطان نفسه فى بعض الأحيان يرسل إلى أحد العلماء يراوده عن الوظيفة ويساومه فى قبولها لقاء مال يدفعه. والأمثلة على الرشوة موفورة بارزة فى تراجم بعض القضاة. وقد روى أن قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن النقيب، سعى إلى منصبه عدة مرات، وفى كل مرة كان يبذل آلافا من الدنانير، ولا يكاد يتربع فى دست منصبه شهورا حتى يعزل فيعاود مسعاه، وقد قال عنه ابن إياس ما مؤداه: أنه كان فى كل مرة يسعى جاهدا إلى العودة لهذا المنصب على الرغم من وجود قاض يشغله... فيبذل المال الوفير للسلطان وللوسطاء حتى يصل إلى مبتغاه، وبلغ مجموع ما دفعه نحوا من ثلاثين ألف دينار.

ومثل ابن النقيب، القاضى برهان الدين الديرى، قيل: دفع فى سبيل الوظيفة خمسة آلاف دينار. والقاضى بدر الدين المكينى، قيل: سعى بنحو ثلاثة آلاف دينار (١).

وروى ابن إياس (٢) قال: توفى القاضى شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السوسى

---

(١) انظر تراجم هؤلاء القضاة فى الباب التالى وهو «باب القضاة».

(٢) البدائع ج ٢ ص ١١٤ فى حوادث ربيع الآخر عام ٨٧٤ هـ.

المالكى المغربى قاضى قضاة المالكية بدمشق . وولى قضاء الاسكندرية . وكان من أهل العلم والفضل ، وجرت عليه أمور شتى ، وأذهب أمواله جمة على وظيفة القضاء.

وقد استشرى أمر الرشوة على الوظائف - ومنها وظائف القضاء - مما يدفع للوسطاء أو للسلطان ، فى أواخر دولة الجراكسة ، حتى إنه حدث فى عهد الأشرف الغورى عام ٩١٩ هـ ، حادثة (١) رائعة اتهم فيها أحد نواب الشافعية بالزنا ، واعترف بجريمته ثم رجع عن اعترافه . وقد اختلف فى الحكم فيها قضاة القضاة الأربعة ، مع السلطان ، وخالفوا رأيه ، فعزلهم جميعا بعد مشادة عنيفة . وبقيت مصر بلا قضاة خمسة أيام عطلت فيها الأحكام ، ثم عين السلطان مكانهم أربعة قضاة آخرين دون أن يسعوا إلى المناصب بشىء من المال ، فعد بعض المؤرخين هذا التعيين فذا فى بابه ، وقال إنه كان من المستطاع أن تظفر الخزائن السلطانية بنحو عشرة آلاف دينار من وراء هذا التعيين (٢) .

وروى السيوطى (٣) أن الأشرف قايتباى لم يول قاضيا ولا شيخا بمال قط . ويشعرنا هذا بأن التعيين بالمال كأنما كان قاعدة . ثم شذ عنها قايتباى .

غير أن المال الذى يسعى به لم يكن محدودا ، بل أمره موكول إلى همة الطالب. ثم إن المدة التى يقضيها القاضى فى منصبه - لقاء ماله - لم تكن محدودة كذلك ، ولم يكن له من الضمانات ما يكفلها ، فقد يدأب فى السعى اليه ويدفع مايدفع ، ثم يعين فيه ولا يلبث فى دسته غير قليل ، ثم يعزل .

---

(١) اقرأ تفصيل هذه الحادثة فى باب قصص هذا العصر ونوادره فى هذا القسم من الكتاب

(٢) راجع ابن اياس فى ج ٤ حوادث عام ٩١٩ هـ شهر شوال وذى القعدة

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤٢ عند الكلام عن المستنجد بالله العباسى مستطردا إلى ذكر الأشرف قايتباى

ويختار القضاة عادة من أبرز فقهاء كل مذهب ، وممن اشتهروا فيه بالفضل . ولذلك ترى تاريخ قضاة مصر فى تلك الحقبة يضم نخبة صالحة من رجال العلم والفقه، ومنهم من برز فى أكثر من ميدان . ويندر أن يختار قاض ليس فى الصف الأول من رجال مذهبه . وقد اختير القاضى حسام الدين بن حريز لقضاء المالكية عام ٨٦١ هـ ، وكان بين رجال مذهبه من هو أكفأ منه . فكان ذلك مثارا لنقد ابن اياس حيث قال فيه ما مؤداه : انه كان بين المالكية من يعتبر أكفأ منه وأولى بمنصب القضاء ولكنه أسعده حظه . »

وقد ينتقل القاضى من قضاء دمشق الى قضاء الديار المصرية أو العكس، وقد يجمع له بين القضائين ، وهذا نادر . وقد اجتمع للقاضى شهاب الدين بن فرفور الشافعى. وقد ينتقل أيضا من قضاء القدس أو غيرها من النيابات الى قضاء مصر . وكثيرا ما يكون قضاء دمشق وغيرها مرشحا لقضاء مصر . وبهذه المناسبة نذكر واقعة لها مغزاها . وهى أنه لما وقع الجفاء بين قاضى قضاة الشافعية بمصر تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز ، وبين الوزير ابن السعلوس ، وأدى ذلك الى عزله من القضاء ، أراد السلطان الاشرف خليل أن يختار قاضيا من رجال الشافعية بالديار المصرية عوضا عنه . فسألهم واحدا واحدا ، كلا منهم على انفراد عمن يصلح من بينهم لولاية القضاء ، فلم يجد من بينهم إلا من ذم زميله وأهل مذهبه ، ورماهم بمالا يليق (١) . فوقع الاختيار على بدر الدين بن جماعة قاضى القدس وخطيبها .

وقد ينتقل القاضى الى سلك القضاء من سلك غيره كالكتابة مثلا . أو ينتقل من القضاء إلى الكتابة . فمثلا : كان محمد بن أجا الحلبى قاضيا فى حلب ، ثم نقل إلى

---

(١) عن السلوك ج ١ ص ٧٧١

كتابة السر فى عهد الغورى . وكان محب الدين بن الشحنة كاتبا للسر فى عهد الأشرف إينال ، ثم انتقل الى القضاء .

وقد يجمع القاضى بين القضاء ووظيفة أخرى كالقاضى قطب الدين الخضيرى فقد جمع بين الكتابة والقضاء بدمشق فى عهد الأشرف إينال كذلك . وكالقاضى صدر الدين بن العديم الحنفى فقد جمع بين القضاء والحسبة ، وقيل إنه أول من جمع بينهما ، وكالقاضى شهاب الدين أحمد بن فرفور ، فقد جمع بين قضاء الشافعية بدمشق ونظر الجيش ، وهو الذى جمع بين قضاء الشافعية بدمشق ومصر زمنا (١) .

وإذا وقع اختيار السلطان على أحدهم لتعيينه قاضى قضاة ، مثل بين يديه بالقلعة وخلع عليه السلطان خلعة المنصب وتسمى « التشريف » فينزل بها من لدنه فى موكب حافل ، ويكتب له كاتب الانشاء أمرا بتولية القضاء عن لسان السلطان ، ويسمى هذا الأمر « تقليدا » .

ويكتب هذا التقليد بعبارة أدبية طلية مسجوعة بديعية على نمط الأساليب المرعية حينذاك فيها ـ عادة ـ إسهاب وإطالة ، ويذكر فى هذا التقليد الأسباب التى أدت إلى اختيار القاضى وصفاته الممتازة التى أهلته للقضاء ، وجملة من الوصايا والنصائح التى يجب عليه اتباعها لتحقيق العدالة ومراعاة الانصاف ، ونحو ذلك .

أما عزل القضاة ، فقد كان كتعيينهم منوطا بارادة السلطان . وقد يغضب السلطان على القاضى فيعزله ، ولما يتمتع بالوظيفة ، ولما يجب من ورائها ما تاقت إليه نفسه من مال ، أو ما قد يكون دفعه فى سبيل الوصول إليها . وقد يكون مما يغرى السلطان بعزل أحد القضاة ، سعى رجل آخر لديه ليحل فى هذا المنصب .

ومن الحق ـ ونحن بصدد الحديث عن تعيين القضاة وعزلهم ـ أن نذكر أن

---

(١) راجع تراجم هؤلاء القضاء فى الباب التالى

مناصب القضاء ـ وإن كان قد تهافت عليها قوم ـ قد عف عنها كثيرون . ربئوا بأنفسهم عن أن يحملوها أوزارها . أو أن يلوثوها بأجورها . وهم يعلمون تمام العلم أن من حمل عبء القضاء فقد ذبح بغير سكين (١) . فمنهم من رفض القضاء جملة وأباه بل وفر منه ، ومنهم من رضيه كارها لما رأى العدالة تقضى عليه بالرضا . ومنهم من نزه يده عن أن تتناول عليه أجرا ، ومنهم من رعى فيه العدالة وحدها دون الاكثرات بشيء آخر .

والقصص فى ذلك كله كثيرة موفورة . فقد ذكر السخاوى فى كتابه « تحفة الأحباب » (٢) أنه لما توفى قاضى القضاة شمس الدين البساطى المالكى أرسل السلطان جقمق وراء العالم الزاهد الجليل زين الدين عبادة بن على الجرزائى المالكى ، ليلى القضاء ، فاختفى . وقيل سافر من القاهرة ، حتى بلغه أن القضاء تولاه رجل آخر فظهر .

ومن القضاة : عبد الرحيم البارزى المتوفى عام ٦٨٣ هـ ، لما عين فى قضاء حماة أنف أن ينال من ورائه رزقا . وتاج الدين بن بنت الأعز المتوفى عام ٦٦٥ هـ فقد كانت صلابته فى الحق مضرب المثل . وتقى الدين بن دقيق العيد المتوفى ٧٠٢ هـ ، فانه دعى إلى ولاية القضاء فى عهد السلطان العادل كتبغا المنصورى ، فأبى وامتنع امتناعا شديدا ، فهددوه بأن يولوا رجالا لا يصلحون للقضاء ، فخاف حينذاك على العدالة ، وأوجب على نفسه قبول المنصب ، وكان فى قضائه عفا نزيها . ومنهم

---

(١) هذا معنى حديث شريف

(٢) تحفة الأحباب المطبوع على هامش نفح الطيب (ج ٤ ٣٦) . وزين الدين المذكور هو زين الدين بن عبادة بن على بن صالح بن عبد المنعم الانصارى الجرزانى المالكى ، ولد بقرية جرزا بالصعيد ومن أعمال القاهرة سنة ٧٨٠ هـ ، وكان يدرس بالجامع الأزهر وبمدرسة السلطان الأشرف برسباى

زكريا الانصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ ، دعاه الأشرف قايتباى لولاية القضاء ، فزهد فيه وامتنع ، وطفق يشترط ويثقل فى شروطه ، والسلطان يقبل ، حتى قبل هو فى النهاية ، ورضى بالقضاء مكرها ، فلبث فيه مدة ثم عزل نفسه .

وترى فى تراجم كثير منهم أخبارا من هذه الأنواع ، ومنهم من عزل نفسه ، وربما عزلها أكثر من مرة . والقاضى عزالدين بن عبدالسلام ، وابن حجر العسقلانى عزل كل منهما نفسه . وغيرهما كثير .

أعوان القضاة ونوابهم

قد كان للقضاة جند وأعوان ورسل ونقباء - كما كان لحاجب الحجاب - يجلسون ببابهم ، إذا جلسوا للفصل فى الخصومات ، فيقدم إليهم هؤلاء الرسل والنقباء المتخاصمين ، ويتقاضون منهم الأجور ؛ ويقومون بتنفيذ الأحكام والأوامر .

ويبدو لنا أن كل قاض كان له « أمين » أو « نقيب نقباء » وهو رئيس لأعوانه ، وربما تحكم النقيب فى نواب الحكم عوضا عن القاضى (١) . ويتبع قاضى القضاة عقاد الانكحة (٢) ، ونواب الحكم .

ونواب الحكم قضاة صغار ، يعينون فى الجهات المختلفة ليقوموا بالفصل فيما يقدم إليهم من القضايا والخصومات عوضا عن قاضى القضاة فيما لا يستطيع القيام به ، ولا ندرى على التحديد هذه الجهات التى وصفت بأنها من أعمال مصر ، والمفهوم على كل حال أنها بعيدة عن القاهرة كالمحلة أو أشموم .

---

(١) راجع ترجمة زكريا الأنصارى فى الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢

(٢) السلوك ج ١ ص ٨٤٩

وقد ذكرنا فيما سبق ـ نقلا عن المقريزى والسبكى ـ أن السلطان الظاهر بيبرس رسم للقاضى تاج الدين بن بنت الأعز فى عام ٦٦٠ هـ بتنصيب أربعة نواب أو ثلاثة . واحدا من كل مذهب ، ويفهم من هـذا أن أول تنصيب للنواب كان فى العام المذكور .

غير أن السيوطى فى حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١١٠ ، روى عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ما نصه قال : « ولما عزل الشيخ نفسه عن القضاء ، تلطف السلطان فى رده إليه ، فباشره مدة ، ثم عزل نفسه منه مرة ثانية وتلطف مع السلطان فى إمضاء عزله ، فأمضاه وأبقى جميع نوابه من الحكام ، وكتب لكل حاكم تقليدا ، وقد كان عزل الشيخ عز الدين عن القضاء قبل عام ٦٦٠ هـ . فيفهم من عبارة السيوطى أن نظام « نواب الحكم » كان معروفا فى مصر قبل العام المذكور ، غير أن النواب ربما كانوا ـ ويغلب على الظن أنهم كانوا ـ جميعا من الشافعية . فإذا صح هـذا كان الجديد الذى تم فى عام ٦٦٠ هـ هو تنصيب نواب من رجال المذاهب الأخرى .

ثم لما تعدد القضاة ظل قاضى قضاة الشافعية ممتازا على سائر زملائه ـ كما بينا ـ وأوسع منهم اختصاصا . وكان فى جملة ما اختص به تعيين النواب . وقد قال السبكى فى الطبقات ما نصه:

« وأما الظاهر ـ بيبرس ـ فقلد الشافعى يوم ولاية السلطنة ، ثم لما ضم القضاة إلى الشافعية ، استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة البر والأيتام وجعلهم الأرفعين (١) » .

---

(١) سبق أن نقلنا هذا النص فى موضوع آخر . وبينا وجه الخلافة بينه وبين ما رواه المقريزى والقلقشندى .

وصرح القلقشندى فى صبح الأعشى بما يناقض ذلك - فيما يختص بالنواب - حيث قال : « وجعل لهم الأربعة أن يولوا النواب بأعمال الديار المصرية وأفرد القاضى تاج الدين بالنظر فى مال الأيتام والأوقاف» ، ثم قال : « كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ونصب النواب» ، ثم عاد فقال : « ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب بنواحى الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه غيره».

وروى المقريزى فى سلوكه فى حوادث عام ٦٧٠ هـ ما نصه : « ان القضاة الأربعة الذين ولاهم السلطان الملك الظاهر بديار مصر ، كان كل منهم يستنيب قضاة عنه فى النواحى .

وقد روى المقريزى فى سلوكه أيضا فى حوادث عام ٦٧٨ هـ (١) قال : « وفى يوم الجمعة سابع عشريه - أى ٢٧ شوال - كتبت تقاليد القضاة الأربعة . واستقر الحال على أن يكون قاضى القضاة صدر الدين عمر بن قاضى القضاة تاج الدين عبدالوهاب ابن بنت الأعز الشافعى ، هو الذى يولى فى أعمال مصر ، قضاة ينوبون عنه فى الأحكام ، وأن قاضى القضاة معز الدين الحنفى ، وقاضى القضاة المالكى ، وقاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، يحكمون بالقاهرة ومصر خاصة بغير نواب فى الأعمال . فاستمر الامر على ذلك حتى اليوم » .

ويفهم من ذلك أن تعيين النواب كان من حق القضاة جميعا ، ولو فى فترة من الفترات قبل هذا التاريخ وأنه منذ ذلك التاريخ أصبح من حق قاضى قضاة الشافعية دون سائر زملائه . وأن هذا النظام استمر معمولا به زمنا طويلا من بعده .

ويبدو لنا أنه أبيح بعد حين ، لكل قاض أن يعين لنفسه نوابا من مذهبه

---

(١) السلوك ج ١ ص ٦٦٨ حوادث ٢٧ شوال عام ٦٧٨ هـ

ينوبون عنه فى الأحكام . وأن قضاة القضاة اشتطوا فى تعيين نوابهم ، حتى أربى عددهم على مايحتاج إليه . وأن هذا العدد كان أكثر من مائة .

ويفهم هذا كله من عبارة رواها ابن إياس فى حوادث عام ٩١٩ هـ حيث قال ما مؤداه (١) : « إن الأشرف الغورى غضب مرة من قضاته وكثرة نوابهم ، فرسم لهم أن يكون مجموع نوابهم مائة: منهم أربعون يعينهم القاضى الشافعى، وثلاثون يعينهم الحنفى ، وعشرون يعينهم المالكى . وعشرة يعينهم الحنبلى . وقرر معهم ألا يولوا أحدا من النواب إلا بإذنه » .

ويفهم من الجملة الأخيرة ، أن تعيين نواب الحكم كان من اختصاص القاضى وحده ، دون أن يرجع إلى السلطان . فظل للقاضى الحق فى اختيار نوابه ، ولكن لابد من استئذان السلطان .

هذا ويُعزل النائب بناء على رغبة القاضى . كما أن القاضى إذا عُزل من القضاء، كان ذلك عزلا أيضا لجميع نوابه . فإذا عين قاض جديد من بعده ، اختار لنفسه نوابا جددا ، ذلك لأن النائب يستمد صفته القضائية من قاضيه . فإذا عزل زالت عنه هذه الصفة .

ويفهم هذا مما رويناه عن السيوطى خاصا بعزل الشيخ عز الدين بن عبد السلام . فإنه «لما عزل نفسه من القضاء وأمضى السلطان عزله . أبقى جميع نوابه من الحكام ، وكتب لكل حاكم تقليدا ، ولعلها خصوصية لهذا القاضى الكبير .

وقد روى الإدفوى فى كتابه « الطالع السعيد » قال (٢) فى سياق ترجمة على

---

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث ذى القعدة عام ٩١٩ هـ .

(٢) الطالع السعيد للأدفوى ص ٢٠٩ رقم ٣٠٢

ابن عبدالرحيم بن الأثير « إنه كان نائبا فى الحكم عن القاضى تقى الدين بن دقيق العيد. فعزل تقى الدين . ثم ولى القضاء مرة أخرى فولّى من قِبَله قاضيا على جهة أشموم، حيث كان ينوب عنه الشيخ على بن عبد الرحيم . فعجب هذا النائب . ولكنه أخبر أنه عزل بعزل قاضى قضاته » .

أجـــورهم

من البديهى أن يكون للقضاة والنواب أجور يدفعها لهم الأخصام ، بوساطة نقبائهم وأعوانهم . وإلا لما تهافت على مناصب القضاء المتهافتون . ولما سعى إليها الساعون ، وبذل الباذلون . وإن رجلا يتقدم ساعيا إلى منصب القضاء بالمال والوسيط ليضمر فى نفسه - بلا ريب - أن يستعيض عنه بصورة ما . وإن كان من القضاة من عف عن تناول أجره كما بينا .

ويبدو لنا أنه لم تكن لهذه الأجور حدود مرسومة ، ولا قواعد مقررة . وأن أمرها كان فوضى ومتروكا لمشيئة القاضى والنائب وأعوانهما، يقدرونها كما يشتهون وما دامت النفس أمارة بالسوء ، وأن شهوتها لا تقف عند حد ، كان هذا عاملا من العوامل التى أدت إلى ظـــلم الخصوم ، وفرض الأتاوات الباهظة عليهم فى بعض الأحيان. وكان هذا الظلم مثارا للشكاية ومحلا للنظر فى أحيان أخرى .

وقد روى ابن إياس(١) « أن الأمير كرتباى الأحمر لما قُرر فى الوزارة - عام ٩٠١ هـ - أظهر ضروبا من العدل منها أنه حجر على الرسل والنقباء ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصفى فضة ، وأن أحدا منهم لا يقرر رسما على أحد » .

---

(١) البدائع ج ٢ ص ٣٠٥ حوادث سنة ٩٠١ هـ

وروى أن قاضى القضاة محيى الدين بن النقيب ، كان يربح من وظيفته هذه فى كل يوم أشرفيين ، والأشرفى أفضل أنواع الدنانير حينذاك(١) .

وهذه الأجور شبيهة « بالرسوم » التى يدفعها المتقاضون فى عصرنا إلى خزانة المحكمة ، ولكنها اليوم تنضم إلى الخزانة العامة للدولة . أما فى ذلك العصر البعيد فكانت تذهب إلى جيوب القضاة والنواب والأعوان .

وهذه الحالة - كما ذكرنا - تؤدى إلى الجور فى فرض الأجر . وقد تؤدى إلى أكثر من ذلك ، وهو الجور فى الحكم . وقد روى ابن اياس (٢) «أن السلطان الأشرف قايتباى رسم مرة - فى عام ٨٩٤ هـ - بعرض نواب الشافعية والحنفية عليه فلما عرضوا أسمعهم من الكلام ما آذهم وأزعجهم ، ثم أمر بعزل جماعة منهم . وآل الأمر إلى الحجر عليهم فى الأحكام الشرعية ، وإلى أمرهم بعدم سجن الخصوم إلا بإذن من القاضى الشافعى والحنفى ، وعم ذلك سائر النواب ».

وقد كان القضاة - كما نعتقد - يؤدون جزءا من هذه الأجور إلى الخزائن السلطانية . وإلا لما قبض على بعض القضـــاة وعزلوا وحوسبوا حسابا عسيرا ، واستخرج منهم جانب من المال . أو لعل السر فى القبض عليهم وحسابهم واستخراج جانب من أموالهم هو - غير غضب السلطان عليهم - أنهم جبوا هذه الأموال من المتخاصمين ظلما وإرهاقا .

وإذا ما غلا القاضى فى طلب الأجر ولم يتعفف ، انقلب الأجر رويدا رويدا إلى رشوة يدفعها المتخاصمون إلى القضاة لضمان الفصل لصالحهم . وهذا هو ما

---

(١) راجع ترجمته فيما يلى

(٢) البدائع ج ٢ ص ٢٥٥ حوادث عام ٨٩٤ هـ

وقع فعلا . فكما اتهم القضاة بأنهم يدفعون الرشوة فى سبيل الوصول إلى منصب القضاء، اتهموا بأنهم يأخذون الرشوة على القضاء. وهذا شر ما تبتلى به أمة وكان ذلك فى جملة أسباب فساد القضاء.

ولقد قال السلطان سليم العثمانى لقضاة مصر حينما وقعوا فى أسره ومثلوا بين يديه، موبخا لهم: «أنتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء».

ومن طريف ما يذكر بهذه المناسبة قصة (١) قاضى القضاة شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المقدسى الحنبلى. «فقد كان قاضى الحنابلة فى عهد الظاهر بيبرس. وقد حدث أنه فى سنة ٦٧٠ هـ. نحى عن نيابته أحد نوابه، وكان مركزه المحلة الكبرى. فغضب أخو النائب لذلك واسم هذا الأخ تقى الدين شبيب الحرانى. فكتب ورقة للسلطان بأن عند قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام بجملة كبيرة، وقد ماتوا، فاستدعاه السلطان وسأله عن ذلك فأنكر وحلف، وورّى فى يمينه. فأمر السلطان بالهجم على داره، فوُجد فيها كثير مما أدعاه شبيب، بعضه قدمات أهله وبعضه لقوم أحياء. فأخذ السلطان مما وجد الزكاة لمدة سنين. وسلم لمن كان حيا وداعته. وغضب السلطان عليه واعتقله وأوقع الحوطة على داره فى يوم الجمعة ثانى شعبان». قال المقريزى «ولم يول السلطان بعده قضاء الحنابلة أحدا». وهكذا كانت هذه الحادثة سببا فى إسقاط أحد مناصب القضاء ولو إلى حين».

هذه العوامل تجعلنا ننظر بريبة إلى القضاء وأحكامه فى ذلك الزمن البعيد. إذا

---

(١) سلوك المقريزى ج ١ ص ٦٠٢، ٦٠٣

استثنينا بعض القضاة . وقد أصبح القضاء والقضاة حينذاك محلا للتندر والتفكه . وقد قال بعض شعراء العصر فى القاضى ابن النقيب :

قاض إذا انفصل الخصمان ردهما ... إلى جدال بحكم غير منفصل

يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها ... جهرا ويقبل سرا بعرة الجمل

وللشاعر المصرى جمال الدين السلمونى قصة (١) طويلة مع قاضى قضاة الحنفية فى عهد الغورى، وهو عبد البر بن الشحنة . وكانت بينهما خصومة . فنظم السلمونى قصيدة هجاء فى القاضى عبد البر ، رماه فيها بكل كبيرة ، واتهمه علانية بقبول الرشوة . وفى مطلعها يقول :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ... ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها

إذا جاءه الدينار من وجه رشوة ... يرى أنه حل على شبهاتها

أجاز أمورا لا تحل بملة ... بحل وبرم مظهرا منكراتها ... الخ

جلوسهم للقضاء

كان القضاة يجلسون مع السلطان ، إذا جلس للفصل فى الخصومات بدار العدل، وذلك يوم الاثنين فقط ، دون يوم الخميس . وكان السلطان يستشيرهم فى الخصومات ذات الصلة بالشرع . ويبدو لنا أن كل قاض كان يختار لنفسه مسجدا أو مدرسة ، يجلس فيها للفصل فى الخصومات ، وقد قال المقريزى فى سلوكه (٢) عن برهان الدين السنجارى أنه لما عين فى قضاء القاهرة والوجه البحرى ، جلس للحكم فى المدرسة

---

(١) انظر تفاصيل هذه القصة فى الجزء الثالث من هذا الكتاب فى باب أغراض الشعر ، وفى ترجمة السلمونى .

(٢) السلوك ج ١ ص ٧٣٤ حوادث عام ٦٨٦ هـ .

المنصورية بين القصرين .

وإذا جمع القضاة بين قضاء القاهرة ومصر خصصوا يومى الاثنين والخميس لقضايا مصر . ويجلسون فيهما بجامع عمرو بن العاص . ويجتمع حولهم علماء مصر. وقد قال تاج السبكى فى طبقاته فى سياق ترجمة تقى الدين بن رزين مانصه (١)

« كان قضاة القضاة بالديار المصرية إذا جمعوا بين قضاء القاهرة ومصر - كما استقرت عليه القاعدة من الأيام الظاهرية - يتوجهون يوم الاثنين ويوم الخميس إلى مصر ، فيجلسون بجامع عمرو بن العاص ، لفصل القضاء بين الناس . ويحضر عندهم علماء مصر . وكان ابن الرفعة يحضر عند قاضى القضاة تقى الدين مجلس حكمه ، إذا ورد عليهم مصر يوم الاثنين والخميس . وابن الرفعة كان ساكنا مصر ، وقاضى القضاة تقى الدين بالقاهرة ».

القضاة (٢)

نردف مبحث القضاء ، بتراجم موجزة لأشهر قضاة مصر ، من جميع المذاهب ولم نتوخ الاستقصاء والاستيعاب - كما جرينا على ذلك - وإنما هى مُثُل نعرضها . وجدير بهؤلاء القضاة أن يفرد لهم سفر على حدة . ولكن ليس هنا مكانه .

---

(١) طبقات الشافعة ج ٥ ص ١٩

(٢) فى كتب التراجم ، كثير من أخبار هؤلاء القضاة ، مثل : الطالع السعيد ، والدر الكامنة ، والطبقات والفوائد البهية للكنوى الهندى والضوء اللامع ، وحسن المحاضرة ، ورفع الاصر ، ومنها متفرقات فى مثل بدائع الزهور والسلوك . وهذه الكتب مراجعنا فى هذا الباب ، وفى الجزء الثانى من كتابنا هذا تراجم لبعض القضاة فى باب العلماء .

وقد عيننا بتراجم قضاة القضاة بديار مصر ، دون نوابهم ودون قضاة الشام. وأوردناها مراعى فيها عصور ظهورهم وسنوات وفاتهم جهد الطاقة أيضا . فمنهم :

١ ـ عماد الدين الحموى

هو القاسم بن ابراهيم بن هبة الله الحموى . كان شافعى المذهب ، تولى القضاء فى مصر (١) ، وشهد جزءا يسيرا من أوائل عصر المماليك . وصرف عن القضاء فى جمادى الأولى عام ٦٤٨ هـ . ثم ولى قضاء القاهرة ، ثم أعيد إلى قضاء مصر ثانية فى فى شهر رجب من العام المذكور ، ثم عزل فى شوال .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٠ ، ١١١ »

٢ ـ عز الدين بن عبد السلام ٦٦٠ هـ

هو شيخ الاسلام وسلطان العلماء ، عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمى أحد الأئمة المجتهدين الأعلام . وأحد المتعصبين للحق ، والغيورين على سلامة الإسلام وأهله ، المدافعين عنهم المرشدين لهم ، الساعين فى صلاحهم .

ولد عام ٥٧٧ هـ . أو ٥٧٨ هـ . وتفقه على كثيرين ، ونبغ فى مذهب الشافعى ، حتى أصبح رأس الشافعية فى زمانه . واشتهر بالورع والتقوى والصراحة والقسوة فى الدعوة إلى الحق ، وهذا مما يتلاءم مع الفساد المنتشر فى عصره . وقد اشتغل بالتعليم والقضاء والفتوى والتأليف . وتخرج به تلاميذ نابغون .

---

(١) المراد بمصر هنا : مصر عتيقة بلغة عصرنا . وكان لها وللوجه القبلى معا قاض واحد ، وللقاهرة وللوجه البحرى قاض آخر . وهذا فى الغالب قبل تعدد القضاة .

وقد عاش فى دمشق ثم زايلها إلى القاهرة ، لخلاف وقع بينه وبين ملكها الصالح اسماعيل . فاستقر فى القاهرة منذ عام ٦٣٩ هـ . ولبث حتى شهد عصر بيبرس. وكان بيبرس يجله ويعظمه وينتظر رأيه فى مشاكله .

وله حوادث عدة بدا فيها حرصه على أموال المسلمين، وعلى تنفيذ أحكام الدين. وتنسب إليه كرامات متعددة. ومنذ قدومه الى مصر ، وهو يلى قضاءها . فقد ولى قضاء مصر والوجه القبلى عام ٦٣٩ هـ . ثم عزل نفسه بعد حين . وولى التدريس . وما زال ينفع ويدفع ويجاذل ويناضل حتى مات فى جمادى الآخرة عام ٦٦٠ هـ . بالقاهرة ، ودفن بالقرافة الكبرى .

﴿ملحوظة﴾ ترجمنا له بتفصيل فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فى باب العلماء « حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٥ - طبقات السبكى ج ٥ ص ٨٠ » .

٣٠ - بدر الدين السنجارى ٦٦٣ هـ

هو أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن على. كان شافعى المذهب وتعرف بقاضى سنجار - مدينة ببلاد الروم - كان بها قاضيا فى عهد الأيوبيين . وقد فارقها فى ذى الحجة عام ٦٣٨ هـ ، فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت بينهما صلة ود وصداقة ، منذ كان الصالح ببلاد الشام ، وكان هذا القاضى حينذاك - عام ٦٣٨ هـ قد توجه إلى سنجار برسالة من الملك الصالح عماد الدين صاحب دمشق ، فبلغه أن الصالح نجم الدين قد ملك مصر ، فرغب فى اللحاق به ولم يرغب فى العودة إلى دمشق . فاحتال حتى بلغ حماة ، ومنها عاد لمصر عن طريق الساحل ، فتلقاه الصالح نجم الدين تلقيا كريما . وفوض إليه قضاء مصر والوجه القبلى عوضا عن القاضى شرف الدين بن عين الدولة الاسكندرانى (١)

---

(١) هو شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى القاسم الاسكندانى المعروف بابن عين الدولة . من قضاة مصر فى أواخر العصر الأيوبى .

وفى سنة ٦٤٨ هـ فى عهد المعز أيبك عين فى قضاء القاهرة فى شهر رجب ، ثم أضيف اليه قضاء مصر بعد أيام قليلة ، وذلك فى شوال فجمع بين المنصبين .

وقد ورد إلى مصر رسول من قبل الناصر صاحب دمشق ، إلى المعز أيبك عام ٦٤٩ هـ للمفاوضة فى الصلح بينهما فندب لمكالمته القاضى بدر الدين السنجارى . وقد تم الصلح على يده . ثم صرف عن القضاء فى هذا العام .

ولبث أمره فى القضاء بين تولية وعزل وجمع بين المنصبين ، حتى صرف عنه فى عام ٦٥٤ هـ ، ثم عاد إلى قضاء القاهرة فى ربيع الآخر عام ٦٥٥ هـ ، وضم إليه ثانية قضاء مصر فى رجب ، وفى هذا العام ولى الوزارة مع القضا . بعد القبض على الوزير شرف الدين الفائزى ، ثم صرف عن الوزارة فى نفس العام ثم عُزل عن القضاء . وعاد فى أواخر عام ٦٥٩ هـ ثم عزل عن قضاء مصر والوجه البحرى فى ٣ رمضان عام ٦٦٠ هـ . ولما عزل مرة قبض عليه الظاهر بيبرس وسجنه عشرة أيام ثم أطلق سراحه . وقد مات وهو معزول عن القضا . عام ٦٦٣ هـ عن نيف وستين عاما .

وينسب إلى هذا القاضى أنه باع داره مع العلم بأنها موقوفة لا تباع ولا تشترى . فلما مات تقدم الشارون إلى السلطان الظاهر بيبرس بالشكوى ، فنظر فى قصتهم ثم قال لقاضى القضاة - حينذاك - تاج الدين بن بنت الأعز : « ياقاضى ! هكذا تكون القضاة » فقال له : « يامولانا ! كل شاة معلقة بعرقوبها » . وكانت هذه القصة فى

وقد توفى فى ذى القعدة عام ٦٣٩ هـ ، وله قصة طريفة مع الملك الكامل الأيوبى ، ملخصها أن هذا الملك كانت تطلع إليه مغنية اسمها « عجيبة » أولع بها تغنيه بالجنك على الدف ، ثم حضر فى شهادة أمام هذا القاضى فلم يقبل شهادته . فلما أراده على قبولها ندد به ثم عزل نفسه من القضا . (راجع حسن المحاضرة ج ٢ باب قضاة مصر وطبقات السبكى ج ٥ ص ٢٦)

عداد الأسباب التى أوجدت أزمة فى القضاء ، وأدت إلى تعدد القضاة - كما بينا -

والقاضى بدر الدين السنجارى ، هو أخو القاضى برهان الدين السنجارى الآنى ذكره ، وكان يخلفه حينا فى القضا.

« حسن المحاضرة ج ٢ فى بابى قضاة مصر . ووزرا. مصر - السلوك ج ١ »

٤ - تاج الدين بن بنت الأعز ٦٦٥ هـ

هو قاضى القضاة الشافعى المذهب أبو محمد عبدالوهاب بن خليفة بن بدر العلامى المصرى المعروف بابن بنت الأعز . كان جده لأمه يعرف بالقاضى الأعز فخر الدين أبى الفوارس مقدام بن القاضى كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر ، الذى كان وزيرا للملك الكامل بن أيوب ، فغلبت عليه هذه النسبة وقيل ابن بنت الأعز . أما علامة بفتحتين وبغير شدة فهى قبيلة من لخم ، فهو إذن من أصل عربى . وقيل انه عبدالوهاب ابن خلف بن أبى القاسم ، وقد عرف بالذكا. وحدة القريحة والعفة وسداد الرأى ، وقد تولى قضاء مصر فى زمن الأيوبيين وصدر عصر المماليك . وبارك الله فى نسله فكان من أبنائه وحفدته قضاة وعلماء أجلاء منهم : تقى الدين وصدر الدين ابناه ، ومنهم : علاء الدين أحمد ابنه أيضا وفخر الدين حفيده.

وقد اشتهر تاج الدين بالعلم والتقوى والفضل وحسن الرأى وقوة الحجة والشدة فى الأخذ والصلابة فى الحق . وتقلب فى مناصب عدة منها الحسبة والوزراة والخطابة والتدريس والامامة . أما ولاية قضاء البلاد ، فقد كان بدء أمره فى عهد الأيوبيين وقيل إنهم عينوه قاضيا كبيرا على جميع القضاة يولى ويعزل منهم من يشاء ، وبلغ لديهم منزلة سنية .

وفى صدر عصر المماليك تنقل فى مناصب القضا. ، ثم ظل أمره فيه بين عزل وتعيين حتى توفى . وخلاصة حالته هذه أنه فى عام ٦٥٤ هـ ولى قضاء البلاد بعد عزل

بدر الدين السنجارى فى عصر السلطان عز الدين أيبك ، ثم تقلد الوزارة ثم عزل ثم عادت إليه الوزارة فى ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ فى عهد السلطان المنصور بن المعز أيبك . وعين فى قضاء مصر فقط ثم عزل عنه بعد قليل . ولما بدأ عهد المظفر قطز عام ٦٥٧ هـ عزله عن الوزارة فى أوائل حكمه ، فظل بعيدا عن المناصب حتى كان عام ٦٥٩ هـ وكان شهر جمادى الأولى من ذلك العام ، وكان سلطان البلاد بيبرس ، فدعاه ليسند إليه الوزارة فرفض ، ثم دعاه ليجلس على منصة القضاء بعد أن عزل بدر الدين السنجارى ، ولكنه أحب أن يرفض ، فاشترط لجلوسه ذاك شروطا قاسية على السلطان أملا فى أن يعفيه من تقلد هذا المنصب ، ولكن بيبرس أجابه إلى شروطه وقبلها رغبة فيه وثقة به . فتم بذلك تعيينه فى ١٠ جمادى الأولى وصلى بالسلطان صلاة الظهر فى ذلك اليوم ، وتولى أمر القضاء . وأصبح منذ ذلك الحين مهيب المنزلة عند بيبرس ورجال دولته .

وفى عهده بالقضاء حدث حادثان هامان كان له شأن فى كل منها :

الحادث الأول :

تجديد الخلافة العباسية فى مصر . فكان هو المقدم فى الرأى إذ جمعت إليه الشهود ، وقدم إليه أبو القاسم أحمد بن الامام الظاهر العباسى . فشهد الشهود بين يديه بأنه حفيد العباسيين . فكان القاضى تاج الدين أول من بايعه بالخلافة - على رأى - ثم السلطان ، ثم بايعه عز الدين بن عبد السلام ثم الباقون من علماء وأمراء ممن حضر الحفل . وذلك فى عام ٦٥٩ هـ .

الحادث الثانى :

هو حادث تعدد القضاة وسنشير اليه من بعد .

ظل تاج الدين فى القضاء حتى عزل فى شوال من العام المذكور عن قضاء مصر والوجه

القبلى ، وتولى مكانه برهان الدين السنجارى وبقى هو قاضيا فى القاهرة والوجه البحرى فقط ، حتى كان يوم ٣ رمضان سنة ٦٦٠ هـ فعزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى عن قضاء مصر والوجه القبلى وضمهما إلى تاج الدين بن بنت الأعز ، وبذلك صار قاضيا بديار مصر جميعها . غير أنه نظرا إلى شدته وصلابته وتوقفه فى بعض الأحكام ، اضطر السلطان إلى أن يرسم له فى شهر ذى العقدة من نفس العام أن يستنيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية ، والمالكية والحنابلة ، فاستنابهم فى الحكم ؛ أى صاروا « نواب حكم » وكانت هذه أول مرة ينيب فيها قاضى القضاة : كما أنها أول تمهيد عملى أدى إلى تعدد القضاة . وقد استناب القاضى تاج الدين عنه ثلاثة أحدهم حنفى والثانى مالكى والثالث حنبلى . وحكموا بين الناس بمقتضى مذاهبهم . غير أن القاضى تاج الدين لم يجد من الحنابلة رجلا كفئا للمنصب ، فاكتفى بأن ولى منهم عاقدا يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج والوصية والهبة وما شابه ذلك .

لم تكن شدة قاضى القضاة تاج الدين سببا فى هذا فقط ، ولكنها أوغرت صدور بعض الأمراء عليه ، لأنه كان لا يقبل شهادتهم فى القضايا . ومن بين الحاقدين الأمير جمال الدين إيدغدى العزيزى الذى ظل يحط من قدر قضاة الشرع لدى السلطان بيبرس . وانتهز فرصة مظلمة رفعت إلى السلطان من بنات الملك الناشر ، أن ورثته اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته ، فلما مات قال ورثة القاضى إن الدار موقوفة ، فقال السلطان للقاضى تاج الدين ـ وكان قاضى قضاته ـ يا قاضى ! هكذا تكون القضاة فقال تاج الدين : « يا مولانا كل شاة معلقة بعرقوبها » قال : « فكيف الحال فى هذا ؟ » قال : « إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان : « فإذا لم يكن مع الورثة شىء ؟ » قال القاضى : يرجع

الوقف إلى أصله ولا يستعاد الثمن ! » فغضب السلطان من ذلك . لأن معناه ضياع حق الشارين إذا ثبت الوقف ولم يكن فى ميراث القاضى البائع ما ينهض بالثمن .

ثم حدثت حادثة أخرى ، وهى أنه قدم رسول أمير المدينة المنورة ليتسلم من قاضى القضاة ما يخص فقراءها من ريع الوقف . ولم يكن الشيخ ليعرف هذا الرسول ، فرده دون أن يعطيه شيئا . فشكا إلى السلطان بمحضر من القاضى . فسأل السلطان القاضى عن سبب امتناعه . فقال : « يا مولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته ، فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه ! » فقال السلطان : « تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى » ؟ قال : نعم . قال السلطان : « لا تدفعه إلا لمن تختاره » .

هذه حوادث تشهد بصلابة هذا الرجل العظيم ، وتشدده فيما يراه أنه حق . وكانت هذه الحوادث من الممهدات إلى تعدد القضاة . إذ انتهز الأمير إيدغدى هذه الفرصة وأوحى إلى السلطان بيبرس بوجوب هذا التعدد ، ليجدوا مندوحة فى المذاهب الأخرى وآراء رجالها ، عن مثل هذا الوقوف فى القضايا والمشاكل . ثم قال الأمير للقاضى : « يا قاضى مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضيا » . فلما كان يوم الاثنين ١٩ من ذى القعدة عام ٦٦١ هـ ، صدر أمر السلطان بيبرس بتعيين ثلاثة قضاة آخرين واحد من كل مذهب . أى واحد حنفى وآخر مالكى وثالث حنبلى . وتم بذلك تعدد القضاة على نحو ما بينا فى الباب السابق ، وبقى تاج الدين قاضى قضاة الشافعية ، مضافا إليه النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال ، ومع هذا التعدد بقى ابن بنت الأعز مهيب الجانب مقدم المنزلة .

وعندما أصلح الأمير عز الدين إيدمر الحلى الجامع الأزهر . وجهد فى تجميله وانتزاع الأموال له من السلطان والأمراء ، وتم إصلاحه عام ٦٦٥ هـ وفرشه وجدد

فيه مقصورة ومنبرا ، أحب أن تصلى فيه صلاة الجمعة ويخطب فيها، فتنازع الناس فى جواز ذلك . ومنعه القاضى تاج الدين ولم يمنعه الأحناف وتمت بفتواهم الصلاة والخطبة .

هذا وقد ولى تاج الدين من المناصب الأخرى نظر الأحباس وتدريس القبة الشافعيه ، والصالحية وغير ذلك . وقد توفى فى يوم الأحد ٢٧ رجب عام ٦٦٥ هـ ، عن ٥١ سنة . وفى حسن المحاضرة أنه مات فى ١٧ من رجب المذكور .

« نهاية الارب ج ٢٨ ص ٦٢ - السلوك ج ١ - صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ ، ١١٢ - ابن إياس ج ١ ص ١٠١ ، ١١٢ - طبقات السبكى ج ٥ ص ١٣٣ - راجع تراجم أبنائه وأحفاده فيما يلى » .

٥ - محيي الدين عبد الله بن شرف الدين بن عين الدولة ٦٧٨ هـ

هو قاضى القضاة محيي الدين أبو الصلاح عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن صدقة بن حفص الصفراوى الاسكندرانى المعروف بابن عين الدولة . شافعى المذهب . تولى قضاء مصر والوجه القبلى بعد وفاة قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وورد له المرسوم بذلك فى يوم الخميس ٩ شعبان سنه ٦٦٥ هـ ، فلما كان عهد الملك السعيد بن بيبرس عُزل فى ١٨ ذى القعدة عام ٦٧٦ هـ ، فظل مصروفا حتى توفى فى ٥ رجب سنة ٦٧٨ هـ وقد نيف على الثمانين.

« سلوك المقريزى ج ١ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ ، وراجع ترجمة أبيه فى طبقات الشافعية لابن السبكى ص ٢٦ ج ٥ »

٦ - تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموى

هو قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية ، تقى الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن رزين بن موسى بن عيسى بن موسى العامرى الحموى . ولد بحماة سنة ٦٠٣ هـ .

وحفظ كثيرا من كتب الفقه والاصول والنحو والكلام والقراءات. وأخذ عن جلة علماء عصره. وتولى بدمشق وظائف عدة منها التدريس ووكالة بيت المال. ثم يمم شطر مصر، فاشتغل بالتدريس، حتى توفى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز فى رجب عام ٦٦٥ هـ. فأسند إليه قضاء القاهرة والوجه البحرى فى شعبان من تلك السنة. فامتنع عن أن يتناول عليه أجرا. وعرف بالفقه وحسن الرأى وصدق النظر وحسن الفتوى. ولما عزل محيى الدين بن عين الدولة فى ١٨ ذى القعدة سنة ٦٧٦ هـ ضم اختصاصه إلى اختصاص ابن رزين، فتم له قضاء مصر كله. ثم عزل فى رجب سنة ٦٧٨ هـ. (١) لتوقفه فى خلع الملك السعيد بن بيبرس. وتولى القضاء مكانه صدر الدين بن بنت الأعز، فظل حتى عزل نفسه فى رمضان سنة ٦٧٩ هـ. فأعيد مكانه تقى الدين بن رزين، فظل فى القضاء حتى توفى فى ٣ رجب عام ٦٨٠ هـ. وله ولد من كبار علماء العصر هو صدر الدين عبد البر.

« سلوك المقريزى ج ١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ - طبقات السبكى ج ٥ ص ١٩ ».

٧ - صدر الدين بن بنت الأعز ٦٨٠ هـ

هو قاضى القضاة، عمر بن تاج الدين بن بنت الأعز، عبد الوهاب العسلامى الشافعى. ولد عام ٦٢٥ هـ، وترعرع فى كنف أبيه تاج الدين. وأخذ عنه وعن علماء عصره، الفقه والحديث. ونشأ ورعا تقيا ديّنا، حتى كان أبوه - على جلال

---

(١) فى سلوك المقريزى ج ١ ص ٦٥٧ مايفهم منه أنه عزل قبل رجب بنحو شهرين.

قدره - يتبرك به . كما نشأ صلبا فى الحق ، عيوفا عن الباطل ، لايحب المزاح ولا الهزل ولا الضحك .

وفى شهر رجب عام ٦٧٨ هـ مات القاضى محيى الدين بن عين الدولة ، وكان بيده قضاء مصر والوجه القبلى. وعُزل القاضى تقى الدين بن رزين ، وكان بيده قضاء القاهرة والوجه البحرى ، فلما وقع ذلك ، أسند قضاء مصر كله إلى صدر الدين عمر ابن تاج الدين بن بنت الأعز . وذلك فى أوائل عهد الملك العادل سلامش عام ٦٧٨ هـ (١) .

فلما ولى القضاء سار فيه على سنة أبيه تحريا للحق ، وذودا عنه وصلابة فيه . ثم عزل نفسه فى رمضان عام ٦٧٩ هـ ، واشتغل بالتدريس وتنظر على المدرسة الصالحية ، فلبث حتى توفى فى ١٠ المحرم عام ٦٨٠ هـ عن خمس وخمسين سنة .

« السلوك ج ١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٣ - طبقات السبكى ج ٥ ص ١٣١ »

٨ — وجيه الدين البهنسى ٦٨٥ هـ

هو أبو محمد وجيه الدين عبد الوهاب بن سديد الدين أبى عبد الله بن الحسين بن عبد الوهاب المهلبى البهنسى . كان فقيها عالما بالأصول والنحو متدينا . اشتغل زمنا طويلا بالتدريس والمناظرة . وقد كان به حب للفكاهة والنكتة . وقد تولى قضاء البلاد كلها بعد وفاة ابن رزين عام ٦٨٠ هـ فى ٢٧ شعبان ، ثم عزل عن قضاء القاهرة والوجه البحرى استجابة لطلبه ، إذ قال إنه يضعف عن أن يجمع بين كل جهات القضاء . واستمر بيده قضاء مصر والوجه القبلى إلى أن توفى فى جمادى الآخرة عام ٦٨٥ هـ . وهو شافعى المذهب .

---

(١) فى السلوك ج ١ ص ٦٥٧ أن ولايته القضاء كانت فى منتصف جمادى الأولى عام ٦٧٨ هـ

ولما مات انتقل قضاء مصر والوجـــه القبلى إلى تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز .

« طبقات السبكى ج ٥ ص ١٣٣ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ — السلوك ج ١ » .

٩ — برهان الدين السنجارى ٦٨٦ هـ

هو أبو محمد الخضر بن الحسين بن على . أخو القاضى بدر الدين السالف ذكره وهو أيضا شافعى المذهب وأدرك عهد الأيوبيين وطرفا من عصر المماليك . ولعل أول مرة ولى فيها منصب القضاء كانت فى رمضان عام ٦٥٤ هـ . وفى شوال سنة ٦٥٩ هـ كان قاضيا على مصر والوجه القبلى ، بدل القاضى ابن بنت الأعز إذ صرف عن قضاء هاتين الجهتين وقصر أمره على قضاء القاهرة والوجه البحرى . وقيل عوضا عن الوجيه البهنسى . ثم صرف السنجارى عن قضاء مصر فى رمضان سنة ٦٦٢ هـ . ويظهر أنه طل بين تعيين وعزل فى القضاء حتى كانت سنة ٦٧٧ هـ وكان شهر ذى القعدة ، فاختاره الملك السعيد ناصر الدين بن بيبرس ليلى الوزارة عوضا عن بهاء الدين بن حنا . فظل بها عصره وعصر أخيه العادل سلامش حتى عصر المنصور قلاوون فثبته فى منصبه . غير أنه ما لبث أن ساءت ظنونه فيـه فعزله من الوزارة فى ٢٦ رمضان سنة ٦٧٨ هـ ، وقبض عليه وعلى ولده شمس الدين عيسى ، وأخذت خيولهما وخيول أتباعهما ، وسجنا فى دار الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . وصودر أتباعهما وحكم عليهم بأن يدفعوا مغرما مقداره مائتا ألف وستة وثلاثون ألفا . ثم أفرج عن برهان الدين السنجارى ، بعد قليل فلزم مدرسة أخيه بالقرافه .

وفى أواخر جمادى الثانية عام ٦٧٩ هـ أعاده السلطان قلاوون إلى الوزارة، وعزل عنها الصاحب فخر الدين بن لقمان، ولكنه ما لبث أن عزل مرة ثانية وذلك فى ربيع الأول عام ٦٨٠ هـ، وقبض عليه وعلى ولده واعتقلا بقلعة الجبل. وصودرت أمواله وأهين. ثم أطلق سراحه بعد زمن حتى كان يوم ١٠ ربيع الأول من عام ٦٨٢ هـ، فأسند إليه التدريس بمدرسة بجوار ضريح الإمام الشافعى. فلبث بهذا المنصب زمناحتى كانت سنة ٦٨٦ هـ، وكان يوم الأحد ١٥ المحرم، فأسند إليه منصب قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى. وجلس للفصل فى القضايا بالمدرسة المنصورية بين القصرين. ورُسم له أن يجلس فى دار العدل فوق قاضى القضاة تقى الدين بن بنت الأعز. قيل: فشق ذلك على ابن بنت الأعز، وسعى فى أن يعفى من حضور دار العدل. فلم يشعر إلا وقد مات البرهان السنجارى فى ٩ صفر من ذلك العام فجأة، وذلك بعد أن ولى القضاء لآخر مرة نحو ٢٤ يوما. وتوفى وسنه نحو سبعين سنة. وقد دفن بعد أن صلى عليه ابن بنت الأعز تقى الدين.

ملحوظة: ورد فى طبقات السبكى ج ٥ ص ٥٥ اسم لأحد قضاة القضاة شبيه باسم برهان الدين المذكور هنا إذ قال «الخضر بن الحسن بن على، الوزير الكبير قاضى القضاة برهان الدين السنجارى». إلى آخره. ولكن سياق ترجمته لا يدل على أنه هو القاضى الذى ترجمنا له هنا. إذ أورد السبكى أنه توفى عام ٦١٨ هـ، وقد نيف على الثمانين.

«سلوك المقريزى ج ١، وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١١١ إلى ١١٣، وطبقات السبكى ج ٥ ص ٥٥ ورفع الاصر».

١٠ - شهاب الدين محمد الخوبى ٦٩٣ هـ

محمد بن أحمد بن خليل من قضاة الشافعية. وهو الخُوَيِّى منسوب إلى خُوية بلدة بأذربيجان.

وقد كان متوليا قضاء حلب ثم عزل . وعين مكانه نجم الدين أبو بكر بن سنى الدولة، وذلك فى عام ٦٧٨ هـ فى عهد السلطان المنصور قلاوون . ولما طلب قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى أن يقال من بعض نواحى القضاء ، أقيل من قضاء القاهرة والوجه البحرى ، وبقى بيده قضاء مصر والوجه القبلى . فأسند قضاء القاهرة والوجه البحرى إلى القاضى شهاب الدين محمد الخويى . وذلك فى أول رجب سنة ٦٨١ هـ وكان قبيل ذلك يشغل نيابة الحكم فى قضاء الغربية من أعمال مصر . ولما كانت أوائل سنة ٦٨٦ هـ انتقل الخويى إلى قضاء دمشق وترك قضاء القاهرة فأسند إلى برهان الدين خضر السنجارى كما مر فى ترجمته . وقد عاش الخويى حتى توفى فى سنة ٦٩٣ هـ . وكان ميلاده فى رجب عام ٦٢٦ هـ .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ ، ١١٣ - وسلوك المقريزى ج ١ - رفع الاصر »

١١ - تقى الدين بن بنت الأعز ٦٩٥ هـ

وهو قاضى القضاة عبد الرحمن بن تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، وأخو قاضى القضاة صدر الدين عمر . كان عالما فقيها . ذكيا فصيح اللسان محبا للأدب ، شاعرا مجيدا ومدرسا نافعا . تأدب وسمع الحديث : وانتفع بعلم أبيه وأفذاذ عصره كعز الدين بن عبد السلام . وكان شافعى المذهب . وقد كان فى سنة ٦٨٠ هـ واليا على الخزائن المعمورة فى عهد الملك المنصور قلاوون . وفى ١٠ المحرم من تلك السنة توفى أخوه صدر الدين ، وكان ناظرا على المدرسة الصالحية والتربة الصالحية . فصدر مرسوم الملك المنصور ، بأن يخلفه فى النظر أخوه تقى الدين ، مضافا إلى ما بيده من نظر الخزائن ، بشرط أن يكتفى بالأجر الذى يصله من المدرسة والتربة فقط ويحذف اجره من نظر الخزائن . فتم ذلك .

ولما توفى القاضى وجيه الدين البهنسى عام ٦٨٥ هـ ، وكان بيده قضاء مصر والوجه

القبلى اختير لهذا المنصب من بعده القاضى تقى الدين . فتم تعيينه فيه فى يوم الأربعاء ١٥ جمادى الأولى من العام المذكور .

ولما نقل القاضى شهاب الدين الخوبى من قضاء القاهرة والوجه البحرى إلى قضاء دمشق ، وأسند منصبه هذا الى القاضى برهان الدين السنجارى فى نصف المحرم سنة ٦٨٦ هـ ، نزل السنجارى فجلس للحكم فى المدرسة المنصورية بين القصرين . ورُسم له أن يجلس فى دار العـــدل فوق قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن بن تاج الدين بن بنت الأعز . فشق ذلك على القاضى تقى الدين وسعى أن يعفى من الجلوس للحكم فى دار العدل . ولكنه مالبث أن شعر بموت برهان الدين السنجارى فى ٩ صفر فجأة بعد ولايته ٢٤ يوما . فانضم قضاء القاهرة والوجه البحرى إلى قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن . وبذلك أصبح قضاء البلاد كلها فى قبضة يده مع نظر الخزائن المعمورة . وأصبح ذا مكانة ممتازة . حتى لقد عرض السلطان المنصور عليه أن يلى الوزارة وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٨٧ هـ فامتنع . فوليها الأمير بدر الدين بيدرا ، وأمره السلطان بمشاورة ابن بنت الأعز تقى الدين ، وأن يعمل بمايشير به عليه . وقيل بصدد هذا إن السلطان كان إذا دخل عليه القاضى تقى الدين ـ وهو يومئذ ناظر الخزانة ـ يقول له : يا قاضى ! كيف حال ولدك بيدرا فى وزارته ! فيقول له : « باخوند ! ولد صالح ، دخلت بولايته الجنة . وأزلت الظلم واستجلبت لك الدعاء . والذى كان يحصل بالعسف حصل باللطف » .

وصار القاضى تقى الدين يدخل على بيدرا كل يوم أربعاء وينظر فى تصرفاته ويفتش عمله ويشير عليه بما يفعل . ثم لم يلبث بيدرا أن عزل فى ١٩ ربيع الآخر من نفس العام ، واستدعى قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن ليلى الوزارة مع ما بيده من القضاء ونظر الخزانة . فقبلها بعد أن قبلت شروطه التى قدمها . غير أنه

- كما يقول المقريزى - لم يوف كل هذه المناصب حقها لانقسام وقته فيما بينها ، ولتشعب عمله فيها . إذ كان يجلس فى اليوم الواحد مرة فى دست الوزارة ومرة فى مجلس الحكم ومرة فى ديوان الحكم ولم يوف منصب الوزارة حقه لتمسكه بظاهر الأمور الشرعية . . . ! فأعفى من الوزارة وأعيدت إلى الأمير بيدرا بعد قليل .

وبعد زمن يسير أسندت الوزارة إلى ابن السلعوس ، وذلك فى أوائل حكم السلطان الأشرف خليل ، لأنه كان من أصفيائه وخلصائه . وفوض إليه أمور دولته حتى عظم شأنه ، وأصبح صاحب الكلمة الأولى فى الدولة ، واستهان بغيره من أمراء وكبار موظفين . ولعل قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن لم يعترف بتلك العظمة الباطلة التى بلغها ابن السلعوس ، فلم يعامله بالتجلة المناسبة . ولهذا كرهه ابن السلعوس وطفق يكيد له لدى السلطان حتى عزله عن جميع المناصب التى كان يتولاها وقيل إنه كان يتولى سبعة عشر منصبا ، منها : قضاء الشافعية فى الديار المصرية كلها وخطابة الأزهر ونظر الخزانة ومشيخة الشيوخ ونظر تركة بيبرس وأوقافه وجملة دروس . وقد تم هذا العزل فى رمضان عام ٦٩٠ هـ . وتولى القضاء من بعده بدر الدين بن جماعة .

ولما عزل القاضى تقى الدين عبد الرحمن ، عز أمره على جماعة من الأمراء منهم الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . فتقدم هذا الأمير إلى السلطان الأشرف خليل ، وشفع لديه فى القاضى تقى الدين واتفق وإياه على أن يتولى قضاء الشام . فعلم عدوه ابن السلعوس بالأمر . فما كان منه إلا أن دبر له مؤامرة دنيئة ، اتهمه فيها بأنه يلوط وأنه كافر ، وأنه يتشبه بالنصارى . ولم يعجزه أن يسوق الشهود لإثبات ذلك . حتى اندفع السلطان إلى أن حكم على القاضى البرىء بأن يُركب حمارا ويشهر فى الطريق . . . فقبض عليه الوزير ونكل به وسجنه ، وطالبه بمال كثير وألحق به ضروبا من

الإهانة . وما زال أمره فى محنة ، حتى شفع فيه لدى السلطان الأمير بدر الدين بيدرا ، بناء على طلب الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى . فأطاق السلطان سراحه بعد أن لبث فى السجن أياما ، وغُرم غرما ماليا طائلا . وقد استمرت محنته إلى أخريات العام المذكور ٦٩٠ هـ بفضل حنق ابن السلعوس عليه . ولم تهدأ هذه المحنة إلا قليلا من الزمن ، تولى خلاله التدريس فى المدرسة الناصرية بجوار ضريح الإمام الشافعى . وبسببها طولب بأن يؤدى مالا وسئل فى ذلك وأهين مرة ثانية وادعى عليه بالباطل ، ثم سجن مرة أخرى . وظل فى السجن حتى أول شهر رمضان عام ٦٩٢ هـ . فأفرج عنه . ولم يجد الرجل بدا من أن يداهن ويتملق حتى ينجو من الشر . فأنشأ قصيدة يمدح بها الوزير ابن السلعوس باعث محنته ومسبب كربته . فقبلها منه ومن ثم ثبتت براءته ! وأذن له فى المسير إلى مكة ليؤدى فريضة الحج . بعد طول هذه الإهانة ، وبعد بذل هذا الغرم الكبير الذى قيل إنه بلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار

قيل إنه لما حج وزار قبر النبى عليه السلام ، كشف رأسه واستغاث به ومدحه بقصيدة دالية - سنذكرها ونذكره فى باب الشعر بالجزء الثالث من هذا الكتاب - فلم يصل إلى القاهرة إلا وقد أزال الله مُلك الأشرف خليل فقتل . أما وزيره ابن السلعوس فقد سجن وعذب حتى مات ، وهكذا تقلبت الأحوال . وبدأت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهى السلطنة الأولى . وكان وزيره فيها الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . وذلك فى أوائل المحرم عام ٦٩٣ هـ . فعزل القاضى بدر الدين ابن جماعة من قضاة الشافعية وأسند فى ١٩ صفر إلى القاضى تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز كما كان . وسمى ذا الرئاستين . وقد وصل إليه خبر عودته إلى القضاء قبل وصوله إلى القاهرة . فظل فى منصبه هذا حتى شهد عهد الملك العادل زين الدين كتبغا

المنصورى ثم وافته منيته فى ١٦ جمادى الأولى عام ٦٩٥ هـ . وكان ميلاده فى ١٢ رمضان عام ٦٢٩ هـ

وولى القضاء من بعده تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى .

« طبقات السبكى ج ٥ ص ٦٤ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ ، ١١٣ - تاريخ ابن الوردى ج ٢ حوادث عام ٦٩٥ هـ - فوات الوفيات ج ١ ص ٣٢٧ - سلوك المقريزى ج ١ - رفع الاصر » .

١٢ - تقى الدين بن دقيق العيد ٧٠٢ (١)

هو قاضى القضاة العف الورع ، تقى الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى المنفلوطى المعروف بابن دقيق العيد . ولد بناحية ينبع سنة ٦٢٥ هـ ، وكان أبوه حينئذ متوجها من قوص إلى مكة لأداء فريضة الحج . وقد نشأ مباركا ذكيا جليل النظر حسن الاستنباط . وتمذهب كأبيه بمذهب الإمام مالك ثم عدل عنه إلى مذهب الشافعى ، حتى أصبح فيه قدوة وإماما ، ونبغ فى الفقه والحديث والأصول والنحو . وله باع طويل فى الشعر والكتابة والوعظ والتأليف والتدريس . وأكب على الاطلاع والدرس وتتلمذ للشيخ عز الدين بن عبدالسلام وغيره من الأفاضل .

وقد تولى التدريس بالمدرسة المجاورة لقبة الشافعى فى شهر رجب سنة ٦٨٠ هـ . ولما توفى القاضى الشافعى تقى الدين ابن بنت الأعز عام ٦٩٥ هـ ، اختير تقى الدين ابن دقيق العيد ليلى منصب القضاء ، وذلك فى دولة العادل كتبغا المنصورى ، فتأبى وامتنع . فهددوه بأن يولوا القضاء رجالا لا يصلحون له ، فخاف تقى الدين وأوجب على نفسه القبول خشية على العدالة . وقد قام بمهمة القضاء خير قيام بعفة ونزاهة

---

(١) روى ابن إياس أنه توفى عام ٧٠٤ هـ .

ومهارة وحكمة حتى أجله السلطان وعظمه الأمراء. واشتد فى الحق شدة شبيهة بشدة القاضى تاج الدين بن بنت الأعز. وغير لباس القضاة من الحرير إلى الصوف. ومما يدل على شدته أن الأمير منكوتمر نائب السلطنة فى عهد السلطان لاجين أراده على أن يقضى لشخص بإرث رجل متوفى باعتبار أنه أخوه، فرفض القاضى تقى الدين على الرغم من إلحاح منكوتمر عليه وتحيله. وهم بترك القضاء لولا إلحاح السلطان عليه. والسبب فى ذلك أن الأدلة لم تقم لديه كاملة على الأخوة المذكورة، إلا شهادة منكوتمر وحده. ومما يدل على ذلك أيضا أنه فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية، أراد السلطان ما لا من الرعية لإنفاقه على تجريدة له إلى بلاد الشام، واحتاج فى ذلك إلى فتوى من القاضى تقى الدين بن دقيق العيد فرفض. فاحتجوا عليه بفتوى العز بن عبد السلام للمظفر قطز بجواز أخذ مال من الرعية. فرد عليهم بأنه لم يجز ذلك إلا بعد أن أحضر الأمراء ما لديهم من مال وحلى هم وأولادهم ونساؤهم. وحلف كلا منهم أنه لا يملك غير ما تقدم. وظل رافضا آبيا وقام عنهم. فكان رفضه هذا سببا لعدم إرهاق الرعية بضرائب فادحة.

ومما يذكر لتقى الدين بن دقيق العيد أنه كان كثير النصح للناس دائم الارشاد لنواب حكمه يوصيهم بالعمل الصالح ومراعاة العدل. ويدبج لهم رسائل طريفة جامعة يرسم لهم فيها طريق العمل. وخرج مرة مع الناصر محمد بن قلاوون عام ٦٩٩ هـ. إلى الشام لمحاربة التتار وشهد موقعة سلمية. وظل فى القضاء مهيب الجانب محمود السيرة سامى المنزلة حتى قبض إلى رحمة الله عام ٧٠٢ هـ فى ١١ صفر.

وسنذكر عنه كلمة منفصلة فى الجزء الثانى من كتابنا هذا. ومن شعره كثير فى مدح النبى عليه السلام والغزل والحنين، وقد ورد كثير منه فى طبقات الشافعية للسبكى مع بعض نثره وخطبه.

« طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٣، ١١٤ - وفى

فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٠٥ - ابن اياس ج ١ ص ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٧ - الطالع السعيد الأدفوى رقم ٤٦٢ - وفى سلوك المقريزى ج ١ - وفى رفع الاصر .

١٣ - بدر الدين بن جماعة ٧٣٣ هـ

هو قاضى القضاة العالم الفاضل المؤلف الكاتب الشاعر الأديب ، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة بن حازم بن صخر الكنانى الحموى ، فخر حماة ، وقد ولد فى ربيع الآخر سنة ٦٣٩ هـ وله أسرة من أعرق أسر مدينة حماة ، بارك الله فى كثير من رجالها فخدموا العلم والدين والأدب والعدالة فى القضاء خير الخدمات . وقد برع هذا القاضى فى الفقه والحديث وتفسير القرآن الكريم والكتابة الانشائية ونظم الشعر . ولما ذاع فضله وكل اليه قضاء الشافعية بالقدس وخطابتها فى ٤ شوال سنة ٦٨٧ هـ . (١) وكان قبيل ذلك يشتغل بالتدريس فى دمشق . فلبث فى القدس حتى وقعت الفتنة والعداوة بين قاضى قضاة الشافعية بمصر وهو تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز وبين الوزير المستبد ابن السلعوس ، وأدى ذلك إلى عزله من القضاء . وأشار بن السلعوس على سلطان البلاد الأشرف خليل بن قلاوون ، بأن يولى فى قضاء الشافعية عوضا عنه قاضى القدس وخطيبها ، البدر بن جماعة ، فوقع عليه اختيار السلطان فعلا . وكانت بين بدر الدين وبين بن السلعوس صلة ود ومحبة . ومن غريب مايروى فى هذا المقام أن السلطان لما عزل القاضى تقى الدين أراد أن يختار رجلا من رجال الشافعية بالديار المصرية المصرية ليوليه القضاء . فسأل هؤلاء الرجال واحدا واحدا ، كل منهم على انفراد فيمن يصلح منهم ليلى هذا المنصب الجليل . فما منهم إلا ذم زميله وأهل مذهبه . . ! وعندئذ وجد

---

(١) قيل فى الدرر الكامنة أنه تولى سنة ٦٨٢ هـ .

ابن السلعوس الوزير فرصة أشار فيها على سلطانه بأنه يختار البدر بن جماعة . فأرسل إليه ، فوفد إلى مصر وأجله أهلها وتولى قضاء الديار فى رمضان عام ٦٩٠ هـ. وخطب بالجامع الأزهر وألقى دروسه فى المدرسة الصالحية . وكان يجيد إلقاء هذه الدوس، كما أنه كان يعنى بتدبيج خطابته وتنميقها . ولبث فى منصبه حتى أوائل المحرم عام ٦٩٣ هـ ، إذ كانت السلطنة قد آلت إلى الناصر محمد بن قلاوون ، وكانت الوزارة قد آلت إل الأمير علم الدين الشجاعى صديق القاضى تقى الدين بن بنت الأعز . فعزل البدر بن جماعة من منصب القضاء وأعيد إليه تقى الدين بن بنت الأعز . وتم ذلك فى ١٩ صفر من العام المذكور . وأسند إلى بدر الدين بن جماعة التدريس فى المدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعى وفى المشهد الحسينى . ثم نقل بعد قليل إلى قضاء الشافعية بدمشق . وفى السنة التالية أضيفت إليه الخطابة بالجامع الأموى . وقيل إنه أول من جمع له بين القضاء والخطابة بدمشق . وظل فى منصبيه حتى شهد عصر السلطان المنصور لاجين، فعزل من قضاء الشافعية بدمشق وحل محله إمام الدين عمر بن عبد الرحمن القزوينى وذلك فى ٤ جمادى الأولى عام ٦٩٦ هـ . وأصبح أمر ابن جماعة مقصورا على الخطابة فى جامع دمشق والتدريس بالمدرسة القيمرية بها .

ولبث على تلك الحال زمنا حتى توفى القزوينى فأعيد إليه منصب قضاء دمشق فى ١٥ شعبان عام ٦٩٩ هـ . وفى سنة ٧٠١ هـ أضيفت إليه مشيخة الشيوخ بدمشق بإجماع الصوفية ، بعد موت شاغلها وهو ابن حمويه فى ربيع الأول .

ولما مات قاضى قضاة الشافعية بمصر آنئذ وهو تقى الدين بن دقيق العيد ، وقع الاختيار على القاضى بدر الدين بن جماعة لملء المنصب ، وهذه ثانى مرة يليه فيها . فقدم إلى القاهرة وخلعت عليه خلع المنصب فى يوم السبت ٤ ربيع الأول عام ٧٠٢ هـ . ثم ظل أمره فى قضاء مصر بين عزل وتعيين ، حتى كف بصره وثقل سمعه

فى أخريات حياته ، فاعتزل القضاء عام ٧٢٧ هـ ، وأقام فى داره وفى مدرسة الخشابية يدرس العلم للناس . ويعرف عنه أنه كثرت أمواله فترك أخذ الأجر على القضاء . ثم توفى سنة ٧٣٣ هـ بالقاهرة فى سن ٩٥ تقريبا ، ودفن بالقرافة ، بعد أن بلغ من المجد أوجه ومن العز أعلاه ومن الجاه أسماه . وقد كان لا يفتأ مرجعا للأمراء فى الصلح وفى الشورى والسفارة . وكان لا يفتأ يسعى لصالح الناس إلى أبواب الملوك . وكان فى الوفد الدمشقى الذى وفد على السلطان غازان ملك التتار عام ٦٩٩ هـ ، يرجوه أن يرسل أمانا إلى أهل دمشق وألا يبطش بهم . وذلك بعد أن هزم جيوش مصر وفروا من وجهه إلى ديارهم .

ويعتبر القاضى بدر الدين بن جماعة أحد أدباء العصر ومؤلفيه ، لما له من خطابة جامعة شاملة كان يعكف على إعدادها . ولما له من نظم مليح . ولماله من مؤلفات منها : رسالة فى الأسطرلاب . وأخرى سماها « كشف المعانى » بحث فيها عن بعض معانى القرآن الكريم والفروق بين الآيات المتشابهة فيه . وله شعر ذكر بعضه السبكى فى طبقاته وهو رقيق من النوع العلمى . كما ذكر له عدة مسائل فقهية أفتى فيها برأى صائب ، وجملة تفاسير قرآنية جليلة فى المتشابهات .

وأسرة ابن جماعة من الأسر التى أسدت خدمات جليلة للدين والقضاء والعلم والأدب . ومن أبنائه قاضى القضاة « عبدالعزيز بن محمد بن جماعة » ولد سنة ٦٩٤ هـ بدمشق وسمع الحديث من الأبرهوقى وابن عساكر . وتولى قضاء الشافعية بمصر زمنا . وزاول التدريس بها زمنا آخر بجامع الإمام الشافعى وجامع ابن طولون وتوفى بمكة المكرمة سنه ٧٦٧ هـ . — أما بدر الدين بن جماعة نفسه فقد دفن بالقرافة بالقاهرة .

« ابن إياس ج ١ ص ١٣٥ ، ١٤٠ - طبقات السبكى ج ٥ ص ٢٣٠ - وفى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٧ - وفى كتاب تاريخ حماة لابن الصابونى الحموى - وفى تاريخ ابن الوردى ج ٢ حوادث عام ٧١١ هـ - وفى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٤، ١١٥ - وفى الدرر ج ٣ رقم ٧٤٦ - وفى السلوك ج ١ - وفى رفع الاصر ».

١٤ - جلال الدين القزوينى ٧٣٩ هـ

هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر . ويلقب بجلال الدين . وأصله من بلاد قزوين قدم إلى دمشق . وكان شافعى المذهب ، فاشتغل بالتدريس فى مدارسه . ثم ناب فى الحكم عن القاضى نجم الدين بن صصرى ، قاضى قضاة دمشق . ثم اشتغل بالتدريس بالمدرسة البدرانية وولى الخطابة بدمشق ، ولقى حينذاك ، من نائبها كراى أذى كثيرا ، بسبب وقوفه مع العوام بسوق الخيل محتجين على الضرائب التى فرضها عليهم . ولكن سرعان ما عزل النائب لهذا . وولى جلال الدين قضاء القضاة بها . ثم انتقل إلى قضاء الشافعية بمصر سنة ٧٢٧ هـ ، على أثر عزل بدر الدين بن جماعة . فلبث فيه زهاء إحدى عشرة سنة ، ثم عزل سنة ٧٣٨ هـ ، وانتقل ثانية إلى قضاء دمشق ، فظل حتى قبض سنة ٧٣٩ هـ . فولى قضاء الشام من بعده تقى الدين السبكى (١)

وكان جلال الدين كريما سمحا غزير العلم ، متصدرا للفتوى ، مشتغلا بالشئون العامة . وقد على ملك التتار غازان ، حينما أراد أن يقتحم دمشق سنة ٦٩٩ هـ ، فأرسلت إليه دمشق وفدا يطلب الأمان ، كان فيه بدر بن جماعة ، وجلال الدين القزوينى . فأخبرهم أنه آمنها قبل قدومهم .

---

(١) انظر ترجمة تقى الدين السبكى مفصلة فى باب العلماء والمؤلفين بالجزء الثانى من كتابنا هذا .

ولما مات رثاه صلاح الدين الصفدى بقصيدة منها :

هذا الإمام الذى ترضى حكومته خلاف ما قاله النحوى فى الصحف

حبر متى جال فى بحث وجاد فلا تسأل عن البحر والهطالة الوطف

ومن مؤلفاته الكثيرة : كتاب التلخيص فى المعانى والبيان . وكتاب الإيضاح فيه أيضا . وكانت ولادته بالموصل عام ٦٦٦ هـ

«طبقات السبكى ج ٥ ص٢٣٨- حسن المحاضرة ج٢ ص١١٤ ، ١١٥ -ابن إياس ج ١ ص ١٤٠ - ورفع الاصر ، وروى السبكى أنه مذكور فى سجع المطوق لابن نباتة والمسالك لابن فضل الله » .

١٥ - ناصر الدين بن الميلق ٧٩٨ هـ

محمد بن عبد الدائم بن سلامة بن بنت الميلق . ويقال له ابن الميلق . تناوب قضاء الشافعية زمنا ، هو وبدر الدين السبكى ،وغيرهما من القضاة . وأول تولية له كانت فى شعبان عام ٧٨٩ هـ ، فى عهد برقوق فلما خلع عليه السلطان خلعة التولية ، امتنع من لبسها ،غاية الامتناع ، فأكرهه السلطان على لبسها، وتوفى عام ٧٩٨ هـ .وكان مولده فى عام ٧١٢

«حسن المحاضرة ج ٢ ص١١٥-رفع الاصر-ابن إياس ج ١ ص ٢٦٨ ، ٣٠٤» .

١٦ - بدر الدين السبكى ٨٠٣ هـ

هو بدر الدين محمد بن القاضى بهاء الدين أبى البقاء محمد بن عبد البر السبكى . كان شافعى المذهب . تولى أبوه بهاء الدين قضاء الشافعية بمصر زمانا . أما بدر الدين فقد ولى قضاء الشافعية سنة ٧٧٩ هـ . ثم عزل منه مرارا ، وعاد إليه مرارا أخرى . فمن ذلك انفصاله عام ٧٨٩ هـ ، ثم عاد إليه سنة ٧٩١ هـ . وتوفى فى ليلة السبت ١٧ ربيع الثانى سنة ٨٠٣ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٦٨ ، ٣٤٠ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ »

١٧ - موفق الدين الحنبلي ٨٠٣ هـ

هو أحمد بن نصر الله بن أحمد ، موفق الدين بن ناصر الدين الكناني العسقلاني الأصل ، القاهري الحنبلي . سبط الموفق عبدالله . اشتغل بالفقه وغيره ، فمهر . وولي قضاء الحنابلة بالديار المصرية بعد أخيه ابراهيم ، ثم صرف عام ٨٠٢ هـ . ثم أعيد في آخرها ، فلبث به إلى السنة التالية . وخرج عام ٨٠٣ هـ مع الناصر فرج للقاء تيمورلنك بالشام ، فهزم الجيش ، وعاد الموفق إلى مصر ، مع من عاد . وتوفي بعد قليل في رمضان عام ٨٠٣ هـ . وكان مولده في المحرم سنة ٧٦٩ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٢٨ ، ٣٣٧ - رفع الاصر - الضوء اللامع ج ٣ رقم ٦٥٧ » .

١٨ - صدر الدين المناوي ٨٠٤ هـ

كان شافعي المذهب . أول ماولي قضاء الشافعية في مصر في ذي القعدة عام ٧٩١ هـ ثم عزل في الشهر التالي ثم أعيد في المحرم سنة ٧٩٥ هـ عوضا عن عماد الدين الكركي . ثم أعيد وعزل عام ٧٩٩ هـ ، ثم عزل في السنة التالية ثم أعيد في رجب سنة ٨٠١ هـ . وهكذا ظل أمره بين التعيين والعزل في عهد برقوق وابنه فرج .

وقد خرج مرة مع السلطان فرج إلى بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ في حملة ، لقتال تيمورلنك ملك التتار . فانهزم الجيش المصري ، وأسر التتار منه عددا ضخما ، كان من بينه ، القاضي صدر الدين المناوي . ويقال إن تيمورلنك وضع القاضي صدر الدين في كيس وأغرقه في نهر الفرات سنة ٨٠٤ هـ .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ - ابن إياس ج ١ ص ٢٩٨ ؛ ٣٠٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٤٢ » .

١٩ - ولى الدين بن خلدون ٨٠٨ هـ

هو عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ المشهور . كان مالكى المذهب . تولى قضاء المالكية بمصر عدة مرات . أولها جمادى الآخرة عام ٧٨٦ هـ بعد عزل القاضى جمال الدين بن خير السكندرى .

وسنترجم له بتفصيل فى الجزء الثانى .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣ »

٢٠ - تقى الدين القرشى ٨١٣ هـ

هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الناصر بن هبة الله . تقى الدين القرشى الزبيرى المحلى الشافعى . كان والده من أعيان أهل المحلة . اشتغل بالفقه وغيره . ومهر فى التوقيع . وما زال يرقى حتى ناب فى القضاء ، ثم ولى قضاء الشافعية بمصر بعد عزل الصدر المناوى عام ٧٩٩ هـ . فباشره بحنكة ومعرفة وعفة . ثم عزل فى عام ٨٠١ هـ وولى غير القضاء . وقد توفى عام ٨١٣ هـ ودفن بتربة الصوفية خارج باب النصر .

« الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٦٢ » .

٢١ - صدر الدين بن العديم

كان حنفى المذهب ، تولى قضاء الحنفية فى مصر ، فى عهد سلطنة الخليفة المستعين بالله وتولى معها حسبة القاهرة . ويقال إنه أول من جمع بين القضاء والحسبة . وظل متوليا فى عهد الملك المؤيد شيخ مدة .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٥٩ - ج ٢ ص ٩ »

٢٢ - جلال الدين البلقينى ٨٢٤ هـ

هو أبو الفضل عبد الرحمن بن عمر بن رسلان . وأبوه شيخ الاسلام سراج

الدين عمر البلقيني . كان شافعي المذهب مثل أبيه . فنشأ في كنفه ورعايته . فحفظ القرآن الكريم وكتبا عدة في علوم مختلفة . وفقهه أبوه وغيره . وكثرت مشايخه . وسمع الحديث . . .

ولما ولي أبوه قضاء دمشق ، رحل معه وهو صغير . ولبث مكبا على طلب العلم في ذكاء وصبر ، وجد وقوة حافظة . وكان - كما قال ابن حجر - من عجائب الدنيا ، في سرعة الفهم وجودة الحفظ ، فمهر في مدة يسيرة ، وأصبح أهلا لولاية الوظائف . فاشتغل موقعا بالدست بديوان الانشاء ، وولي قضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل ، وتوقيع الدرج . ونبه شأنه وملك المماليك ، وكثرت طلبته ، وأذن له بالفتوى والدرس قبل ذلك .

ثم ولي قضاء الشافعية بمصر لأول مرة في جمادى الأولى عام ٨٠٤ هـ في حياة أبيه ، عوضا عن القاضي ناصر الدين الصالحي . ثم عزل في سنة ٨٠٥ هـ ، وأعيد سنة ٨٠٦ هـ ، ثم عزل بعد قليل .

وكان مبتلى بحب القضاء ، يأسف للعزل ، ويسعى للعودة ويهش لها . وظل أمره فيه بين عزل وإعادة ، وشهد عصر فرج بن برقوق ، وعصر المستعين بالله الخليفة السلطان . فعزل في عهده مدة ، فأسرها في نفسه ، وأفتى للمؤيد شيخ بعزل هذا الخليفة من السلطنه .

وظل في القضاء مرة نحوا من ستة أعوام ، وذلك في صفر عام ٨١٥ هـ إلى جمادى الأولى عام ٨٢١ هـ . ثم عزل ثم أعيد في عام ٨٢٢ هـ ، ولبث في منصبه حتى توفي في ليلة ١١ شوال عام ٨٢٤ هـ . وكان مولده عام ٧٦٣ هـ .

وكانت وفاته في منزله بالصالحية . وقال السخاوي : في الضوء إن وفاته كانت بالقاهرة ، وإنه مات مسموما بمكيدة .

وكان مهيبا عفيف النفس ، لا يقبل هدية من صديق أو غيره ، متواضعا لين

الجانب . اشتغل بالتدريس فى مدارس عدة . وله تلاميذ أفاضل أئمة، منهم ابن حجر العسقلانى . وله نثر ونظم فى مسائل علمية ، مابين أسئلة وأجوبة وغيرها .

وله أخ اشتهر بالعلم والتقوى كأبيهما . وهو « علم الدين صالح البلقينى » الآتى ذكره ، ولى القضاء زمنا بعد أخيه . وله أيضا ابن اسمه « تاج الدين البلقينى » .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١١٥ ، ١١٦ - ابن إياس ج ١ ص ٣٤٢ ، ٣٥١ - ج ٢ ص ٩ - الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٠١ »

٢٣ - مجد الدين أبو البركات الحنبلى ٨٢٦ هـ

هو سالم بن سالم بن أحمد بن سالم . . . القاضى مجد الدين أبو البركات بن أبى النجا المقدسى القاهرى الحنبلى لعله ولد بالمقدس ، وذلك عام ٧٤٨ هـ أو ٧٤٩ هـ .

وقد اشتغل بطلب العلم فى بلده ، فبرع فى فنون عدة منها : الفقه . وسمع الحديث . وناب فى الحكم . ثم وفد على القاهرة عام ٧٦٤ هـ ، فزاد تفقها على كثيرين من أئمتها ، وفى مقدمتهم قريبه « موفق الدين الحنبلى » فلما مات الموفق اختير مجد الدين لقضاء الحنابلة عام ٨٠٣ هـ ، بعد تردد منه . وأضيف إليه التدريس فى مدارس عدة . ولبث فى القضاء نحوا من خمسة عشر عاما . ثم مرض وضعف ، فقعد عنه ، ثم توفى عام ٨٢٦ هـ .

« الضوء اللامع ج ٣ رقم ٩٠٦ » .

٢٤ - زين الدين التفهنى ٨٣٥ هـ

هو زين الدين أبو هريرة التفهنى . واسمه عبد الرحمن بن على بن عبد الرحمن . ولد بتفهنا عام ٧٦٤ هـ ، بالقرب من دمياط ، ومات أبوه ، وهو صغير . وكان فقيرا ،

فانتقلت به أمه إلى القاهرة . وهناك تفقه وسمع ، حتى أصبح أحد رجال الحنفية البارزين . ومهر ، فضلا عن الفقه والحديث ، فى الأصول والتفسير والعربية والبلاغة والمنطق . وتصدى للتدريس والفتوى . وناب فى الحكم عن الأمين الطرابلسى وغيره . وولى مشيخه الصرغتمشية ، وخطب بجانب الأقمر .

ثم ولى قضاء الحنفية بعد الشمس بن الديرى ، فى عام ٨٢٢ هـ ، فباشره مباشرة حسنة ، وسار فيه سيرا محمودا . ثم صرف عنه عام ٨٢٩ هـ ، وحل محله البدر العينى . وولى هو مشيخة الشيخونية .

لم يلبث أن مات عام ٨٣٥ هـ ودفن بتربة صهره الشهاب المحلى - كبير تجار مصر - بالقرب من تربة يشبك الناصرى بالقرافة .

« الضوء اللامع ج ٤ رقم ٢٨٥ »

٢٥ — شهاب الدين بن حجر العسقلانى ٨٥٤ هـ

هو شيخ الإسلام وقاضى قضاة الشافعية بمصر . ولى القضاء لأول مرة عام ٨٣٠ هـ وقيل عام ٨٢٧ هـ ، فى عصر الأشرف برسباى . وعزل من القضاء مرارا ، وأعيد إليه . حتى اعتزله نهائيا فى جمادى الآخرة عام ٨٥٢ هـ ، وتوفى عام ٨٥٤ هـ وقيل ٨٥٢ هـ .

وابن حجر كان علامة زمانه فى فقه الشافعية ، وكان من حفاظ الحديث كما أنه كاتب وشاعر ومؤلف فذ ، وله كتب فى التاريخ والحديث ، هى الحجة والسند منها : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . والأصابة فى تاريخ الصحابة . وشرح البخارى .

ملحوظة : ترجمنا له بتفصيل فى الجزء الثانى من كتابنا هذا فى باب العلماء والمؤلفين .

٢٦ - سعد الدين الديرى ٨٦٧ هـ

هو سعد الدين بن محمد بن عبد الله بن سعد بن أبى بكر ، وهو سعد الدين أبو السعادات النابلسى الأصل الدمشقى الحنفى نزيل القاهرة . يعرف بالديرى نسبة إلى مكان بجبل نابلس يسمى الدير . وكان ذكى الفؤاد سريع الحفظ . تفقه على أبيه وعلى كثير من رجال عصره الأفذاذ مثل كمال الدين السريجى وعلاء الدين بن النقيب ونبغ فى فقه الحنفية . وروى كثيرا من الأحاديث ، وأجيزت له روايتها عن برهان الدين ابن جماعة . وكان محبا للمباحثات والمناظرات العلمية . مقبلا على تفسير القرآن الكريم ، كثير الاطلاع ، محبا للأدب ، كاتبا ناظما .

وقد زادت مهابته فى عهد أبيه ، فكان يقدمه على نفسه فى الفقه وغيره . وحج عدة مرات أولها سنة ٨٠١ هـ . ويعتبر فى مقدمة رجال الحنفية فى زمانه . وقد تولى قضاءها بالبلاد المصرية لأول مرة فى المحرم عام ٨٤٢ هـ عوضا عن العينى . فكان فى منصبه مهيبا كثير العفة . ثم عزل وأعيد مرارا ، وشهد عصر الظاهر جقمق إلى عصر الأشرف إينال ، وكان أحد قضاته . ثم فصل فى أواخر عام ٨٦٦ هـ . وتوفى فى العام الذى يليه وهو ٨٦٧ هـ فى ٩ ربيع الآخر وقيل فى ١٠ منه .

وقد اشتغل بالتدريس بمدارس عدة منها المدرسة المعظمية بالقدس . وتولى مشيخة الجامع المؤيدى زمنا . ولما مات دفن بمقبرة الظاهر خشقدم بعد أن تولى القضاء خلال ثلاثين عاما مرات عدة . وله ابن من رجال العلم والفضل يعرف « بتاج الدين » توفى سنة ٨٩٢ هـ .

ومن مؤلفاته (١) شرح العقائد النسفية (٢) الكواكب النيرات فى وصول ثواب الطاعات إلى الأموات (٣) والسهام المارقة فى كبد الخنادقة (٤) ومنظومة فى

علم البديع تسمى « النعمانية » وهى طويلة . (٥) فتوى فى الحبس بالتهمة (٦) فتوى فى هل تنام الملائكة أم لا (٧) فتوى فى هل منع الشعر مخصوص بنبينا عليه السلام أم عام فى جميع الأنبياء . (٨) تكملة شرح الهداية للسروجى صنف منها شيئا (٩) قصيدة مخمسة فى مدح النبى عليه السلام .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٢ - ابن إياس ج ٢ ص ٣٣ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٢٤٥ - الضوء اللامع ج ٣ رقم ٩٣٩ - الفوائد البهية للكنوى الهنـــدى ص ٨٧ » .

٢٧ - علم الدين البلقينى ٨٦٨ هـ

هو صالح بن عمر بن رسلان بن نصير بن صالح . علم الدين بن سراج الدين . وأخو القاضى جلال الدين . كان شافعى المذهب . وأول من سكن « بلقينة » جده صالح . وكان مولد علم الدين بالقاهرة سنة ٨٩١ هـ .

نشـأ فحفظ كتبا وتفقه بأخيه جلال الدين وغيره ، ودرس الفقه والأصول والنحو والحديث ، وحج عام ٨١٤ هـ ، ودخل دمياط وأذن له فى الإفتاء والتدريس وخطب بالمسجد الحسينى . واستقر حينـا فى توقيع الدست ، وناب فى القضاء عن أخيه بدمنهور ، واشتغل بالتدريس ، فدرس الفقه والتفسير والميعـــاد . وولى وظائف عدة .

واختير بعد وفاة أخيه جلال الدين بمدة لقضاء الشافعية بالديار المصرية فى عام ٨٢٦ هـ ، وظل أمره فيه بين ولاية وعزل يتناوبه هو وابن حجر العسقلانى وشرف الدين المناوى وغيرهما من أنداد عصره ، حتى كان مجموع ولايته نحو ثلاث عشرة سنة ونصف . وقد أعيد إليه فى عام ٨٦٧ هـ ، فلبث به حتى مات سنة ٨٦٨ هـ فى شهر

رجب ، بعد أن شهد عصر جقمق وإينال وخشقدم . وقال ابن اياس ان وفاته كانت سنة ٨٦٩ هـ ، صلى عليه فى جامع الحاكم ودفن بجوار والده بمدرسته .

وكان علم الدين إماما فطنا قوى الحافظة سريع الادراك ، طلق العبارة فصيحا ، ينطق العربيـة معربة صحيحة ، لم تضبط عليه شاذة، مهيبا لا يهاب ملكا ولا أميرا . وقد اشتغل بالتـأليف ، ومن مؤلفاته : (١) تفسير القرآن الكريم (٢) شرح على البخارى لم يكمل (٣) جملة من الفتاوى (٤) حواشى على الروضة (٥) ترجمته وترجمة أبيه (٦) القول المفيد فى اشتراط الترتيب بين كلمتى التوحيد (٧) التذكرة . وله نثر ونظم كثير .

« حسن المحـاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ابن اياس ج ٢ ص ٢٨ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ - الضوء اللامع ج ٣ رقم ١١٩٩ » .

٢٨ — شرف الدين يحيى المناوى ٨٧١ هـ

هو من أسرة المناوى ، وهى إحدى الأسر المصرية التى اشتهرت بالعلم والفقه والأدب . وكان شرف الدين شافعى المذهب ، وتولى قضاء الشافعية بمصر ، ويظهر أنه وليه لأول مرة عام ٨٥٢ هـ فى عهد الظاهر جقمق ، فكان عادلا دينا كثير الصلاح . ومما حدث له أنه لما توقف النيل عن الوفاء عام ٨٥٣ هـ ، وخرج الناس على بكرة أبيهم للاستسقاء . خرج معهم قاضيهم شرف الدين فصعد المنبر وخطب خطبة الاستسقاء ، ولما هم بتحويل ردائه سقط منه الرداء إلى الأرض فتطير الناس ، ولكن النيل أوفى بعد هذه الحادثة . وظل شرف الدين يعزل آنا ويولى آنا آخر ، حتى توفى عام ٨٧١ هـ ، وكان إذ ذاك منفصلا عن منصب القضاء .

حسن المحـاضرة ج ٢ ص ١١٦ - وابن إياس ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٠ » .

٢٩ — حسام الدين بن حريز ٨٧٣ هـ

هو قاضى القضاة المالكى المذهب السيد الشريف حسام الدين بن حريز بن أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى . أصل أسرته من بلاد المغرب ولد عام ٨٠٤هـ ونشأ بمنفلوط ، وبرع فى فقه المالكية ، وأخذ جاهه يعظم ، والزمن يصفوله حتى ولى منصب قضاء المالكية بمصر عام ٨٦١ هـ بعد وفاة القاضى ولى الدين السنباطى ، ويقال إنه بذل فى سبيله مالا جزيلا . وكانت وساطته اليه ناظر الخاص الجمالى يوسف ، وذلك فى عهد السلطان الأشرف إينال . ويقال انه كان بين المالكية حينئذ من يعتبر أكفأ منه وأولى بمنصب القضاء . ولكنه أسعده جده ولبث فى هذا المنصب نحو ١٢ عاما حتى قبض فى شعبان سنة ٨٧٣ هـ بعد أن شهد عصر خشقدم وتمربغا والأشرف قايتباى . وبعد وفاته تولى قضاء المالكية أخوه سراج الدين بن حريز الآتى ذكره بعد .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ابن اياس ج ٢ ص ٥٨ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١٠٦ »

٣٠ — عز الدين أحمد بن نصر الله الحنبلى ٨٧٦ هـ

هو قاضى القضاة أحمد بن ابراهيم بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن هاشم بن اسماعيل بن نصر الله بن أحمد العسقلانى الحنبلى . ولد بالقاهرة فى ١٦ ذى القعدة عام ٨٠٠ هـ ، وكان غزير العلم كثير التواضع فكه المحاضرة عفيف اليد واللسان ، واشتغل بالتدريس زمنا ، وولى قضاء الحنابلة فى مصر بعد وفاة قاضيها بدر الدين البغدادى فى عام ٨٥٧ هـ واستمر فى منصبه هذا نحو عشرين عاما . وكان أجل علماء مذهبه وأفضلهم ، وقد توفى بالقاهرة قبيل الثمانين فى جمادى الأولى عام ٨٧٦ هـ ، واستمر المنصب شاغرا بعد وفاته أشهرا ثم وليه القاضى بدر الدين السعدى ، وقد شهد القاضى عز الدين عصر ثمانية من سلاطين مصر وهم من جقمق إلى قايتباى .

وقد ذكرناه فى جزئنا الثانى من هذا الكتاب.

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ابن اياس ج ٢ ص ٣٥ ، ٦٥ ؛ ٩٦ ، ١٤٩ الضوء اللامع ج ١ ص ٢٠٥ »

٣١ - برهان الدين الديرى ٨٧٦ هـ

هو قاضى قضاة الحنفية فى مصر ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد بن مصلح العبسى القدسى . وقبل أن يلى منصب القضاء ، تقلب فى مناصب عدة فمنها نظارة الاسطبل ونظارة الجيش . وحينما عزل محب الدين بن الشحنة من كتابة السر ، وسُلك فى منصب القضاء عام ٨٦٧ هـ ، عين على أثره برهان الدين الديرى فى كتابة السر بمصر ، ولكن لسانه زل زلة كانت سببا لغضب السلطان الظاهر خشقدم عليه ، وذلك أنه توفيت والدة المفر الشهابى أحمد بن العينى يوم سبت ، فشيعها مع المشيعين وعاد بصحبة الأمير جانى بك ، فقال له إن هذه المتوفاة نزلت من القلعة يوم السبت ولا بد أن يعقبها كبير وأظنه السلطان . فبلغت قالته إلى السلطان فغضب عليه وعزله بعد أقل من شهرين ، مع العلم بأنه - كما قيل - ما نال هذه الوظيفة إلا بعد أن بذل فى سبيلها خمسة آلاف دينار ! ثم تقلبت الأيام ورضى عنه السلطان فأقامه قاضى قضاة الحنفية بعد عزل ابن الشحنة من هذا المنصب عام ٨٦٩ هـ ومنحه خلعة القضاء ونزل فى موكب حافل من لدنه . ولكنه ما عتم أن عزل فى العام الذى وليه وعاد إليه ابن الشحنة ثانية . أما برهان الدين فقد ظل زمنا بلا منصب ثم أسندت إليه مشيخة الجامع المؤيدى فلبث بها حتى توفى عام ٨٧٦ هـ فى المحرم .

وهو أخو القاضى سعد الدين الديرى المذكور فيما مضى

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٨ ؛ ١٢٨ - الفوائد البهية للكنوى الهندى ص ٨٠ »

٣٢ - شمس الدين الامشاطى ٨٨٥ هـ

هو محمد بن محمد بن أحمد بن حسن بن اسماعيل بن يعقوب العينتابى الكحكاوى الأمشاطى . برع فى فقه الأحناف وكان أحد نواب قضائه زمنا كبيرا مع وفرة عقل وفكاهة محضر وعفة واستقامة وعدل . وعندما عزل محب الدين ابن الشحنة من القضاء الأكبر عام ٨٧٧ هـ عين مكانه شمس الدين الامشاطى فكان كفئا لهذا المنصب العظيم ، وذلك فى حكم الأشرف قايتباى . وراوده السلطان على حل الأوقاف والاستبدالات ، وأن يقيم قاضيا يفوض إليه أداء هذه المهمة . فقال للسلطان : إن السلطان له ولاية التفويض إلى من يشاء ، وأما أنا فلا ألقى الله تعالى بحل الوقف ولا بعمل استبدال . وقام من مجلس السلطان كالغضبان ، وما زال بمنصبه حتى مات فى شوال سنة ٨٨٥ هـ ، وظل منصب قاضى قضاة الحنفية من بعده خاليا زمنا ، ثم عين فيه شرف الدين موسى بن عيد أحد علماء الشام . ومما يذكر أن شمس الدين كان شيخا للمدرسة البرقوقية .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ »

٣٣ شرف الدين موسى بن عيد ٨٨٦ هـ

هو موسى بن أحمد بن عيد الدمشقى الحنفى . أصله من عجلان . وتولى قضاء الحنفية بدمشق . ولما توفى قاضى قضاة الحنفية بمصر شمس الدين الامشاطى عام ٨٨٥ هـ ، لم تتجه رغبة السلطان الأشرف قايتباى الى تولية أحد الأحناف المقيمين بمصر ، فاستدعى بعد قليل قاضى قضاة دمشق شرف الدين موسى بن عيد ليلى هذا المنصب الرفيع . فوصل الى مصر فى ذى القعدة من هذا العام .

لبث فى منصبه قليلا ، ثم وقعت زلزلة رائعة فى المحرم من عام ٨٨٦ هـ ، مادت

لها الأرض . فارتاع لها الشيخ ، وسقط عليه ساقط ، فقتله ومات لساعته . ولما شيعت جنازته كان السلطان فى طليعة المشيعين والمصلين عليها . وقد دفن بالصحراء وكان مولده فى سنة ٨٠٣ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ » .

٣٤ - محب الدين بن الشحنة ٨٩٠ هـ

هو قاضى القضاة الكاتب الشاعر العالم الفقيه المؤلف ، محب الدين محمد بن محمد ابن محمد بن محمود بن غازى الثقفى الحلبى . وهو حنفى المذهب . وهو غير محب الدين ابن الشحنه الذى كان قاضيا فى حلب عام ٧٨٧ هـ ، فى العهد الأول من سلطنة الملك برقوق ، أول ملوك الجراكسة والذى ولد عام ٧٤٩ هـ وتوفى عام ٨١٧ هـ . والذى له بعض المؤلفات ونعل بين الاثنين صلة قربى ونسب (١)

أما محب الدين بن الشحنة قاضى قضاة مصر ، فيظهر أنه ولد عام ٨٠٤ هـ بحلب أيضا وشب بها ، وعلى علمائها تثقف . وكانت ميدانا له ظهرت فيه مواهبه . ثم يمم شطر مصر ، ولبث فيها زمنا يغترف من مناهلها . ثم اختاره السلطان الأشرف إينال قاضيا للحنفية فى جمادى الثانية لمدينة حلب ، فسافر إليها . ثم عين كاتبا للسر فى مصر فى ذى القعدة عام ٨٥٧ هـ عوضا عن محب الدين بن الأشقر الذى عزل منها . فبدأ نجم ابن الشحنة فى الصعود من ذلك الحين . ويظهر أنه أسند إليه أيضا نظر الجيش فى ذلك الحين . وظل فى منصبه ذلك أكثر من نصف عام ، ثم عزل فى رجب سنة ٨٥٨ هـ وأعيد ابن الأشقر إلى كتابة السر كما كان من قبل . فظل محب الدين بعيدا

---

(١) انظر كتاب « التعلقات السنية على الفوائد البهية للكنوى الهندى ص ٥١

عن المنصب حتى توفى ابن الأشقر عام ٨٦٣ هـ ، فعاد هو إلى كتابة السر . غير أنه ما لبث فيها إلا إلى سنة ٨٦٧ هـ ، ثم عزله السلطان الظاهر خشقدم . وعدل به من كتابة السر إلى القضاء . فعينه قاضى قضاة الأحناف بمصر . فظل بمنصبه حتى عام ٨٦٩ هـ ثم عزل منه . ولم يمكث غير قريب حتى أعيد إليه فى أوائل السنة التالية ، فظل فى القضاء زمنا حتى شهد عصر السلطان تمربغا ، ثم قايتباى . وفى عام ٨٧٥ هـ . وقعت فتنة خاصة بعمر بن الفارض المتصوف الزائد والشاعر المشهور ، فاختلف العلماء فيه ، فمنهم من يقول بإيمانه وحسن معتقده ويؤول ما اشتبه من ألفاظه ، ومنهم من يقول بفسقه بل وتكفيره ، لأن ألفاظه توهم الحلول والاتحاد . وكان على رأس الفريق الثانى القائل بتفسيقه جملة علماء على رأسهم محب الدين بن الشحنة وبرهان الدين البقاعى . ووقعت بين الفريقين فى هذه المسألة مشاحنات طويلة ومناقشات عدة ، أو ذى فى سبيلها القاضى محب الدين حتى هجاه بعض شعراء عصره وعوامه .

عزل ابن الشحنة من القضاء بعد ذلك بقليل ، ثم أصيب بفالج ، فعد الناس ذلك من بركات ابن الفارض ! ولبث محب الدين زمنا حتى برىء من مرضه فعاد إلى القضاء . غير أنه مكث زمنا يسيرا ، ثم ابتلى بمحنة أخرى ، إذ وقع بين أميرتين شقيقتين نزاع حول وقف يخصهما ، فتعصب محب الدين لإحداهما . وكان سلطان العصر الأشرف قايتباى فى جانب الأخرى ، فعزله من القضاء فى ربيع الثانى عام ٨٧٧ هـ ، فكان ذلك آخر عهده به . ولم يكتف السلطان بذلك بل أمر بالقبض عليه ، بدعوى استيلائه على بعض أموال أوقاف الحنفية . فلبث فى سجنه زمنا ، ثم أطلق سراحه . وفى جمادى الأولى رضى عنه السلطان وأسند إليه مشيخة الخانقاه الشيخونية فلبث بها حتى توفى فى المحرم سنة ٨٩٠ هـ .

وأسرة ابن الشحنة من الأسر المباركة ، التى نبغ فيها أفراد خدموا العلم والقضاء والأدب فى مصر زمنا طويلا . ومنهم القاضى عبد البر بن محب الدين وسنترجم له بعد . ومنهم الكاتب سرى الدين بن الشحنة ، والقاضى عفيف بن الشحنة .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٢ ، ٣٣ ، ٤٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ٢٢٦ » .

٣٥ — ولى الدين الأسيوطى ٨٩١ هـ

هو أحمد بن عبد الخالق بن عبد العزيز بن محمد القاهرى السيوطى الشافعى المذهب. ولد عام ٨١٣ هـ . وقد اشتهر بالعلم وحسن الخلق والمعاملة . وتولى مشيخة بعض الخوانق ، وقام بالتدريس زمنا . وقد ولى قضاء الشافعية عام ٨٧٠ هـ بعد أن عزل عنه القاضى أبو السعادات البلقينى . وكان ذلك فى عهد السلطان الظاهر خشقدم . واتصل حبله بالقضاء زمنا كبيرا حتى عهد الأشرف قايتباى . ثم اختلف معه فى الرأى بسبب تركة ، فما كان من السلطان إلا أن عزله ، فلبث المنصب شاغرا حتى عاد هو إليه بعد قليل بشفاعة بعض الأمراء ، وذلك فى ربيع الثانى عام ٨٨٥ هـ . ثم حدثت له حادثة شبيهة بالأولى فى رجب عام ٨٨٦ هـ فقد كانت هناك قضية خاصة بتركة كان الشهاب أحمد بن العينى طرفا فيها ، وحكم له ولكن الحكم لم ينفذ ، فكان عدم تنفيذه سببا لأن آخذ السلطان القاضى الشافعى ولى الدين الأسيوطى والقاضى المالكى معا . ويظهر أنهما كانا مختصين بالنظر فى هذه القضية . فعزلهما السلطان بعد نقاش بينهما طال أمده . فكان ذلك آخر عهده بالقضاء بعد أن لبث فيه نحوا من ١٦ سنة مشكور السيرة دائم العدل . ثم توفى عام ٨٩١ هـ فى شهر صفر .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٩، ٩٦، ١٩٦، ٢٠٦، ٢٣٤ - الضـــوء اللامع ج ١ ص ٢١ ».

٣٦ - شمس الدين الغزى بن المغربى ٨٩١ هـ

عينه الأشرف قايتباى فى قضاء الحنفية بمصر عقب وفاة القاضى موسى بن عيد عام ٨٨٦ هـ . قيل إنه لم يكن أهلا لولاية القضاء ، إذ كان بين علماء الحنفية من هو أكثر منه فقها وجاها . وقيل إنه سعى إلى هـذه الوظيفة ، وكانت وساطته إليه الاستادار تغرى بردى ، والمهمندار يعقوب شاه . ولبث فى منصبه نحو عامين ثم أمر السلطان فى ربيع الأول عام ٨٨٨ هـ ، بمحاسبته على ما لديه من مال . فكان ذلك بدء عذابه ومحنه . وتكاثرت ضده الشكاوى ، حتى عقد له مجلس من القضاة الثلاثة ، وحاسبه جباة المال حسابا عسيرا ، وذلك بمنزل الأمير برسباى قرا . ومع هذا كله ظل فى منصبه لا يبرحه حتى عام ٨٩١ هـ ، والسلطان يصابره حتى فاض به إناء صبره ، فأمر فى شعبان من العام المذكور بالقبض عليه ومحاسبته حسابا دقيقا ، وسيّر إلى المدرسة الصالحية وظل مقبوضا عليه حتى صدر أمر عزله فى غضون العام نفسه . ويظهر أنه توفى قريبا من ذلك .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٤، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٧ ».

٣٧ - سراج الدين بن حريز ٨٩٢ هـ

هو سراج الدين عمر بن أبى بكر بن محمد بن محمـــد بن حريز بن أبى قاسم ، الهاشمى القرشى العلوى الحسنى المنفلوطى . وهو أخو قاضى قضاة المالكية حسام الدين ابن حريز الذى سبق ذكره . وسراج الدين هذا مالكى المذهب كذلك .

وأصل أسرتيهما من بلاد المغرب ، استوطنت منفلوط . ولما توفى أخوه حسام الدين عام ٨٧٣ هـ ، تولى منصبه . فظل قاضيا للمالكية حتى عام ٨٧٧ هـ . ثم غضب عليه السلطان الأشرف قايتباى ، وقبض عليه وسجنه ، فلقى عذابا أليما وقاسى محنا شديدة . ثم أطلق سراحه . غير أنه ظل معزولا حتى توفى عام ٨٩٢ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٠٦ ، ١٣٧ ، ٢٤٣ » .

٣٨ محيي الدين بن تقى ٨٩٥ هـ

هو عبد القادر بن أحمد بن محمد بن على بن تقى ، الدميرى المالكى . كان عالما فاضلا من أفقه المالكية فى زمانه ، وأكثرهم هيبة ووقارا . تلقى العلم على جماعة من القدامى كالبساطى ، فبرع فى مذهبه . وناب فى الحكم زمنا عن القاضى المالكى ، ثم انتهى إليه قضاء المالكية بمصر ، فى عهد قايتباى . قبيل عام ٨٩١ هـ ، فظل فيه حتى توفى فى ذى القعدة عام ٨٩٥ هـ . وهو أخو القاضى عبد الغنى بن تقى الآتى ذكره .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٦٦ » .

٣٩ — برهان الدين المغربى ٨٩٦ هـ

هو أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن عطية ، المغربى الأصل اللقانى القاهرى الأزهرى المالكى . ولد عام ٨١٧ هـ ، بالقهوقية من أعمال لقانة ، ووفد إلى القاهرة وجاور بالأزهر ودرس علوما عدة ، وحفظ كتبا فيها جمة ، وأخذ عن كثير من الأئمة ، ودرس الفقه وسمع الحديث ولقن العربية ، وما زال حتى نضج . فتعرض للفتوى والتدريس بعدة مدارس منها : المؤيدية والقمحية ومدرسة أم السلطان . وصار مهيبا لدى الناس والعلماء .

ثم استدعاه الأشرف قايتباى يوم الاثنين ٦ صفر عام ٨٧٧ هـ لتولى قضاء المالكية . بعدعزل سراج الدين بن حريز ، فباشره بمهارة وكفاءة . وله فيه مواقف رائعة . ثم جفاه السلطان قايتباى سنة ٨٨٦ هـ ، فعزله ، وأقام مكانه محيى الدين بن تقى . فتألم الناس لعزله .

من ذلك الحين لزم منزله ، مترددا على الجماعات وعلى الأزهر ، يفتى أحيانا ، ويقرىء أحيانا أخرى ، حتى مات فى ٩ من المحرم عام ٨٩٦ هـ ، وشيع بجنازة حافلة شهدها السلطان ، ودفن بتربة سعيد السعداء .

« الضوء اللامع ج ١ ص ١٦١ » .

٤٠ - بدر الدين السعدى ٩٠٢ هـ

هو محمد بن محمد بن أبى بكر بن خلف بن ابراهيم السعدى . كان حنبلى المذهب وقد تولى قضاء الحنابلة فى مصر وهو فى عنفوان شبابه فلبث زمنا طويلا . وأول عهده به كان فى زمن الأشرف قايتباى عام ٨٧٦ هـ بعد وفاة القاضى عز الدين احمد الحنبلى . فقد أرسل السلطان إلى قاضى الحنابلة بدمشق ابن المفلح ليلى هذا المنصب فى مصر فاعتذر إليه بمرضه فعين فيه بدر الدين السعدى . وكان بين الحنابلة حينئذ من يعتبر أفضل منه ، فعد بعض هذا المنصب كبيرا عليه . ومع ذلك فقد ازدان به منصبه ، وخلع عليه السلطان خلعة المنصب وعاد من لدنه فى موكب عظيم . وفى وفى ربيع الثانى عام ٨٨٥ هـ غضب عليه السلطان كما غضب على القاضى ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، وذلك بسبب تركة ووقف . فعزله وأمر بنفيه إلى قوص ، فشفع فيه الأتابكى أزبك بن ططخ ، فعاد إلى منصبه بعد قليل فى نفس شهر عزله وهو

ربيع الثانى . وهذه هى المرة الوحيدة التى عزل فيها عن القضاء إذ ظل فيه منذ ذلك الحين ، حتى قبض فى ذى القعدة عام ٩٠٢ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٩٦ ، ٢٣٢ ، ٢٩١ ، ٣٢٢ »

٤١ - ناصر الدين الإخميمى ٩٠٢ هـ

هو محمد بن أحمد بن الأنصارى الإخميمى القاهرى الحنفى . كان عالما فاضلا ، له دراية بالقراءات . وكان أبى النفس . وتولى قضاء الحنفية بمصر فى عصر الأشرف قايتباى قبيل عام ٩٠١ هـ . ولبث فى منصبه زمنا حتى توفى فى ذى الحجة سنة ٩٠٢ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٩١ ، ٣٢٦ » .

٤٢ — عبد الغنى بن تقى ٩٠٧ هـ

هو عبد الغنى بن أحمد بن محمد بن على بن تقى ، الدميرى المالكى . وأخو القاضى محيى الدين عبد القادر بن تقى المار ذكره . كان مالكى المذهب كأخيه . وقد تولى منصب قضاء المالكية بعد وفاته . وكانت ولايته فى ربيع الأول عام ٨٩٦ هـ .

وحدث فى ذى الحجة عام ٩٠٢ هـ ، أن اشتط السلطان الناصر محمد بن قايتباى فى جمع المال من الناس ، ففرض على القضاة والمباشرين أموالا ، يجبونها له ، لكى ينفقها على الجنود . وكان من بينهم القاضى عبد الغنى . فما كان منه إلا أن اختفى فى بيته ، ليبعد عن هذه المحنة ، ولا يشترك فيها .

وظل فى منصبه حتى شهد عصر جان بلاط . والعادل وأوائل حكم الغورى . ثم توفى فى أواخر ربيع الأول عام ٩٠٧ هـ . وكان عالما فاضلا ومن أسرة خدمت البلاد بعلمها وفقهها .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٩١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٨٧ - وج ٥ حوادث ربيع الأول عام ٩٩٧ هـ ».

٤٣ — شهاب الدين أحمد بن فرفور ٩١١ هـ

كان عالما غزير المادة كفئا . عين فى قضاء الشافعية بدمشق زمنا . ثم عزل فى رجب عام ٨٨٩ هـ ، وتولى بعده شمس الدين بن المزلق الدمشقى (١) . ولكنه عاد إلى منصبه بعد عزل ابن المزلق عام ٨٩٠ هـ فى جمادى الأولى . وأضيف إليه نظر الجيش ، مع القضاء .

شهد عصر قايتباى ، ومن بعده ، حتى كان عصر الغورى . وعزل قاضى قضاة الشافعية حينذاك - فى ربيع الأول سنة ٩١٠ هـ — وهو برهان الدين بن أبى الشريف فاستدعى شهاب الدين بن فرفور هذا ، ليلى المنصب مكانه ، فوق منصبه فى قضاء دمشق . فجمع له بذلك بين قضائى دمشق والقاهرة . وقد لبث فى قضاء مصر حتى توفى فى يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة عام ٩١١ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ - وج ٤ حوادث التواريخ المذكورة ».

٤٤ — برهان الدين الدميرى ٩١٣ هـ

هو برهان الدين بن الدميرى قاضى قضاة المالكية بمصر . كان عالما فاضلا دينا خيرا لين الجانب كثير التواضع انتهت إليه رياسة المالكية فى عصره . عينه السلطان الغورى فى القضاء فى جمادى الأولى سنة ٩٠٧ هـ . وقيل فى ربيع الثانى ، بعد وفاة قاضى المالكية عبدالغنى بن تقى . فلبث فى منصبه ذاك حوالى ست سنوات

---

(١) هو شمس الدين بن محمد بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى . كان قاضى قضاة الشافعية بدمشق فى عهد قايتباى منذ رجب عام ٨٨٩ هـ عوضا عن ابن فرفور ثم عزل فى جمادى الأولى عام ٨٩٠ هـ . وقد وجد مذبوحا فى داره فى شعبان عام ٩٠٢ هـ . « ذكره ابن إياس ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٣٢٠ ».

ونصف ثم توفى فى الأربعاء ٢٣ رمضان سنة ٩١٣ هـ .

وقيل فى سبب وفاته أن السلطان الغورى كان قد أمر بأن يخطب به قاض من القضاة الأربعة فى كل جمعة . فلما كانت جمعة ابن الدميرى هم أن يخطب فأرتج عليه، فنزل فمرض ، وزاد مرضه حتى مات فى نحو الثمانين من عمره . فلما شيعت جنازته هم السلطان الغورى بأن يصلى عليها مع المصلين ولكن الجنازة كانت قد بدىء فى تشييعها فلم يلحقها . وتوجه إلى المقابر جهة الإمام الشافعى لاستقبالها .

وقد كان الدميرى عليما بأحكام مذهبه متمكنا فيه . واشتهر بحسن الخط . وله ابن جليل وهو محيى الدين ، تولى قضاء المالكية بعد وفاة أبيه وهو الآتى بعد .

« ابن إياس ج ٤ فى حوادث الشهور المذكورة . وج ٣ ص ٦٣ »

٤٥ بدر الدين المكينى ٩١٦ هـ

هو قاضى القضاة بدر الدين محمد بن قاضى القضاة صلاح الدين أحمد بن محمد بن بركوت المكينى عينه السلطان الغورى قاضيا بمصر للشافعية بعد عزل كمال الدين الطويل فى ذى الحجة سنة ٩١٥ هـ ، فأصبح جامعا بين القضاء ومشيخة الخشابية والشريفية . ويقال إنه سعى لهذا المنصب بنحو ثلاثة آلاف دينار . فظل بمنصبه هذا حتى عزل فى ربيع الأول عام ٩١٦ هـ . ولم يمكث به سوى شهرين وأربعة عشر يوما . فخلفه فيه ابن النقيب السابق الذكر .

لم يمض على عزل المكينى شهران واثنا عشر يوما حتى قبض فى يوم الأحد ١٢ جمادى الأولى عام ٩١٦ هـ وله من العمر نحو ستين عاما .

« ابن اياس ج ٤ فى التواريخ المذكورة هنا »

٤٦ — شهاب الدين أحمد الشيشينى ٩١٩ هـ

أحد أفذاذ المذهب الحنبلى . انتهى إليه قضاؤه بمكة المكرمة ، ولما توفى قاضى قضاة الحنابلة بمصر عام ٩٠٢ هـ ، فى عصر السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، عين مكانه ، فوفد من مكة إلى مصر فى ربيع الثانى سنة ٩٠٣ هـ . وتسلم مهام منصبه ، ولما أراد السلطان أن يجبى من القضاة والمباشرين مالا ، كان الشيشينى أسبق إلى الاختفاء فى داره ، فرارا من هذه المحنة ، كما صنع القاضى المالكى عبد الغنى بن تقى . ومع ذلك لبث فى منصبه حتى شهد عصر الملك الظاهر قانصوه ، فعزله من القضاء فى رمضان عام ٩٠٤ هـ . وولى القاضى ابن قدامة من بعده . ولكنه ما عتم أن عاد إلى منصبه بعد شهر وأربعة أيام . وعزل منه ابن قدامة . ولبث فيه بعد ذلك زمنا طويلا ، حتى شهد عصر العادل طومان باى ، وجزءا كبيرا من عهد الأشرف الغورى . ثم توفى فى صفر عام ٩١٩ هـ ، بعد أن نيف على السبعين ، وكان سبب وفاته إصابته بطاعون انتشر فى البلاد فى ذلك الحين . وكانت ولادته عام ٨٤٤ هـ . وله ابن هو عز الدين الحنبلى الشيشينى ، سنشير اليه بعد .

« ابن اياس ج ٢ ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٨٧ ، - ج ٤ حوادث صفر عام ٩١٩ هـ »

٤٧ — سرى الدين بن الشحنة ٩٢١ هـ

هو عبد البر بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود ، وهو سرى الدين أبو البركات بن محب الدين أبى الفضل ، بن محب الدين أبى الوليد ، الحلبى القاهرى الحنفى ولد بحلب فى ٩ من ذى القعدة عام ٨٥١ هـ . وانتقل مع أبيه إلى القاهرة . وحفظ كتبا علمية عدة . والتقى بكثير من المشايخ والأئمة ، فانتفع بعلمهم . ومنهم أبوه ،

قاضى القضـاة محب الدين ، والأمين الاقصرائى ، والتقى الشمنى ، والزين قاسم بن قطلوبغا .

وقد عرف سرى الدين بالذكاء والفطنة، حتى بذ أقرانه ، وفخر به أبوه. ونبه شأنه فى الفقه والحديث والأصول وغيرهما ، كما مهر فى الأدب ، فكتب وخطب ، ونظم الشعر متوسط الجودة . وأذن له أبوه فى الفتوى والتدريس . وأنابه عنه فى القضاء فكان أمره بيـده . وولى وظائف عدة ، منها الخطابة بجامع الحاكم ، وتدريس الحديث بالحسينية ، والتفسير بالجمالية ، وغير ذلك .

ويتهمه السخاوى ـ معاصره ـ فى كتابه الضوء اللامع ، بتهم عدة خطيرة لعله مبالغ فيها ، ومنها أنه « ليس بثقة فيما ينقله ، ولا بعمدة فيما يقوله ، بل هو غاية فى الجرأة والتقول » . ومنها أنه اتهم بإخفـــاء تفسير الفخر الرازى ، وكان يضرب بسبب ذلك » . ومنها « أنه كان كثير الوقيعة فى الأكابر ، لا يتأدب مع مشايخ وقته » ، ومنها أنه « لما ناب فى القضاء عن والده استبد بالتعاليين والاستبدالات ، فكثرت القالة فيه بسببها » . وغير ذلك .

ومهما يكن من شىء ، فقد لبث منصب قضاء الحنفية بمصر ، يتناوبه عدة قضاة منذ وفاة قاضيها محب الدين بن الشحنة ، حتى آل أمره أخيرا إلى ابنه سرى الدين .

وقد نشأ سرى الدين فى أسرة وفى بيئة مليئة بالعلم والأدب فتحلى بما تحلت به من ضروب الكمال . فهو ما شئت أدبا وعلما وفقها وذكاء ودهاء وحسن حيلة . وقد تولى مشيخة المدرسة الأشرفية عام ٩٠٣ هـ ثم عزل منها ولبث زمنا حتى ملأ منصب قضاء الحنفية بمصر فى عهد العادل طومان باى سنة ٩٠٦ هـ لأول مرة . وذلك بعد عزل برهان الدين بن الكركى عنه ولكنه لم يمكث به إلا أياما ما ثم عزل وأعيد ابن الكركى . وقد قيل إن ابن الكركى دفع فى سبيل العودة إلى منصبه مالا . ولكن

القاضى عبد البر عاد إلى المنصب بعد زمن، وظل به حتى شهد عصر الغورى وأصبح أحد أصفيائه المقربين . فقد كان يكون معه فى الأسفار ، وقد يأوى السلطان إلى داره المبيت ، وصار متصرفا فى شئون كثيرة من شئون المملكة ، وكان كثير الموافقة للسلطان فى اقتراحاته حتى قيل إن الغورى لما أراد أن يأخذ من مال الأوقاف ليشبع نهم جنوده أو يدفع رواتبهم المتأخرة عارضه القضاة الثلاثة ووافقه القاضى عبد البر بمفرده . إلا أن الأيام حبب اليها أن تعبث بعض العبث بصداقتهما ، فنمى إلى السلطان أن قاضيه عبد البر يكاتب يحيى بن سبع أمير ينبع - وكان ثائرا على السلطان - ويحذره من القبض عليه . وكانت مكاتبته سببا فى انضمام هذا الأمير إلى الجازانى ابن أمير مكة الثائر أيضا . فنبهاهما ورجالها المحمل فى عام ٩٠٨ هـ . فما كان من السلطان إلا أن قبض على سرى الدين وأمر بنفيه إلى قوص . وكاد يرحل اليها لولا شفاعة الأمير قيت الرجبى فيه ، فرضى عنه السلطان وأعاده إلى منصبه موفور الكرامة . ووقعت بينه وبين القاضى ابن النقيب الشافعى مشاحنة ومشادة بسبب خزانة كتب أختلف فيها رأياهما . وابتلى أيضا فى شهر المحرم عام ٩١٣ هـ بالشاعر جمال الدين السلمونى . وذلك أن الشاعر المذكور هجا « معين الدين بن شمس » وكيل بيت المال هجاء شعريا مرا مقذعا . فادعى « معين الدين » أن السلطان الغورى ترك له أمر السلمونى ليعاقبه بما يقتضيه الشرع ، ولذلك شكاه إلى قاضى الحنفية سرى الدين عبد البر . فما كان من القاضى إلا أن ضرب الشاعر ، وعزره وأشهره فى القاهرة عارى الرأس . فنقم منه الشاعر وكال له بدل الكيل كيلين ، وهجاه بقصيدة طويلة مريرة نسب إليه فيها كل موبقة ومنها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ... ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة ... يرى أنه حل على شبهاتها
أجاز أمورا لا تحل بملة ... بحل وبرم مظهرا منكراتها

وقد أوردنا هذه القصيدة فى ترجمة الشاعر المذكور فى الجزء الثالث . وقد شاع أمرها بين الناس وملأ اسماعهم وأصاب من لدنهم موضع قبول ! فشكاه القاضى عبد البر إلى السلطان ، فأرسل فى طلبه ثم وبخه ودفعه بين يدى القاضى بأمر فيه بما يأمر الشرع فى القاذفين الهجائين . وتعصب للقاضى جميع قضاة الشرع ، وأرادوا ضرب هذا الشاعر وإشهاره فى المدينة إشهار المذنبين المعزرين ، ولكن الشاعر كان ذا منزلة موموقة لدى العوام وبعض الخواص . فأغراهم ذلك بالقاضى عبد البر وهموا برجمه بالحجارة ، فخاف فكف عن إلحاق الأذى بالشاعر !

ومما يذكر أيضا أن وقعت مشاحنة بين القاضى عبد البر وبين كاتب السر محمود ابن أجا الحلبى خاصة بوقف فى مدينة حلب لكل منهما فيه نصيب . فأمر السلطان بعقد مجلس للفصل بينهما . ويظهر أن ابن أجا كان ألحن بحجته من القاضى فنصفه السلطان .

ثم إن السلطان الغورى أسند إلى القاضى عبد البر مشيخة المدرسة الصرغتمشية فى جمادى الأولى سنة ٩١٤ هـ ، وأدخل ابنه حسام الدين محمودا فى عداد موظفى الدولة ، فأخذ نجمه فى الصعود ، وما زال يصعد حتى بلغ به منصب القضاء كما سنذكر بعد .

وقد وقعت فى سنة ٩١٩ هـ وفى شهر شوال منها حادثة زنا مروعة اتهم فيها أحد نواب الحكم . وقد أشرنا إليها عند الكلام عن حالة القضاء . رأى السلطان فيها أن يقتل الزانى والزانية ، ورأى القضاة وفقهاء العصر أن الزانى له حق الرجوع عن اعترافه ، وحينئذ لا يحد . وكان الزانى قد اعترف كتابة بجنايته . وكان القاضى عبد البر فيمن أفتى بالرجوع ، فغضب السلطان وعزل قضاته الأربعة ومنهم عبد البر بسبب هذه الحادثة . فكان هذا آخر عهد قاضينا بالقضاء . وظل معزولا حتى توفى

فى يوم السبت ٢٨ رجب عام ٩٢١ هـ ، وله من العمر ٧٥ عاما . وقيل إنه شارح منظومة ابن وهبان . وهو صاحب الذخائر الأشرفية فى الألغاز الحنفية .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٥٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ - ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة فى الترجمة من عام ٩٠٨ هـ - التعليقات السنية للكنوى ص ١١٣ - الضوء اللامع ج ٤ رقم ١٠٢ »

٤٨ - محيي الدين عبد القادر بن النقيب ٩٢٢ هـ

هو محيي الدين عبد القادر بن على بن مصلح الشافعى ، كان من أهل العلم والفضل ونبغ فى مذهب الشافعى وأول ولايته القضاء بمصر كان فى عهد الأشرف جان بلاط فى ٢٠ صفر سنة ٩٠٦ هـ ، حينما اعتزل هذا المنصب قاضيه الأكبر الشيخ زكريا الأنصارى . وقيل حينئذ إنه كان بين الشافعية أنبغ من ابن النقيب ، وأحق بالمنصب منه .

وفى عهد جان بلاط ثار الأمير طومان باى - الذى ملك البلاد فيما بعد وتسمى بالعادل - وتحصن فى بلاد الشام وأخذ فى الزحف منها على الديار المصرية هو ومن التف حوله هنا اضطرب أمر السلطان جان بلاط ، وجمع أمراءه ليقسموا له على المصحف يمين الطاعة وعدم الخيانة . وقيل إن القاضى ابن النقيب هو الذى كتب لهم صيغة القسم ، وهو قسم غليظ مؤكد بالله وبالمصحف وبالحج والعتق والطلاق ، فكان هذا القسم سببا فى محنته فى المستقبل . فقد تم الأمر الأمير طومان باى وقبض على الأشرف جان بلاط . وما عتم أن قبض على ابن النقيب ودفع به بين يدى جنود غلاظ شداد ، وسيق إلى السجن على أقدامه ماشيا . وفرض عليه غرم يدفعه ، فلبث فى سجنه حتى دفع ما فرض عليه . وعزل من القضاء وعاد إليه بعده

الشيخ زكريا الانصارى . ولم يمكث ابن النقيب فى القضاء هذه المرة إلا أقل من أربعة أشهر .

لم يستطع الشيخ زكريا الانصارى أن يستمر طويلا فى منصبه فاعتزله . وكان عهد طومان باى قد انتهى . وبدأ عهد الأشرف الغورى فعاد حينئذ ابن النقيب إلى منصب قضاء الشافعية وذلك فى ٨ من ذى الحجة سنة ٩٠٦ هـ . غير أنه لم يمتع به سوى ثلاثة عشر يوما ، وبرمت به نفس السلطان فعزله فى ٢٣ من الشهر المذكور. ولم يكتف بذلك ، بل أمر بنفيه إلى قوص ، فتسلمه نقيب الجيش وأركبه حمارا ، وتوجه به إلى النيل ليركبه إلى منفاه ، فشفع فيه بعض الأمراء فأعفى عنه من النفى ، وفرض عليه غرم مالى فأداه .

ظل ابن النقيب زمنا طويلا معزولا ، حتى تقلبت الأيام وطابت له نفس السلطان ، فدلف إلى منصبه للمرة الثالثة فى ذى القعدة عام ٩١١ هـ ، عقب عزل القاضى برهان الدين القلقشندى . فلبث فيه هذه المرة أقل من عام ، ثم عزل فى ١٢ رمضان عام ٩١٢ هـ ولبث فى معزله هذه المرة نحو أربع سنوات ، ثم أعيد إلى المنصب فى ربيع الأول سنة ٩١٦ هـ ، بعد عزل القاضى المكينى ، فلم يلبث به هذه المرة أيضا إلا زمنا قليلا ثم عزل . وفرضت عليه غرامة مالية كبيرة وسجن حتى دفعها ، ثم ظل بعيدا عن القضاء نحو عامين ، فلما عزل القاضى الطويل عين مكانه ابن النقيب فى ٦ رجب سنة ٩١٨ هـ ، فمكث فى منصبه نحوا من أربعة أشهر ، ثم عزل فى ذى القعدة من نفس السنة ، ثم ما لبث أن عاد إليه مرة أخرى فى جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ وما عتم أن عزل فى ٢٧ رجب من نفس العام أى بعد خمسين يوما . فظل معزولا آويا إلى خلوته فى المدرسة المنصورية ، حتى توفى يوم الاثنين ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٢ هـ وقيل فى سبب وفاته إنه ركله فرس فكبه على الأرض فأصيب فخذه بانكسار

وحمل إثر ذلك إلى خلوته فلبث أياما ثم مات .

ويقول ابن إياس ما ملخصه « إن هذا القاضى تولى قضاء الشافعية ست مرات ، ومع ذلك فمجموع أيامه فيه خلال هذه المرات الست يقرب من عامين ، وكان فى كل مرة يسعى جاهدا إلى العودة لهذا المنصب على الرغم من وجود قاض يشغله ، فيبذل المال الوفير للسلطان وللوسطاء حتى يصل إلى مبتغاه ، وبلغ مجموع ما دفعه نحوا من ثلاثين ألف دينار . وكان سعيه سببا فى إخراج كل من القضاة الأنصارى والطويل والقلقشندى والمكينى وغيرهم من مناصبهم ليحل هو محلهم ، ومع ذلك فقد كان أغلب أمره أن يعزل أو يسجن ويؤخذ منه غرم مالى كبير . »

ويفهم من ذلك أن الرجل كان بائس الحظ كما يفهم أنه لم يكن عادلا فى أحكامه وسيرته دائما . أو أنه على الأقل كان قريب العثور سريع الزلل . وكان محبا لجمع المال ، لذلك كان ما يدخره من وراء وظيفته فى اليوم الواحد نحوا من دينارين أشرفيين . والأشرفى أجود أنواع الدنانير إذ ذاك .

وقيل فوق ذلك إنه كان شحيح النفس يعرف الناس عنه بخله . ولعل هذا من أهم ما شوه سيرته .

« ابن اياس ج ٢ ص ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ - ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة ج ٣ ص ١٧ ، ٦٣ » .

٤٩ برهان الدين الكركى (١) ٩٢٢ هـ

هو ابراهيم بن زين الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الكركى الحنفى ، ولد

---

(١) ذكر أبو الفداء فى المختصر (ج ٤ حوادث سنة ٧٢٩ هـ) قال الكرك : بكافين الأولى مفتوحه ، وبينهما راء مهملة ساكنة قليعة قريب البحر فى أطراف بلد سيس من جهة الغرب والشمال وهى تتاخم بلاد ابن قرمان ، وضبطها غيره بفتح الراء

بالقاهرة عام ٨٣٥ هـ ، وأخذ العلم عن أفاضل علماء الأحناف فى زمانه ، مثل الشيخ محيي الدين الكافيجى .

ولما عرف فضله وذاع صيته ، استخدمه الأشرف قايتباى إماما له . وبلغ فى كنفه من العز والجاه ما يغبط عليه ، وكان يتردد على مدارس العلم ، فيلقى بها الدروس الشافية واستخدم حينا فى استيفاء الصحبة ، وأسندت اليه مرة مشيخة المدرسة الاشرفية .

ولما كان عصر الناصر محمد بن قايتباى ، توفى قاضى الحنفية بمصر ناصر الدين الاخميمى فى أخريات عام ٩٠٢ هـ ، فاتجهت عناية السلطان إلى برهان الدين الكركى . فعينه فى قضاء الحنفية مكان القاضى المتوفى ، وكان تعيينه فى مستهل عام ٩٠٣ هـ ، وصرف عن المدرسة الاشرفية ، فأسندت مشيختها إلى سرى الدين بن الشحنة ، ولكنها لم تمكث فى يديه سوى ثلاثة أشهر ، ثم أعيدت إلى الكركى ، مع بقائه فى القضاء .

لبث برهان الدين الكركى فى منصبه القضائى زمنا طويلا ، حتى شهد عصر السلطان الظاهر قانصوه ، ثم الأشرف جان بلاط ، ثم العادل طومان باى . فلما بدأ عهد العادل المذكور عزل ابن الكركى من القضاء عام ٩٠٦ هـ وخلفه فيه سرى الدين بن الشحنة ، وهذه أول يلى فيها القضاء ، فلم يلبث إلا أياما ثم عزل وعاد ابن الكركى إليه ، وقيل إنه سعى للعودة بمال .

ثم إنه بعد ذلك حسن اتصاله بالملك العادل طومان باى حتى إن العادل حينما خلع وزال ملكه فاختفى فأخذ فى البحث عنه عام ٩٠٦ هـ ، قيل أنه اختفى فى منزل القاضى برهان الدين بن الكركى ، ولهذا قبض عليه فى أوائل ذى القعدة من العام المذكور ، وسجن يوما وليلة وفتش منزله ، وسطا عليه أثناء ذلك عدد من الجند

فنهبوه وعبثوا بمال للأوقاف محفوظ عنده ، ثم إنه عزل فظل معزولا حتى مات فى يوم الثلاثاء ٥ شعبان سنة ٩٢٢ هـ ، فى أخريات عهد الغورى . وقيل فى سبب موته إنه نزل إلى النيل ليتوضأ ، وكان النيل فى إبان زيادته فزلقت رجله فجرفه التيار فغرق ومات . وكان باش الوجه رقيق الحاشية موموق الحديث ، ومات فى خلال العقد الثامن من عمره .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٣٠٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ - وج ٤ حوادث شوال وذى القعدة سنة ٩٠٦ هـ - وج ٣ ص ٤٤ ، ٦٣ - والضوء اللامع ج ١ ص ٥٩ »

٥٠ — عز الدين الشيشينى

هو عز الدين بن قاضى القضاة شهاب الدين احمد الشيشينى الحنبلى ، سلك فى منصب القضاء بمصر بعد وفاة أبيه الذى كان يشغل نفس المنصب ، وذلك فى ربيع الأول عام ٩١٩ هـ ، وكان إذ ذاك شابا حسن السيرة .

لم يلبث فى منصبه سوى أشهر ، ثم عزل فى شوال عام ٩١٩ هـ ، مع القضاة الثلاثة عندما اختلفوا مع السلطان الغورى فى حادثة زنا أشرنا إليها .

ظل معزولا عن القضاء حتى أسر قاضى قضاة الحنابلة عند العثمانيين بعد موقعة مرج دابق . وهو القاضى الشهاب الفتوحى . فأعاد السلطان الأشرف طومان باى ، القاضى عز الدين إلى قضاء الحنابلة بمصر ثانية فى ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ .

« ابن إياس ج ٥ حوادث الشهور المذكورة - وج ٣ ص ٧٨ » .

علاء الدين الإخميمى

هو القاضى علاء الدين بن جلال الدين الإخميمى الشهير بالنقيب الشافعى . عكف على إجادة المذهب الشافعى فنبغ فيه وأصبح أحد أعلامه ، واشتغل فى فجر حياته

العملية بالخطابة فى المساجد فكان مشارا إليه فيها. وكان الى نبوغه فيما مر، مشهورا بعلوم وفنون شتى حتى انه كان عليما باللغة التركية وقديرا فى رمى النشاب، ولهذا كان ذا منزلة ممتازة عند الأتراك، واشتغل بالخطابة فى مسجد عبد القادر الدشطوطى، وتردد على مجالس التدريس فشارك فيها، وناب فى الحكم عن القاضى الشافعى، ولما عزل الشيخ كمال الدين الطويل قاضى قضاة الشافعية عام ٩١٩ هـ. استدعى الشيخ علاء الدين ليخطب بالسلطان ويؤمه يوم الجمعة بدل كمال الدين فأحسن وأجاد وأبدع وأفاد، فعهد إليه بعد نحو يوم بالاضطلاع بمنصب قضاء الشافعية بمصر دون أن يسعى الى ذلك بمال لاضطرار السلطان إليه. فظل فى دسته نحو سبعة أشهر لم يترك خلالها دروسه النافعة بالمدرسة الصالحية النجمية. ثم عزل فى ٦ جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ وتولى من بعده ابن النقيب محيى الدين.

وكان علاء الدين كفئا فى منصبه لم يشهد عليه دنس أو جور أو فظاظة. فكان مثال القاضى النزيه العادل. ولم يل القضاء بعد ذلك.

« ابن إياس ج ٤ حوادث ذى القعدة سنة ٩١٩ هـ وجمادى الآخرة سنة ٩٢١ هـ.

٥٢ — جمال الدين القلقشندى

هو جمال الدين ابراهيم بن علاء الدين القلقشندى. كان شافعى المذهب عينه السلطان الغورى قاضيا لقضاة الشافعية بمصر بعد وفاة القاضى ابن فرفور. وذلك فى جمادى الآخرة عام ٩١١ هـ. ثم صرف بعد ستة أشهر، وقيل إنه سعى الى ذلك بثلاثة آلاف دينار، فما زال ابن النقيب ساعيا بخمسة آلاف دينار إلى السلطان، وألفين لمن توسط له من الأمراء، حتى عزل القلقشندى، واستقر مكانه، غير أنه

سرعان ما عزل وعاد القلقشندى الى القضاء فى ١٢ رمضان عام ٩١٢ هـ ، فظل أقل من عامين ، ثم عزل فى أواخر صفر سنة ٩١٤ هـ ، وعين مكانه الشيخ كمال الدين المعروف بالقادرى . وقد توفى القلقشندى فى عهد الغورى .

« ابن إياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة ـ وج ٣ ص ٦٣ »

٥٣ ـ برهان الدين بن أبى شريف ٩٢٣ هـ

هو برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى . عينه السلطان الغورى فى قضاء الشافعية بمصر يوم الخميس ٢٢ من ذى الحجة سنة ٩٠٦ هـ ، بعد عزل ابن النقيب وكان كفئا لمنصبه ، ويوم أن خلع السلطان عليه خلعة القضاء ، كان له فى القاهرة يوم حافل . وقد صرف عن هذا المنصب فى ربيع الأول عام ٩١٠ هـ ؛ ثم عينه السلطان الغورى شيخا لجامعه فظل به زمنا ، وقيل إن الغورى ألحق به أهوالا وشدائد كثيرة ، مرض بسببها فمات ، وكانت وفاته فى أوائل عام ٩٢٣ هـ ، بعد ذهاب دولة الغورى .

« أبن إياس ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة ـ وج ٣ ص ١٠٧ »

٥٤ ـ حسام الدين بن الشحنة ٩٢٣ هـ

هو محمود بن قاضى القضاة سرى الدين عبد البر بن محب الدين ابن الشحنة . نشأ من أسرة اشتهرت بالعلم والفقه والفضل ، واتبع مذهب أبيه وجده وهو مذهب أبى حنيفة ، ولما ذاع فضله وكل إليه منصب قضاء الحنفية بمصر ، وهو لا يزال شابا لما يبلغ مبلغ علماء الأحناف فى ذلك الزمان . وكان ذلك فى رمضان عام ٩٢١ هـ . وقيل إنه سعى الى هذا المنصب بدفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، فظل فى منصبه ذاك حتى عام ٩٢٢ هـ ، فخرج فى جملة القضاة مع السلطان

الغورى لقتال العثمانيين ، فكانت عاقبة أمره الهزيمة معهم فى حلب : ولكنه دون سائر القضاة استطاع أن يفر بعد أن نهب ماله وثيابه ودخل بلاد الشام وهو بائس تعس ، فلما وصل الى مصر وصلها مكدودا مجهودا ، فأعاده السلطان طومان باى الى منصبه . ولما بدأت أقدام العثمانيين تثبت فى الديار المصرية أرسله السلطان سليم فى جملة القضاة والموفدين لمصالحة طومان باى بالصعيد بالبهنسا ، فأخفق معهم فى المسعى ، واستطاع غيره من القضاة الرجوع الى القاهرة . أما هو فقد كان معه أخوه أبو بكر بن الشحنة ، وكانت بين أبى بكر وبين بعض الجراكسة الملتفين حول طومان باى ترة قديمة ، فاعتدوا فى الطريق عليه ، فتصدى أخوه حسام الدين للذود عنه ، فكانت عاقبتهما القتل معا ، وذلك فى ربيع الأول سنة ٩٢٣ .

« ابن إياس ج ٤ حوادث رمضان سنة ٩٢١ هـ - وج ٣ ص ٢ ، ٢٧ ، ٤٩ ، ٧٨ ، ١١٣ ، ١١٨ »

٥٥ — جلال الدين بن قاسم ٩٢٥ هـ

هو القاضى جلال الدين عبد الرحمن بن زين الدين قاسم المالكى ، لما انفصل القاضى محيى الدين بن الدميرى من القضاء فى شوال عام ٩١٩ هـ ، تولى بعده قاضينا جلال الدين بغير سعى . فظل نحو عامين ، ثم انفصل فى رمضان سنة ٩٢١ هـ ، وظل مفصولا إلى أن توفى فى أواخر ذى الحجة عام ٩٢٥ هـ ، بعد الاحتلال العثمانى .

« ابن اياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة - وج ٣ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ » .

٥٦ — زين الدين زكريا الأنصارى ٩٢٦ هـ

هو شيخ الاسلام المفتى الكبير والعالم القدير الجليل القدر السائر الذكر ، زين

الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمد الأنصارى ، ذاع صيته فى مصر حتى صار فى مقدمة رجال الشافعية وهو فى مبكر حياته .

وكان مولده فى عام ٨٢٤ هـ ، وقيل عام ٨٢٦ هـ . فعاش نحوا من مائة عام ، قضاها فى ميدان الجهاد العلمى ما بين منصب القضاء الأكبر والتدريس والافتاء والتأليف . حتى توفى فى ٣ ذى الحجة عام ٩٢٦ هـ ، فشيع تشييعا حافلا ، ودفن تجاه مقبرة الشافعى .

وقد عين مدرسا بالمدرسة الصلاحية بجوار قبة الشافعى عوضا عن الشيخ تقى الدين الحصنى المتوفى ؛ وذلك فى ربيع الأول عام ٨٨١ هـ . وولى منصب القضاء ، بعد تمنع وزهادة فى رجب عام ٨٨٦ هـ ، بعد عزل قاضى قضاة الشافعية ولى الدين الأسيوطى . وقد اشترط لولايته شروطا كثيرة قبل السلطان بعضا منها . وقد زاول منصبه بعلم ودراية وعفة ونزاهة ، وزهد وتقوى ، وشدة فى الحق وذود عنه وصراحة فيه .

وقد لبث فى منصب القضاء مدة طويلة ، لعلها أطول مدة قضاها قاض فى منصبه فى ذلك العصر ، وهى عشرون عاما تقريبا حتى صفر عام ٩٠٦ هـ ، إذ مرض وضعف عن حمل أعبائه وعشى بصره ففصل من القضاء . فوليه بعده محيى الدين ابن النقيب ، فقبض عليه بعد قليل ، واستعيد الشيخ زكريا إلى القضاء رغم امتناعه ومرضه . الا أنه زايله فى الخميس ٨ ذى الحجة عام ٩٠٦ هـ ، ولم يعد إليه بعد ذلك .

وقد طالت حياته — كما ذكرنا — وشهد عصور سلاطين عدة وعاش حتى شهد عصر الغورى كله ودخول العثمانيين مصر . فرأى من الحوادث الكثر ما يندر أن يراه غيره . وقد وقعت فى عام ٨٧٥ هـ فتنة بن العلماء بخصوص الشيخ عمر بن الفارض ، وانقسموا بين مفسقين له ، وغير مفسقين . وقد أخذ رأى الشيخ زكريا

فيه ، فبرأه مما نسب إليه واتهم الناس بالقصور عن إدراك مرامى هـــذا الشيخ ، فسكنت الفتنة .

هذا : وسنترجم له بتفصيل فى الجزء الثانى من كتابنا هذا .

الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢ ،

شمس الدين السمديسى

هو القاضى شمس الدين محمد بن النقيب السمديسى . أسند إليه منصب قضاء الحنفية فى عهد الغورى فى ذى القعدة عام ٩١٩ هـ بعد عزل ابن الشحنة عبد البر ، ولم يسع إلى المنصب بمال ، بل اضطر الغورى إلى تعيينه هو وزملائه إذ ذاك بعد أن عزل قضاته الأربعة ، وكان من قبل إماما للسلطان فى مدرسته ، كما كان مؤدبا لولده ، وظل فى منصبه حتى عزل فى رمضان عام ٩٢١ هـ وعاد ابن الشحنة إلى مكانه فعينه السلطان إماما له مرة ثانية ، ورحل معه فى خروجه عام ٩٢٢ هـ إلى الشام وحلب لقتال العثمانيين . فكان نصيبه الأسر فيمن أسر : وأرسل مسجونا إلى القسطنطينية ، ثم عاد إلى مصر بناء على أمر السلطان سليم العثمانى ، وكانت عودته فى جمادى الآخرة عام ٩٢٧ هـ وفى صحبته عدد من الأسرى .

« ابن اياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة - وج ٣ ص ٥١ ، ٥٧ ،

٥٨ - محيى الدين بن الدميرى ٩٢٨ هـ

هو قاضى قضاة المالكية محيى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم الدميرى . كان فى حياة أبيه شابا حسن السيرة ، أخذ نفسه بالدرس والعلم والبحث ، ونشأ فى بيئة علمية فنبغ فى مذهب مالك ، نبوغا شهد له به أهل عصره .

وقد تولى منصب القضاء فى ١٧ شوال سنة ٩١٣ هـ بعد أن توفى أبوه . فتلقاه المالكية بصدر رحب ونفس باشة ، فانتهت بذلك إليه رياستهم ، وهو فى عنفوان شبابه . وضم إليه السلطان الخطابة فى جامعه المبنى فى ناحية الشرابشيين فى شهر المحرم عام ٩١٨ هـ ، عوضا عن شمس الدين الغزى المتوفى . وطلب إليه السلطان أولا أن يخطب مرة على مسمع منه يوم جمعة ، فخطب فأجاد ، فأعجب به السلطان وضم إليه الوظيفة المذكورة .

وما زال مرعى الجانب يعيش فى كنف السلطان حتى شوال عام ٩١٩ هـ . وفى هذا الشهر تعصب القاضى محيى الدين مع سائر القضاة والعلماء ضد السلطان فى مسألة الزنا التى أشرنا إليها فى الكلام عن القضاء . فعزل مع القضاة الآخرين . وظل معزولا حتى استعاده السلطان فى رمضان عام ٩٢١ هـ ، بعد أن دفع له ألفى دينار .

ظل القاضى محيى الدين بن الدميرى فى القضاء ، حتى خرج السلطان الغورى فى عام ٩٢٢ هـ بجيشه الكثيف نحو البلاد الشامية والحلبية لقتال السلطان سليم العثمانى ، ومعه الخليفة والقضاة الأربعة فكان من بينهم قاضينا محيى الدين . ثم تمت الهزيمة على الغورى فى موقعة مرج دابق ، وأسر كثير من رجاله ، كان من بينهم هذا القاضى . وقد أدخل على السلطان سليم فيمن أدخل من العلماء ، فوبخهم بكلام جارح لأنهم يسعون إلى القضاء بالمال ، ويقبلون الرشوة على الفتاوى والأحكام الشرعية . وسجن مع القاضى الشافعى والحنبلى فى مدينة حلب .

ولما دخل السلطان سليم مصر بجيشه كان القاضى فى ركبه مع الاسرى ، ولما اشتد النزاع بين السلطان سليم والسلطان طومان باى أرسل السلطان سليم اليه القاضى محيى الدين الدميرى ، وكمال الدين الطويل وشهاب الدين الفتوحى لمفاوضته

ومصالحته بالصعيد . ولكنهم أخفقوا فى مسعاهم ، وعادوا من لدنه إلى القاهرة فى أوائل ربيع الثانى سنة ٩٢٣ هـ .

وقد عاش الدميرى بعد ذلك زمنا طويلا . وحج ، عام ٩٢٣ هـ ، وظل متقلدا منصبه فى عهد العثمانيين وعلت مكانته لدى نائب السلطان الأمير خاير بك . ولهذا حينما كان ختان ابنه فى أوائل المحرم سنة ٩٢٦ هـ ، نظم له موكب شائق سار فيه كثير من الوجهاء . وأصبحت شفاعته لدى النائب غير مردودة . ويصحبه فى ركباته أحيانا .

ظل يقضى حتى أرسل السلطان سليم العثمانى من لدنه قاضيا سمى « قاضى العسكر » وأمر بإلغاء نظام القضاة الأربعة . وحل « قاضى العسكر » محل قضاة الشرع الأربعة فى منصب القضاء بالبلاد مستمدا أحكامه من مذهب أبى حنيفة . فانفصل القضاة الأربعة ومن بينهم محيى الدين الدميرى . فهو آخر قضاة المالكية بمصر . وكان ذلك فى جمادى الآخرة عام ٩٢٨ هـ ، وعاش محيى الدين بعد فصله زمنا ولعله توفى عام ٩٢٨ هـ .

« ابن إياس ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة - وج ٣ ص ٢ ، ٢٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ١٤١ ، ١٨٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ » .

٥٩ - كمال الدين محمد الطويل ٩٢٨ هـ

هو أبو الفضل محمد بن نور الدين على بن الناصرى محمد بن السيفى بهادر العمرى القادرى . وأصله تركى الجنس . وقد تمذهب بمذهب الشافعى ، وبرع فيه حتى عد

أحد أساطينه ، وأول ولايته لقضاء الشافعية بمصر فى أواخر صفر عام ٩١٤ هـ بعد أن صرف عنه جمال الدين القلقشندى ، وكان من قبل هذا شيخا للخانقاه البيرسية فاجتمعت له مع القضاء . قيل لم يجتمع هذا لشخص غيره إلا للعلامة شهاب الدين ابن حجر ، والقاضى شمس الدين القاياتى .

وقد خطب أمام السلطان الغورى خطبة يوم جمعة فى مستهل ربيع الأول من السنة نفسها ، فوفق فيها أكبر توفيق وأعجب بها السلطان والأمراء . وقد أخذت كفاءته لمنصبه تثبت على مر الأيام فيزداد مكانة وسموا فى الجاه .

ظل فى منصب القضاء نحو عامين ثم عزل فى ذى الحجة عام ٩١٥ هـ . ولكن الأمراء أظهروا رضاهم عنه ، فكان ذلك سببا فى عودته إلى منصبه ؛ فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ٩١٦ هـ ، وعزل ابن النقيب . وفى يوم توليته المذكور أمّ السلطان وخطب له فى الصلاة ، فلما نزل من داره إلى المصلى احتفل به الناس احتفالا شائقا ، وزينت له الدور والمحال ولقيه الناس بالتغنى والموسيقا ، حتى بلغ الخانقاه البيرسية حيث أديت الصلاة . فخطب خطبة بليغة أشار فيها إلى عودته للقضاء ، وقرأ وهو فى المحراب الآية التى منها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . وقد سر منه السلطان وأظهر له رضاه بعد الصلاة ومنحه خلعة رضم إليه أعمالا ومشيخات كثيرة . ويقال إنه دفع فى سبيل عودته إلى القضاء نحوا من خمسة آلاف دينار .

وقد ظل فى منصبه مهيب الجانب موفور الكرامة رفيع المنزلة حتى عزل فى ٦ رجب سنة ٩١٨ هـ ، واستقر مكانه ابن النقيب . ولكن الطويل ما لبث غير قليل ثم عاد إلى القضاء فى ذى القعدة عام ٩١٨ هـ . وهذه ثالث ولاية له . وقيل إنه أدى فى هذه الولايات الثلاث أكثر من عشرة آلاف دينار . وظل قرابة عام ثم عزل فى شوال سنة ٩١٩ هـ فى حادث الخلاف الذى جرى بينه وبين السلطان خاصا

بمسألة الزنى التى أشرنا إليها عند الكلام عن القضاء ، فعزل مع بقية القضاة ، وظل مقصيا حتى رضى عنه السلطان بعد زمن ، وأعاده إلى القضاء فى ٢٧ رجب عام ٩٢١ هـ بعد أن دفع ثلاثة آلاف دينار .

وقد خرج القاضى كمال الدين الطويل مع قضاة الشرع حينما خرجوا فى حملة الغورى سنة ٩٢٢ هـ فى قتاله للسلطان سليم العثمانى . ولما بلغوا حلب خطب فى جامعها الكبير عدة مرات خطبا بليغة ، ثم أسر فى جملة من أسر وأدخل مع القاضى المالكى والحنبلى على السلطان سليم ، فأسمعهم كلاما قاسيا . وظل فى الأسر حتى دخل فى ركاب هذا السلطان وهو يفتح مصر . ومر فى ركب الخليفة هو وسائر القضاة فى وسط القاهرة فى أواخر عام ٩٢٢ هـ ، ينادون الناس بالخضوع لسلطان العثمانيين . ثم ذهب فى وفد السلطان سليم الذى أرسله إلى الصعيد لمصالحة السلطان طومان باى . فعادوا فى أوائل ربيع الثانى عام ٩٢٣ هـ ، ولم تفلح مفاوضتهم .

ولما زالت دولة الجراكسة وتم ملك مصر للعثمانيين ، حمل ابنه زين العابدين فيمن حملوا إلى القسطنطينية . أما هو فقد ظل فى منصبه بضع سنين ، وهو موضع التجلة والتعظيم والاستشارة . وظل عالى الكعب فى الخطابة المنبرية يرسلها منوعة حسب المناسبات . وما زال حتى ألغى نظام القضاة الأربعة فى جمادى الآخرة سنة ٩٢٨ هـ ، وحل محلهم قاضى العسكر ، فانفصل القاضى كمال الدين عن القضاء بعد ما تردد عليه نحوا من أربعة عشر عاما . ثم عاش بعد ذلك زمنا ، ولعله توفى فى ٩٢٨ هـ ، أو قريبا منه .

« ابن اياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة - وج ٣ ص ٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٥٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ » .

٦٠ - شهاب الدين الفتوحى

هو شهاب الدين أحمد بن عز الدين عبد العزيز الفتوحى الشهير بابن النجار الحنبلى. لما انفصل قاضى الحنابلة بمصر الشيخ الشيشينى عام ٩١٩ هـ، أرسل السلطان الغورى إلى الشيخ شهاب الدين، ووكل إليه منصب القضاء المذكور. فلبث فيه زمنا طويلا. وكان فى جملة القضاة الأربعة الذين خرجوا فى حملة السلطان الغورى إلى البلاد الشامية والحلبية لمقاتلة العثمانيين. ثم كانت عاقبة أمره أن أسر فى جملة الأسارى، فظل فى حلب مدة ووبخه السلطان سليم مع من وبخ من القضاة. ثم عاد إلى مصر كما عادوا مسوقين فى الركاب العثمانى. ولما تمت نصرة العثمانيين الأولى على طومان باى، سيق شهاب الدين هو والقضاة والخليفة ينادون الناس بالخضوع لهم. ثم سار فى موكب السلطان سليم نفسه حينما اخترق شوارع القاهرة الرئيسية فى المحرم عام ٩٢٣ هـ، ثم أرسله السلطان سليم إلى الصعيد فى عداد الوفد المرسل إلى طومان باى لمصالحته فأخفقوا.

وبعد أن تم الفتح العثمانى ثبت القاضى شهاب الدين الفتوحى فى منصبه. غير أنه كان أقل نفوذا من القاضى المالكى وهو برهان الدين الدميرى. ولذلك حينما قام بختان ولده فى ٢٣ شعبان سنة ٩٢٦ هـ، كان الاحتفال به أقل بهاء من احتفال الدميرى بختان ابنه.

وقد ظل الفتوحى فى منصبه حتى ألغى نظام القضاة الأربعة فى جمادى الآخرة عام ٩٢٨ هـ، فانفصل من القضاء وعاش بعد ذلك زمنا، ولعله توفى قريبا من العام المذكور.

«ابن إياس ج ٤ حوادث شوال عام ٩١٩ هـ - وفى ج ٣ ص ٢، ٢٧، ٤٩، ٥١، ٩٨، ٢١٣، ٢٢٤، ٢٥٠، ٢٨٢، ٢٩٦، ٢٩٩».

٦١ - يحيى البردينى

هو القاضى شرف الدين يحيى البردينى الشافعى . كان له باع طويل فى الخطابة المنبرية . وناب عن القاضى الشافعى زمنا . وشهد مبايعة طومان باى بالسلطنة ، عوضا عن كمال الدين الطويل ، لأسره عند السلطان سليم . ولما عاد القاضى كمال الدين ابن الطويل ، وتسلم مهام منصبه أصبح البردينى مفصولا . ولم يل القضاء بعد ذلك .

ولما نابه العيش بمصر ، حينما اضطربت أحواله بعد الفتح العثمانى ، جهد فى أن يعين شيخا للحرم النبوى الشريف ، فأجيب إلى طلبه ، وسافروا إلى المدينة فى شهر جمادى الآخرة عام ٩٢٣ هـ .

« ابن إياس ج ٣ ص ٧٠ ، ٧٨ ، ١٢٥ » .

قضاة آخرون

نجمل فيما يلى ذكر عدد آخر من قضاة مصر مرتبين حسب عصورهم ووفياتهم تقريبا . وقد اعتمدنا فى إيرادهم على تاريخ ابن إياس أولا ، ثم نضيف إليه من بعض المراجع الأخرى .

عن الجزء الأول من ابن إياس :

---

١ - جمال الدين الزرعى : من قضاة الشافعية فى عهد الناصر بن قلاوون « ص ١٧٥ » .

٢ - برهان الدين بن جماعة : خطيب بيت المقدس . عين فى قضاء الشافعية عام ٧٧٣ هـ فى عهد الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر بن قلاوون . بدلا من بهاء الدين السبكى . وهو ابن أخى القاضى عز الدين بن جماعة المقدسى « ص ٢٢٧ ، ٣١٥ - طبقات السبكى ج ٥ ص ٤٦ » .

٣ - جمال الدين بن خير المالكى السكندرى : قاضى قضاة المالكية عام ٧٨٧ هـ فى عهد برقوق ، بدلا من ابن خلدون « ص ٢٦٢ ، ٢٨٤ ».

٤ - شمس الدين الطرابلسى : قاضى قضاة الحنفية عام ٧٩١ هـ . فى عهد أمير حاج . « ص ٢٨٤ » .

٥ - ناصر الدين العسقلانى : قاضى قضاة الحنابلة عام ٧٩١ هـ . فى عهد أمير حاج . « ص ٢٨٤ » .

٦ - تقى الدين الزبيرى : عين قاضيا للشافعية عام ٧٩٩ هـ ، عوضا عن المناوى ، فى عهد برقوق . « ص ٣٠٧ ، ٣١٥ » .

٧ - صدر الدين بن منصور : من قضاة الحنفية فى عهد برقوق . « ص ٣١٥ »

٨ - مجد الدين الكنانى من قضاة الحنفية فى عهد برقوق . وقد توفى عام ٨٠٢ هـ « ص ٣١٥ ، ٣٢٦ ».

٩ - جمال الدين محمود القصيرى : من قضاة الحنفية فى عهد برقوق . « ص ٣١٥ »

١٠ - جمال الدين يوسف الملطى . من قضاة الحنفية فى عهد برقوق وفرج . توفى بالشام عام ٨٠٣ هـ « ص ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ».

١١ - شمس الدين الركراكى : من قضاة المالكية فى عصر برقوق « ص ٣١٥ ».

١٢ - شهاب الدين أحمد النحريرى : من قضاة المالكية فى عصر برقوق . توفى عام ٨٠٣ هـ مفصولا عن القضاء « ص ٣١٥ ، ٣٤٠ » .

١٣ - ناصر الدين التونسى : من قضاة المالكية فى عصر برقوق . « ص ٣١٥ ».

١٤ - برهان الدين العسقلانى : من قضاة الحنابلة فى عصر برقوق . وقد توفى عام ٨٠٢ هـ « ص ٣١٥ ، ٣٢٦ » .

١٥ - نور الدين بن الجلال المالكى : من قضاة المالكية فى عهد فرج . ومات

مأسورا عند تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ . « ص ٣٢٨ ، ٣٤٠ »

١٦ - ناصر الدين الصالحى : من قضاة الشافعية ولى قضاءها عام ٨٠٣ هـ بدلا من صدر الدين المناوى لأسره عند تيمورلنك « ص ٣٢٧ »

١٧ - أمين الدين الطرابلسى : ولاه السلطان فرج قضاء الحنفية عوضا عن جمال الدين يوسف الملطى المتوفى عام ٨٠٣ هـ . « ص ٣٣٧ »

١٨ - جمال الدين الأفقهسى : ولاه السلطان فرج قضاء المالكية ، عوضا عن نور الدين بن الجلال المتوفى مأسورا عند تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ . ثم عزل الأفقسى وعين مكانه ابن خلدون . « ص ٣٣٧ ».

١٩ - مجد الدين بن سالم الجهنى : ولى قضاء الحنابلة فى عصر فرج عام ٨٠٣ هـ ، بدلا من موفق الدين الحنبلى المتوفى « ص ٣٣٧ ».

عن الجزء الثانى من ابن إياس :

٢٠ - ولى الدين العراقى :

ولى قضاء الشافعية بمصر مدة فى عهد المؤيد شيخ عوضا عن جلال الدين البلقينى وتوفى عام ٨٢٤ هـ فى عهد الملك المظفر أحمد بن المؤيد . « ص ٩ ، ١٣ »

٢١ - بدر الدين محمود العينى :

ولى قضاء الحنفية زمنا بمصر فى عهد المؤيد شيخ . وشهد عصور من بعده حتى توفى فى أواخر عهد جقمق ، وله كتب فى التاريخ وشرح للبخارى وغيره من المصنفات النافعة ، وله شعر وزجل « انظره فى الجزء الثانى من كتابنا هذا » « ص ٩ ، ٣٦ »

٢٢ - نصر الدين بن التونسى :

ولى قضاء المالكية زمنا فى مصر فى عهد المؤيد شيخ . « ص ٩ »

٢٣ - علاء الدين بن مغلى :

ولى قضاء الحنابلة زمنا بمصر أيام المؤيد شيخ« ص ٩ » .

٢٤ - شمس الدين البساطى :

ولى قضاء المالكية زمنا فى عهد الظاهر جقمق وتوفى عام ٨٤٢ هـ . «ص ٢٧، ٣٣ »

٢٥ - بدر الدين التونسى :

ولى قضاء المالكية بمصر عام ٨٤٢ هـ بعد وفاة البساطى فى عهد جقمق ، ثم توفى فى نفس العهد . « ص ٢٧ ، ٣٦ »

٢٦ - شمس الدين محمد القاياتى :

ولى قضاء الشافعية بمصر زمنا فى عهد الظاهر جقمق بعد عزل ابن حجر عام ٨٤٩ هـ . « ص ٢٩ »

٢٧ - ولى الدين السقطى :

ولى قضاء الشافعية زمنا بمصر فى عهد جقمق قبيل عام ٨٤٩ هـ وتوفى فى هذا العهد « ص ٣٥ ، ٣٦ »

٢٨ - ولى الدين الأمدى :

ولى قضاء المالكية بمصر زمنا فى عهد جقمق بعد البدر التونسى . « ص ٣٥ »

٢٩ - محب الدين العسقلانى :

ولى قضاء الحنابلة بمصر زمنا فى عهد جقمق وتوفى فى ذلك العهد « ص ٣٥ ، ٣٦ »

٣٠ - بدر الدين البغدادى :

ولى قضاء الحنابلة بمصر زمنا فى عهد جقمق بعد محب الدين العسقلانى . وتوفى فى نفس العهد « ص ٣٥ ، ٣٦ » .

٣١ - بدر الدين عبد المنعم البغدادى :

هو عبد المنعم بن محمد بن محمد بن عبد المنعم البغدادى كان عالما فاضلا وجيها عند الناس ، ولد عام ٨٠١ هـ ، وتوفى عام ٨٥٧ هـ ، ولى قضاء الحنابلة زمنا وشهد عهد الأشرف إينال - ولعله هو بدر الدين البغدادى رقم ١١ كرر ابن إياس ذكره وذكر وفاته فى ميعادين وموضعين . « ص ٤٢ »

٣٢ - عز الدين الكنانى :

هو ابن برهان الدين بن مجد الدين بن نصر الله . عينه الأشرف إينال فى قضاء الحنابلة بعد وفاة بدر الدين البغدادى سنة ٨٥٧ هـ فلبث فيه زمنا . « ص ٤٢ »

٣٣ - ولى الدين السنباطى :

كان قاضى قضاة المالكية بمصر زمنا وتوفى فى عهد الأشرف إينال سنة ٨٦١ هـ. وولد سنة ٧٨٦ هـ ، واسمه محمد بن عبد اللطيف بن اسحق بن أحمد بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموى المالكى . كان عالما فاضلا وتوفى سنة ٨٦١ هـ . وقد تولى بعده القاضى حسام الدين بن حريز . « ص ٥٨ »

٣٤ - صلاح الدين أحمد بن بركوت المكينى :

تولى قضاء الشافعية بمصر بعد عزل يحيى المناوى فى أواخر عام ٨٦٩ هـ فى عهد السلطان خشقدم . وقيل دفع فى سبيل ذلك مالا . ولم يلبث فى منصبه طويلا ، بل عزل أوائل عام ٨٧٠ هـ وظل معزولا حتى توفى عام ٨٨١ هـ .

« الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣٠٤ - وابن اياس ص ٨٧ ، ٧٩ ، ١٦٦ »

٣٥ - بدر الدين محمد أبو السعادات :

هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الكنانى الشافعى . تولى قضاء الشافعية بمصر زمنا قليلا فى عهد خشقدم ثم عزل وتوفى سنة ٨٩٠ هـ . « ص ٢٢٨ »

٣٦ - أبو السعادات البلقيني :

ولى قضاء الشافعية بمصر نحو أربعة أشهر خلال سنة ٨٧٠ هـ فى عهد خشقدم بعد عزل صلاح الدين المكينى ثم سعى الى المنصب ولى الدين الأسيوطى السالف الذكره ، فعزل أبو السعادات ، وأسند المنصب الى ولى الدين .

٣٧ - برهان الدين اللقانى :

تولى قضاء المالكية زمنا بمصر فى عهد قايتباى بعد عزل ابن حريز عام ٨٧٧ هـ ثم عزل . « ص ١٢٧ ، ٢٠٦ »

٣٨ - الجمالى يوسف الحنبلى :

هو ابن الشهابى أحمد بن نصر الله بن أحمد البغدادى ، تولى قضاء الحنابلة بمصر زمنا . وكذلك اشتغل بالتدريس بمدارس الحنابلة كالمدرسة البرقوقية ، وكان لطيف المعاشرة . وقد توفى فى المحرم عام ٨٨٩ هـ . « ص ٢٢١ »

٣٩ - بهاء الدين عبد الرحمن بن قدامة الدمشقى :

عينه السلطان الظاهر قانصوه فى قضاء الحنابلة بمصر عوضا عن الشيشينى فى رمضان عام ٩٠٤ هـ فمكث أربعة أشهر وصرف عن القضاء . ثم عين فى قضاء الحنابلة بدمشق بعد ذلك ، وشهد عصر الغورى ، وتوفى فى أخرياته .

« ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ - وج ٣ ص ٦٣ » .

عن الجزء الثالث من ابن إياس :

---

٤٠ - شمس الدين التتائى :

عينه طومان باى الأشرف فى قضاء المالكية عوضا عن محيى الدين الدميرى الأسير لدى السلطان سليم وذلك فى مستهل ذى القعدة عام ٩٢٢ هـ ، ثم انفصل حينما عاد الدميرى وتسلم منصبه ثانيا . « ص ٧٨ » .

المحمل والحج

منذ دخل الإسلام بلاد مصر ، أصبح أهلها - إلا قليلا منهم - يدينون به ، ولم تفتر همتهم عن إظهار شعائره الدينية . والتفنن فى إظهارها . ومرت بمصر عصور دفعتها إلى الغلو فى ذلك ، حتى بدت منها فى هذه السبيل ضروب من البدع ، ما بين مقبول ومرذول . ومن هذه البدع خروج المحمل فى موسم الحج إلى بلاد الحجاز . وقد كانت هذه البلاد خاضعة لمصر فى عصر المماليك .

والمحمل جمل فوقه تركيب يحمل أشياء ثمينة ، وكسوة مخصوصة لتغطية الكعبة . والعادات المرعية فى إبان الاحتفال به ، وبخروجه الآن ، يعرفها المصريون ولا سيما القاهريون . إذ لا يزال خروج المحمل سنة متبعة فى بلادنا حتى اليوم ، ويحتفل به فى القاهرة كل عام .

وقد كان لكل من العراق والشام والمغرب محمل . فكانت عدة المحامل السلطانية أربعة (١) . ثم عفى الزمن هذا التقليد ولم يبق مقيما على اتباعه حتى الآن غير مصر .

والمعروف أن الظاهر بيبرس ، أول من أمر بخروج المحمل بديار مصر ، وكان ذلك فى ١٦ شوال عام ٦٧٥ هـ . فقد روى السيوطى قال :

« وفى أيامه - أى بيبرس - طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة ، بالقاهرة . وذلك فى سنة خمس وسبعين - أى وستمائة - وكان يوما مشهودا . وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . » (٢)

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ نقلا عن ابن فضل الله .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٤

وقال صاحب تقويم النيل :

« إنه ـ أى بيبرس ـ بعد أن تولى ملك مصر ، قرر إرسال تحفة سنوية إلى مكة ، وهى جمل محمل اشياء ثمينة وكسوة مخصوصة لتغطية الكعبة ، وهى التى أطلق عليها اسم المحمل . »

وقال أيضا ونقل عن حسن المحاضرة :

« قال ابن كثير : فى سادس عشر شوال سنة ٦٧٥ هـ ، طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودا » . قلت : كان هذا مبدأ ذلك . واستمر ذلك كل عام إلى الآن . » (١)

غير أنه ورد فى ابن إياس ما يفيد أن « المحمل » كان معروفا قبل عام ٦٧٥ هـ . فقد ذكر فى حوادث عام ٦٦٧ هـ أن السلطان بيبرس حج إلى بيت الله الحرام فى العام المذكور . ثم قال بالنص :

« وكان ولد السلطان ، السعيد محمد ، توجه صحبة المحمل بالحاج المصرى . فلما قضى حجه ـ أى السلطان ـ رجع إلى الشام ، ورجع ابنه الملك السعيد صحبة المحمل مع الركب المصرى » .

فهل كان « المحمل » معروفا فى مصر قبل عام ٦٧٥ ؟ قد يكون ذلك تبعا لنص ابن إياس . غير أن ما رواه السيوطى أصرح وأقطع . وعلى كل حال ، فالمفهوم أن بدعة « المحمل » وبدعة الطواف به فى مصر ، من مبتكرات عصر المماليك . وعلينا أن نفرق أولا بين مجرد الكسوة للكعبة الشريفة ، وبين « المحمل » . فكثير من الأمم والسلاطين كانوا يرسلون الكسى ولكن بغير محمل .

---

(١) تقويم النيل ترجمة بيبرس ج ١ .

ولسنا هنا فى مقام تعداد محاسن المحمل أو مساوئه ، أو نقد بدعته ، وإن كانت تحتاج منا الآن ـ نحن أهل القرن العشرين ـ إلى إعادة النظر . . وكل همنا منصرف إلى الحديث عنها ورواية أخبارها وبيان مبلغ اهتمام المصريين بأمرها ، وذكر ما يتصل بها من شئون الحج ، فى عصر المماليك فنقول :

روى السيوطى فى وصف المحمل المصرى ما يلى :

« قال ابن فضل الله . . . يخرج الركب من مصر بالمحمل السلطانى والسبيل المسبل للفقراء والضعفاء والمنقطعين ، بالماء والزاد والأشربة ، والأدوية والعقاقير ، والأطباء والكحالين ، والمجبرين والأدلاء ، والأئمة والمؤذنين والأمراء والجند والقاضى والشهود ، والدواوين والأمناء ، ومغسل الموتى . فى أكمل زى وأتم أبهة . وإذا نزلوا منزلا أو رحلوا مرحلا ، تدق الكوسات ، وينفر النفير ، ليؤذن بالرحيل والنزول . . . » (١) .

وقد جرت عادة السلطنة المصرية أن يقوم بالحجاج ركبان : يسمى أحدهما « الركب الأول » ، ويسمى الثانى « ركب المحمل » ، وهو أهم الركبين ، لأنه يضم الكسى والهدايا وما إلى ذلك ، ويسافر فى صحبته عظماء الحجاج .

ويعين لكل ركب ، أمير يختاره السلطان من بين رجاله المقربين الموثوق بهم . والغالب أن يكونا من رجال السيف ، وقل أن كانا من رجال القلم أو الدين .

وبديهى أن يكون أمير ركب المحمل ، أهم وأسمى من أمير الركب الأول ، ويتم تعيينهما فى النصف الثانى من ربيع الأول من كل سنة ، وبعد انتهاء المولد النبوى . ولوحظ أنه ينـدر أن يتأخر تعيينهما أو يتقدم ، الا لسبب عارض وبعد ذلك مخالفا للعادة المرعية .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤

وإذا ما وقع اختيار السلطان على أميرى الركبين ، أهدى إليهما خلع الإمارة وهى أردية نفيسة ذات قيمة . ثم يأخذ الأميران فى الاستعداد للرحيل وينادى المنادى بين الناس بالقيام للحج ، ليستعد أيضا من عقد النية فى عامه على حج بيت الله الحرام . هذا إذا لم يكن هناك خطر مرقوب يتوقع حدوثه لركبى الحاج ، كقيام العربان فى الطريق لقطعه عليهم ، وترصدهم لنزولهم حتى ينهبوا مامعهم . وقد يقتلون منهم عددا . وقد يأسرون عددا آخر . وكثيرا ما حدثت حوادث من هذا النوع حتى اضطر السلطان خوفا على حياة رعاياه أن ينادى فى سنة ما بمنع النساء وحدهن من الخروج للحج فى سنتهن تلك . أو بمنع الرجال والنساء معا من الخروج للحج فى عامهم ذاك . وكذلك إذا تتالت الأخبار عن ثوران العربان فى الطريق المؤدى إلى الحجاز ، وعن توقع الشر منهم للحجاج . وهذا هو ما وقع فى سنة ٩١١ هـ . وربما خيف من فتنة أخرى أو حرب منتظرة أو نحو ذلك . فينادى بعدم الخروج للحج حينئذ .

ويزود ركبا المحمل بعدد من الجنود لحمايتهما ، والذود عنهما فى خلال الطريق ذهابا وإيابا وإقامة . وقد يصل عدد الجنود إلى خمسمائة أو ستمائة . ومعهم أمراؤهم كما قد يزود الركبان بنحو خمسين جنديا آخرين عليهم أمير خاص بهم ، يصاحبونهم إلى مكة . ولا يعودون فى عودتهم ، بل يقيمون بمكة طول العام حتى يعود ركب المحمل فى السنة القادمة إلى الحجاز ، فيستبدل بهم سواهم وهكذا . وهذه حيطة نافعة فى تلك العصور المظلمة المليئة بالفوضى وحب الاعتداء من العربان وغيرهم . ويسمى هؤلاء الخمسون « المجاورين » ويسمى أميرهم « باش المجاورين » لأنهم يجاورون مكة والبيت الحرام . ويعطى كل جندى ممن يصحبون المحمل مالا لينفق منه ويكفيه طيلة عمله المكلف إياه .

فإذا تهيأ المحمل وأعد ، عرض على الانظار السلطانية عرضين : أما العرض الأول فموعده شهر رجب من كل عام . وفى نصفه الثانى فى الغالب . وأما العرض الثانى فموعده شهر شوال من كل عام ، وفى نصفه الثانى فى الغالب . ويندر أن يعرض فى غير هذا الميعاد .

والعرض الأول عبارة عن خروج المحمل بالكسوة الشريفة والبرقع وكسوة مقام ابراهيم عليه السلام لتحيته وللحفاوة به ، ولإعلان الناس باقتراب موسم الحج وبث الحماسة الدينية فى نفوسهم ، ثم لإشهار فخامته ، ولقضاء يوم فى التسلى برؤيته. ويسير الجنود أمامه وحوله بملابسهم المزركشة ، وأسلحتهم المزخرفة ، وألوانهم اللامعة . فيخترقون به وسط القاهرة ميممين جهة القلعة فى ناحية الرميلة . فإذا توسطوا ساحتها ، أشرف عليهم السلطان وحوله عدد من موظفيه وأمرائه ورجال دولته . حينئذ يقوم « الرماحة » وهم طائفة خاصة تحمل الرماح معدة لمثل هذه المناسبة بملابسهم الحمراء فيلعبون ألعابا عسكرية كثيرة تنم عن فروسيتهم ومهارتهم . فيتسلى الجمع بمشاهدتهم . ويدور المحمل فى أثناء ذلك أمام السلطان دورة استعراض . وفى هذا اليوم - وهو يوم العرض الرجبى - يدور المحمل دورتين ، أولاهما فى الصباح وثانيتهما بعد الظهر.

وفى هذا اليوم تبلغ الحفاوة باستقبال المحمل غايتها ، ويبالغ الناس فى حسن لقائه ، ويكابد البعض ضروبا من النفقة المرهقة لتزيين منازلهم ومحالهم وإبقاء هذه الزينة طول نهارهم وليلهم . ويجملونها بقطع من القماش الملون والحرير الموشى والقناديل الزيتية ذات الأضواء الجميلة والشموع توقد ليلا ونهارا (١) . وينثرون

---

(١) المدخل لابن الحاج ، ج ١ ص ٢٧٢

هنا وهناك المقاعد الوثيرة المحلاة . منهم من يندفع الى ذلك بدافع العادة والتقليد أو سعيا وراء الظهور وحب الصيت . ومنهم من يفعل ذلك خوفا من عقاب الوالى - وأعنى به والى القاهرة - لأن الوالى المذكور يغلب أن ينادى هو وأعوانه قبيل يوم العرض الرجبي فى أنحاء القاهرة ، وخاصة فى ممر المحمل ، بأن يجمل الناس وجوه منازلهم وحوانيتهم فى اليوم المذكور . فيخشى بعضهم العاقبة إذا لم يطع هـــذا الأمر .

ويكثر فى هذه المناسبة خروج الناس رجالا وركبانا ذكورا وإناثا إلى أماكن اللهو والتسلى يعبثون ويسمرون ويغنون ويرقصون ويتناشدون ، ويعاونهم فى ذلك الشعراء والزجالون بما ينظمون من ضروب الشعر والزجل .

ومما هو جدير بالذكر أن العرض الرجبي ظل مرعيا زمنا طويلا . ولبث من تقاليد الدولة . وأبطل مرة قبل الأشرف إينال فأعاده عام ٨٤٩ هـ ، ثم أبطل بعد الظاهر خشقدم فى سنة ٨٧٢ هـ . فنسيه الناس ، وظل منسيا (١) قرابة أربعين عاما ، حتى أعاده وقرره السلطان الأشرف الغورى فى عام ٩٠٩ هـ ، وجعله من تقاليد الدولة مرة أخرى . فظل كذلك إلى أخريات العصر . غير أنى لاحظت أن العرض الأول المذكور وقع مرارا فى شوال لا فى رجب وذلك فى عهد الغورى .

أما العرض الثانى فهو عرض الخروج ويكون فى شهر شوال من كل سنة كما ذكرنا ، وفى نصفه الثانى غالبا ، وهو عبارة عن خروج المحمل شاقا من وسط القاهرة فى زينـــة حافلة وحفاوة تامة . والحمالون يحملون على رءوسهم الكسوة وغيرها

---

(١) هذا كلام ابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩٠٩ هـ . وحقا لم نلحظ أخبارا عن العرض الرجبي طول هذه المدة إلا مرة فى عهد قايتباى عام ٨٩٦هـ فوجب التنبيه .

أو يستخدمون لذلك الجمال والدواب الأخرى . ويعرض على أنظار السلطان فى جهة القلعة ، ثم يقيم فى مكانه يوما أو بعض يوم ، ثم يخرج من القاهرة فى زينته وبين حفاوة الناس بتوديعه ناسلا إلى بركة الحاج شمال القاهرة ، حيث مجتمع الحجاج، يفدون إليه ويأوون من كل حدب وصوب فى البلاد . وفى خلال هذين اليومين يولم السلطان والأمراء الولائم الحافلة ويبذلون الأطعمة ويمدون الموائد يأكل منها الناس ، ويفيضون بضروب من البر والعطاء ، يستعين بها الفقراء .

فإذا وصل ركب المحمل إلى بركة الحاج يبتدىء الحجاج المجتمعون بها فى الاستعداد الأخير للرحيل على جمالهم ودوابهم . ثم يبتدىء الركب الأول - ويكون قد بلغها قبل ركب المحمل - فى السفر ، ويسافر قبل ركب المحمل بيوم واحد . ثم يليه ركب المحمل وهكذا . وينذر أن يتأخر عن اللحاق به أكثر من يوم .

ويفهم من تحديد زمن الخروج بالنصف الثانى من شهر شوال أن مسافة الرحيل تستغرق نحو شهر ونصف ، ومع ذلك فقد حج الناصر بن قلاوون عام ٧١٨ هـ . وخرج مع ركبه فى ١٩ ذى القعدة فسار مسرعا وبلغ مكة قبل الوقفة بثلاثة أيام . وفى عام ٩١٥ جاء مبشر الحاج فى ١٣ يوما فقط .

هذا وقد يصحب الركب فى عام ما ، سلطان مصر نفسه متوجها لأداء الفريضة، وفى هذه الحالة تزداد رغبة الأمراء والأعيان والناس فى السفر إلى الحج ، وكذلك يزداد عدد الأمراء والجنود والموظفين المعينين لمصاحبة الركب حفاوة بالسلطان وقياما على راحته وسهرا على حفظه ، وقد حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٨ هـ ، فاستصحب معه الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ، واثنى عشر أميرا مقدما ، وثلاثين أميرا من غير المقدمين ، ورافقه كاتب سره علاء الدين بن

الأثير ، وناظر جيوشه القاضى فخر الدين ، وناظر خواصه القاضى كريم الدين بن السديد ، وكثير من المباشرين . وحج الناصر أيضا مرة أخرى فى عام ٧٣٢ هـ وكان يصحبه كذلك الملك المؤيد صاحب حماة وكثير من الأمراء ، قيل إن عددهم ٧٢ أميرا ، وحج السلطان الأشرف قايتباى عام ٨٨٤ هـ ومعه كثير من الجنود وأمرائهم . وهكذا .

وقد يحج ابن السلطان أو زوجته . فإذا خرجت زوجة السلطان إلى الحج يغلب أنها لا تصحب أحد الركبين فى سفرها . بل يهيأ لها ركب خاص تسافر فيه ، يبدأ ميعاده قبل ميعاد رحيل ركب المحمل بقليل . ويكتفى إذ ذاك بزفاف ركبها الخاص ضمن الاحتفال بعرض المحمل العرضة الأخيرة .

وبهذه المناسبة نذكر أنه قد جرت العادة إذا تهيأ أحد عظماء القوم للخروج للحج ، أن يعد لنفسه ركبا خاصا ومحفة خاصة مزدانة ازديانا على قدر استطاعته ومركزه وجاهه ، وينضم بهذا الركب الجزئى إلى الركب العام وهو ركب المحمل حين خروجه إلى بركة الحاج . فإذا كان هذا العظيم هو زوجة السلطان ، خرج ركبها وفيه محفتها جميلة وضاءة مزدانة بالحرير والأفواف والوشى والزخرف والجوهر وتسعى كأن الأميرة فيها . ويفهم الناس حينئذ أنها ملء محفتها ، ولكن الغالب أنها لا تكون بداخلها ، بل تلحقها خفية فيما بعد . ثم تمتطيها من بركة الحاج وتبكر بالسفر كما رأينا .

ويرسل مع ركب المحمل ما جادت به مكارم السلطان ، وفاض به جود الدولة وسمحت به نفوس أعيان مصر ومحسنيها للبيت الحرام وخدمه وفقراء مكة والحجاز والحرم النبوى الشريف قربى إلى الله وزلفى .

فمن ذلك الكسوة الشريفة ، وكانت العناية بصنعها بالغة وينفق فى سبيلها

وإعدادها مال وفير . وقد يهتم بشأنها بعض السلاطين والأمراء أكثر من اهتمام سواهم . فقد روى أن الملك الصالح علاء الدين بن الناصر محمد بن قلاوون، ٧٤٣هـ - ٧٤٦ هـ ، أوقف إحدى ضيعاته وتسمى «بيسوس» على صنع كسوة الكعبة الشريفة، وفى عام ٧٩٢ هـ صنعت أخت الملك الظاهر برقوق كسوة ثمينة للحجرة الشريفة مع ستارة غالية لبابها . وهكذا .

ومن ذلك أيضا الغلال والشموع والزيوت والقماش وصرر الدنانير وأمثال ذلك ، ومعها الهدايا المختلفة . وقد روى أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما خرج للحج فى مرته الثالثة عام ٧٣٢ هـ حمل معه بابا للكعبة قد صنعه بمصر من خشب السنط الأحمر المغطى بصفائح من الفضة ، قيل إن زنتها كانت ثلاثين ألف درهم .

هذا ثم يخرج ركب المحمل ميمما بلاد الحجاز . ويسير إليها برا لا بحرا (١) إذ طرق المواصلات البحرية عن طريق البحر الأحمر طبعا ، لم تكن ميسرة قادرة على حمل هؤلاء الحجاج وركبهم بما معهم من زاد وملابس وخيل وأدوات وأسلحة وغير ذلك . ومع ذلك فقد كان بعض الحجاج يسافر عن طريق البحر ، وكذلك يعود ، أما الطريق البرى فعليه جل الاعتماد . ويمر كل ركب بجهة العقبة ، ولا شك أنه يقيم هناك آونة للاستراحة ، ولذلك عنى كثير من سلاطين مصر بهذه الجهة ، فمنهم من أنشأ بها السواقى لاستنباط الماء ومنهم من أقام الربوع للنوم ، ومنهم من بنى المخافر وأسكن فيها الجند حماية للطريق ومحافظة على أرواح الحجاج . ومن هذا القبيل ما أنشأه السلطان الغورى فى عام ٩١٤ هـ.

---

(١) اقرأ وصف رحيل الحجاج من بركة الحاج حتى مكة ومراحله ، لابن فضل الله فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ تحت عنوان « ذكر الطريق المسلوك من مصر إلى مكة »

وإذا بلغ الركب هـــذه النواحى يرسل عادة إلى القاهرة مبشرا ينبىء بسلامة وصوله إليها وبحالة الركاب وما هم عليه من سلامة وصحة وأمن ، ويحمل معه رسائل بعض الحجاج إلى ذويهم .

ثم يصل الركب إلى مكة فيخرج أميرها للقاء أمير المحمل ، وحينما يراه يترجل عن فرسه ويتقدم فى مهابة وتوقر فيقبل رجل جمل المحمل . ثم يتسلم الكسى والاعطيات ، ويقوم أميره وأعوانه بتفريق ما لديهم من الهبات والحسنات . ويؤدون جميعا مع الحجاج فريضة الحج ، ويتبركون بالزيارة ، ثم يأخذون سمتهم إلى العودة ويتخلف منهم الجند المجاورون ، ويتخلف أيضا من حكم عليه السلطان بالنفى إلى مكة فى عامه ذاك ، فأوفده مع الركب اليها . ويتخلف أيضا من عقد النية على مجاورة بيت الله الحرام .

يعود الركبان والحجاج كما أتوا سالكين طريقهم فى المجىء فيصلون إلى البلاد سالمين ، مالم يقم فى طريقهم فى الذهاب أو الإياب عائق . وأشد العوائق وأقطعها خروج العربان عليهم ونهب ما معهم أو قتل بعضهم أو أسره ، ومن ذلك ما وقع فى عام ٨٥٨ هـ ، ٩١٠ هـ . واكثرما اشتد عسف العربان وفتكهم بالحاج فى أخريات العصر ، ومن أعداء الحجاج الأمراض والطواعين تتفشى فى جماعاتهم ، وكذلك الغلاء وموت الدواب يقاسون منهما شدة كبيرة وضيقا لا حد له وكذلك كثرة السيول أو قلة الماء . وقد يشتد بهم أمر هذه الأعداء فيتبدد جمعهم ويتبعثر ملمومهم من جرائها . فيعودون إلى مصر فرادى عن طريق البر أو البحر فرارا من العربان ، فيصلونها منهوكى القوى مكدودى العزائم .

وقد جرت العادة أيضا أن يفد الى مصر فى أخريات شهر ذى الحجة ، مبشر يخبر بأحوال الحجاج والركبين فى مكة فى أثناء عودتهم ، ويحمل معه رسائل الحجاج

إلى ذويهم . وقل أن انقطع مجيء هذا البشير ، بخلاف المبشر الأول فإنه كثيرا ما انقطع . ثم يعود الركبان فيصلان فى أواسط النصف الثانى من شهر المحرم فى السنة التالية . فينزل الركب الأول ببركة الحاج ، وبعد نزوله بيوم ينزل ركب المحمل . ومن هنا يتفرق الحجاج إلى بلادهم ، ثم يتقدم الركب الأول فيخترق مدينة القاهرة فيلاقيه الناس فى حفاوة . ثم يتلوه بعد يوم واحد ركب المحمل ويشق طريقه فى وسطها ، فيحسن الجمهور لقاءه . ويندر أن يتأخر ركب المحمل عن الركب الأول فى قدومه إلى القاهرة أكثر من يوم واحد ، وكلما دخل أحد الركبين إلى القاهرة صعد أميره إلى حضرة السلطان بالقلعة فيفيض عليه عادة بجميل رضاه وسنى جوائزه ونفيس خلعه ، فيحدث السلطان بما رأى فى رحلته وما سمع وما صنع . ثم يغادر مجلسه مكرما .

واعتاد الناس أن يتسقطوا أخبار الحجاج وأخبار أمير المحمل فإذا علموا عنه برا وعملا صالحا ، وحسن رعاية للحجاج وجميل معاملة ، أثنوا عليه بما هو أهله ، ولهجت ألسنتهم وتحدثت مجالسهم بمناقبه وحمده ، وإن علموا منه أذى كثيرا وبخلا وسوء معاملة ذموه وحفظوا له سوء صنعه .

وفيما يلى نصوص تاريخية منقولة عن تاريخ ابن إياس - وقد اكتفينا بذكر صفحاته - نجمل فيها بعض أخبار المحمل والحج فى العصر الذى نحن بصدده على سبيل المثال لا الاستيعاب . وهى مجموعة بعد تفرق مهذبة العبارة بعد ركة ، مسبوكة فى قالب من اللفظ مناسب ، مع حذف ما لا غناء فيه ، مشارا فى سياقها إلى اسماء الأمراء الذين اختيروا فى كل عام لامارة الركبين ، مزودة أحيانا بنصوص عن غير ابن إياس فنقول :

أخبار ركبي الحج وأمرائهما وما يتصل بذلك

١ - فى سنة ٦٦٧ هـ . حج السلطان الظاهر بيبرس إلى بيت الله الحرام ، فخرج من القاهرة فى ثالث شوال . وتوجه إلى غزة فأخذ ما أعده له نائب الشام ، ثم وفد إلى الكرك فالمدينة المنورة فزار قبر النبى عليه الصلاة والسلام . ثم قصد مكة فدخلها فى خامس ذى الحجة - وكانت الوقفة يوم جمعة - وقد تواضع بيبرس لله كل التواضع . وكان ولد السلطان بيبرس وهو السعيد محمد قد صحب الركب المصرى ، فأدى السلطان فريضته وعاد إلى للشام . وعاد ابنه مع ركب المحمل المصرى .

« ج ١ ص ١٠٧ - وابن كثير حوادث عام ٦٦٧ هـ » .

٢ - سنة ٦٧٨ هـ حج بالناس الأمير جمال الدين أقش الباخلى . وسار الركب فى ١٧ شوال . وقاضيه فخر الدين عثمان ابن بنت أبى سعيد . « سلوك ج ١ ص ٦٧١ »

٣ - فى سنة ٦٨١ هـ : حلف الشريف أبو نمى أمير مكة للسلطان - المنصور - وولده بالطاعة . وأنه التزم تعليق كسوة مصر على الكعبة كل عام . ولا يعلق غيرها وأن يقدم علم السلطان على سواه ، وأن يسهل زيارة البيت للحجاج ويحرسهم ويسهر على أمنهم .

وخرج من القاهرة بالمحمل الأمير ناصر الدين الطنبغا الخوارزمى ، ومعه كسوة الكعبة . وسار بالسبيل حسام الدين مظفر استادار الفارقانى . وحج الأمير علاء الدين البندقدار فى ركب كبير . « سلوك ج ١ ص ٧٠٦ ، ٧١٠ »

٤ - فى سنة ٦٨٣ هـ : فى هذا العام وقعت فتنة فى مكة بسبب استبداد شريفها أبى نمى ، ومنعه الحجاج من أداء الفريضة ، فجرد عليه السلطان جندا هزموه ، ثم

خمدت الفتنة ، وقضى الناس حجهم . « سلوك ج ١ ص ٢٢٤ ، ٢٢٦ »

٥ - فى سنة ٧٠٨ هـ : أعلن السلطان الناصر بن قلاوون أنه عقد النية على الحج ، ثم بكر فى الخروج ومعه عدد من الأمراء ، وقصد الكرك ، ولحقت به أسرته . وكانت هذه خطة موضوعة يرمى من ورائها إلى الإقامة فى قلعة الكرك ، والتنازل عن العرش ومن المزاحمين له ، وقد تم له ما أراد .

وقد خرج الركب من القاهرة فى شوال ، وكان أمير المحمل الأمير جمال الدين خضر أبو نوكبة. « ج ١ ص ١٤٨ »

٦ - فى سنة ٧١٨ هـ : خرج الناصر بن قلاوون للحج بعد عودته إلى سلطنته - فاستصحب معه اثنى عشر أميرا من المقدمين ، وثلاثين من الطبلخانات والعشرات وحج فى صحبته الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ونائب السلطان فيها وكاتب سره علاء الدين بن الاثير وناظر جيوشه فخر الدين ، وناظر خواصه كريم الدين بن السديد وغيرهم من المباشرين . وخرج فى ٩ من ذى القعدة متأخرا فأخذ السير الى مكة فبلغها قبل الوقفة بثلاثة أيام. ولا بد من أن ركب المحمل قد سبقه اليها . فأدى الفريضة وبذل . ثم قصد المدينة ودخلها ماشيا عارى القدمين ، وزار وأنفق . وعاد الى القاهرة فى حفل عظيم فى أوائل صفر عام ٧١٩ هـ « ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ »

٧ - فى سنة ٧٢٢ هـ خرج الناصر محمد بن قلاوون للحج أيضا ، واستصحب معه كذلك الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة . ورغب السلطان الناصر أن يضع بمشهد منه بابا جديدا صنعه للكعبة . وقد رافقه فى تلك الحجة نحو ٧٢ أميرا من رتب مختلفة من بينهم صهره بكتمر الساقى وابن بكتمر وهو أحمد ابن أخت السلطان . وقد مرضا فى عودتهما وماتا فى الطريق .

أما السلطان الناصر فإنه خرج إلى حجته تلك فى ٧ شوال ، وعاد بعد أربعة

وخمسين يوما . « ج ١ ص ١٦٦ » .

٨ - فى سنة ٧٤٦ هـ . جاء فى أخبارها فى ابن إياس أن من أعمال السلطان الصالح علاء الدين اسماعيل بن الناصر بن قلاوون أنه أوقف ضيعة تسمى « بيسوس » على كسوة الكعبة الشريفة « ج ١ ص ١٨٢ »

٩ - فى سنة ٧٥١ هـ . كان أمير ركب المحمل الأمير طاز - فى عهد الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون - فلما بلغ مكة وقع بينه وبين الملك المجاهد صاحب اليمن نفور ونزاع أدى إلى القتال - وكان صاحب اليمن يحج فى تلك السنة - فهزمه الأمير طاز وقبض عليه وساقه مقيدا إلى مصر فى أثناء عودته . وكانت عودته فى أوائل عام ٧٥٢ هـ فقدم أسيره إلى السلطان ، فلم يلبث حتى أطلقه ورده إلى بلاده . « ج ١ ص ١٩٣ ، ٢٩٤ »

١٠ - فى سنة ٧٧٨ هـ . كان السلطان هو الأشرف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون . فخرج للحج فى هذه السنة ، وأشار عليه بعض الصلحاء بترك الحج فلم يقبل ! . وخرج من القاهرة يوم السبت ١٢ شوال فى ركب عظيم ومعه الخليفة المتوكل على الله والقضاة ، ومعه كمية كبيرة من المأكولات . فأقام مدة فى بركة الحاج ثم زايلها إلى العقبة ، ومعه عديد من الأمراء . ولكن سرعان ما وقعت فتنة هائلة فى القاهرة عقب خروجه أدت إلى سلطنة ابنه على بدعوى أن الأشرف قد قتل . ووقعت فتنة أخرى فى العقبة بين الأمراء المصاحبين للسلطان أدت إلى قتله فى النهاية . فلم يتم له حج . . .

وقد عين الأمراء لإمارة الحج الأمير بهادر الجمالى أمير أخور كبير ، فصاحب المحمل وسار الجميع فى ركب واحد هذا العام . « ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ »

١١ - فى سنة ٧٨٨ هـ . لما وصل المحمل إلى مكة خرج أحمد أميرها للقائه ونزل

عن فرسه ليقبل رجل جمل المحمل فاغتاله رجل بسكين فى جنبه فمات ليومه . فاضطربت أحوال مكة وكادت العرب تستبد بالركب لو لا ادراع الجند وأميرهم بسلاحهم سبعة أيام . ثم عين أمير الحاج الأمير عنان بن مغامس نائبا على مكة . فاستقر الاضطراب بعض الاستقرار . وكان ذلك فى عهد برقوق . « ج ١ ص ٢٦٥ »

١٢ - فى سنة ٧٩٢ هـ : فى هذه السنة صنعت أخت الملك الظاهر برقوق كسوة نفيسة للحجرة الشريفة وستارة قيمة لبابها . وكانت قد نذرت أن تصنع ذلك إن عاد أخوها برقوق إلى السلطنة . وقد أرسلت هذه الكسوة والستارة هذا العام فى موكب حافل . « ج ١ ص ٢٩٣ » .

١٣ - وفى سنة ٨٠١ هـ : فى هذه السنة نادى السلطان برقوق للناس بأن يحجوا الحجة الرجبية . وكان قد بطل ذلك من عام ٧٨٣ هـ ، فرسم بإعادته . وكان أمير حاج المحمل ، الأمير شيخا المحمودى - قبل سلطنته - ج ١ ص ٣١٣ - ج ٢ ص ٣

١٤ - وفى سنة ٨٠٣ هـ : خرج المحمل والحجاج كالعادة . وفى أوائل سنة ٨٠٤ هـ جاءت الأخبار بأن عربان بنى عقبة اعتدوا على الحجاج ، ونهبوا ما معهم فشتت أمير الحاج شملهم وكسرهم وأسر شيخهم « منجد بن خاطر » وساقه أمامه بين يدى السلطان . فأمر بإعدامه . فتقدم إليه واعدا برد جميع مانهب عربانه من الحجاج . فظل مأسورا لدى السلطان حتى رد كثيرا مما نهب . ج ١ ص ٣٤٠، ٣٤١

١٥ - فى سنة ٨٠٤ هـ : تأخر خروج المحمل من القاهرة إلى ٢٢ شوال ، وهذا لم يعهد قط . وكان أمير المحمل ، « تكسبيه الأزدمرى » وقد وقع له أمر عوق المحمل عن الخروج فى موعده . « ج ١ ص ٣٤٧ » .

١٦ - فى سنة ٨١٨ هـ : كان أمير الحج تانى بك الجركسى شاد الشربخاناه المتوفى سنة ٨١٩ هـ . « الضوء ج ٣ رقم ١٢٦ » .

١٧ - فى سنة ٨٢٠ هـ : كان غرس الدين خليل بن شاهين الشيخى الظاهرى أميرا لركب المحمل « الضوء ج ٣ رقم ٧٤٨ » .

١٨ - فى سنة ٨٥٦ هـ : كان الأمير دولات باى الجركسى المحمودى أميرا لركب المحمل ، وحج فى تجمل زائد « الضوء ج ٣ رقم ٨٢٧ » .

١٩ - فى سنة ٨٤٧ هـ : فى شهر رجب رسم السلطان إينال ، بدوران المحمل ونودى فى القاهرة بالزينة . ولعب الرماحة لعبهم برياسة جانى بك الظريف . وكان ذلك قد أوقف منذ زمن . ثم خرج الحجاج وركب المحمل فى شوال . وعقدت إمارته لجانى بك المذكور . وكان أمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير وهو الذى غضب عليه السلطان إينال عام ٨٥٩ هـ وضربه ونفاه إلى دمياط وكان نقيبا للجيوش . ثم رضى عنه بعد ذلك ، وعينه أميرا للركب الأول عام ٨٦٠ هـ . « ج ٢ ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٣ » .

٢٠ - فى سنة ٨٥٨ هـ . فى هذه السنة أدير المحمل كما جرت العادة ، ثم خرج . وجاء فى ذى الحجة رسول من قبله يخبر بأن العربان تعرضوا بالأذى له فى الطريق . وعاد الحجاج فى المحرم عام ٨٥٩ هـ وتحدثوا بما أصيبوا به من سيول شديدة وموت جمال وقطع طريق من العربان . « ج ٢ ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ » .

٢١ - فى سنة ٨٥٩ . عرض المحمل فى شهر رجب كالعادة وأبدع الرماحة . وكان السلطان هو إينال ، فرسم فى شهر شوال بأن تصنع كسوة للحجرة الشريفة فلما تم صنعها عرضها على أنظاره ناظر خاصه يوسف فأعجب بها وأنعم عليه ، ثم خرج الحاج . وكان أمير ركب المحمل بيبرس الأشرفى والأمين الثانى بردبك البجمقدارى وهو الذى ولى إمارة الركب مرارا بعد وقد توفى عهد قايتباى عام ٨٧٥ هـ وكان نائبا على الشام . وقد عاد الركب وحجاجه فى المحرم عام ٨٦٠ هـ فحدثوا بما

رأوه . ومن ذلك أن العراق لم يحج منه أحد هذا العام خوفا من رجل ثائر كثير الفساد يدعى المشعشع . ولقى الحاج فى هذه السنة شدة وسوءا

« جـ ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٢٢ »

٢٢ - فى سنة ٨٦٠ هـ . أدير المحمل فى رجب وتقدمه لاعبو الرماح . وشهده السلطان إينال وضيفه إذ ذاك رسول ملك الروم ابن عثمان ، وخرج الحاج فى شوال من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل قائم التاجر أحد الأمراء المقدمين ، وكان أمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير . وهو الذى كان أميرا للركب الأول عام ٨٥٧ هـ ، وفى عام ٨٥٩ غضب عليه السلطان ثم رضى عنه واختاره لامارة الركب الأول . « جـ ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ »

٢٣ - فى سنة ٨٦١ هـ . فى شهر ربيع الأول قرر السلطان إينال أن يكون ابنه المقر الشهابى أحمد أميرا لركب المحمل . وأمر لزوجته خوند زينب أن تحج هى وأولاده ، وأرسلهم فى رفقة ابنه أحمد المذكور . ثم أدير المحمل فى رجب . وانتهز المماليك الجلبان فرصة دورانه وعاثوا فى الأرض فسادا . ثم خرج الحجاج والركبان فى شوال ، وكان خروج ركب المحمل شائقا لعظمة من صحبه من أعيان الرجال والنساء . وقد استصحب المقر الشهابى أحمد أمير الركب كثيرا من المباشرين منهم : كاتب السر القاضى محب الدين بن الاشقر ، وبعض أبناء ابن الجيعان منهم القاضى علم الدين بن شاكر ، وناظر الاصطبل القاضى بكر بن مزهر وغيرهم .

وفى ٢٨ ذى الحجة جاء البشير - وهو مرداش الطويل - فأخبر عن حالة الحجاج ووصف ما لقوه من عطش أثناء الطريق وموت بعضهم بسببه . وأخبر عن سلامة زوجة السلطان وأبنائه . وفى المحرم ٨٦٢ عاد الحجاج إلى القاهرة ووصل ابن السلطان المقر الشهابى أحمد ووالدته وإخوته فكان يومهم مشهودا ، وخرج

الأمراء والناس جموعا للقائهم وفرشت البسط وشقق الحرير ونثر على رأس خوند «زينب» الفضة والذهب، وقدمت إليهم الهدايا الثمينة وأولمت الولائم الشهية. وكان أفضل من تقدم بذلك ناظر الخاص الجمالى يوسف، وأهدى إليهم نائب الشام قانى باى الحمزاوى نحو ثمانين فرسا أحدها مسرج بسرج بلور!.» «ج٢ص ٥٨ إلى ٦١.»

٢٤ - فى سنة ٨٦٩ هـ: كان السلطان إذ ذاك خشقدم، وفى هذا العام حجت زوجته وهى خوند الأحمدية، وكان أمير ركب المحمل المقر الشهابى أحمد بن العينى وأمير الركب الأول الشرفى يحيى بن الأمير يشبك الفقيه، وحج معهم أيضا الأمير يشبك الفقيه نفسه، وقد أظهر المقر الشهابى أحمد بن العينى ضروبا من الأبهة والعظمة فى إمارة تلك لأنه يعد من أبناء الملوك، فهو حفيد خشقدم. وقد خرج فى اكوار مرصعة بالذهب والياقوت واللؤلؤ وغير ذلك، وخرج فى موكب عظيم يتقدمه جمع من الأمراء والمباشرين، وذلك فى شوال، ثم عاد الركب فى أوائل عام ٨٧٠ هـ «ج ٢ ص ٧٩»

٢٥ - فى سنة ٨٧٢ هـ: كان السلطان هو خشقدم أيضا، وقد أمر فدار المحمل دورته الرجبية، وأحرقت إحراقة نفط فى ليلتها، فشبت النار فى الاسطبل السلطانى فتشاءم السلطان من ذلك، وقد أصابه هذا التشاؤم فعلا إذ توفى بعد قليل. وقال ابن إياس عن هذا السلطان ما نصه:

«وكان يدوّر المحمل فى كل سنة فى رجب، وتسوق الرماحة على جارى العادة أربعين يوما، ثم يلبسون الأحمر وتزين القاهرة ثلاثة أيام، ويخرج الناس فى ذلك عن الحد فى القصف والفرجة».

والمفهوم من كلام ابن إياس فى حوادث جمادى الآخرة عام ٩٠٩ هـ بالجزء الرابع أن من أيام خشقدم عام ٨٧٢ هـ إلى أيام الغورى عام ٩٠٩ هـ أبطلت دورة

المحمل الرجبية . فالمفهوم أنها أبطلت بعد زوال دولة خشقدم » ج ٢ ص ٨١ ، ٨٢ »

٢٦ - فى سنة ٨٧٣ هـ . كانت الدولة دولة قايتباى . وكان قد عين لإمارة ركب المحمل « ثانى بك المعلم » فلما سار إلى العقبة بدا للسلطان أن يعيده ويقبض عليه ثم نفاه إلى القدس ، ثم عين « يشبك جن » فى إمارته ، وكان قد عين فى الأمير اخورية الثانية . وعين « يشبك الجمالى » أميرا للركب الأول . وذلك فى ربيع الأول . وفى شوال خرج الركبان والحجاج . وممن انضم إليهم الملك المنصور عثمان بن جقمق - وكان مخلوعا - وقد عاونه السلطان قايتباى أكبر معاونة فى خروجه الى الحج وأذن له فى الخروج . ثم عاد الحجاج إلى القاهرة فى المحرم عام ٨٧٤ هـ .

« ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ »

٢٧ - فى سنة ٨٧٤ هـ : فى هذه السنة - فى عهد قايتباى - عين « يشبك الجمالى المحتسب أميرا لركب المحمل ، « واقبردى بن أصباى » الأشرفى برسباى أميرا للركب الأول . ثم خرج الركبان والحجاج فى شوال ، وحج معهم الشيخ كمال الدين ابن إمام المدرسة الكاملية ، وهو من أفاضل العلماء والمحدثين ، ولكنه توفى فى ثغرة حافد وقت الذهاب ، وقد قاسى الحجاج فى هذه السنة شدائد عدة من عطش وموت جمال وعادوا مجهودين مكدودين ، ولهذا عاد الركبان فى المحرم عام ٨٧٥ هـ ودخلا القاهرة معا فى موكب واحد . ومما يذكر أن الأمير يشبك الدوادار لما علم مايعانيه الحجاج من العطش والشدة بعث إلى المنقطعين منهم بأوعية مليئة ماء وزادا . فبلغتهم فى ينبع وانتفعوا بها انتفاعا محمودا . « ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٢ »

٢٨ - فى سنة ٨٧٥ هـ : فى هذه السنة - فى عهد قايتباى أيضا - عين « يشبك الجمالى المحتسب » أميرا لركب المحمل « وأقبردى بن أصباى » الأشرفى برسباى أميرا للركب الأول . وقد كانا أميرى الحج فى العام الفائت كذلك . وقد خرج

الحجاج من القاهرة فى ٢٠ شوال ، وقد تأخروا إلى هذا الميعاد بسبب فرار غلمان أمير الحج . ثم عاد الركب فى المحرم عام ٨٧٦ هـ « ج ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٧ » .

٢٩ - فى سنة ٨٧٦ هـ : عين فى إمرة الركب الأول « برسباى الشرفى » ثم استعفى من ذلك فقبل منه السلطان ، وعين فى إمارة ركب المحمل الأمير « يشبك الجمالى الزردكاش المحتسب » ، وهذا ثالث عام يعين فيه إلى مكة أميرا للمحمل ، وهو الذى توفى عام ٩٠١ هـ . وكان هذا الاستعفاء والتعيين فى شهر ربيع الأول ، فلما كان شهر رجب أبطل السلطان إمارة يشبك الجمالى ، وأسند إمارة ركب المحمل إلى برسباى الشرفى وهو الذى كان قد استعفى فى ربيع الأول منها . ثم عين فى إمارة الركب الأول الشهابى أحمد بن الاتابكى تانى بك البردبكى الظاهرى برقوق ، ثم خرج الركبان فى شوال من القاهرة ، وعادا فى المحرم من العام الثانى .

« ج ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٩٣ »

٣٠ - فى سنة ٨٧٧ هـ : فى ربيع الثانى خلع السلطان قايتباى على « برسباى(١) الشرفى » وأسند إليه إمارة ركب المحمل . وأسند إمارة الركب الأول الى « الشهابى أحمد » ابن الاتابكى تانى بك البردبكى . وكانا كذلك فى العام الماضى ، ولكن الشهابى كان مريضا فاستعفى فلم يقبل السلطان أن يعفيه ، ولذلك لما نسل الركبان من القاهرة إلى بركة الحاج فى شوال ، حمل هذا الأمير فى محفته وهو على وشك الموت فبلغ بركة الحاج وبات بها ليلة الرحيل فتوفى ، فعين مكانه « جانى بك الأشقر » أحد مماليك السلطان وخواصه . فقام فورا ورحل بالركب .

---

(١) برسباى الأشرفى يونس ، أو الشرفى أرسله قايتباى رسولا إلى ملك الروم عام ٨٧٨ هـ ومات بحلب . ذكرناه فى باب السفراء . ونوه به السخاوى فى الضوء ج ٣ رقم ٣٩ .

ثم وفد رسول من قبل الحجاج فى ذى الحجة، فكان من أهم ما أخبر عنه أن الركب العراقى كان عليه أمير يدعى « رستما » ومعه قاض يسمى « أحمد بن وجيه » ـ وكان ملك العراقين هو حسن الطويل ـ فدخل الركب المدينة المشرفة وأرغما قضاتها على أن يخطبوا هناك باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين . . ثم أخذا فى الرحيل الى مكة بركبهما، فأسرع أميرها الشريف محمد بن الشريف بركات وكان الخبر قد بلغه ، فلقيهم فى بطن مر فقبض على الأمير والقاضى وعدة من أعيانها وقيدهم بالحديد ليبعث بهم إلى السلطان . وأطلق الباقين .

وقد عاد الحجاج والركبان متأخرين عن موعدهم ثلاثة أيام لموت الجمال وقلة المياه وذلك فى المحرم عام ٨٧٨ هـ ومعهم الأسرى فسجن الأمير رستم والقاضى فى برج القلعة ثم اطلقا (١) بعد حين مراعاة لملكهم باشارة من الأمير يشبك الدوادار. « جـ ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢١٢ » .

٣١ ـ فى سنة ٨٧٨ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى « جانى بك الأشقر » الدوادار . وقد كان فى العام الماضى أميرا للركب الأول وأسندت إمارة الركب الأول إلى « قانصوة خمسمائة » الخاصكى أحد مماليك السلطان . وقد ترجمنا له فى باب الأتابكية . وقد خرج الحاج فى شوال وعاد فى موعده « جـ ٢ ص ١٤٧ ، ١٤٩ »

٣٢ ـ فى سنة ٨٧٩ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى « جانى بك الأشقر » وهذه ثانى مرة يتولاها . وأسندت إمارة الركب الأول إلى « جانى بك الخشن » الإينالى تاجر المماليك . وذلك فى ربيع الآخر . وهذه آخر مرة يسافر فيها « جانى بك الاشقر » إذ عين فى السنة التالية (٨٨٠ هـ) فمات قبل سفره .

---

(١) ذكرهما ابن إياس مرة أخرى جـ ٢ ص ٢١٢ فى المحرم عام ٨٨٧ هـ . وقال ان السلطان أفرج عنهما فيه . فوجب التنبيه .

وفى ٣ شوال خرج إلى الحج عدد من عظماء مصر منهم الأتابكى أزبك بن ططخ ومعه زوجته بنت الملك الظاهر جقمق . ومنهم الأمير أزبك اليوسفى ومعه زوجته بنت عم الملك الظاهر جقمق أيضا . ومنهم الشيخ أمين الأقصرائى وولده أبو السعود وقد عاونه السلطان بسبعمائة دينار . فسبقوا الحاج بنحو عشرين يوما . وممن حج فى هذه السنة خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباى وهى بنت العلائى علاء الدين بن خاص بك ، فكان لها ركب شائق ومحفة ثمينة مرصعة بالجواهر النفيسة . ومعها أخت السلطان فى محفة أخرى . ومعهما خمسون جملا محملة بشكول وألوان من طعام وكسى ومال ... فسار الركب وأمامه كثير من الموظفين والمباشرين والخدم وأمامه كذلك عدد من المغنين والمنشدين منهم ابراهيم بن الجنـــدى المغنى وأبو الفوز الواعظ .

وقد خرج الركبان فى هذا الشهر ، ثم عاد الحجاج فى ٢٤ المحرم عام ٨٨٠ هـ . متأخرا أربعة أيام بسبب ما أصابهم من العطش .

وقد مات من الحجاج ابن الأقصرائى المدعو أبا السعود فأصيب أبوه بما يشبه الذهول ، ولم يمكث بعد عودته سوى تسعة أيام ثم توفى .

ولما عادت زوجة السلطان خرج إلى لقائها الأمراء والقضاة وترجلوا وهى فى محفتها . وحولها تصدح الأغانى . ونثرت عليها الفضة والذهب ، وقدمت إليها هدايا نفيسة . « ج ٢ ص ١٥٥ إلى ١٥٧ . »

٣٣ - فى سنة ٨٨٠هـ : أسندت إمارة المحمل « لجانى بك الأشقر » . ولكنه توفى قبل موعد الرحيل فاختير مكانه « لاجين الظاهرى » أمير سلاح . وذلك فى رمضان وأسندت إمارة الركب الأول إلى « جانى بك الخشن » الإينالى كالمرة السالفة . ثم خرج الركبان فى شوال ووصل مبشر بسلامته فى ذى الحجة . « ج ٢ ص ١٦٢، ١٦٣ »

٣٤ - فى سنة ٨٨١ هـ . عين فى إمارة ركب المحمل « تانى بك الجمالى » الظاهرى أحد مقدمى الألوف . وعين فى إمارة الركب الأول « أقبردى الأشقر الأشرفى » وذلك فى جمادى الأولى . وخرج الحجاج فى شوال . وجاء المبشر عنهم فى ذى الحجة فأخبر بأمنهم وسلامتهم على الرغم من أن بمكة كثر الموت بعلة البطن « ولعلها نوع من الحميات » وفى المحرم عام ٨٨٢ هـ وصل الحجاج إلى القاهرة مثنين على « تانى بك الجمالى » جزء ٢ ص ١٦٧ إلى ١٧١ .

٣٥ - فى سنة ٨٨٢ هـ : فى شهر شعبان عين فى إمرة الركب الأول « أقبردى الأشقر الأشرفى » كالعام الفائت . وفى إمارة ركب المحمل الأمير « جانى بك الفقيه » أمير سلاح . وخرج الحجاج والركبان من القاهرة وذلك فى ١٨ شوال . قيل لما خرج ركب المحمل ومعه أميره «جانى بك الفقيه» ، أمر السلطان قايتباى بهدم سبيله الذى أنشأه بالرميلة . فلهج الناس بعدم عودة جانى بك . . . وقد وقع ذلك، فإن السلطان أمر بالقبض عليه من العقبة ونفيه إلى القدس . « ويغلب على الظن أنه نفى بعد أداء مهمته وفى أثناء عودته ، إذ ترامت أخبار نفيه فى المحرم سنة ٨٨٣ هـ ، ولم يُذكر أن أحدا خلفه » .

وممن حج تلك السنة المؤرخ الكبير ابن إياس المصرى صاحب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور - أهم مراجعنا - وقد عاد الحجاج فى المحرم سنة ٨٨٣ هـ وأخبروا بما قاسوه من شدة وضنك بسبب الغلاء وموت الجمال ، وقد تخلف بعضهم مضطرا فى الطريق . وأخبروا بقتل قاضى المدينة وخطيبها بيد رجل رافضى . «جزء ٢ ص ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨١»

٣٦ - فى سنة ٨٨٣ هـ : فى شهر ربيع الثانى اختير « قجماس الإسحاقى » أمير

اخور كبير أميراً لركب المحمل و « فارس الركنى » أميراً للركب الأول ، فاستعفى « فارس » هذا فأسندت إمارته « لأقبردى الأشقر الأشرفى » كالعام الفائت أيضا وقيل إن فارسا دفع فى سبيل قبول السلطان استعفاءه مالا.

وقد خرج الركبان والحجاج فى شوال . وكانت العودة فى المحرم عام ٨٨٤ هـ وحمدت سيرة الأمير « قجماس » جزء ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥

٣٧ - فى سنة ٨٨٤ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى الصاحب « خشقدم الأحمدى » الزمام الذى كان زماما وخازندارا ووزيرا فى عهد قايتباى . - وترجمنا له مع الوزراء . - وأسندت إمارة الركب الأول إلى « شاهين الجمالى » وذلك على أثر وفاة « جانم الزردكاش » الذى كانت أسندت إليه أولا فتوفى قبل سفره .

وفى هذه السنة عقد السلطان قايتباى النية على الحج . فلما كان شهر شوال خرج الحاج من القاهرة . فى زينة باهرة وخرج الصاحب « خشقدم » فى موكب عظيم واستعداد كبير ، ومحمولات عدة بسبب سفر السلطان . وقيل كان معه نحو ٢٥٠ جملا محملة . وأرسل السلطان إليه لذلك ثلاثين ألف دينار .

ثم خرج الحجاج وركب المحمل من القاهرة فى شوال . وخيموا ببركة الحاج ثم نسلوا منها متخذين طريقهم المتبع إلى الحجاز . وبعد ذلك بقليل ، فى يوم الخميس ٢٣ شوال نزل السلطان قايتباى من القلعة دون أن يشعر الناس بنزوله وسافر ميمما شطر الحجاز وفى معيته كثيرون من أمرائه وأخصائه ومباشريه . منهم : يشبك الجمالى الزردكاش المحتسب ، الذى عين مرارا فى إمارة المحمل . وأبو البقاء بن الجيعان وبرهان الدين الكركى الامام . وقد ودعه الأتابكى أزبك بن طاخ ، والدوادار يشبك بن مهدى . ورحلا معه إلى مسافة من الطريق . وقد أوصاهما بالرعية ثم آبا .

وفى ذى الحجة قدم مبشر الحاج وهو « أسنباى » الخاصكى فاخبر بسلامة السلطان وأنه دخل مكة فى موكب حافل ولقيه أميرها قبيل دخولها بيومين . وأنه أحسن وتصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار . وأظهر ضروبا من البر والتواضع. وبهذه المناسبة قدمت لهذا المبشر هدايا كثيرة لأخباره السارة ، قدمت إليه من بعض الأمراء ومن خوند زوجة السلطان . ثم أطلقت على « أسنباى » لفظة « المبشر » وظل معروفا بها من ذلك الحين .

وفى المحرم عام ٨٨٥ هـ جاء رسول « نجاب » من قبل السلطان إلى الأمراء مخبرا بأنه دخل المدينه المشرفة وزار قبر النبى ﷺ . وأنه تصدق بها على الفقراء بخمسة آلاف دينار : وأنه يمم شطر ينبع قاصدا العقبة ، ثم زايلها ، وأنه آت عما قريب . فهب الأمراء حينئذ إلى لقاء السلطان ، وقد علموا رغبته فى نزوله بقبة الأمير يشبك بالمطرية : فنشروا هناك خيامهم وزينت الناحية خير زينة . ثم علموا أنه وصل إلى البويب فركب أزبك الأتابكى ويشبك الدوادار وعديد من الأمراء ، من جهة المطرية إلى البويب فلاقوا السلطان هناك و اركوا له حجه وهنئوه .

عاد ركب السلطان حافلا إلى المطرية فى السبت ١٢ المحرم قبل وصول الحجاج بثمانية أيام . وهناك توافدت الوفود إليه تهنئه . ومدت الموائد وأقيمت الحفلات وفى الاثنين ١٤ المحرم نظم له موكب عظيم الشأن سار فيه من المطرية إلى القاهرة ، والأمراء والأعيان من حوله والناس حافون به ، ومنهم وقوف بالطرقات يشاهدون ، والطرقات فى أبهى زينة . واللاعبون يعرضون على أنظاره ألعابهم ، وفرشت له خوند زوجته بسطا ، ونثرت على رأسه الفضة والذهب ، وقت صعوده إلى القلعة . ثم أولمت الولائم ، وقدمت الهدايا ، ووزعت الصدقات . وكانت حجة مبرورة ...

وقد عاد الحجاج بعد ذلك والركبان فى المحرم . وحمدت سيرة الصاحب خشقدم

الزمام أمير المحمل . جزء ٢ ص ١٩٠ إلى ١٩٣

٣٨ - فى سنة ٨٨٥ هـ : فى ربيع الأول عين فى إمارة المحمل الأمير « تغرى بردى ططر » أحد المقدمين . وفى إمارة الركب الأول « يشبك بن حيدر » والى القاهرة . وخرج الحجاج والركبان فى شوال . جزء ٢ ص ١٩٥ ، ٢٠٢

٣٩ - فى سنة ٨٨٦ هـ : فى ربيع الأول عين « يشبك بن حيدر » والى القاهرة ، فى إمارة المحمل - وكان أميرا للركب الأول فى العام الماضى . وعين « الشهابى أحمد ابن الجمالى » ناظر الخاص أميرا للركب الأول . ثم عين شاهين الجمالى نائبا لجدة ، وضم إلى الشهابى أحمد ، على أن يرعى شئون الحجاج بالركب الأول . - وفى شوال كان خروج الحجاج والركبين من القاهرة . وفى معيتهم الجام بن عثمان - من أمراء العثمانيين - ومعه أمه وأولاده ، وقد عاونه السلطان معاونة كبيرة فى خروجه إلى الحج ، وكان إذ ذاك من ضيوف مصر .

وقد عاد الجميع فى المحرم عام ٨٨٧ هـ . جزء ٢ ص ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٢ .

٤٠ - فى سنة ٨٨٧ هـ : فى ربيع الآخر أسندت إمارة المحمل إلى « أزبك اليوسفى » أحد الأمراء المقدمين . وإمارة الركب الأول إلى « دولات باى الحسنى » شاد الشون . وخرج الحاج فى شوال . ووصل مبشر بوصوله إلى مكة فى ذى الحجة ، وأخبر بنزول سيل عظيم بها حتى دخل الحرم وأحدث به تلفا وأغرق كثيرين . ثم وصل الجميع فى المحرم عام ٨٨٨ هـ . ولم يحمد الناس سيرة أمير المحمل أزبك اليوسفى جزء ٢ ص ٢١٣ ، ٢١٥ إلى ٢١٧ .

٤١ - فى سنة ٨٨٨ هـ : فى ربيع الثانى أسندت إمارة المحمل إلى « أزدمر تمساح » أحد الأمراء المقدمين . وإمارة الركب الأول إلى « أزدمر الأشقر » أحد الأمراء العشرات . وفى هذه السنة كان السلطان قايتباى قد أمر بصنع مقصورة

للحجرة النبوية الشريفة . فعرضت على أنظاره فى شهر شعبان فى أوله ، ونصبت فى الحوش بالقلعة لمشاهدتها . وكانت زنتها أربعمائة قنطار من الحديد ، وقد نقلها إلى المدينة سبعون جملا : وفى شوال خرج الحجاج والمحمل من القاهرة فى حفاوة وبين زينة . وخرج فى معيتهم شاد بك أحد الأمير اخورية وكان ضخم الجثة ! فحمّـل له السلطان المقصورة لإيصالها إلى المدينة ! وعينه « باش المجاورين » ومعه خمسون جنديا . وحمله كذلك مصحفا كبيرا فوق ظهر بعير بمفرده . وهذا المصحف من خط شاهين النورى ، ومات دون أن يتمه فأتمه الشيخ خطاب . ـ قال ابن إياس : «وهو باق إلى الآن فى الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام».

وقد عاد الحجاج فى المحرم عام ٨٨٩ هـ وحدثوا بما وقع لهم من عطش وموت جمال . وقد تأخر دخول المحمل فى هذه السنة إلى ٢٤ من الشهر المذكور بسبب ذلك جزء ٢ ص ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ .

٤٢ ـ فى سنة ٨٨٩ هـ : فى هذه السنة كان أمير المحمل « أزدمر تمساح » أحد المقدمين . وأمير الركب الأول « برسباى العلائى » أحد العشرات . وقد حج معهم سيدى منصور بن الظاهر خشقدم ، وكان برسباى العلائى قد تزوج أم منصور . وحج فى تلك السنة أبو البقاء بن الجيعان ومعه الخاصكيان جان بلاط وملماى ، وذلك ليشرف على تفريق ما رتبه السلطان من الدشيشة على أهل المدينة . وحج أيضا عالم سمرقند الشيخ أبو بكر اللبثى وولده ، مارين من ديارهما على مصر . وحج أيضا شيخ ركب المغاربة الشيخ عبد اللطيف ومعه عديد من المغاربة يبلغ ألفا وخمسمائة . وحج كذلك بعض أقارب السلطان قايتباى .

وقد خرج المحمل فى شوال . وعاد منه رسول مبشر بأمنه فى ذى الحجة ويدعى قايتباى وهو من مماليك السلطان . وقد دخل الحجاج القاهرة فى المحرم عام ٨٩٠ هـ .

جزء ٢ ص ٢٢٤ إلى ٢٢٧ .

٤٣ - فى سنه ٨٩٠ هـ . فى جمادى الأولى أسندت إمارة المحمل إلى « أزدمر المسرطن » أحد الأمراء المقدمين . وإمارة الركب الأول إلى « برسباى اليوسفى » أحد الأمراء الطبلخانات ، وخرج من القاهرة فى شوال . وعاد فى ٢٥ المحرم عام ٨٩١ هـ وقد أصيب بموت الجمال والغلاء . وانقطع بعضهم فى ينبع ولم يعودوا إلى القاهرة إلا بعد أيام . وانقطع البعض فى مكة مجاورا . « ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ »

٤٤ - فى سنة ٨٩١ هـ : خرج الحجاج فى هذه السنة فى شوال . وتولى إمارة ركب المحمل الأمير « أزدمر تمساح » . ج ٢ ص ٢٣٨ .

٤٥ - فى سنة ٨٩٢ هـ : خرج الحجيج فى هذه السنة فى شوال أيضا . وتولى إمارة ركب المحمل الأمير « أزدمر تمساح » كالعام الفائت . وتولى إمارة الركب الأول « خاير بك » كاشف المحلة . وعادوا فى المحرم عام ٨٩٣ هـ إلى القاهرة . وكان قد أشيع عنهم أن عرب الأحامدة اعتدوا عليهم واستولوا على مامعهم ولم ينج منهم أحد . فظهر فساد هذه الإشاعة وعدم صحتها . « ج ٢ ص ٣٤٦ ، ٢٤٨ . »

٤٦ - فى سنة ٨٩٣ هـ : أسندت إمارة المحمل فى هذه السنة إلى الأمير « جان بلاط الاشرفى » الخاصكى أحد الدوادارية . - وهو الذى ملك فيما بعد - وأسندت إمارة الركب الأول إلى « كرتباى » كاشف البحيرة . وخرج الحجاج فى شوال ، وفى صحبتهم داود بن عمر أمير عربان هوارة . « ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٥٤ »

٤٧ - فى سنة ٨٩٤ هـ : كان الحجاج فى هذه السنة قليلين . وقد خرجوا فى شوال وإمارة ركب المحمل معقودة للأمير « أزدمر تمساح » . « ج ٢ ص ٢٦١ . »

٤٨ - فى سنة ٨٩٥ هـ : كان أمير ركب المحمل « كرتباى » كاشف البحيرة ، وأمير الركب الأول « إينال الفقيه » الحاجب الثانى . « ج ٢ ص ٢٦٣ . »

٤٩ - فى سنة ٨٩٦ هـ : منذ زمن بعيد لم نجد ذكرا للعرض الرجبى وذلك منذ زوال عهد خشقدم . أما فى السنة المذكورة فقد عنى السلطان قايتباى ، بعرض الكسوة الخاصة بالكعبة والكسوة المصنوعة لمقام ابراهيم عليه السلام ، وزف المحمل أيضا وذلك فى أول رجب ، فكان يوما مشهودا . - وقد خرج الحجاج من القاهرة فى شوال . وكانت إمارة المحمل معقودة للأمير « أزدمر تمساح » . وعادوا فى المحرم عام ٨٩٧ هـ . وكان طريق الحج محفوفا بالمخاطر بسبب فساد العربان . - ومما يذكر أن زوجة الأمير أقبردى الدوادار وهى بنت العلائى على بن خاص بك وأخت زوجة السلطان قايتباى ، قد حجت فى تلك السنة ، وكان أمير الركب الأول « شاهين الجمالى » ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم (١) ج ٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧٢

٥٠ - فى سنة ٨٩٧ هـ : خرج المحمل فى شوال . وكان أميره « تانى بك الجمالى » أمير مجلس . وكان أمير الركب الأول « كرتباى » ابن أخت السلطان ، ووافت سنة ٨٩٨ هـ ولم يأت مبشر عن الحجاج حتى انتشر القلق بسببهم . وكان المبشر « تانى بك الأبح » أحد المماليك السلطانية ، فاعترضه فى طريقه بعض العربان فتأخر عن موعده . ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

٥١ - سنة ٨٩٨ هـ : فى ربيع الثانى عين « قانصوه خمسمائة » أمير اخور كبير فى إمارة ركب المحمل . والناصرى « محمد بن أزبك » الأتابكى فى إمارة الركب الأول فخرج الركبان فى شوال . واتفق أن وفى النيل واحتفل بكسر سده ، وكثير من الناس فى بركة الحاج يحتفلون بالحجاج . ثم عاد الحجاج فى المحرم عام ٨٩٩ هـ ، ولم يثنوا على « قانصوه خمسمائة » لسوء معاملته وعدم مساعدته لهم مع ما أصيبوا به

---

(١) ذكر ذلك السخاوى فى الضوء ج ٣ رقم ١١٢٣ :

من غلاء وموت جمال . ج ٢ ص ٢٧٨ إلى ٢٨٠ .

٥٢ - فى سنة ٨٩٩ هـ : فى ربيع الثانى أسندت إمارة ركب المحمل إلى «أزدمر تمساح» (١) - وقد حظى بذلك مرارا - وأسندت إمارة الركب الأول إلى الناصرى «محمد بن العلائى» على بن خاص بك التركى : ولكنه توفى فى رمضان فعين مكانه «إينال الفقيه» . وعين «يشبك الأشقر» باشا للمجاورين بمكة . وقد خرج الحجاج والركبان فى شوال . - ثم عادوا فى أوائل السنة التالية . ومما يذكر فى هذه السنة أن الركب الشامى اعتدت عليه طائفة من عربان بنى لام فنهبوا المال وأسروا النساء وقبضوا على أمير الركب . ج ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ .

٥٣ - فى سنة ٩٠٠ هـ : فى جمادى الأولى عين «تانى بك الجمالى ، أمير الركب المحمل و «كرتباى» ابن أخت السلطان أميرا للركب الاول . وخرج المحمل فى شوال . وعاد فى المحرم عام ٩٠١ هـ وقد أصيب الحجاج بعطش شديد لقلة المياه بجهة نخل ، فعرج بهم أميرهم الى عيون موسى ، فوجدوا بها ماء . ج ٢ ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩١

٥٤ - فى سنة ٩٠١ هـ : فى ربيع الأول عين «تانى بك قرا» أميرا لركب المحمل و «برد بك» نائب جدة أميرا للركب الأول . وخرج المحمل فى شوال ثم عاد فى المحرم عام ٩٠٢ هـ . ومما يذكر أن دولة قايتباى كانت قد انتهت بوفاته وذلك فى غيبة الحجاج . فتولى ابنه الناصر . فرسم بالقبض على أمير المحمل «تانى بك قرا» . فخرج لتنفيذ هذا الأمر فى شهر المحرم عام ٩٠٢ هـ «اصطمر بن ولى الدين» ومعه عدة من الجنود فلقيه فى عجرود فقيده وبعث به إلى سجن الاسكندرية . - ومما يذكر أيضا أن المحمل حينما دخل القاهرة أمر السلطان الجديد بأن يمر تحت أنظاره بالقلعة ليتمتع بمشاهدته إذ أنه لم يره قبل ذلك . ج ٢ ص ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

٥٥ - سنة ٩٠٢ هـ : أسندت إلى «كرتباى» إمارة ركب المحمل وهو ابن عمة السلطان الناصر بن قايتباى - وكثيرا ما عين أميرا للركب الأول - وكان هذا الإسناد فى

---

(١) توفى ازدمر تمساح فى جمادى الآخرة عام ٩٠٠ هـ .

ربيع الأول . ثم قتل «كرتباى» قبل سفره ، فعين مكانه الأمير «مصرباى» أحد المقدمين . وعين للركب الأول الناصرى «محمد بن العينى» . وكان الحاج فى تلك السنة قليلا لكثرة الفتن فى مصر . وقد خرج فى شوال . وتأخر مجىء المبشر إلى أوائل المحرم عام ٩٠٣ هـ لفساد العربان فى الطريق . ثم دخل الحاج القاهرة فى هذا الشهر . ومما يذكر أن السلطان امر بالقبض على أمير المحمل «مصرباى» وهو عائد ، فقبض عليه فى عجرود وسجن بالاسكندرية . «جزء ٢ ص ٣٠٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٢» .

٥٦ ـ سنة ٩٠٣ هـ : فى هذه السنة كان أمير المحمل «تانى بك الجمالى» . وأمير الركب الأولى «جان بلاط الموتر» المحتسب . وخرج الحجاج فى شوال بحفاوة وزينة . وقد قاسوا هذا العام شدائد جمة من عطش وخوف وقطع طريق من العربان ، وعادوا فى المحرم عام ٩٠٤ هـ ، ومما يذكر أن المحمل لما عاد سار فى وسط القاهرة حتى بلغ جامع المارداني ، وانفض الموكب وبدأ العمال ينزعون ما فوق جمل المحمل من قماش وغيره ، فإذا رسول من قبل السلطان يطلب إليهم العودة بالمحمل إلى المطرية حيث يقيم ليشاهده ، فأعادوا الموكب وساروا إلى المطرية حتى رآه السلطان . «جزء ٢ ص ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦» .

٥٧ ـ فى سنة ٩٠٤ هـ : كان السلطان هو قانصوه بن قانصوه . فعين فى ربيع الثانى الأمير «قرقماس بن ولى الدين» ـ وكان رأس نوبة حينئذ ـ أميرا لركب المحمل . «وأزبك المكحل» أحد الأمراء الطبلخانات أميرا للركب الأول . ثم ألغى إمارة أزبك المكحل ، واختار مكانه الناصرى «محمد بن خاص بك» أخا خوندزوجة الأشرف قايتباى . وكان هذا مقبوضا عليه لبعض الأسباب . فلما اختاره السلطان لهذه الامارة اشترط عليه أن يقوم بجميع نفقاتها من ماله الخاص وخرج المحمل فى ميعاده فى شوال وعاد فى المحرم عام ٩٠٥ هـ .

ومما يذكر أن أمير المحمل «قرقماس» قدم معاونة كبيرة لركب غزة ، إذ انتهبته طائفة من العربان قرب الشرفة ، وكذلك نهبوا بعض الركب الأول المصرى . ج ٢ ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦١

٥٨ - فى سنة ٩٠٥ هـ : فى ربيع الأول عين الأمير « قانصوه البرجى » المحمدى - أمير مجلس - أميرا لركب المحمل . والمحتسب « جان بلاط الموتر » أميرا للركب الأول . وخرج المحمل من القاهرة فى شوال وظل فى بركة الحاج إلى ٢٥ منه فتأخر عن موعد رحيله كل عام وذلك بسبب هروب أكثر غلمان أمير الركب الأول . ثم عاد الحجاج والركبان فى ٢٥ المحرم سنة ٩٠٦ هـ متأخرين بسبب ما أصيبوا به فى الطريق من اعتداء العربان . ج ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٧ ؛ ٣٧٥

٥٩ - فى سنة ٩٠٦ هـ : كان السلطان هو الأشرف جان بلاط : وقد عين فى شهر ربيع الأول الأمير « سودون العجمى » أحد المقدمين أميرا لركب المحمل . و « دولات باى قرموط » والى القاهرة أميرا للركب الأول .

ولم يجىء شهر شوال من السنة المذكورة إلا بعد أن زالت دولة السلطان جان بلاط وعقبه فى الملك العادل طومان باى ، وسرعان ما ذهبت دولته هو أيضا ، وآل الملك إلى السلطان الغورى . وفى عهد هذا الأخير سافر المحمل فى شوال . ففى ١٨ منه خرج الحجاج من القاهرة وركباهم وأميراهما المذكوران . وذهب صحبتهم الأتابكى تانى بك الجمالى منفيا إلى مكة ومعهم أيضا خاتون ابنة خليل بن حسن الطويل صاحب العراقين وقد عاونها السلطان على حجها . جزء ٢ ص ٣٧٦ - وجزء ٤ ص ٦ و ٧

٦٠ - فى سنة ٩٠٧ هـ : فى يوم الاثنين ١٨ شوال خرج المحمل من القاهرة فى زينة وحفارة وكان أمير ركب المحمل «اصطمر بن ولى الدين» أمير مجلس وأمير

الركب الأول الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك التركى . وقد ذهب أميرا غير هذه المرة ، وقد رسم السلطان بإخراج قانم أخى الظاهر قانصوه صحبة الحاج منفيا إلى مكة ، ومعه قانصوه الفاجر .

وإلى يوم الأحد ١٩ المحرم عام ٩٠٨ هلم يجىء مبشر أو رسول من قبل الحجاج حتى كثر القال والقيل واشتد القلق عليهم . وفى اليوم المذكور وصل إلى القاهرة راكب هجين ، وأخبر عن اضطراب أمور الحجاج بسبب ثورة العربان بزعامة الجازانى ابن أمير مكة ، فنهبوا ركب الحاج الشامى وقتلوا رجاله وأسروا نساءه ، قبل دخول الركب إلى مكة .

وفى أول صفر وفد الحجاج إلى بركة الحاج على حين غفلة ، وفى ٢ صفر دخل المحمل القاهرة ، وتحدث الحجاج عما لقوه من شدة ، من الجازانى وعصابته . وكان أمير ركب المحمل اصطمر من مثيرى هذه الفتنة كما أنه لم يستطع إطفاءها . وملخص الحادثة أنه تدخل فى النزاع القائم بين الجازانى وأخيه الشريف بركات ، وكانا يتنازعان إمارة مكة . فسعى اصطمر بينهما بالدس حتى تقاتلا ، ودخل هو فى هذا القتال بعد أداء فريضة الحج ، فقتل من ركبه نحو مائة ، ودارت الهزيمة عليه ، فنهب الحجاج وعرى النساء وهرب كثير منهم وتخلف البعض فى ينبع ، ومنهم من امتطى ظهر البحر الأحمر عائدا ، ومنهم من مات جوعا وعطشا لردم آبار المياه . وهكذا كانت طامة كبرى على الحجاج لسوء تصرف أمير المحمل اصطر . وعما زاد الطين بلة أن الحجاج الذين صاحبوا الركب إلى العقبة لقيهم دونها عربان بنى لام ، وفرضوا عليهم غرما مقداره ثلاثة آلاف دينار . فاضطروا إلى دفعها درءا لأذاهم ، وقد جباها منهم أمير المحمل .

ولما مثل الأميران بين يدى السلطان أسمعهما من الكلام قارصه ، لسوء سلوكهما وعدم حيلتهما وأمر بهما فسجنا حتى حين . « ج ٤ ص ٢٨ ، ٣٥ إلى ٣٨ »

٦١ - فى سنة ٩٠٨ هـ : فى شهر شعبان عين السلطان الغورى الأمير «قيت الرجبى» الأتابكى أميرا لركب المحمل ، والأمير «آنص باى» أحد المقدمين أميرا للركب الأول وأعد لهم ستمائة مملوك من المماليك السلطانية : وأنفق لكل مملوك مائة دينار ، وفرض على بعض البلاد المصرية تقديم الجمال للركب . أو دفع قيمتها مالا . فتأذى الناس من ذلك ، وإن كانوا قد أدوا ما طلب منهم .

وفى السبت ٢٧ رمضان عرضت الكسوة الشريفة والمحمل - بغير دوران - وخلع العيد كذلك على الأنظار السلطانية . وفى الاثنين ٢٠ شوال خرج المحمل من القاهرة ، ونبه النساء إلى عدم الخروج إلى الحج فى تلك السنة . وما ذلك إلا لأن السلطان عزم على إطفاء فتنة الجازانى والقضاء على قطاع الطريق من العربان فاحتاط بمنع النسوة فى الحج حتى لا يمسهن أذى أثناء الطريق .

وفى الجمعة ٢٨ من ذى الحجة جاء مبشر من قبل الحجاج ، فأخبر أن الأتابكى «قيت» طرد العربان من بنى ابراهيم عن مكة ، وهرب الجازانى من وجهه . وأنه أصلح أمور مكة ، وقبض على الشريف بركات وآخرين . انتشر الخبر فى أرجاء القاهرة فطرب الناس وعمهم السرور وزينوا الدور وأخذوا فى أسباب اللهو والعبث . ونودى بأمر السلطان أن تزين القاهرة سبعة أيام .

وبسبب هذه الفتن والحروب تأخرت عودة الحجاج والركبين إلى يوم الخميس ٢ ربيع الأول عام ٩٠٩ هـ . وفى اليوم المذكور دخل الأتابكى «قيت الرجبى» والحجاج إلى القاهرة ومعهم الأسرى ، فكان لهم يوم مشهود . « ج ٤ ص ٤٨ إلى ٥٧ »

٦٢ - فى سنة ٩٠٩ هـ : فى شهر ربيع الأول عين السلطان الغورى الأمير «آنص باى» أحد المقدمين أميرا لركب المحمل ، و«تانى بك الأبجى» أميرا بالركب الاول .

وفى شهر جمادى الأولى عقد الغورى النية على أن يدور المحمل فى القلعة وأن يعاد العرض الرجبى كما كان . وأن يلعب حاملو الرماح «الرماحة» أمامه . وكان هذا التقليد قد بطل منذ زوال سلطنة خشقدم عام ٨٧٢ هـ . فجدده الغورى فى عام ٩٠٩ هـ الذى نحن بصدده . ومن ذلك الحين أخذ السلطان الأهبة لهذا الاستعراض

والدوران . فعين الأمير تمرا الحسنى الزردكاش معلما للرماحة ومعه عدد من « الباشات، أى الرؤساء ، ليعاونوه فى عمله . ومن الخاصكية أربعين مملوكا ، فأخذوا فى الاستعداد ليوم العرض . وبعد تمرينهم مدة عرضوا مرة على الانظار السلطانية .

وفى يوم الخميس ٨ رجب نودى بأمر السلطان فى القاهرة أن المحمل يدور فى هذه السنة وأمر الناس بنشر الزينات فى أرجائها .

وفى يوم الاثنين ١٢ رجب بدت القاهرة فى أبدع حلة وأينع زينة . وخرج المحمل والكسوة الشريفة قاصدا إلى الرميلة وهناك جلس السلطان ورجاله فى شرفة مطلة على هذا الميدان . ولعب الرماحة ، وهم فى أثوابهم الحمراء ، ألعابهم الشائقة . ودار المحمل مرة فى الصباح ومرة فى المساء بعد الظهر . والناس مجموعون لمشاهدته فى كل فج ومن كل بلد . ونظمت الأزجال بهـــذه المناسبة . والعوام ينشدونها ويرقصون على نغمها وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع لى لحافى ذى المحمل حتى أرى شكل المحمل

ولج الناس بعد ذلك فى العبث واللهو والمجون ، واستعادوا ذكريات الأيام الماضية وتقاليدها القديمة فى ذلك الحين . ـ وظلت هذه العادة وذلك التقليد مرعيا ـ غالبا ـ بين تقاليد الدولة طول عهد الغورى بعد ذلك .

ثم خرج الحجاج والمحمل فى شهر شوال . ولم تخرج النساء للحج فى هذا العام لتوقع فتن يقوم بها العربان فى الطريق . ـ وقد عاد الجميع فى ٢٣ المحرم عام ٩١٠هـ.

« جزء ٤ ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ »

٦٣ ـ فى سنة ٩١٠ هـ : فى ربيع الأول عين « قانى باى قرا » أميرا خور كبير ، أميرا لركب المحمل . و« جان بردى » تاج المماليك أميرا للركب الأول . وفى يوم ٩ رجب نودى فى القاهرة بالزينة لاقتراب موعد دوران المحمل . واستعد لاعبو

الرماح « الرماحة » للقيام بألعابهم المدهشة . ثم دار المحمل دورتيه ولعب الرماحة على خيولهم ، فأبدعوا أكثر من العام الماضى . وزفت الكسوة . ووزعت الخلع على مستحقيها من اللاعبين .

ثم خرج المحمل من القاهرة فى شوال . . وعاد فى ٢٤ المحرم عام ٩١١ هـ بعد معاناة فتن عربان وعطش وموت جمال « جزء ٤ ص ٦٦ ، ٧٢ ، ٨٠ » .

٦٤ - فى سنة ٩١١ هـ : فى شعبان خلع الغورى على الامير « خايربك كاشف » الغربية أحد الأمراء المقدمين ، وأسند إليه إمارة ركب المحمل وخلع على « قنبك » رأس نوبة ثان ، وأسند إليه إمارة الركب الأول . وفى شوال توالت الأخبار عن شدة فتن الأعراب بالحجاز ومكة فرأى السلطان أن يمنع الناس الحج هذا العام من مصر والشام وجميع البلاد التابعة . وأصدر أمره بذلك . ثم إنه أرسل الكسوة والمال والزيت وما إلى ذلك فى مراكب شراعية بالبحر الأحمر . وقد وفد الركب المغربى والتكرورى إلى مصر ذاهبين إلى الحج ، فلما علما الأمر عدلا عن الرحيل أيضا . قال ابن إياس أنه لم يسمع عن سنة امتنع فيها الحج من مبدأ دولة الأتراك إلا هذه السنة . جزء ٤ ص ٨٦ ، ٨٩

٦٥ - فى سنة ٩١٢ هـ : جاءت أخبار فى صفر فى تلك السنة من مكة تفيد أن عددا من اليمنيين والعراقيين وفدوا اليها حاجين فى ذى الحجة المنصرم . وقد تم لهم أداء الفريضة . فندم السلطان على عدم إخراجه المحمل ، ولمنعه الناس من الحج فى السنة السالفة بسبب ماتواتر إلى سمعه من الفتن القائمة ببلاد الحجاز .

ثم إنه أرسل جندا إلى مكة لتطهيرها من دعاة الفساد وأهل الفتنة . فخرج نحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية بقيادة خايربك بن إينال كاشف الغربية وأحد

المقدمين . وفى صحبته قنبك بن شاد بك رأس نوبة ثان وعدد من الأمراء العشرات وكان خروجهم فى رجب . وقد أرسل معهم المحمل أيضا . ونودى للنساء بعدم الخروج الى الحج فى هذا العام كذلك . فأقام المحمل بالريدانية الى الأربعاء ٩ رجب ثم سافر . ولما بلغوا بلاد الحجاز قاتلوا الخارجين العابثين وانتصروا على بنى ابراهيم وهرب منهم أمير ينبع السابق يحيى بن سبع ، وهو أحد العابثين الثائرين . وقد أرسلوا بذلك كله رسولا (هجانا) الى السلطان بلغ القاهرة فى ١٨ رمضان ، فسر الناس والسلطان لأخبارهم . وأمر بعزف الموسيقا ثلاثة أيام . . . وقد أرسلت رءوس القتلى فيما بعد فى شوال فاشهرت فى القاهرة .

وفى الاثنين ١٩ رمضان عرضت كسوة الكعبة على السلطان مزفوفة على رءوس الحمالين بين طرقات القاهرة والناس يتمتعون بمشاهدتها . وفى ذى القعدة جاء مبشرون آخرون بأن الجند المصرى هزموا أعداءهم هزيمة أخرى منكرة . وفى ذى الحجة وفد مبشر عن الحجاج بأنهم فى أمن ، وأن الجنود بعد انتهائهم من القتال أدوا فريضة الحج . ج ٤ ص ٩٥ ، ١٠١ إلى ١٠٦ ، ١٠٩

٦٦ - فى سنة ٩١٣ هـ . فى الخميس ١٩ ربيع الاول خلع الغورى على الامير «طرا باى» رأس نوبة النوب وقرره فى إمرة ركب المحمل ، وقرره قانصوه أبو سنة» والى القاهرة فى إمرة الركب الاول . ونودى للناس فى ذلك اليوم بأن يخرج الى الحج من يشاء رجالا ونساء فكان ذلك مثارا للسرور العام .

وفى الاثنين ١٩ شوال خرج الركبان فى تجمل وزينة . وكان عدد الحجاج هذا العام وافرا نظرا لما توقعوه من أمن الطريق . وحج عدد كبير من أعيان رجال مصر ومنهم القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى شمس الدين التتائى المالكى وكان

قاضى المحمل . وعدد من الأمراء العشرات . وحجت خوند أصل باى أم الملك الناصر سرية الأشرف قايتباى . . وحجت خوند جان كلدى زوجة الملك الظاهر قانصوه خال الناصر بن قايتباى . وحجت زوجة الأمير تانى بك قرا وهى بنت بردبيك صهر الملك الأشرف إينال .

وفى ٢٤ وفد مبشر عن الحجاج وأخبر عما هم فيه من أمن وسلامة ورخاء . وعاد الجميع فى ٢٠ المحرم عام ٩١٤ هـ . فانعم السلطان على الأميرين لما مثلا بين يديه .

جزء ٤ ص ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١

٦٧ - فى سنة ٩١٤ هـ : فى ربيع الثانى أسند السلطان الغورى إمارة ركب المحمل إلى « ماماى جوشن » ، وإمارة الركب الاول إلى « قانصوه دولات بردى » استادار الصحبة . وفى يوم الخميس ٤ شوال نزل السلطان إلى الميدان وجلس بالمقعد وحوله امراؤه ورسول من قبل ملك بغداد وطيف أمامهم بالمحمل ولعب الرماحة ألعاب فروسية مدهشة . والناس من حولهم يشاهدون . وتقدم عدد من المماليك من راكبى الخيول ولعبوا بالنشاب ألعابا بديعة تنم عن مهارة وقدرة . وأحرقت إحراقة نفط مرتين .

وفى يوم ١٨ شوال نسل المحمل وحجاجه من القاهرة فى زينة وحفاوة وحسن وداع . - وجاء مبشر بأمنهم وسلامتهم فى ٢٣ ذى الحجة وكان مجيئه مبكرا . وفى ٢٢ المحرم عام ٩١٥ هـ دخل الحجاج القاهرة وكانوا فى يمن وسرور وحدثوا بما أنشأه السلطان الغورى من ضروب الاصلاح بالعقبة فقد أنشأ هناك نزلا وعدة مخازن لإيداع الودائع . وابراجا يقيم بها جند لحماية الطريق . ومهد الطريق للمسير . وأنشأ أبراجا بعدة نواحى اخرى يقيم بها جنود منها برج بعجرود وآخر بنخل وآخر بالأزنم . وأجرى آبارا بطريق مكة . وهكذا فعل فى سبيل الحج فلهجت الألسنة بمدحه ، والثناء عليه . . » ج ٤ ص ١٣٣ : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥١ »

٦٨ - فى سنة ٩١٥ هـ : فى يوم الخميس ١٧ ربيع الأول عين الأمير « طقطباى » نائب القلعة وأحد الأمراء المقدمين أميرا لركب المحمل . « ومغلباى الزردكاش » أميرا بالركب الأول . وفى يوم الاثنين ١٠ شوال نزل السلطان إلى الميدان بالقلعة وعرض عليه كسوة الكعبة والبرقع وكسوة مقام ابراهيم . وطيف بهذه الأشياء مع المحمل فى القاهرة . وفى يوم الاثنين ١٧ شوال أيضا خرج المحمل من القاهرة . وخرج فى صحبته أحد أمراء بنى عثمان حاملا نحو أربعين ألف دينار أرسلها ملك العثمانين لتفريقها على فقراء مكة والمدينة . وفى ذى الحجة وفد مبشر من قبل الحجاج بالأمن والسلامة ، ويقال إنه وصل فى ١٣ يوما فقط وفى يوم الخميس ٢٣ المحرم عام ٩١٦ هـ دخل المحمل إلى القاهرة . وقد تأخر بعد دخول الركب الأول بيومين .

« جزء ٤ ص ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٩ » .

٦٩ - فى سنة ٩١٦ هـ : فى ربيع الأول عين « قانصوه بن سلطان جركس » أحد الامراء المقدمين أميرا لركب المحمل . والأمير « نوروز » تاجر المماليك أحد أمراء الطبلخاناة أميرا للركب الأول . وفى يوم السبت ١٨ شوال خرج المحمل من القاهرة . وفى الخميس ٢٦ المحرم عام ٩١٧ هـ دخل الحجاج إلى القاهرة . وقد قاسوا فى هذه السنة مشقة وشدة من مرض وموت جمال ، وقيل توفى نحو ألف وثمانمائة نفس .

« جزء ٤ ص ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ » .

٧٠ - فى سنة ٩١٧ هـ : فى الاثنين ٢٠ ربيع الأول خلع السلطان على المقر السيفى « طومان باى الدوادار الكبير » - الذى ملك فيما بعد - وقرره فى إمارة الحج ، بركب المحمل . وخلع على « بك باى » أمير عشرة وأحد المماليك الأتابكى أزبك كان ، وقرره فى إمارة الركب الأول .

وفى يوم الاثنين ١٥ شوال جلس السلطان فى الميدان بالقلعة وعرضت عليه الكسوة الشريفة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل الشريف . وفى الخميس ١٨ منه خرج المحمل الشريف من القاهرة فى حفاوة وحسن وداع . وحج عدد كبير من الأعيان والأمراء والأميرات . منهم خاير بك أحد مقدمى الألوف والذى كان كاشفا للغربية واشتهر بذلك . وحج الشرفى يونس بن الأقرع نقيب الجيوش . وزوجة الأمير طومان باى وهى بنت الأمير أقبردى الدوادار ومعها والدتها بنت خاص بك . وزوجة الأتابكى سودون العجمى . وحج شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر ، وكثير غيره من العربان منهم حسام الدين بن بغداد .

وفى يوم الجمعة ٢٣ من ذى الحجة حضر مبشر الحجاج وأخبر عنهم بأمنهم وسلامتهم ، وكانت قد أشيعت عنهم أخبار سيئة فزيفت . وفى يوم الخميس ٢١ المحرم عام ٩١٨ هـ دخل الركب الأول . وفى السبت ٢٣ منه دخل ركب الحجاج إلى القاهرة متأخرا عن ميعاده ، فخلع السلطان على أميره خلعة نفيسة ، وكذلك على من حج غيره من الأمراء . وقد حمد الناس هذا العام سيرة أمير المحمل طومان باى الدوادار ، وأثنوا عليه بما هو أهله ، وتحدثوا بما قام به من ضروب البر والإحسان وما بذله للفقراء والمساكين . « جزء ٤ ص ٢٢٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ » .

٧١ - فى سنة ٩١٨ هـ : فى ٢٢ ربيع الأول خلع السلطان الغورى خلعة على الأمير « تمر الحسنى » المعروف بالزردكاش أحد الأمراء المقدمين وجعله أميرا لركب المحمل . وخلع على الأمير « يوسف الناصرى » شاد الشراب خاناة الذى كان نائب حماة ، خلعة وجعله أميرا للركب الأول . وكان قد اشتكى واستعفى من هذه الإمارة فلم يعفه السلطان .

وفى الخميس ١٤ شوال جلس السلطان بالميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة

والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام ، والمحمل ، فطيف بها فى القاهرة وكان يومها حافلا . وفى ١٨ منه خرج الحجاج من القاهرة وصحبتهم المحمل الشريف ، فرجت لهم القاهرة . وتقدم المحمل عدد من الأفيال الكبار مزينة بألوان من الأقمشة ومعهم الموسيقا من طبل وزمر . وتقدمه أيضا القضاة الأربعة وقاضى مكة وغيرهم من أمراء وأعيان .

وقد عاد الركب الأول فى الأربعاء ٢٢ المحرم عام ٩١٩ هـ . وعاد ركب المحمل فى الخميس ٢٣ منه . وقد أثنى الحجاج على أمير الركب الأول ولم يثنوا على أمير المحمل لبخله وشحه . «جزء ٤ ص ٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ».

٧٢ - فى سنة ٩١٩ هـ : فى ٢ ربيع الآخر خلع السلطان على الأمير « قانصوه كرت » أحد الأمراء المقدمين وقرره فى إمرة ركب المحمل . وخلع خلعة أخرى على على الأمير « طومان باى » الحاجب الثانى وقرره فى إمرة الركب الأول وهو من أمراء الطبلخاناة .

وفى ١٤ شوال نزل السلطان إلى الميدان وعرضت عليه الكسوة والبرقع ومقام ابراهيم والمحمل عرضا عاما . وفى ١٧ منه خرج المحمل من القاهرة فى حفاوة وزينة وفى صحبتهم ملكان من ملوك التكارزة . وودعهم الأتابكى سودون العجمى وعدد من الأمراء . وفى السبت ٢٣ من ذى الحجة جاء البشير بخبرهم وأمنهم وسلامتهم . وقد وصل من مكة فى ١١ يوما فعجب الناس لسرعته . ثم عاد الحجاج فى الخميس ١٩ المحرم عام ٩٢٠ هـ ، إلى بركة الحاج ثم دخل الركب الأول القاهرة فى الجمعة ٢٠ منه وعلى أثره فى السبت ٢١ المحرم دخل ركب المحمل . فخلع السلطان على أميريهما خلعه السنية وقد تقدم يوم دخولها عن كل عام يومين فى هذا العام . «جزء ٤ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ».

٧٣ - فى سنة ٩٢٠ هـ : فى ٢٣ المحرم خلع السلطان الغورى خلعة على الأمير « طقطباى » نائب القلعة أحد الأمراء المقدمين وأسند إليه إمارة ركب المحمل ، وخلع خلعة أخرى على الركنى سيدى «عمر» بن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق ، وأسند إليه إمارة الركب الأول فشكا واستعفى فلم يعفه . وقد خالف السلطان العادة فى التعيين المذكور إذ جرت أن تكون حوالى ربيع الأول ، فعجل بالتعيين هذا العام فى المحرم . قال ابن إياس : « وقد خالف السلطان العوائد القديمة فى لبس أمراء الحاج فى شهر المحرم وكانت العادة القديمة بأن يلبسوا بعد المولد فى شهر ربيع الأول » .

وقد حج فى هذا العام من الأعيان : المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى ، وخوند زوجة السلطان . والقاضى محمود بن أجا كاتب السر والأمير نانق الخازن ، وكان موكولا إليه شئون الركب السلطانى . وفى ١٥ شوال رحل السلطان إلى بركة الحاج ليتفقد الخيام والمحال المعدة للحجاج بمناسبة خروج زوجته وولده إلى الحج

وفى الاثنين ١٧ شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة . وكان لخروجه يوم مشهود لم يقع له نظير . . وذلك لعظم من صحب الركب هذا العام من الحجاج وجمال مواكبهم وأبهة زينتهم ، وما حملوه فى جعبتهم من مال وهبات . وخلع السلطان خلعا على أمراء المحمل وقاضيه وولده . وكان السلطان وقت خروج المحمل جالسا فى شباك قصره بالقلعة لمشاهدته . وقد ركبت زوجة السلطان إلى بركة الحاج وودعها من كرائم العقيلات عدد كبير ، ثم نودى ألا يصحب موكبها أحد من الحجاج . . وحج هذا العام عدد ضخم ، وخرج من أصحاب المحفات الخاصة أكثر من عشرة . وقد خيف عليهم من الكثرة والبرد معا . . .

وقد رحل المحمل من بركة الحاج فى يوم السبت ٢٢ شوال ، وسبقه فى اليوم

الماضى - ٢١ منه - الركب الأول ، ومعه باش المجاورين . أما زوجة السلطان وولده وكاتب سره فقد رحلوا فى ركب خاص مبكرين جداليل ٢٢ منه حين طلوع القمر. وقوبلوا مقابلة شائقة فى مكة ، وقيل نزل أميرها الشريف بركات عن فرسه واقتاد زمام فرس ابن السلطان . .

وفى الخميس ٢٥ ذى الحجة ورد بشير بسلامة الحجاج وزوجة السلطان وولده وكاتب سره - وكان قد أشيع موته . - ثم عاد الركبان إلى بركة الحاج فى ٢١ المحرم عام ٩٢١ هـ وصحبته هؤلاء العظماء، فخرجت الأمراء للقائهم ، ودخلوا القاهرة فى حفاوة وحسن استقبال - وقد أثنى الحجاج على أمير الركب الأول ، ولم يثنوا على أمير ركب المحمل « جزء ٤ ص ٣٦١ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ »

٧٤ - وفى سنة ٩٢١ هـ : فى ٢٢ ربيع الأول أسندت إمارة ركب المحمل إلى الأمير «علان» أحد المقدمين والدوادار الثانى . وأسندت إمارة الركب الأول إلى الجناب العلائى «على» بن المؤيد أحمد بن الأشرف إينال .

وفى يوم الخميس ١٦ شوال عرض السلطان كسوة الكعبة ومقام ابراهيم ، وعرض المحمل وهو جالس فى حوش القلعة . وفى يوم السبت ١٨ منه خرج المحمل الشريف من القاهرة فى حفاوة وحسن وداع . ومعه باش المجاورين فى تلك السنة الأمير «بيبردى بن كسباى» أحد الأمراء العشرات ، ومعه خمسون مملوكا للاقامة فى مكة .

وفى ٢٦ منه حضر المبشر الأول للحجاج ، وقد أبطأ عن ميعاده أياما بسبب خروج العربان عليه وسرقة مامعه حتى خطابات الحجاج ، فلم تصل إلى من أرسلت إليهم . - وقد عاد الحجاج هذه المرة فى يوم الثلاثاء ٢٣ المحرم عام ٩٢٢ هـ - وأثنى الجميع على الأمير علان لما بذله من المعاونة الصادقة والبر وعمل الخير . وقد قاسى الحجاج مشقة وشدة من السيول الجارفة والغلاء وقطع الطريق . «جزء ٤ ص ٤٤٩،

٤٨٠ ، ٤٨١ - جزء ٣ ص ٦ ، ٧ .

٧٥ - فى سنه ٩٢٢ هـ : فى ١٨ ربيع الأول خلع السلطان الغورى على الأمير « أرزمك الناشف » أحد المقدمين خلعة ، وعينه فى إمارة ركب المحمل وخلع على الأمير « برسباى الفيل » أحد أمراء الطبلخاناة خلعة ، وعينه أميرا للركب الأول وبعد مدة خرج الغورى لقتال العثمانيين ، فكان هذا التعيين آخر تعيين يمضى باسم السلطان المذكور . وكان هذان الأميران آخر أميرين عينا للحج فى عصر المماليك.

ولما رحل الغورى إلى الشام وحلب أرسل فى رجب كتابا إلى نائبه فى مصر الدوادار طومان باى يطلب اليه أن يمنع الحجاج من السفر هذا العام إن علم أن طريق الحجاز غير مأمون. وإن علمه مأمونا فليجهز الحجاج كالعادة المتبعة وليرحلهم. وكان قد أشيع بين الناس أن الحج ممتنع هذا العام بسبب اضطراب الأحوال ما بين هجوم العثمانيين على أملاك الدولة ، وما بين فتن العربان وقطعهم الطريق الحجازى على سالكيه . فنودى فى يوم - الاثنين ٤ شعبان فى القاهرة بأن يستعد معتزمو الحج للخروج فى الميعاد . ولكن بعد قليل كان الغورى قد انهزم وقتل فى مرج دابق وزادت البلاد اضطرابا ، وتولى الملك الأشرف طومان باى . وأخذ فى الاستعداد للقاء العثمانيين بالبلاد المصرية . حينئذ تقاعد الناس عن الخروج إلى الحج . وقد أرسل السلطان طومان باى الكسوة والأموال المعتادة لأهل المدينة ومكة مع رسول خاص هو الطواشى مرهف ، فركب لذلك البحر الأحمر وتوجه لقضاء مهمته . - وفى أوائل عام ٩٢٣ هـ تم استيلاء العثمانيين على مصر وانتهى بذلك عصر المماليك . « جزء ٣ ص ١٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٦ ، ٧٧ » .

فيضان النيل والاهتمام به

النيل هبة الله لمصر ونعمته، ويده عليها ورحمته. لولاه لنالها الجدب وأجهدها المحول، ودب فيها دبيب الموت والخمول. وأصبحت الحياة فيها قليلة الغناء، ضئيلة الهناء. لأنه شريان أرضها. ومنشىء تربها، وباعث خصبها، ومحيي نباتها، وساقي أهلها ودوابها. وهي إليه أكثر احتياجا من بلدان كثيرة إلى أنهارها، لضآلة مائها وقلة أمطارها.

وله فى كل عام موسم فيضان، يرتفع فى إبانه ماؤه فى مجراه رويدا رويدا فى يوليو وأغسطس وسبتمبر إذ يبلغ أقصى ارتفاع له فيه. ثم فى أكتوبر ونوفمبر، ومن ثم يأخذ فى التراجع والنقصان. وسبب فيضانه هبوط الأمطار الغزيرة على بلاد الحبشة فى موسم الصيف لهبوب الرياح الموسمية الصيفية عليها. فتمتلىء وديان الحبشة بالماء، وهى روافد النيل، فتتدفق فى مجراه وتربو على مياه منبعه الاستوائى الدائم.

وفى غير موسم الفيضان تشح المياه فى مجرى النيل وتتضاءل وتغيض، حتى ليصعب على سقاة الأرض سقيها منه، لذلك أخذت الحكومة المصرية فى العصر الحديث تنشر الرى الصيفى الدائم بوساطة ما تنشئه من قناطر وخزانات وترع ومصارف. فيخزن جزء من مياه النيل خلف القناطر، حتى يحتاج إليه - أما فى أيام الفيضان فيسهل الرى طبعا، ولاسيما فى أراضى الحياض النيلية التى لم تنظم تنظيما صيفيا.

ولهذه الأهمية الكبيرة التى احتازها نهر النيل، عنى به المصريون منذ الأزمنة

القديمة ، وحيكت حوله الأساطير الطريفة الخيالية المسلية التى برهن الكشف الحديث على عدم صدقها . فقالوا إنه ينبع من الجنة ! وإنه عند منبعه يشترك مع سيحون وجيحون ودجلة والفرات حيث تفيض جميعا من قبة عظيمة ... وهكذا (١)

وقد بلغ من حب المصريين القدماء له أن انقلب هذا الحب إلى قداسة وعبادة واحتفوا بفيضانه احتفاء هو مضرب الأمثال . وجروا على عادات فى احتفائهم به فيها كثير من الإسراف ، منها ما أبطل منذ دخول العرب والإسلام إلى البلاد المصرية - على مايذكره بعض المؤرخين .

ولم يقصر المصريون فى العصور الوسطى ، فى الاهتمام بالنيل ، وفى العناية بفيضانه وإقامة الجسور عليه ، والقناطر ومد الخلجان منه ، وإنشاء المقاييس عليه . وإقامة المهرجانات الحافلة فى موسم زيادته ، وتخصيص أيام بذلك اشتهر منها يوم كسر الخليج .

واهتمام مصر به فى العصر الحديث غنى عن الإشارة إليه ، فقد عنى بمقاييسه ، ورصد له المهندسون والعمال والخفراء للحراسة والملاحظة مائه ارتفاعا وانخفاضا ولحسن تصريفها . ويحتفل بوفائه كل عام .

والنيل كان ولا يزال إحدى النواحى الملهمة التى أوحت إلى شعراء مصر وأدبائها السائغ الرائع من الشعر ، والبديع الذائع من الأدب . فوصفوه طولا وعرضا ومدا وجزرا وفيضانا ونقصانا . ووصفوا ما على حفافيه من زروع كريمة وثمار شهية . وما شدا حوله من أطيار مغردة ، وما أنشىء من بساتين غناء ، وجنات فيح ، وما امتلأ بأنسامه الوانية من ليالى حافلة ، وما فاض على جانبيه من أسمار وأحاديث ،

---

(١) راجع ما كتب عن النيل فى حسن المحاضرة وخطط المقريزى

وما خلد على شاطئيه من جميل الذكريات . . . قال الشاعر أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى المتوفى عام ٣٩٩ هـ . من قصيدة له يتشوق إلى مصر :

ليالى النيل لا أنساك ما هتفت ... ورُق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هفوات فيك لى سلفت ... قطعتهن . وعين الدهر ترعانى
مع سادة نجب غر غطارفة ... فى ذروة المجد من ذهل بن شيبان
وذى دلال إذا ما شئت أنشدنى ... وإن أردت غناء منه غنانى
سقيته وسقانى فضل ريقته ... وجاد لى طرفه عفوا ومنانى (١)

ولم يقل اهتمام مصر فى عصر سلاطين المماليك ، بالنيل وفيضانه ، عن اهتمامها به فى أى عصر آخر ، وذلك بمراقبة فيضانه ونقصانه ، ونشر البشرى بزيادته ، والاحتفال بعيد وفائه ، والعناية بمقياسه .

ومقياس النيل له تاريخ حافل . وقد أفرده بالبحث فى باب طويل صاحب تقويم النيل (٢) . ويستخلص مما رواه ، وما رواه المقريزى وأبو المحاسن والسيوطى (٣) وغيرهم ما يلى :

١ - أن مصر عرفت مقاييس النيل قبل دخول الاسلام إليها ، ومنها :

ا - مقياس منف - ويقال إن يوسف عليه السلام هو الذى بناه - ويبدو أنه ظل مستعملا معتمدا زمنا بعد دخول الإسلام .

---

(١) عن يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٢٦٠

(٢) تقويم النيل ج ١ ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) راجع الخطط ج ١ ص ٩٢ تحت عنوان « ذكر مقاييس النيل وزيادته » وحسن المحاضرة . ج ٢ ص ٢٢٠ بعنوان « ذكر المقياس .

ب ـ مقياس ، قيل إن دلوكة الملكة العجوز أقامته ببلاد إخميم . وقيل أقامت مقياسا آخر بأنصنا .

٢ ـ أنه بنى بمصر عدة مقاييس بعد الإسلام ، منها :

ا ـ مقياس ، قيل إن عمرو بن العاص بناه عند أسوان ، ثم عند دندرة ، ثم عند أنصنا . وقال المقريزى بناه بحلوان .

ب ـ مقياس ، بناه عبد العزيز بن مروان ـ وكان واليا على مصر ـ بحلوان وكان يسكن بها . وذلك عام ٨٠ هـ .

ج ـ مقياس ، بناه أسامة بن زيد التنوخى ـ وكان عاملا على خراج مصر ـ بجزيرة الروضة ، فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، ثم اقترح إبطاله ، فأبطل ، وبنى مقياسا آخر فى الروضة كذلك ، عام ٩٧ هـ ، فى خلافة سليمان عبد الملك .

ء ـ مقياس ، أقامه ـ أو رممه ـ الخليفة المأمون بالروضة أيضا ، بدلا من مقياس أسامة الذى هدمه الماء ، وذلك فى عام ١٩٩ هـ . ولكنه لم يتمه . فأتمه الخليفة المتوكل فى عام ٢٤٧ هـ . وهو أكبر المقاييس . وقد بنى فى ولاية يزيد بن عبد الملك على مصر ، وقدم من العراق محمد بن كثير المهندس فتولى بناءه .

هـ ـ مقياس ، يقال إن أحمد بن طولون بناه فى الجزيرة .

هذا وأهم المقاييس قبل الإسلام مقياس « منف » . وأهمها بعد الإسلام وأكبرها مقياس « الروضة » الذى أتمه المتوكل . ولعله بنى على نمط من مقياس « منف » . ومقياس الروضة هو الذى ظل مستعملا طول عصر المماليك ، وقد أمر قايتباى فى عام ٨٨٦ هـ بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه (١)

---

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٥

وقد روى المقريزى فى وصفه قال :

« والمقياس عمود رخام أبيض مثمن ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه . وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا . كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع ، ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى ، فإنها مفصلة على ثمان وعشرين إصبعا ، كل ذراع . » والأذرع الأولى هى السفلى .

وقيل فى سبب اختلاف تقسيم أذرعه ما يلى : وقد ذكره المقريزى نقلا عن القضاعى عن الحسن بن محمـــد بن عبد المنعم . ونقله السيوطى ، قال :

« لما فتحت العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده فى مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره . وإن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ، وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار ، بغير قحط . فكتب عمر إلى عمرو ، يسأله عن شرح الحال . فأجابه : إنى وجدت ما تروى به مصر ، حتى لا يقحط أهلها ، أربعة عشر ذراعا والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ، ستة عشر . والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان ـ وهما الظمأ والاستبحار ـ اثنا عشر ذراعا فى النقصان ، وثمانية عشر ذراعا فى الزيادة . ـ هذا والبلد فى ذلك الوقت محفور الأنهار معقود الجسور عند ما تسلموه من القبط ، وخميرة العمارة فيه . فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، عليا رضى الله عنه ، فى ذلك . فأمره أن يكتب إليه أن يبنى مقياسيا وأن ينقص ذراعين من اثنى عشر ذراعا ، وأن يقر ما بعدها على الأصل وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعا أصبعين ، ففعل ذلك ، وبناه بحلوان . فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف ، وزوال ما منه كان يخاف ، بأن جعل الاثنى عشر ذراعا أربع عشرة لأن كل ذراع أربع وعشرون أصبعا فجعلها ثمانيا وعشرين من أولها إلى الاثنى عشر

ذراعا . يكون مبلغ الزيادة على الاثنى عشر ثمانيا وأربعين أصبعا ، وهى الذراعان. وجعل الأربع عشرة ست عشرة، والست عشرة ثمانى عشرة، والثمانى عشرة عشرين . ،

ويبدو أن هذا التقدير لمناسيب الفيضان لم يثبت تماما فيما بعد ، وطرأ عليه بعض التغيير .

ثم إن المقياس وُكل به من يلاحظ ارتفاع الماء عنده باستمرار ، إذا حان موسم الفيضان ، ويبشر الناس بكل زيادة ، ويصعد إلى السلطان بأخبارها بين الحين والحين. واشتهر طيلة عصر المماليك اسم « ابن أبى الرداد » مختصا بمراقبة المقياس والبشارة بمناسيب الماء عنده . وأصل ابن أبى الرداد هذا ، يرجع إلى الفقيه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى الرداد المؤذن . وكان أصله من البصرة، قدم مصر وحدث بها. فلما بنى المتوكل مقياس الروضة عام ٢٤٧ هـ، أمر ألا يتولى أمره إلا رجل من المسلمين، فاختار القاضى بكار بن قتيبة ، ابن أبى الرداد لمراعاة المقياس ، وأجرى عليه الرزق . وقد توفى ابن أبى الرداد فى عام ٢٦٦ هـ ، وبقى عمله وراثيا فى عقبه ، فظلوا يتوارثونه واحدا بعد آخر .

هذا وكان للنداء بالزيادة أثرهام فى حياة الناس والدولة معا ، لأن الدولة تستحق جباية الخراج إذا بلغ الفيضان حدا خاصا . وإذا تأخر الفيضان عن موعده أرجف الناس وخافوا الشرق والجدب والغلاء ، وأمسك التجار ما فى يدهم من البضائع ، وإذا طغى الفيضان وزاد عن معتاده خشى الناس الغرق والبوار ، وخافوا انتشار الأوبئة فى أعقاب نكوصه . وهكذا .

والفيضان - كما ذكرنا - يقع فى صيف كل عام . وكانوا يضبطونه بالشهور القبطية لاطراد الحساب بها واتساق مواعيدها . ويبلغ النيل حد الوفاء عادة فى شهر مسرى . فإذا وفى تهيأ السلطان ورجاله والناس ، للاحتفال بعيد وفاء النيل . وتختلف

أبهة الاحتفال وعظمته والعناية به باختلاف الأيام والظروف والملابسات. ومهما يكن من شيء فقد جرت عادة الدولة أن يندب سلطانها من ينوب عنه فى ترأس هذا الاحتفال، فيفتح السد على مرأى منه. وجرت العادة أيضا أن يكون مندوب السلطان هو نائب السلطنة أو أتابك العسكر. وقد يندب أمير آخر غيرهما من عظماء الأمراء كالاستادار أو الدوادار، تبعا لملابسات الأحوال. وقل أن ذهب السلطان بنفسه لكسر السد. وممن ذهب بنفسه من السلاطين لكسره الظاهر برقوق عام ٨٠٠ هـ، والمؤيد شيخ المحمودى فى عام ٨١٦ هـ. والناصر محمد بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ والأشرف الغورى عام ٩١٧ هـ والظاهر خشقدم عام ٨٧٠ هـ، وعام ٨٧١ هـ وعام ٨٧٢ هـ. كما جرت العادة بأن يكون كسر السد نهارا لا ليلا. ولعل المرة الوحيدة التى كسر فيها السد ليلا هى المرة التى ذهب فيها الملك الناصر ابن قايتباى لكسره عام ٩٠٣ هـ وذلك لخوفه على نفسه من بعض المماليك.

ويركب السلطان أو مندوبه سفينة تتبعها سفن أخرى كثيرة تمتلىء برجال الدولة، وتدلف بهم السفن إلى ناحية المقياس، وإلى حيث يوجد السد فى أول الخليج الكبير، فيشاهدون المقياس ويخلق أحيانا، أى يطلى بالخلوق وهو عطر. ويكسر السد أمامهم، ثم يأكلون ويشربون ويلهون حينا بضروب من اللهو ثم يعودون.

ومن السفن التى اشتهرت بالاستخدام لهذا الغرض سفينة أطلق عليها «الحراقة»، وأخرى سميت «الذهبية»، ولبثت «الذهبية» السفينة الرسمية التى تركب فى هذه المناسبة زمنا. ثم أبطلت عادتها فى عهد الأشرف قايتباى (١). ويبدو أنها كانت سفينة ضخمة مجهزة خير تجهيز إذ قيل إن فيها ستين مجذافا. هذا ولعل تسمية

---

(١) راجع ابن إياس ج ٢ ص ٣٠١

« العوامات » ـ السفن العائمة ـ المعروفة فى القاهرة الآن باسم « الذهبيات » ذات صلة بهذه التسمية القديمة . وكان يطلق على السفن الأخرى التى تستخدم للعبور بين البرين أو للانتقال فى خلال النهر لفظ « العشاريات » .

وأهم المظاهر العملية للاحتفال بوفاء النيل ، كسر سد الخليج . أما الخليج فهو عبارة عن جدول متسع يستمد الماء من النيل زمن الفيضان . والمراد بالخليج هنا ، الخليج الكبير أو خليج مصر أو خليج القاهرة ، فكل هذه تسمية لخليج واحد كان يجرى فى ظاهر القاهرة . ومنهم من سماه خليج اللؤلؤة والخليج الحاكمى وخليج أمير المؤمنين . وقد كان بمصر خلجان على غراره عدة ، يجرى معظمها فى الوجه البحرى . ولكن الخليج الكبير هو الذى كان يعنى بكسر سده فى عيد الوفاء . أما السد فهو حاجز صناعى يسد به فم الخليج من ناحية النيل عندما يبتدىء النيل فى الفيضان تقوية لجسوره ، واحتفاظا به ليوم العيد . فاذا بلغ النيل ستة عشر ذراعا أو يزيد فى شهر مسرى احتفل بكسر هذا السد فتجرى المياه من النيل الى الخليج الكبير إلى غاية مداه وكان يتلو هذه العملية فتح السدود الاخرى للخلجان الاخرى فيجرى فيها الماء كذلك . وقد يحتفل بعض السلاطين بفتح سد آخر غير سد الخليج الكبير أو يعنى به على الاقل كسد خليج أبى المنجا أو سد قنطرة قديدار . . .

والاحتفال بكسر سد الخليج ، عنى به الفاطميون قبل المماليك ، بل وكان يومه يعد فى جملة أيامهم الهامة ، ولعل أبهة الاحتفال به فى زمن المماليك لم تبلغ فى أقصى مداها بعض ما بلغته فى زمن الفاطميين من ركوب الخليفة بنفسه لكسر السد فى أجمل ملبس وزينة ، وحوله رجال دولته . ثم بذل ضروب البر والصدقات وإلقاء الخطب والقصائد ومنح الخلع والعطايا ومد الولائم الحافلة .

ومهما يكن من شىء فقد لبث هذا الاحتفال من تقاليد الدولة فى عصر المماليك .

وكان السلاطين فى بعض السنين يأمرون بقراءة القرآن فى ليلة الاحتفال بجوار المقياس . وقد يأمرون القضاة الشرعيين بالمبيت هناك أيضا . فإذا تم الاحتفال فى الغد مدت الموائد وخلعت الخلع وأجريت الألعاب المختلفة. وفى يومه يخرج الناس فى سفن نيلية يرتادون بعض خلجان مصر أو يتجمهرون على جانبيها ويأخذون بأسباب اللهو والتمتع والعبث .

مما يذكر أن من العادات المتبعة حينئذ كتابة بشارات إلى آفاق الدولة بوفاء النيل المبارك واستحقاق الخراج . ويقوم بكتابتها موظفو ديوان الإنشاء الممتازون فيدبجونها بأسلوب أدبى رائع مطول . وهو نموذج من أدب هذا العصر . - كما ينظم الشعراء فى هذه المناسبة المقطوعات الكثيرة . وكذلك الزجالون والعوام ينظمون ويغنون .

ومما يذكر أيضا أن النيل إذا زاد ارتفاعه حتى خيف منه على البلاد ، صدر أمر السلطان إلى الأمراء والأعوان للتعاون فى ملافاة ذلك . فتقام السدود والحواجز وتقوى الجسور ، وتسهر الحراس والرقباء . وقد يستخدمون من أبناء البلاد من يصلح لهذا العمل بطريق السخرة فيصابون بضرر من وراء ذلك كثير . .

وإذا لم يف النيل فى موعد ، حتى يخاف الشرق والجفاف والغلاء ، يصدر أمر السلطان فيخرج القضاة والناس للاستسقاء ... أو لقراءة القرآن والحديث والدعاء ، طلبا للوفاء . وقد أفتى الشيخ أمين الدين يحيى الاقصرائى عام ٨٦٦هـ للسلطان خشقدم لما لم يف النيل ، بأن يستعين ببنى العباس صغارا وكبارا ، وأن يضعوا ماء فى أفواههم ، ثم يمجونه فى إناء ، ويرمى فى النيل . . ففعلوا فزاد . . .

وكما يستسقون طلبا للزيادة ، يستسقون طلبا للهبوط أحيانا ، إذا طغى الفيضان وزاد حتى خيف الضرر . كما وقع فى عام ٧٦١ هـ .

وفيما يلى نصوص تاريخية عن اهتمام المصريين فى العصر المملوكى بفيضان النيل - دون تحاريقه - والاحتفال بوفائه وكسر سده ، وما يتصل بذلك من حوادث وحالات . نقلا عن ابن إياس ، مع الاستعانة بغيره أحيانا ، ومع الإشارة إليه (١) وذلك على سبيل المثال على الاستيعاب .

أخبار فيضان النيل وما يتصل به

١ - كان يجبى من أهل مصر عند وفاء النيل ثمن الحلوى والفاكهة والشوى التى يمد بها السماط بجوار المقياس يوم الوفاء . فأبطل المنصور قلاوون ذلك وجعل نفقات السماط من بيت المال . ج ١ ص ١٢٠

٢ - بلغت الزيادت فى عام ٦٤٨ هـ ، ١٧ ذراعا وإصبعا . - وفى عام ٦٤٩هـ ، ١٨ ذراعا ، ١٨ إصبعا - وفى عام ٦٥٠ هـ ١٨ ذراعا ، ١٧ إصبعا - وفى عام ٦٥١ هـ ، ١٧ ذراعا و ١٧ إصبعا - وفى عام ٦٥٢ هـ ، ١٧ ذراعا ، ١٢ إصبعا - وفى عام ٦٥٣هـ ، ١٨ ذراعا - وفى عام ٦٥٤ هـ ، ١٨ ذراعا و ٣ أصابع - وفى عام ٦٥٥ هـ ١٧ ذراعا و ١٧ إصبعا - وفى عام ٦٥٦ هـ ، ١٧ ذراعا ، ٥ أصابع - وفى عام ٦٥٨ هـ ، ١٨ ذراعا و ١١ إصبعا . ن : ج ٧ ص ٢٢ إلى ٩٣

٣ - فى عام ٦٩٤ هـ : أوفى النيل فى السادس من أيام النسىء وبلغت الزيادة فى تلك السنة ١٦ ذراعا ، ١٧ إصبعا ، ثم هبط فوقع الغلاء وندر وجود القمح . وبلغ

---

١ - إذا نقلنا عن مرجع غير ابن إياس ، نصصنا عليه مشيرين إلى النجوم الزاهرة بحرف نون ، وحسن المحاضرة بحاء وسلوك المقريزى بسين ، وتقويم النيل بتاء . وقد التزم صاحب النجوم النص على مقدار الماء القديم ومقدار الزيادة ، عقب حوادث كل عام ، فليراجع ثمت . وقد أثبتنا عنه عشرة فيضات متتالية .

٢ - انظر الحديث عن حوادث القحط والغلاء فى الأبواب القادمة .

سعر كل أردب ثمانية مثاقيل ذهب ونصفا . ت . ج ١ ص ١٦٧

٤ - فى عام ٦٩٥ هـ : فى عهد العادل كتبغا ، شح النيل وقد وصل إلى اثنتى عشرة ذراعا ثم هبط فشرقت الأراضى . وزاد الغلاء وتعذر العيش على الناس ، حتى أكلوا الكلاب والقطط وسائر الدواب . ثم خف الأمر فى جمادى الآخرة . (١)

« ج ١ ص ١٣٣ »

٥ - فى سنة ٧٠٩ هـ : وقف النيل فى هذه السنة عن الوفاء فى ميعاده . واستمر كذلك إلى آخر مسرى : ودخلت أيام النسىء وهو فى توقفه . ثم أخذ فى النقصان ، فكثر الضجيج والصخب والخوف من الغلاء . وفعلا ارتفعت أثمان الغلات والخبز وخرج الناس للاستسقاء ، فاستسقى الخطيب نور الدين .

ثم رسم السلطان المظفر بيبرس بكسر السد ، من غير وفاء . إذ نقص النيل عن حد الوفاء ثلاث أصابع فكسر السد فى ٧ توت ، ولم يخلق المقياس حينئذ لأن التخليق لا يكون إلا بالوفاء . وفى ٢٧ توت نقص النيل نقصا عظيما وكان أقصى ارتفاع له فى هذا العام ١٥ ذراعا ، ١٧ إصبعا . فشرقت البلاد وأصابها الجدب واشتد الغلاء . « ج ١ ص ١٥٠ - ت . ج ١ ص ١٧١ »

٦ - فى سنة ٧١٧ هـ وفى النيل فى ٢٩ أبيب وزاد عن الوفاء نصف ذراع . فكسر السد بعد عصر اليوم المذكور خوفا من قوة عزم الماء . « ج ١ ص ١٦٠ »

٧ - فى ٧٢٤ هـ فى هـذه السنة تم حفر الخليج الناصرى إلى سريا قوس بأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون . - وهو غير الخليج الحاكمى .

قيل : لما أوفى النيل فى تلك السنة ودخل الماء إلى الخليج الناصرى كان له يوم

---

١ - انظر الحديث عن حوادث القحط والغلاء فى الأبواب القادمة .

مشهود ، ونزل السلطان الناصر ومعه أمراؤه يوم كسر السد . ج ١ ص ١٦٣

٨ - فى سنة ٧٦١ هـ : جاءت القاعـــدة ١٢ ذراعا ثم كان الوفاء فى ٦ مسرى ، وبلغت الزيادة إلى مايقرب من ٢٤ ذراعا فأصاب الناس الضرر ، واستسقوا لهبوطه حتى هبط بعدما مكث إلى آخر توت . « ج ٣ ص ٣٤ ، ٣٥ »

٩ - فى سنة ٧٧٥ هـ : فى هذه السنة توقف النيل عن الزيادة والوفاء . ثم هبط ونقص أصبعين . فضج الناس وماجوا . وغلت أسعار الغلال وقلت كمياتها ، واختفى الخبز من الأسواق . فرسم السلطان الأشرف شعبان بأن يخرج الناس للاستسقاء . وفى يوم الخميس ٢ ربيع الآخر خرجت جماهير منهم إلى الصحراء وبينهم العلماء والصالحون والرجال والنساء والأطفال والمسلمون واليهود والنصارى . ثم وفد الخليفة المتوكل على الله محمد ، والقضاة الشرعيون الأربعة وساروا خلف قبة النصر ، وأقاموا منبرا صعد إليه قاضى القضاة الشافعى شمس الدين بن القسطلانى وخطب خطبة بليغة فى الاستسقاء . ثم حول رداءه وكشف عن رأسه . ودعا الله تعالى أن يخفف عنهم هذا البلاء .

وفى اليوم التالى نقص ماء النيل مرة واحدة . . . فزادت الأسعار وبلغ ثمن الأردب من القمح ١٢٠ درهما ومن الشعير ٨٠ درهما . وهكذا ... واستمر الحال كذلك ، فاضطر السلطان والأمراء إلى بذل المعونة للناس والفقراء . . « ج ١ ص ٢٢٩ »

١٠ - فى سنة ٧٨٩ هـ : فى هذه السنة لم يصل النيل إلى حد الوفاء ثم نقصت زيادته واضطربت الأحوال وقلق الناس . ثم زاد مرة أخرى وبلغ حد الوفاء .

« ج ١ ص ٢٦٦ »

١١ - فى سنة ٨٩٧ هـ : فى هذه السنة وفى يوم السبت ٦ شوال الموافق آخر يوم من أبيب ، زاد النيل أربعين إصبعا فى يوم واحد .

وفى ثانى يوم أى فى أول مسرى زاد ٦٢ إصبعا . فبقى إلى الوفاء ذراعان . وفى ٣ مسرى زاد ٥٠ إصبعا فبلغ حد الوفاء وزاد إصبعين . وكانت جملة زيادته فى أربعة الأيام سبع أذرع ونصف ذراع وإصبعين .

وكان وفاؤه فى ٣ مسرى . ـ وزيادته تلك لم يعهد مثلها فى السنين الماضية .

« ج ١ ص ٣٠٤ » .

١٢ ـ فى سنة ٨٠٠ هـ : فى يوم الأحد ١٩ من ذى القعدة كان وفاء النيل المبارك ، فنزل السلطان برقوق من القلعة إلى ناحية المقياس ليخلق العمود ويكسر السد فدخل إلى المقياس وخلق العمود ثم نزل إلى الحراقة لكسر السد فكسره .

« ج ١ ص ٣١٠ » .

١٣ ـ فى سنة ٨٠١ هـ : بينما كان السلطان فرج بن الظاهر برقوق يجلس على عرشه فى أول عهده إذ جاءه ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك فاستبشر الناس بذلك .

« ج ١ ص ٣١٧ » .

١٤ ـ فى سنة ٨٠٣ هـ : وقف النيل دون الزيادة . فانتشر الغلاء وقلت الغلال ثم زاد النيل فى يوم واحد ٤٨ إصبعا ، وبقى إلى الوفاء ١٦ إصبعا . وبعد قليل أوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع .

« ج ١ ص ٣٤٠ » .

١٥ ـ فى سنة ٨١٣ هـ : انتهت زيادة النيل إلى ٢١ ذراعا . وكان الوفاء أول مسرى .

« ج ١ ص ٣٥٤ » .

١٦ ـ فى سنة ٨١٤ هـ : وفى النيل فى أول مسرى . وبلغت الزيادة ٢٢ ذراعا وإصبعا من الثالثة والعشرين . فغرقت البساتين وانقطعت الطرق وتأذى الناس .

« ج ١ ص ٣٥٤ » .

١٧ ـ فى سنة ٨١٦ هـ : قال ابن حجة الحموى : « وفى النيل المبارك فى سنة ٨١٦ هـ

فى أوائل مسرى . فنزل الملك المؤيد وخلق المقياس ، وكسر السد على العادة . وذلك قبل أن يتوجه إلى دمشق بسبب نوروز - أى نوروز الحافظى الذى شق عليه عصا الطاعة - فأنشدته فى ذلك اليوم مهنئا :

أيا ملكا بالله صار مؤيدا ومنتصبا فى ملكه نصب تميز

كسرت بمسرى سد مصر وتنقضى وحقك بعد الكسر أيام نوروز

فكان الفأل بالنطق . «ج ٢ ص ٤»

١٨ - فى سنة ٨١٨ هـ : كان الملك المؤيد شيخ يتباهى فى يوم كسر النيل المبارك . ويلزم الأمراء المقدمين بأن كل واحد منهم يزين له « حراقة » . ويجعل فيها الصناجق والكئوسات . فإذا وفى النيل يعدون له « الذهبية » فى بولاق . ويتوجه إلى المقياس يخلق العمود ويكسر السد . والأمراء المقدمون حوله فى « الحراريق » المزينة ، حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب . ويكون له يوم مشهود لم يسمع بمثله فيما تقدم . وقد فاق فى ذلك ما كان يصنعه أستاذه برقوق «ج ٢ ص ٥»

١٩ - فى سنة ٨٢١ هـ : لم يف النيل فى ميعاده ، وزاد الغلاء . فنزل الملك المؤيد للاستسقاء ، ولبس جبة من الصوف الأبيض وعلى رأسه عمامة صغيرة جدا بعذبة مرخية خلفه . وعلى كتفه مئزر من صوف أبيض . وركب فرسا بغير قماش حريرى ولا سرج ذهبى . وذبح هناك بيده أغناما وأبقارا ، وفرقها على الفقراء . وفرق فى ذلك اليوم على الفقراء ثلاثين ألف رغيف . وصلى على الرمل من غير سجادة . وتواضع لله . فزاد النيل ، ووفى فى أواخر توت . ثم هبط بسرعة . وشرق أكثر البلاد ، واستمر الغلاء بمصر ، وعزت الأقوات سنة كاملة (١)

---

(١) هذه الحوادث ذكرها صاحب تقويم النيل فى عام ٨٢٣ هـ . وذكر فى عام ٨٢١ هـ أن النيل وفى ، وفتح السلطان السد .

« ج ٢ ص ٦ »

٢٠ - فى سنة ٨٢٤ هـ : زاد النيل زيادة مفرطة . وثبت إلى آخر هاتور ، ولم يعهد هذا من قبل فى الإسلام . وأصاب الناس الضرر . وكثرت البرك والمستنقعات وغرقت البساتين وأوذيت الزروع وسدت الطرقات . وبلغت الزيادة ٢٠ إصبعا من ١٩ ذراعا . « ج ٢ ص ١٢ - ت . ج ١ ص ٢٠٩ - تاريخ الخلفاء ص ٢٢٩ »

٢١ - فى سنة ٨٢٦ هـ : وفى النيل فى ١٨ أبيب ، فكأنه تقدم عن ميعاده أياما . وقيل فى « ت » أوفى فى ٦ مسرى . « ج ٢ ص ١٧ - ت ج ١ ص ٢١١ »

٢٢ - فى سنة ٨٣٨ هـ : ارتفع النيل ١١ ذراعا و ١٠ أصابع . ثم وفى فى ٢ مسرى . وبلغت الزيادة ٢٠ إصبعا من الذراع العشرين وثبت إلى أواخر بابه . وفتح السد الجمالى يوسف بن السلطان برسباى . « ج ٣ ص ٣٥ - ت . ج ١ ص ٢١٣ »

٢٣ - فى سنة ٨٤٥ هـ : كان وفاء النيل فى ١٤ أبيب « ج ٢ ص ٢٨ » .

٢٤ - فى سنة ٨٥٣ هـ : وقف النيل عن الزيادة والوفاء ثلاث أصابع وقيل أربع . ولبث كذلك أياما لم يزد شيئا . فرسم السلطان بأن يخرج الناس للاستسقاء فخرج القضاة الأربعة وأمير المؤمنين المستكفى بالله سليمان ، ومشايخ العلم والصلحاء والأعيان ، ولم يصحبهم السلطان فتألم الناس . وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رءوسهم المصاحف . واليهود وعلى رءوسهم التوراة . والنصارى وعلى رءوسهم الإنجيل . ومعهم أبقار وأغنام . وكثير من الرجال والنساء والأطفال الرضع . وهم يقولون : يا الله ارحمنا ! ويمموا الصحراء عند الجبل الأحمر وأقاموا منبرا ، صعد عليه قاضى قضاة الشافعية شرف الدين يحيى المناوى . فخطب خطبة الاستسقاء فلما أراد أن يحول رداءه سقط الرداء إلى الأرض فتطير الناس من ذلك ! فلما

رجعوا من الاستسقاء طلع ابن أبى الرداد ، ومعه رايات زعفران ! ونادى بزيادة إصبع ! ففرح الناس بذلك ! وأنعم عليه السلطان بمائة دينار . ثم إن النيل نقص بعد فى تلك الليلة أصبعين وبقى إلى الوفاء ثمانية أصابع . فرسم السلطان بكسر السد فكسر . فلم يجر الماء فى الخليج إلا قليلا . وأخذ النيل فى النقص بعد ذلك . وقد أصيب الناس من وراء ذلك شر إصابة ، فماتت البهائم وأجدبت الأرض وزاد الغلاء (١)

« ج ٢ ص ٣١ »

٢٥ - فى سنة ٨٥٧ هـ : وفى النيل فى ٢٣ مسرى (فى رجب) ، فكسر السد المقر الشهابى أحمد بن إينال ، وهذه أول مرة يفتح السد . « ج ٢ ص ٤٣ »

٢٦ - فى سنة ٨٥٨ هـ : وفى النيل فى ١٣ مسرى (فى شعبان) ففتح السد المقر الشهابى أحمد بن إينال . « ج ٢ ص ٤٧ »

٢٧ - فى سنة ٨٥٩ هـ : فى شهر شعبان كان وفاء النيل . وقد أوفى فى ١٥ مسرى ونزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان إينال وفتح السد . وبعد أيام زاد النيل زيادة مفرطة حتى قطعت الجسور وغرقت بلاد كثيرة ثم انخفض الماء بسرعة حتى شرقت الأرض البعيدة العالية وارتفعت أسعار القمح بسبب ذلك « جزء ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ »

٢٨ - فى سنة ٨٦٠ هـ : وفى النيل فى ٦ مسرى (شعبان) . وفتح السد الشهابى أحمد بن إينال . « ج ٢ ص ٥٦ »

٢٩ - فى سنة ٨٦٦ هـ : لم تبد زيادة فى النيل فى هذه السنة فى شهر أبيب إلا أوائلها فقط . أى أوائل الزيادة . وظل كذلك ١٥ يوما ، فضج الناس وافتضح خوفهم وارتفعت الأثمان . فرسم السلطان خشقدم للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا هناك ، ويتلوا القرآن والحديث الشريف ويتوجهوا

---

(١) هذه رواية ابن إياس . وذكرها صاحب تقويم النيل فى عام ٨٥٤ هـ .

إلى الله بالدعاء لزيادة النيل . فتوجه القاضى يحيى المناوى والسيد الشريف ابن حريز المالكى وجماعة من العلماء ، فأقاموا فى المقياس أياما ورجعوا ولم يزد النيل ! فأرسل السلطان إلى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى يستفتيه فى ذلك . فقال الشيخ أمين الدين : اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء من صغارهم لكبارهم ! ثم يضعون فى أفواههم شيئا من الماء ويمجونه فى إناء ، ثم يصبونه فى فسقية المقياس ! ففعلوا ذلك . فكان فيه البركة !

ثم إن القاضى علم الدين صالحا البلقينى توجه إلى المقياس ، وأقام هناك ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع زاد النيل ثلاث أصابع . ففرح الناس بذلك . ورجع القاضى علم الدين وشق من القاهرة وأمامه الأعلام وحوله الهتاف . ثم وفى النيل وثبت ثباتا طويلا فى زيادته إلى أواخر توت ، وتوجه المقر السيفى قانم التاجر وكسر السد . وقيل فى « ت » هم السلطان بهدم المقياس حتى لا يعلم الناس الزيادة أو النقصان فثبطه الأقصرائى . « جزء ٢ ص ٧٤ ، ٧٥ ـ ت ج ١ ص ٢٢٣ »

٣٠ ـ فى سنة ٨٧٠ هـ : وفى النيل . فنزل السلطان خشقدم بنفسه وكسر السد وخلق المقياس . « ج ٢ ص ٨٠ »

٣١ ـ فى سنة ٨٧١ هـ : كسر السلطان خشقدم السد . وقيل فى « ت » نقلا عن « ن » إن هذه السنة خلت فى الوفاء « جزء ٢ ص ٨١ . ت . ج ١ ص ٢٢٥ »

٣٢ ـ فى سنة ٨٧٢ هـ : وفى النيل هذا العام فنزل خشقدم كعادته وفتح السد وهذه آخر مرة يفتحه فيها « ج ٢ ص ٨١ »

٣٣ ـ فى سنة ٨٧٣ هـ : بعد أن وقف النيل عن الزيادة فى موعده مدة ، وفى فى شهر المحرم . فأنيب الأمير قرقماس الجلب أمير مجلس فى فتح السد . وكان سلطان العصر الأشرف قايتباى . « ج ٢ ص ٩٩ ، ١٠٠ »

٣٤ - فى سنة ٨٧٤ هـ : فى يوم عيد النحر عام ٨٧٣ هـ جاءت بشارة المبشر بارتفاع النيل . وفى شهر صفر عام ٨٧٤ هـ كان وفاؤه . وقد وافق ٢٤ مسرى . فلما وفى نزل الأمير لاجين الظاهرى أحد مقدمى الألوف وفتح السد .
« ج ٢ ص ١١٠ ، ١١٣ »

٣٥ - فى سنة ٨٧٥ هـ : فى شهر صفر كان وفاء النيل ووافق ٢٢ مسرى . وقام بكسر السد الأتابكى قلقسير الذى كان حينئذ أمير سلاح بعد زوال أتابكيته . أما أتابكى العصر فقد كان أزبك بن ططخ ، وكان وقت كسر السد غائبا فى البحيرة .
« ج ٢ ص ١٢٢ »

٣٦ - فى سنة ٨٧٦ هـ : بشر بزيادة النيل فى أول المحرم من السنة المذكورة . فتفاءل الناس بذلك . وفى شهر صفر كان وفاؤه ، ووافق ٢٦ مسرى . فقام الأتابكى أزبك بفتح السد . « جزء ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ».

٣٧ - فى سنة ٨٧٧ هـ : وفى النيل فى ٢١ مسرى (ربيع الأول) . وفتح السد الأتابكى أزبك بن ططخ . « ج ٢ ص ١٣٧ » .

٣٨ - فى سنة ٨٧٨ هـ : وفى النيل فى شهر ربيع الأول . ووافق ٥ مسرى . فذهب الأمير لاجين الظاهرى أمير مجلس وفتح السد . وفى ذلك اليوم زاد النيل ١٢ إصبعا بعد ١٧ ذراعا . وكانت زيادته ثلاث أذرع فى ستة أيام « ج ٢ ص ١٤٧ »

٣٩ - فى سنة ٨٧٩ هـ : وفى النيل فى شهر ربيع الأول . وكان قد توقف أياما وقلق الناس لوقوفه . ووافق ٢٠ مسرى . ففتح الأتابكى أزبك بن ططخ السد . « جزء ٢ ص ١٥١ »

٤٠ - فى سنة ٨٨٠ هـ : وفى النيل فى شهر ربيع الثانى . ووافق يوم وفائه يوم ١٢ مسرى . وقام الأتابكى أزبك بفتح السد . « ج ٢ ص ١٥٩ » .

٤١ - فى سنة ٨٨١ هـ : وفى النيل فى شهر ربيع الثانى . وكان وفاؤه فى ٣ مسرى . وفتح السد الأتابكى أزبك . «ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧»

٤٢ - فى سنة ٨٨٢ هـ : فى شهر ربيع الثانى كان وفاء النيل . ووافق آخر شهر أبيب . وكسر السد فى أول مسرى . وقد قام الأمير لاجين الظاهرى أمير مجلس بكسره . وفى جمادى الأولى انتهت زيادته إلى عشرين ذراعا وإصبع واحدة . وثبت كذلك الى آخر بابه . وقد كسر الجسور وقطع الطرقات وأغرق المنيا لارتفاعه . «ج ٢ ص ١٧٤ ، ١٧٥»

٤٣ - فى سنة ٨٨٣ هـ : فى شهر ربيع الثانى وفى النيل . وكان وفاؤه فى ٤ مسرى فتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد . وفى نفس الليلة زاد عن الوفاء ١٢ إصبعا . وفى ثانى يوم كسر سده زاد ١٦ إصبعا . وأكمل الذراع السابعة عشرة فى يومين ، ويستفاد مما ذكره ابن إياس فى سنة ٨٨٤ هـ أنه بلغ ٢٠ ذراعا و ٢٠ إصبعا . «جزء ٢٠ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠»

٤٤ - فى سنة ٨٨٤ هـ : فى ٣ جمادى الأولى كان وفاء النيل . ووافق ٢٩ أبيب وكسر السد فى آخر أبيب على مرأى من الأتابكى أزبك وبعد يومين زاد النيل عشرين إصبعا ، فبلغ بذلك الذراع السابعة عشرة وست أصابع . واطردت زيادته بعد ذلك حتى بلغ عشرين ذراعا وعشرين إصبعا وثبت على ذلك فى جمادى الآخرة . فوافق بذلك مقدار ارتفاعه فى العام الماضى . «جزء ٢ ص ١٨٨ ، ١٩٠»

٤٥ - فى سنة ٨٨٥ هـ : فى جمادى الآخرة كان وفاء النيل وقام بكسر السد الأتابكى أزبك بن ططخ . «جزء ٢ ص ١٩٧»

٤٦ - فى سنة ٨٨٦ هـ : فى جمادى الآخرة كان وفاء النيل . ووافق ١٥ مسرى . وقام بفتح السد الأمير أزبك السيفى . «جزء ٢ ص ٢٠٦»

٤٧ - فى سنة ٨٨٧ هـ : فى جمادى الآخرة كان وفاء النيل . وفتح السد الأتابكى أزبك بن ططخ . «جزء ٢ ص ٢١٤»

٤٨ - فى سنة ٨٨٨ هـ : فى ربيع الآخر ارتفع النيل إلى ٦ أذرع وأربع أصابع وقد وفى النيل فى جمادى الآخرة . ووافق يوم ١٢ مسرى . وفتح السد الأتابكى أزبك . «جزء ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩»

٤٩ - فى سنة ٨٨٩ هـ . جاء شهر جمادى الآخرة والنيل متوقف عن الزيادة حتى قلق الناس ، ثم زاد ، واطردت زيادته حتى وفى فى شهر رجب . ووافق يوم وفائه يوم ٢٢ مسرى . وقد قام الأتابكى أزبك بن ططخ بفتح السد . وبعد أيام فى شعبان انخفض انخفاضا سريعا . ثم ثبت على الأصبع الثانية والعشرين من الذراع الثامنة عشرة . قيل: فشرقت بلاد كثيرة وزاد سعر القمح . وقد تأثرت أسعار البضائع فى السنة التالية تبعا لذلك. وفى شهر رمضان عاد الى الزيادة زيادة مفرطة بغير أوان ودخلت مياهه الخليج بعد أن جف ماؤه . فكان ذلك مثارا لعجب الناس ولكن رى الأرض كان قد اضطرب فلم تفد الزيادة فى ذلك الحين . «ج ٢ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤»

٥٠ فى سنة ٨٩٠ هـ : فى جمادى الأولى أخذ النيل فى الارتفاع حتى بلغ ثمانى أذرع وعشرين إصبعا . وفى ٢ شعبان كان وفاؤه موافقا ٢٠ مسرى . وفتح السد الاتابكى أزبك بن ططخ . وفى ذى القعدة فى يوم ١٣ هاتور زاد النيل زيادة مفرطة تقرب من ذراع . فأثارت عجب الناس . «ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١»

٥١ - فى سنة ٨٩١ هـ : فى شعبان تم وفاء النيل . ووافق وفائه يوم ١٢ مسرى . فتوجه الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وذلك لغياب الأتابكى أزبك فى حملة . وقد زاد النيل فى اليوم المذكور ٢٠ إصبعا من الذراع السابعة عشرة ، واطردت زيادته بعد الوفاء ثلاثة أيام متوالية حتى بلغت ٩٩ أصبعا . «ج ٢ ص ٢٣٧»

٥٢ - فى سنة ٨٩٢ هـ : هل رجب والنيل متوقف عن الزيادة واستمر أياما ثم زاد واطردت زيادته حتى بلغ حد الوفاء فى شهر شعبان ، موافقا ١٢ مسرى . . ففتح

الاتابكى أزبك بن ططخ السد فى اليوم المذكور . « ج ٢ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ »

٥٣ ـ فى سنة ٨٩٣ هـ : فى شعبان وفى النيل موافقا فى وفائه يوم ١١ مسرى . ففتح السد الأمير أقبردى الدوادار لغياب الأتابكى أزبك . وهذه هى المرة الوحيدة التى فتح فيها الأمير أقبردى السد « ج ٢ ص ٢٥٣ »

٥٤ ـ فى سنة ٨٩٤ هـ : وفى النيل فى آخر شعبان . وفتح السد فى أول رمضان موافقا ٦ مسرى بحضور الأتابكى أزبك . « ج ٢ ص ٢٦١ »

٥٥ ـ فى سنة ٨٩٥ هـ : جاءت البسارة ببدء الزيادة فى شعبان . وبلغت فيه سبع أذرع إلا ثمانى أصابع . وفى ١٠ رمضان كان وفاؤه موافقا ٤ مسرى . ونزل الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وقد زاد فى ٣ مسرى ٣٣ أصبعا مرة واحدة « ج ٢ ص ٢٦٥ »

٥٦ ـ فى سنة ٨٩٦ هـ : فى شوال ليلة عيد الفطر كان وفاء النيل المبارك . فأمر السلطان بفتح السد فى ٢ شوال وكان ذلك فى ١٥ مسرى . « ج ٢ ص ٢٧١ »

٥٧ ـ فى ٨٩٧ هـ : قال ابن إياس : إن النيل وفى هذه السنة فى ذى العقدة وفتح السد الأتابكى أزبك . ويفهم من هذا أنه تأخر شهرا تقريبا أو ثلاثة أسابيع على الأقل من ميعاده فى السنة الماضية . وهذا كثير . فلعله أخطأ فى ذكر الوفاء فى شعبان . وكان أحق بذكره فى شوال . . . أو لعل النيل تأخر هذه المدة كلها ـ كما أنه لم يذكر التاريخ القبطى . « ج ٢ ص ٢٧٧ »

٥٨ ـ فى سنة ٨٩٨ هـ : فى شوال كان وفاء النيل موافقا ١٢ مسرى . وفتح السد الاتابكى أزبك ، وكان قبيلها مشغولا بالحجاج فى بركة الحاج . فلما علم الوفاء سار تحت جناح الليل لفتح السد فى الغد ثم عاد . « ج ٢ ص ٢٧٩ »

٥٩ ـ فى سنة ٨٩٩ هـ : فى ذى القعدة : وفى النيل بعد وقوفه مدة فاضطربت الأسواق . ولما وفى آخر الشهر فتح الاتابكى أزبك السد « ج ٢ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ »

٦٠ - فى سنة ٩٠٠ هـ : فى ذى القعدة وفى النيل . وفتح الأتابكى أزبك السد . وهذه آخر مرة له يفتح السد فيها « جـ ٢ ص ٢٨٨ »

٦١ - فى سنة ٩٠١ هـ : وفى النيل فى ذى القعده فرسم السلطان للأمير الكبير تمراز بفتح السد وخلع عليه خلعة . . فتم فتح السد والناس يسودهم الاضطراب من ناحية مرض السلطان ومن ناحية الفتن الكثيرة الناشئة بسبب المماليك ومطالبهم وبسبب الأمير أقبردى . وهذه آخر سنة يأمر فيها قايتباى بفتح السد إذ توفى فى ١٧ ذى القعدة المذكور . « جـ ٢ ص ٢٩٦ »

٦٢ - فى سنة ٩٠٢ هـ : كان السلطان هو الناصر بن قايتباى . ولما بلغ النيل أيام الوفاء المعتادة لم يف . ووقف عن الزيادة . وكانت القاهرة إذ ذاك تموج فى فتنها . وظل كذلك حتى يوم الاثنين ٢٢ من ذى الحجة الموافق ٢٧ مسرى فبلغ حد الوفاء . وكان الأمير أقبردى الدوادار متغلبا على القاهرة فى ذاك الوقت . ففوتح فى مسألة كسر السد فبعث من لدنه والى القاهرة لهذا الغرض بعد يوم الوفاء بيوم أعنى يوم ٢٨ مسرى ، فوجد أن الشيخ عبد القادر الدشطوطى قد فتح منه جانبا . . فأجهزوا على البقية ولم يصحب الاحتفال بفتح السد بهجة ولا روعة ولا سرور ولم يخرج الناس لمشاهدته والتفرج به نظرا لفشو الفتن والاضطراب ، وبعد أيام انخفض ماء النيل بسرعة وأصيبت بلاد بالجفاف العاجل ونجم عن ذلك ضرر كثير وغلاء . « جـ ٢ ص ٣٢٧ »

٦٣ - فى سنة ٩٠٣ هـ : ناسب وفاء النيل فى هذه السنة أن جاء فى أوائل السنة الهجرية التالية لها إذ فى ٤ المحرم عام ٩٠٤ هـ الموافق ١٩ مسرى . وكان السلطان الناصر ابن قايتباى عقد النية على أن يفتح السد بنفسه فمنعه الامراء خوفا عليه من الفتن القائمة . ولكنه مالبث بعد أن صلى العشاء أن نزل من القلعة على حين غفلة وأمامه المصابيح

والمشاعل ومعه أولاد عمه ونحو مائة من الخاصكية ، وسار إلى السد لفتحه بالليل . وهذه هى المرة الوحيدة - أو لعلها - التى فتح فيها السد ليلا . - وبعد تمام الفتح ذهب إلى سد قنطرة قديدار ففتحه أيضا . ثم عاد إلى القلعة تحت جنح الليل . فلما أصبح الصباح وجد الناس الماء يملأ الخلجان والبرك والقنوات فثار عجبهم .

«جزء ٢ ص ٢٤٥»

٦٤ فى سنة ٩٠٤ هـ : رأينا كيف وقع وفاء النيل عام ٩٠٣ هـ : فى المحرم عام ٩٠٤ هـ . وذلك لاختلاف السنين القبطية والعربية إذ الأولى مطردة إذا قيس بها ارتفاع النيل . والثانية لا اطراد لها فى ذلك . أما وفاء عام ٩٠٤ الهجرى فقد بدأت زيادته فى شهر ذى الحجة . وكانت زيادته فى ٣ مسرى ثلاثين إصبعا . وفى ٤ مسرى أربعين إصبعا . وفى ٥ مسرى عشرين إصبعا . وبلغ حد الوفاء فى ٥ مسرى . وفتح السد فى ٦ مسرى الموافق ٢١ من ذى الحجة عام ٩٠٤ هـ . وقد رسم السلطان للامير طومان باى الدوادار الكبير بفتح السد . - وطومان باى هو الذى ملك فيما بعد وتلقب بالعادل - وكانت الأتابكية إذذاك شاغرة . وكان السلطان قانصوه بن قانصوه .

«جزء ٢ ص ٣٦٠»

٦٥ - فى سنة ٩٠٥ هـ : وقع وفاء النيل هذه السنة أيضا فى أوائل السنة الهجرية التالية أى عام ٩٠٦ هـ . ففى يوم السبت ٥ المحرم الموافق ٨ مسرى بلغ النيل حد الوفاء . وكسر السد فى يوم الأحد ٦ المحرم . وقام بفتحه الأمير طومان باى الدوادار إذ ذاك . فسار فى أبهة وعظمة . وفرق على المدعوين كثيرا من الحلوى والفاكهة . ونثر على العوام دراهم من فضة وكان السلطان إذذاك الأشرف جان بلاط . . فلعل طومان باى كان بذلك يمهد لنفسه السبيل إلى السلطنة . . .

«جزء ٢ ص ٣٧٤»

٦٦ - فى سنة ٩٠٦ هـ : فى أوائل هذه السنة كان النيل قد وفى وفاءه وفتح السد

فى ٦ المحرم كما ذكرنا فى سنة ٩٠٥ هـ . ولم يقع وفاء النيل فى تلك السنة غير هذا . إذ الوفاء التالى وقع فى السنة التالية أى عام ٩٠٧ هـ .

٦٧ - فى سنة ٩٠٧ هـ : فى ١٨ المحرم الموافق ٩ مسرى كان وفاء النيل . وخشى الأتابكى قيت الرحبى أن يسير لفتح السد فبعث مكانه الأمير مغلباى الشريفى الزردكاش - وكانت السلطنة قد آلت إلى الأشرف الغورى منذ السنة الماضية . وفى ربيع الأول انتهت زيادة النيل إلى سبع عشرة إصبعا من الذراع العشرين . واستمر ثابتا إلى نصف بابه . «جزء ٤ فى التواريخ المذكورة» .

٦٨ - فى سنة ٩٠٨ هـ : فى يوم الخميس ٢٣ المحرم الموافق ٤ مسرى زاد النيل أربعين إصبعا فى يوم واحد . وفى يوم الجمعة ٥ مسرى زاد عشرين أخرى . وبلغ حد الوفاء فى يوم الأحد ٨ منه ، وزاد عنه إحدى عشرة إصبعا . وتم فتح السد يوم الاثنين ٩ مسرى الموافق ٢٧ المحرم . - قال ابن أياس : «وهو سابق النيل الماضى بيوم واحد .» مع أن وفاء العام الماضى كان فى ١٨ المحرم - كما قال - لا ٢٨ منه ... وقد قام بفتح السد الأتابكى قيت الرحبى .

ثم قال : «والفضل بينهما سبعة عشر إصبعا» . أى زادها النيل فى هذه السنة عن السنة الماضية . «جزء ٤ ص ٣٦»

٦٩ - سنة ٩٠٩ هـ : فى صفر وفى ٩ مسرى كان وفاء النيل . فتوجه الأمير سودون العجمى أمير مجلس وفتح السد . وكان الأتابكى قيت غائبا فى الحج .

«جزء ٤ فى التاريخ المذكور .»

٧٠ - فى سنة ٩١٠ هـ : فى ٧ ربيع الأول الموافق ٢٥ مسرى وفى النيل متأخرا عن العام الماضى ١٧ يوما . ولكنه زاد خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة . وقد فتح الأتابكى قيت الرحبى السد . وفى ربيع الآخر ثبت النيل على ١٣ إصبعا

١٩ ذراعا وثبت كذلك إلى ٢٨ توت » جزء ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة . »

٧١ - فى سنة ٩١١ هـ : فى المحرم أخذ النيل فى الارتفاع ، حتى بلغ سبع أذرع وفى ربيع الأول فى يوم السبت ٢ منه كان وفاء النيل ووافق ذلك يوم ٩ مسرى . فتوجه الأتابكى قرقماس لفتح السد . وقد أوفى وزاد على وفائه ثلاث أصابع . . . وكانت مياهه كثيرة عالية . ولم يقف النيل منذ بدء زيادته بل اطردت . وفى جمادى الأولى ثبت ارتفاعه على ١١ إصبعا من عشرين ذراعا . واستمر كذلك ثابتا إلى آخر بابه . وكان نيلا مباركا . » جزء ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة » .

٧٢ - فى سنة ٩١٢ هـ : فى ٢٨ المحرم حمل ابن أبى الرداد بشارة ارتفاع النيل حيث بلغ سبع أذرع وعشر أصابع . فهو أرجح منه فى العام الماضى فى مثل هذا الميعاد بنحو عشرة أصابع . وفى ٢٠ ربيع الأول كان وفاؤه . ووافق ٢٠ مسرى أيضا : وكسر السد فى ٢١ منه بحضور الأتابكى قرقماس بن ولى الدين . وفى جمادى الأولى ثبت على ١٩ ذراعا وأصبعين من عشرين ذراعا .

« جزء ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة » .

٧٣ - فى سنة ٩١٣ هـ : فى صفر طلع ابن أبى الرداد ببشارة الزيادة . وكانت سبع أذرع بلغتها فى الارتفاع . وفى ١٩ ربيع الأول تم وفاء النيل ووافق ١٠ مسرى وفتح السد فى ١١ منه بحضور الأتابكى قرقماس بن ولى الدين . وكان النيل قد استمر فى الزيادة حتى ٦ مسرى فزاد دفعة واحدة فى ذلك اليوم ثلاثين إصبعا . وفى يوم ٧ منه زاد عشرين أخرى . وفى ٨ منه زاد عشرين أخرى . فبلغت زيادته سبعين إصبعا فى ثلاثة أيام . واستمرت زيادته حتى بلغ حد الوفاء .

« جزء ٤ فى سياق التواريخ المذكورة » .

٧٤ فى سنة ٩١٤ هـ : فى صفر جاء ابن أبى الرداد ببشارة زيادة النيل إلى السلطان

وبلغ الارتفاع ست أذرع وعشر أصابع . فكان أكثر ارتفاعا من مثله فى العام الماضى . ثم وقف عن الزيادة زمنا . ثم زاد فى ١١ مسرى خمسين إصبعا دفعة واحدة فرسم السلطان الغورى لقضاة الشرع بالتوجه إلى المقياس للمبيت هناك فتوجهوا . واجتمع هناك قراء المدينة . . لقراءة القرآن . . ثم أمر السلطان بمد الموائد وتقديم الأطعمة الشهيه . فكانت تلك الليلة حافلة آهلة .. وفى ١٢ مسرى زاد النيل ٢٠ إصبعا. وفى ١٣ منه عشرين أخرى . فبلغت زيادته فى ثلاثة أيام تسعين إصبعا . . . قال ابن إياس : وذلك ما لم يقع من مبتدأ الإسلام سوى مرتين منها مرة فى دولة الظاهر برقوق سنة ٧٩٧ هـ . . فإنه زاد فى أول مسرى ٦٢ إصبعا ، وفى ٣ منه ٥٠ إصبعا . فكانت زيادته فى ٤ أيام ٧ أذرع ونصفا واصبعين . . . . والمرة الثانية فى دولة الأشرف برسباى سنة ٨٢٥ هـ فإنه زاد فى يوم واحد ٥٠ إصبعا دفعة واحدة..»(١)

هذا وقد قام بفتح السد يوم ١٤ مسرى الأتابكى . قرقماس

«جزء ٤ فى سياق حوادث التواريخ المذكورة هنا »

٧٥ - فى سنة ٩١٥ هـ : فى ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد إلى السلطان ببشارة النيل . وبلغ الارتفاع ست أذرع و١٨ أصبعا . فكان أربى من العام الفائت فى مثل هذا الميعاد بثمانى أصابع . وفى ربيع الثانى انقطع جسر أم دينار بالجيزة . وكان ذلك فى ليالى الوفاء فتعاون الأمراء بأمر السلطان على إصلاحه . فسخروا كثيرا من الناس فى هذا العمل . واتبعوا معهم ضروبا من القسوة والإرهاق . فكانوا يقبضون عليهم فى الطرقات ويسوقونهم فى القيود إلى محل العمل ، ومع ذلك لم يجيدوا سده وإعادته إلى ما كان عليه على الرغم من إعيائهم .

---

(١) ذكر ابن إياس فى سياق حوادث سنة ٧٩٧ هـ ، هذه الزيادات كما ذكرها هنا . أما فى سنة ٨١٥ هـ فلم يشر إلى النيل بكثير أو قليل .

وفى جمادى الآخرة ثبت النيل على ٢٢ إصبعا من ١٩ ذراعا . وقد ثبت على ذلك إلى أواخر بابة . وكان النيل عاليا ومباركا . وظل ثابتا إلى نصف هاتور . ثم زاد فيه ثمانى أصابع حتى عد ذلك من النوادر الغريبة . . ! ولما اشتدت زيادته رسم السلطان للقضاة الأربعة بالتوجه إلى المقياس ليدعوا الله تعالى فى انخفاضه ، ففعلوا فانخفض فى تلك الليلة نحوا من نصف ذراع ! «ج ٤ حوادث التاريخ المذكورة»

٧٦ - فى سنة ٩١٦ هـ : فى يوم الخميس ١٣ ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وارتفع إلى ٧ أذرع بزياة عشر أصابع عن العام الماضى . وفى ٢ جمادى الأولى قرئت ختمة فى المقياس بأمر السلطان كما مدت الأسمطة الحافلة وقدمت الأطعمة الشهية . وحضر القضاة وأعيان الناس . وسبب ذلك أن البحر استمر فى الزيادة . ومضى من مسرى ١٦ يوما ولم يف . . فلما توجه القضاة إلى ناحية المقياس زاد النيل فى تلك الليلة ثمانى أصابع . وفى الليلة التالية زاد ١٥ إصبعا واستمرت الزيادة حتى بلغ حد الوفاء فى ٢٠ مسرى . وفى يوم ٢١ منه الموافق ٨ جمادى الأولى فتح السد . وقد تأخر الوفاء عن العام الماضى ٧ أيام . فلما وفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد . وهذه آخر مرة للأتابكى قرقماس يفتح فيها السد لأنه توفى فى أواخر هذه السنة . وفى جمادى الآخرة ثبت النيل على ٢١ إصبعا من ١٨ ذراعا . وانخفض فى أواخر توت ، ولم يثبت فكان نيلا شحيحا ، فأصيبت بلاد بالشرق والجفاف ، وكانت البلاد يتفشى فيها الغلاء «جزء ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة».

٧٧ - فى سنة ٩١٧ هـ : فى يوم الجمعة ٢٧ ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل . وبلغ الارتفاع ست أذرع . فهو أقل من العام الماضى فى مثل هذا الميعاد . وفى يوم الأربعاء ١١ جمادى الأولى أخذ النيل تطرد زيادته حتى شارف الوفاء . وبقى إليه خمس أصابع ، فزاد فى تلك الليلة إصبعين ، فتأخر عن الوفاء فى

ميعاده . ثم زاد أصبعين ولم يصل حد الوفاء . فكثر بين الناس القيل والقال. وقالوا إن عدم وفائه سببه كثرة الفسوق والعصيان . . . فلما بلغت القالة سمع السلطان رسم لبعض الأمراء باقتحام بعض الجهات المشبوهة لمنع أهلها من اقتراف الموبقات . ففعلوا بلا غلو . .

ثم إن السلطان توجه إلى الروضة ، ورسم للقضاة الأربعة أن يتوجهوا إلى المقياس للمبيت ولقراءة ختمة . . ففعلوا . وفى يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى ركب السلطان من هناك « الحراقة » وسار لفتح السد . وكانت تلك الليلة ليلة الوفاء . فكان الاحتفال شائقا . فلما وفى النيل فى تلك الليلة وتقدم السلطان لفتح السد استبشر الناس بذلك وفرحوا .

وقد زاد النيل فى يوم الوفاء إصبعين، فزاد عن حد الوفاء إصبعا . ثم زاد بعد ذلك ثمانى أصابع مرة واحدة . وقد عم الأراضى وملأ الخلجان فازدادت بهجة بما عليها من القناطر الجديدة . . وغدا الناس يروحون ويجيئون فى مراكبهم مبتهجين . وقد ثبت النيل فى أوائل رجب على ٩ أصابع من عشرين ذراعا . وكان النيل عاليا . ولكن ارتفعت أثمان بذور البرسيم والقمح .

«جزء ٤ حوادث التواريخ للذكورة»

٧٨ - فى سنة ٩١٨ هـ : بشر ابن أبى الرداد بزيادة النيل فى يوم الأحد ٦ ربيع الثانى . وارتفعت المياه إلى ست أذرع فهى أقل من العام الماضى ذراعا . - وفى الاثنين ١٢ جمادى الأولى كان وفاؤه . ووافق أول مسرى . وفتح السد فى اليوم الثانى منها . وفى اليوم الثانى المذكور زاد النيل بعد الوفاء اثنتى عشر أصبعا . وفى الثالث ست عشرة . فبلغ سبع عشرة ذراعا وأربع أصابع . فرسم السلطان الغورى للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه إلى السد ويفتحه فكان له يوم مشهود . .

وفى يوم ١٣ منه بات السلطان فى قصره بالمقياس وقرئت هناك ختمة ، واجتمع لذلك قراء المدينة ووعاظها . وفى ثانى يوم ركب «الحراقة» وتوجه إلى بولاق . وفى هذا الشهر اطردت زيادة النيل حتى بلغ ١٢ إصبعا من الذراع التاسعة عشرة . فأخصبت الفواكه فى هذا الشهر حتى البطيخ الصيفى والعبدلى والعنب والرمان وسائر الفواكه . ولكن الزبيب كان غاليا . . وكذلك الغلال والزيت والسكر وغيرها . .

وفى يوم ١٨ رجب الموافق أول بابه ثبت النيل المبارك على ٨ أصابع من ٢١ ذراعا واستمر فى ثبات إلى نصف هاتور . «ج ٤ فى التواريخ المذكورة»

٧٩ - فى سنة ٩١٩ هـ : طلع المبشر ابن أبى الرداد ببشارة النيل فى يوم الاثنين ١٦ ربيع الثانى . وارتفع الماء ست أذرع وست عشرة أصبعا . وفى الأحد ٥ جمادى الآخرة بلغ النيل حد الوفاء . ووافق ذلك ١٤ مسرى . فوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة ، وكان عرس النيل وفتح السد فى ٦ جمادى الموافق ١٥ مسرى . وقد رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بالذهاب لفتح السد .

وفى مستهل رجب كان النيل فى عشر أصابع من ١٩ ذراعا . وفى ١٦ رجب ثبت النيل على الأصبع الرابعة من الذراع العشرين . وكان فى العام الماضى فى مثل هذا الموعد قد أتم عشرين ذراعا وزاد ٨ أصابع من الذراع الحادية والعشرين .

«ج ٤ فى التواريخ المذكورة»

٨٠ - فى سنة ٩٢٠ هـ : طلع المبشر ابن أبى الرداد ببشارة النيل يوم ٢٦ ربيع الثانى . وكان الارتفاع إلى ست أذرع و١٢ ذراعا . وكان فى العام الماضى أرجح من هذا . وكانت زيادته فى أول يوم ٥ أصابع . وفى يوم ٢٣ جمادى الآخرة . بلغ

حد الوفاء بعد الظهر . وعلق الستر على شباك القصر الذى أنشأه السلطان على ردهة المقياس . وقد بلغ ١٦ ذراعا وأصبعين ، وذلك فى ٢٢ مسرى . وقد أبطأ النيل عن السنة الماضية بسبعة أيام ، والناس بسبب ذلك فى قلق واضطراب . وقد فتح السد فى ٢٤ جمادى الثانية الموافق ٢٣ مسرى - وكان يوما مشهودا - برآسة الأتابكى سودون العجمى .

وزاد النيل بعد فتح السد بيومين عشرة أصابع دفعة واحدة . ثم فى اليوم الثالث زاد ١١ إصبعا دفعة واحدة ، وفى اليوم الخامس زاد ٧ أصابع دفعة واحدة . فزاد ١٦ إصبعا من ١٨ ذراعا . وذلك فى أواخر مسرى بعد الوفاء بخمسة أيام . فعد ذلك من النوادر . - وفى ١٠ شعبان كان ارتفاعه يومئذ ١٥ إصبعا من الذراع العشرين . وقد انتفع الناس بذلك أيما انتفاع . وظل ارتفاع النيل ثابتا إلى أواخر بابة دون انخفاض . - وفى الأربعاء ١٥ شعبان الموافق ٧ بابة كان ارتفاعه هو نفس ارتفاعه فى ١٠ شعبان أى ١٥ إصبعا من ٢٠ ذراعا . فكان أزيد من العام الماضى ١١ إصبعا « ج ٤ فى التواريخ المذكورة ،

٨١ - فى سنة ٩٢١ هـ : فى جمادى الأولى ، جاء ابن أبى الرداد ببشارة النيل وبلغ ارتفاعه ٧ أذرع ، و٤ أصابع . فكان أرجح من العام الماضى بعشرين أصبعا - وفى الاثنين ١٨ جمادى الآخرة احتفل بوفاء النيل المبارك . ووافق وفاؤه يوم الأحد ١٧ منه الموافق ٥ مسرى . فوقع الاحتفال حينئذ فى ٦ مسرى . وفى ذلك اليوم رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتجه إلى السد ليفتحه ، وإلى المقياس ليخلق عموده . فنزل فى « الحراقة » وقام بما عهد إليه فى اليوم المذكور . وعاد إلى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة سنية .

وفى ٢٠ شعبان الموافق أول بابه ثبت ارتفاع النيل على ١٦ إصبعا من ٢١ ذراعا

واستمر ثابتا إلى أوائل هاتور .

وقد رويت بلاد كثيرة لم تر من قبل لعلو الماء ، وعم بذلك النفع .

« ج ٤ فى التواريخ المذكورة »

٨٢ - فى سنة ٩٢٢ هـ : فى يوم الخميس ٢٣ صفر أشيع بين الناس أن النيل قد زاد ذراعين . . فصعد ابن أبى الرداد وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع . وكان النيل يومئذ فى ١٢ ذراعا و ٣ أصابع . فزاد على ذلك نصف ذراع . وكان هذا فى شهر برمهات . . وسبب هذه الزيادة المبكرة أن الأمطار سقطت بأعلى بلاد الصعيد وانحدرت منها سيول إلى النيل ، فزاد هذه الزيادة فى غير أوانها .

وفى يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى طلع ابن أبى الرداد ببشارة زيادة النيل ، إلى القلعة - وكان السلطان الغورى قد رحل فى جنده إلى بلاد الشام لملاقاة العثمانيين . - بلغت الزيادة حينئذ إلى ارتفاع ١٢ ذراعا وبقى على الوفاء ٦ أذرع ! وقال ابن اياس نقلا عن المقريزى : .

« ولم يحدث أن زاد ارتفاع النيل فى أول زيادته كل هذا الارتفاع وهو ١٢ ذراعا ، إلا مرتين واحدة عام ٧٦٢ هـ ، وأخرى فى عام ٨٣٨ هـ » ثم قال : « فلما كانت الزيادة فى عامنا هذا - ٩٢٢ هـ - اثنتى عشرة ذراعا ، ظن الناس الظنون ، وخشوا أن تطرد الزيادة بهذه النسبة فتغرق الأراضى . غير أن النيل أخاف هذه الظنون . . . »

وفى يوم الاثنين ٢١ جمادى الآخرة الموافق ٢٧ أبيب بلغ النيل حد الوفاء . وفتح السد فى يوم الثلاثاء ٢٢ منه ، الموافق ٢٨ أبيب . وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة أيام . وقد فرح الناس بهذا الوفاء المبكر ونظموا الأزجال يتغنون بها .

وقد قام بفتح السد نائب الغيبة إذ ذاك طومان باى الدوادار - الذى ملك فيما بعد - فركب « الحراقة » وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومعه كثير من عظماء الأمراء . ثم عاد إلى بيته فى ركب حافل .

وفى شعبان بلغ النيل عشرين ذراعا . ووافق بلوغه ذلك ٢٢ توت . وثبت على عشرين ذراعا حتى ٢ بابه واستمر إلى هاتور . فكان أقل من مثله فى العام الماضى .

« جزء ٣ ص ١٤ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٤ ، ٥٦ »

ملحوظة : فى أوائل عام ٩٢٣ هـ تم للعثمانيين الاستيلاء على مصر ووقع وفاء النيل التالى فى عهدهم . فضربنا الذكر صفحا عنه .

السفارة

كانت مصر دولة عظيمة الشأن ، مترامية الأطراف فى عصر المماليك . نشبت بينهما وبين عدد من الدول ، وشائج وصلات من ألوان مختلفة ، ترجحت ما بين صداقة وعداوة ، ومنافسة ومعاونة . وهكذا . ووسط هذا كله ، لم تجد بدا من اصطناع السفراء ، تبعثهم إلى ملوك هذه الدول فى بعض المهام . أو تستقبل سفراء هذه الدول ، وتنظر فيما لديهم من المسائل والأخبار . ونعنى هنا السفراء المبعوثين فى أمر ما ، والذين يعودون إلى بلدهم بمجرد نجاز ما أرسلوا من أجله . ويسمونهم «قصادا» وهم طائفتان : طائفة ترسلها مصر ، وطائفة تستقبلها . ومن العادات المتبعة - غالبا - أن سلطان مصر يختار رسوله من رجاله الحكماء الكيسين ، ويزوده بتعليماته وإرشاداته ، كما يزوده بهدايا أحيانا ليقدمها إلى من أرسل إليه.

ومن العادات المتبعة - غالبا - أن يستقبل سلطان مصر من يفد إليه من الرسل فى حوش القلعة ، يحف به كبار رجاله فى حفل عظيم . وقد يُعرض بعض أسلحة الجند إذ ذاك أو تعرض بعض الأسلحة أو الخلع أو نحو ذلك . وقد تعرض أيضا بعض الألعاب للتسلية ، أو يستصحب الرسول إلى حفل مقام لمناسبة ما ، وهكذا .

وينزل السفير ضيفا على السلطان طيلة إقامته . فينزله عند أحد أتباعه من أعيان الأمراء والمباشرين . وبعد زمن يأذن له فى العودة ، ويخلع عليه الخلع النفيسة ، ويزوده ببعض الهدايا .

ولا شك فى أن هؤلاء السفراء كثيرا ما تكون سفارتهم ذات أثر كبير فى علاقات الدولة المصرية بغيرها ، وذات أثر كبير فى توجيه سياستها إلى ناحية ما.

ومما اتبع فى بعض الأحيان أن السلطان إذا اختار أحد رجاله رسولا ، أن يأخذ هذا الرسول فى إعداد العدة لخروجه وسفره ، ويقيم الحفلات والزينات على داره . وربما جامله جيرانه وأحباؤه ، فأقاموا مثله الحفلات والزينات . وربما تحيا الليالى إذ ذاك بالمغنين والراقصين وأضرابهم ، احتفاء بالزوار . ومثل ذلك مافعله « ماماى بن خداد ، الخاصكى ، حينما اختاره قايتباى رسولا إلى ملك العثمانيين عام ٨٩٩ هـ . وحين خروج الرسول من القاهرة يخرج فى ركب حافل وزينة بالغة .

ونثبت فيما بعض هذه الوفادات نقلا عن ابن إياس .

---

١ — من سفراء مصر الى غيرها من الدول

١ ـ الأمير برسباى أميرا خور ثان : لما فتح السلطان محمد العثمانى مدينة القسطنطينية بعث رسولا الى السلطان الأشرف إينال يبشره بذلك فبعث السلطان إينال هذا الأمير ليهنئه بالفتح . وذلك فى شوال عام ٨٥٧ هـ . فسار لأداء مهمته ، ثم عاد فى رجب عام ٨٥٨ هـ . فلقى السلطان فخلع عليه خلعة .

« جزء ٢ ص ٤٤ ، ٤٧ »

٢ ـ الأمير قانى باى اليوسفى المهمندار : بعثه السلطان الأشرف إينال إلى السلطان محمد الفاتح مهنئا ببعض الفتوحات ومعه هدايا قيمة . فسافر فى شعبان سنة ٨٦٠ هـ . وقد عاد فى رجب عام ٨٦١ هـ وحدث بما لقيه من الكرم .

« ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ »

٣ - الأمير دولات باى حمام الأشرفى : أرسله السلطان الأشرف قايتباى فى ذى القعدة سنة ٨٧٧ هـ إلى ملك بنى عثمان ردا على رسوله الذى أوفده خاصا بما كاتب به ملكُ العراقين حسن الطويل ملوك الفرنجـــة للاتفاق على مقاتلة ملك العثمانيين وملك مصر . « ج ٢ ص ١٤٥ »

٤ - الأمير برسباى الأشرفى أستادار الصحبة (١) : أرسله السلطان قايتباى إلى ملك العثمانيين فى صفر عام ٨٧٨ هـ . فسافر ومعه هدايا قيمة . وقد توفى هـذا الرسول بحلب . وجاء خبر وفاته فى جمادى الأولى من العام المذكور . ويبدو أنه لم يتم مهمته قبل وفاته . « ج ٢ ص ١٤٧ »

٥ - الأمير الماس الأشرفى أستادار الصحبة :

أرسله السلطان الأشرف قايتباى مبعوثا إلى ملك العثمانيين فى جمادى الأولى عام ٨٧٨ هـ بدلا من برسباى الأشرفى المتوفى . وكان الماس أحد خواص السلطان ، وقد عينه قبل سفره فى استادارية الصحبة . وقد أخذ يستعد للسفر . ولـكن ألغى إرساله فى ذى القعدة من نفس العام . وعين مكانه يشبك الجمالى .

« جزء ٢ ص ١٤٧ ، ١٤٩ »

٦ - الأمير يشبك الجمالى :

فى ذى القعدة عام ٨٧٨ هـ رسم السلطان قايتباى للأمير يشبك الجمالى المحتسب بأن يخرج قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم عوضا عن الماس الأشرفى الذى ألغى إرساله وقد عاد من سفره فى جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ حاملا إلى السلطـان رسالة تتضمن

---

(١) هو برسباى الشرفى يونس الذى كان أميرا للمحمل عام ٨٧٧ هـ . ونوه به السخاوى فى الضوء ج ٣ رقم ٣٩ .

الود والصداقة من ملك العثمانيين . فسر السلطان قايتباى برسالته . ويشبك هذا ولى عدة مناصب منها الحسبة . وسافر أميرا للحج عدة مرات وغضب عليه قايتباى عام ٩٠٠ هـ ونفاه إلى القدس فظل إلى أن مات فى عام ٩٠١هـ ، ج ٢ ص ١٤٩ ، ١٥٣ ،

٧ ـ الأمير جانى بك حبيب العلائى : كان قد هرب من مصر فى أيام السلطان خشقدم لما أصابه من محن ، ويمم شطر بلاد العثمانيين . فلعله عرفها معرفة وثقى ، ولعه أصبح ذا صلة محمودة ببعض من فيها . إذ استخدم فى السفارة بينها وبين مصر فيما بعد ، أكثر من مرة . وقد عاد إلى مصر فى شوال عام ٨٧٢ هـ فى أوائل حكم قايتباى . فلما عاد أكرمه هذا السلطان وخلع عليه خلعة سنية . وبعث إليه الأمير يشبك الدوادار ألف دينار يصلح بها شأنه . وبعد قليل منحه السلطان قرية انبابة إقطاعا له وكانت بيد الخليفة المستنجد بالله يوسف فأخرجها عنه . وفى ربيع الأول عام ٨٧٤ هـ منحه السلطان مركز أمير اخور ثان عوضا عن يشبك . فلبث فيه بضع سنين . وسار فى عداد أمراء الحملة المرسلة إلى حلب بقيادة الأتابكى أزبك بن ططخ عام ٨٨٥ هـ . وعرف هذا الأمير بالكياسة والسياسة وحسن التأتى ولذلك أرسله الأتابكى أزبك إلى يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقين ليطلق من عنده من الأسرى بعد واقعة يشبك الدوادار لدى بابندر عامل هذا الملك . فأكرمه وسلم اليه الأسرى فعاد بهم إلى حلب . وذلك عام ٨٨٦ هـ . فكان هذا مرشحا له فى عام ٨٨٩ هـ . إذ اختاره السلطان قايتباى فى ذى الحجة رسولا إلى ملك بنى عثمان ، بعد مشورة الأمراء فيمن يكون أهلا للسفارة ، وبعد أن أشاروا على السلطان باختياره . وكانت مهمته فى ذلك الحين أن يتحدث مع ملك العثمانيين فى الأسباب التى دعته إلى الانضمام إلى على دولات أمير التركمان الخارج على الدولة المصرية ويحاول إبعاده عنه وتهدئة الفتنة الناشئة بينه وبين السلطان بسبب ذلك . وقد حمل

معه هدية نفيسة للموفد اليه . وحمل معه تقليدا من الخليفة ليكون نائبا عن السلطان فيما بيده من الأملاك ، ومكاتبة أخرى من الخليفة أيضا يتلطف فيها بملك العثمانيين أن ينهى هذه الفتنة التى أثارها بينه وبين السلطان .

وقد قيل فى سببها الأول أن أحد ملوك الهند أرسل مع رسول هدية نفيسة إلى ملك العثمانيين وفى عدادها خنجر ثمين فانتزعه منه نائب جدة وأهداه إلى السلطان قايتباى مع بقية الهدية . فقبله هذا ولم يرده . فأكل الحقد قلب ملك العثمانيين وانتهز ثورة على دولات على السلطان وأمده بالجند . . .

وقد اضطر السلطان إلى رد الخنجر والهدية مع رسوله جانى بك حبيب مع الاعتذار . ثم سافر جانى بك فى صفر عام ٨٩٠ هـ . بطريق البحر المتوسط الى القسطنطينية .

لبث جانى بك فى مهمته نحو ثمانية شهور ، وعاد فى ذى القعدة عام ٨٩٠ هـ . فحدث السلطان بأنه لم يجد لدى ملك بنى عثمان إكراما مناسبا ولا لقاء حسنا ولا إقبالا . وأنه أنس منه الجفاء لمصر وسلطانها وإضمار العداوة وحب الأذى . وقد صدقت فراسته إذ أخذ العثمانيون فى الكيد لمصر ونقص أطرافها حتى اضطر السلطان قايتباى الى قتالهم مرات عدة كان النصر غالبا حليفا له .

وقد توفى جانى بك حبيب فى المحرم عام ٨٩٣ هـ وكان فصيح اللسان بارعا يتقن الكلام بالعربية .

« ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ » .

٨ ـ ماماى الخاصكى بن خداد : هو أحد مماليك الأشرف قايتباى وخواصه . بلغ من رتب الامارة أن كان أحد المقدمين وتولى الدوادارية الثانية زمنا . حج فى

سنة ٨٨٩ هـ . فى صحبة أبى البقاء بن الجيعان . وكان السلطان قايتباى يستخدمه فى كثير من مهامه . وقد أوفده سلطانه رسولا الى ملك بنى عثمان ثم عاد من وفادته تلك عام ٨٩٦ . وقد أوفد مثل هذه الوفادة أكثر من مرة . منها مرة فى عام ٨٩٩هـ . وكان ماماى فى جملة من انضم الى قانصوه خمسمائة الخارج على السلطان فى قتاله لإقبردى الدوادار . وتعقبوه إلى بلاد الشام وكادوا يفتكون به فى خان يونس فى جهة غزة عام ٩٠٢ هـ لولا أن أنجده نائب غزة إذ ذاك وأنقذه من عصابة قانصوه خمسمائة بعد أن قتل منها عددا من الرجال ومن بينهم ماماى بن خداد المذكور . وقد حمل رأسه مع رءوس القتلى إلى القاهرة وطيف بها جميعا محمولة على الرماح . وذلك فى يوم الخميس ٤ رجب عام ٩٠٢ هـ .

وعرف ماماى برجاحة العقل والشجاعة . قال ابن إياس عنه : «وهو الذى جدد الدار المعظمة التى بين القصرين وصرف عليها جملة مال عظيم» . ـ هذا وما ماى آخر قصاد قايتباى إلى ملك بنى عثمان . «ج٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨١ ، ٣١٤ ، ٣١٦»

٩ ـ جان بلاط بن يشبك : أرسله قايتباى إلى ملك العثمانيين عام ٨٩٦ هـ . ـ وجان بلاط هذا هو الذى صار سلطانا على مصر فيما بعد ـ أى بعد قايتباى ـ وتلقب بالأشرف . «جزء ٢ ص ٢٧١»

١٠ ـ قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى : هو أخو خاير بك ملك الأمراء . وقد أرسله السلطان قايتباى إلى الملك رستم أحد أبناء حسن الطويل ملك العراقين وذلك فى عام ٨٩٨ هـ . وكان إذ ذاك أمير عشرة . «ج ٢ ص ٢٧٩»

١١ ـ الشيخ عبد المؤمن العجمى : وهو شيخ قبة السلطان بالمرج والزيات . أرسله قايتباى إلى ملك بنى عثمان وفى صحبته هدية نفيسة بينها قماش فاخر وسبع وزرافة وبيغاء حمراء اللون . وقد عاد الشيخ عبد المؤمن من وفادته تلك فى المحرم

عام ٩٠١ هـ . وقد نقل إلى السلطان أن ملك العثمانيين جبن وضعف عن الهجوم على مصر . . « ج ٢ ص ٢٩٢ »

١٢ - خاير بك أخو قانصوه البرجي : وهو الذى صار بعدُ ملك الأمراء فى عهد العثمانيين وترجمنا له فى باب أفذاذ الرجال . كان قد أرسله الناصر بن قايتباى إلى ملك بنى عثمان رسولا عام ٩٠٣ هـ فتوجه إليه بعد قليل . ثم عاد فى عهد الظاهر قانصوه بن قانصوه بعد مقتل الناصر بن قايتباى . وكانت عودته فى شعبان عام ٩٠٤ هـ. وقيل إن ملك العثمانيين أكرمه . فلما بلغه مقتل الناصر أسمعه من الكلام قارصه .. « ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤ »

١٣ - قانصوه كرد : أحد الأمراء فى عهد الناصر بن قايتباى ، وكان خازندارا ثانيا وأحد الأمراء الطبلخاناه . وفى ربيع الأول عام ٩٠٥ هـ عينه السلطان قانصوه رسولا إلى سلطان بنى عثمان فخرج بعد مدة وجرى عليه أمور شتى . « ج ٢ ص ٣٦٢ »

١٤ - تغرى بردى الترجمان : أرسله الغورى إلى بلاد الفرنجة فى ذى القعدة عام ٩١١ هـ وأخذ معه كتابا إلى البترك ليمنع عبث الفرنجة بالسواحل ثم عاد بعد سنتين. واستخدمه السلطان فى أمور شتى ، ووبخ بوساطته قناصل الفرنجة على مؤامرتهم ضده .

وفى ١١ المحرم سنة ٩١٧ هـ قبض عليه بتهمة أنه راسل الفرنجة بأسرار السلطان وبأنه يعد حملة عليهم ، وأفهمهم أن سواحل مصر خالية من الاستحكامات ولذا يمكن التغلب عليها وامتلاكها بسهولة . وضبطت مراسلات بخطه فى هذه الأمور . وحقق معه بخصوصها فأنكرها . ولكن السلطان وبخه توبيخا شديدا ووضعه فى الحديد ، وألقاه فى السجن ، وصادر ممتلكاته وراقب أهله وأولاده

وتغرى بردى هذا غير تغرى بردى نائب الشام فى عهـــد فرج بن برقوق ،

والذى هو والد أبى المحاسن يوسف المؤرخ «ج ٤ فى التواريخ المذكورة.»

١٥ - الأمير تمر باى الهندى: أرسله الغورى إلى الشاه اسماعيل بن حيدر الصوفى «الصفوى» متملك العراق. فظل لديه زمنا ثم عاد فى ١٢ ربيع الثانى عام ٩١٨ هـ بعد نحو سنتين. وقيل إنه قاسى شدائد وأهوالا كثيرة فى سفارته تلك. فماتت خيوله وجماعة من غلمانه، ولم ينصفه الشاه اسماعيل ولم يكرمه ولم يقابله غير مرة واحدة. ولم يكتب له ردا على رسالة السلطان: بل أرسل صحبته رسولا آخر من قبله. «ج ٤ فى حوادث ربيع الثانى عام ٩١٨ هـ»:

١٦ - يونس العادلى: أرسله الغورى إلى بلاد الروم حيث ملك ابن عثمان، ليشترى له أخشابا وحديدا وبارودا. فلما بلغ ابن عثمان ذلك، رد المال الذى حمله يونس العادلى. وأظهر استعداده لتقديم هذه المشتريات هدايا من لدنه إلى سلطان مصر. وكانت عودة يونس فى شهر رجب عام ٩١٦ هـ. وقد بر ابن عثمان بوعده إذ وصلت هذه الهدايا الثمينة فى مراكب إلى مصر فى شوال عام ٩١٦ هـ. «وقد ذكرت فى باب الهدايا والتقدمات»

وقد سافر يونس هذا مرة إلى سيباى نائب الشام بصحبة ماماى الخازندار فى ٦ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ لخطبة ابنته لابن السلطان الغورى. ثم رجعا فى ١٥ رمضان عام ٩٢٠ هـ بدون قبول لصغر البنت فسنها ٦ سنوات كانت.

«ج ٤ فى التواريخ المذكورة.»

١٧ - الطواشى بشير: أرسله الغورى إلى بلاد اليمن قاصدا إلى بعض ملوكها والى بعض ملوك الهند، لكى يتعاونوا جميعاً مع عسكره على قتال الفرنجة العابثين بسفن التجارة فى المحيط الهندى. وذلك فى ١٤ ربيع الأول عام ٩١٦ هـ على أثر حضور رسول الملك محمود شاه صاحب كنبايه وآخرين من ملوك الهند يطلبون سرعة تجهيز تجريدة ضد هؤلاء الفرنجة لكثرة عبثهم ولأنهم أوشكوا أن يستولوا على بعض

بلاد الهند . وقد عاد بشير الطواشى من وفادته فى يوم الاثنين ٩ المحرم سنة ٩١٧ هـ فقابل السلطان وقدم إليه هدايا نفيسة فقبلها منه وخلع عليه .

« ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة .

١٨ ـ الرئيس حامد المغربى : أرسله الغورى الى بلاد العثمانيين ليشترى أخشابا وحبالا ومكاحل نحاسية . فلما بلغ ملكهم خبر مجيئه ، لقيه وأكرمه وأرسل صحبته عدة مكاحل نحاسية وحديدية وجملة من الأخشاب والحبال وغير ذلك من الأشياء المطلوبة وشحن جميعها فى سفن إلى مصر وذلك فى رمضان عام ٩١٨ هـ :

« ج ٤ حوادث رمضان عام ٩١٨ هـ »

١٩ ـ الأمير اقباى الطويل : فى ١٠ من القعدة عام ٩١٨ هـ . خلع عليه السلطان الغورى خلعة وأرسله إلى السلطان سليم شاه ملك الروم بمناسبة تولية الملك ليهنئه بذلك ، ولعقد أواصر صداقة جديدة بين السلطانين . فنزل اقباى بعد الخلع عليه من القلعة فى موكب حافل . ثم سافر فى يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة عام ٩١٩ هـ وخرج فى ركب حافل مارا بداخل ميدان القلعة ليمر تحت الأنظار السلطانية . وقد عاد من سفارته هذه فى ١٤ ربيع الآخر عام ٩٢٠ هـ ومعه هدايا حافلة من السلطان سليم ومن نواب البلاد التى مر بها والخاضعة لسلطان مصر .

وإقباى الطويل هذا غير اقباى الطويل المذكور فى باب أفذاذ الرجال والمتوفى عام ٩٠٥ هـ « ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٢٠ ـ إينال باى دوادار سكين : وجهه الغورى إلى بلاد الشام وبلاد الروم فى ربيع الآخر عام ٩٢٠ هـ ، قاصدا ملك العثمانيين السلطان سليما لكى يتحسس الأخبار ، ويتلمس النوايا بمناسبة ماذاع من الانباء عن عزم السلطان سليم على البطش بالشاه اسماعيل الصوفى ملك العراقين . وقد حددت له أيام معدودة للقيام

بمهمته . وخرج مسافرا فى ٢٢ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ . ثم عاد فى رجب من نفس العام مكرما من ابن عثمان أكثر من إكرامه لإقباى الطويل . وقيل إن السلطان سليما أرسل معه مكاتبة للسلطان الغورى وصفه فيها بصفات عظيمة مبالغا فى تعظيمه مظهرا فى ثنايا ذلك ما عليه جنده هو من شدة وبأس . ولم يبال السلطان بذلك .

وقد أرسله السلطان مرة أخرى فى شوال عام ٩٢٠ هـ إلى حلب ليعمل على تهدئة فتنة المماليك الثائرين بها . ولكى يكشف الأخبار عن أعمال العثمانيين . وقد عاد من إحدى رحلاته إلى حلب فى ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ فأخبر أن السلطان سليما أهدى إليه هدايا وأنه يرغب فى المصالحة وأنه بعث من لدنه سفيرا وهو مقيم بحلب لوى نائبها وقد منعه من المسير . .

« جزء ٤ فى التواريخ المذكورة . وجزء ٣ ص ٣٠ »

٢١ - جانم الخاصكى : أصله من مماليك قايتباى . ومن ذوى العقول الراجحة . أرسله الغورى فى المحرم عام ٩٢١ هـ إلى السلطان سليم ومعه مكاتبة يرد على مكاتبة وردت إليه منه مع قاصد خاص ، وهى خاصة بالمشاحنة القائمة إذ ذاك بين على دولات نائب حلب وابن أخيه سوار . - وقد سافر فى ٢٥ صفر عام ٩٢١ هـ . وعاد فى جمادى الأولى عام ٩٢١ هـ وأخبر أن السلطان سليما أكرمه . ولكن ذلك بعد أن أوقع عسكره بعسكر على دولات بحلب . - وقيل إن السلطان أرسله مرة أخرى إلى ملك التتار لمسائل تخص أقارب السلطان - قيل فمر على بلاد العثمانيين فقبضوا عليه وسلبوا ما معه من الهدايا وهموا بشنقه ثم أطلقوا سراحه . فعاد إلى القاهرة فى ١٦ شعبان عام ٩٢١ هـ وأخبر السلطان بضخامة عسكر ملك الروم السلطان سليم ، وأنه يجهز جنودا برية فى جهة حلب للزحف بها على مصر . وأنه أعد ٤٠٠ مركب للهجوم على الاسكندرية ودمياط . فاضطرب السلطان بسبب أخباره .

« جزء ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٢٢ ـ الأمير مغلباى دوادار سكين . لعل هذ الأمير آخر سفراء الغورى إلى السلطان سليم . فقد أسله إليه عام ٩٢٢ هـ ، معه مكاتبة خاصة بالصلح المقترح بينهما وكان الغورى إذ ذاك قد خرج إلى الشام وحلب لملاقاة العثمانيين . فبعث السلطان سليم إليه وهو فى حلب وفدا من قبله يقترح عليه الصلح وعدم دخوله فى النزاع القائم بين السلطان سليم والشاه اسماعيل الصفوى وأظهر الوفد الخضوع واللطف للسلطان الغورى وكان هذا من قبيل الخداع والتثبيط . فكان رد الغورى أن أوفد رسوله مغلباى إلى السلطان سليم مقترحا الصلح منخدعا بما اقترحه عليه وفد العثمانيين ـ فما كان من السلطان سليم إلا أن قبض على الأمير مغلباى وقيده بالحديد وآذاه ، وهم بشنقه ـ وكان الغورى إذ ذاك قد أطلق وفد السلطان سليم ولم يستبقه لديه حتى يعود رسوله . ـ ثم شفع فيه بعض وزراء السلطان سليم ، فلم يعدم وحلقت لحيته ، وظل مهانا لديه ثم أطلقه ذليلا إلى سلطانه قائلا له « قل لأستاذك : يلاقينا على مرج دابق » . « ج ٣ ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ » .

ب ـ من سفراء الدول إلى مصر

١ ـ فى عام ٦٥٨ هـ كان جند التتار بقيادة ملكهم هولاكو قد بلغوا أطراف دمشق ونهبوا وقتلوا بعد أن أوقعوا من قبل بمدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ . ـ فلما بلغوا أطراف دمشق أرسلوا من قبلهم أميرا أسمه « كتبغا فويزبك » رسولا من هولاكو إلى سلطان مصر المظفر قطز . ومعه رسالة تطلب إليه وإلى أهل مصر قاطبة الخضوع والتسليم لملك التتار ذاكرا ما عليه جنده من قوة ، وما عليه المصريون من

ضعف . ـ وكان مع الأمير كتبغا المذكور أربعة أمراء سواه . فتشاور السلطان قطز مع أمرائه ، فأجمعوا على قتال هولاكو . ثم أمر السلطان المظفر بإعدام كتبغا ومن معه . وسار لقتال هولاكو . فتلاقى الفريقان بعين جالوت فى أرض كنعان وكسروا التتار كسرة شنيعة فى عام ٦٥٨ هـ . ثم هزموهم مرة أخرى فى بيسان فى نفس العام . « ج ١ ص ٩٦ ، ٩٧ » .

٢ ـ فى عام ٧١٢ هـ حضر إلى القاهرة رسل صاحب اليمن ومعهم هدايا نفيسة فقبلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون . « ج ١ ص ١٥٧ »

٣ ـ فى عام ٧٨٨ هـ : حضر إلى الأبواب الشريفة ـ فى عهد برقوق ـ قاصد صاحب ماردين وأخبر بأن خارجيا من التتار الجفطاوية يقال له تمرلنك ! قد استولى على البلاد وقد وصلت طلائع جنده إلى مدينة تبريز وخربها وقتل من أهلها آلافا مؤلفة ، ـ وهو يعنى تيمورلنك التترى ـ وأن القان أحمد بن أويس انتقل إلى بغداد وحصنها وأخذ حذره من تيمورلنك . « ج ١ ص ٢٦٤ »

٤ ـ فى عام ٧٨٨ هـ أيضا حضر إلى القاهرة رسول من قبل القان أحمد بن أويس صاحب بغداد مخبرا عن سلطان التتر تيمورلنك أنه قد بلغ مدينة قرباغ ونهبها وسبى أهلها وطلب الى السطان برقوق أن يعد العدة ويأخذ حذره .
« ج ١ ص ٢٦٥ »

٥ ـ فى عام ٧٩٥ هـ وفد على السلطان برقوق رسول من قبل صاحب ماردين يدعى صفى الدين جوهرا وهو طواشى رومى . يخبره أن تيمورلنك قد ملك تبريز .
ثم حضر بعده بقليل رسول آخر من قبل صاحب بسطام وأخبره أن تيمورلنك قد ملك شيراز .
ثم وفد بعده رسول من نائب الرحبة مخبرا أن القان أحمد بن أويس صاحب

بغداد قد وصل إلى الرحبة هاربا من بطش تيمورلنك الذى قد صادر أملاكه ونهب معظم بلاده بعد أن خدعه بمعسول الكلام وأوفد اليه من يقول له إنه يرغب فى زواج ابنته . ففرح وثنى عزمه عن قتاله وسرح جنوده الذين جمعهم لذلك . وكانت هذه خدعة من تيمورلنك جازت على القان أحمد بن أويس . فما لبث حتى أطبق عليه تيمورلنك بخيله ورجله فترك له البلاد وفر . ودخلت بغداد فى طاعة تيمور .

وبعد قليل وفد نائب حلب مخبرا أن القان أحمد بن أويس قد بلغ حلب وأنه وافد على مصر . فاستعد السلطان للقائه وبعث إليه بالهدايا والمساعدات من مال وقماش وخيل وأمراء .

ثم جاء رسول من ملك العثمانيين ومعه هدايا نفيسة وقد جاء محذرا للسلطان من بطش تيمورلنك ويطلب إليه الاستعداد والاحتياط والحذر . وطلب من السلطان أن يرسل طبيبا حاذقا وضروبا من العلاج والدواء لمداواة الملك إذ كان يشكو ألما فى المفاصل ، ويظهر أنه كان مريضا بالنقرس ، فأرسل إليه السلطان الطبيب الرئيس شمس الدين بن صغير ومعه الأدوية والهدايا . ، ومن هنا نعلم مقدار ما كانت عليه مصر من عظمة فى الجاه والعلم والفن إذ ذاك ، .

ثم وفد رسول من عند صاحب ماردين مخبرا أن تيمورلنك قد ملك بلاد الأكراد وأنه بعث إلى البصرة أستاذه الملك محمود شاه لمحاصرتها وكان معه ابن تيمور ، فوقع بين العسكرين موقعة هائلة هزم فيها التتار وقتل الشاه محمود وأسر ابن تيمور . فطلب تيمور من صاحب البصرة إطلاق سراح ابنه فلم يعبأ به وطلب إليه أن يطلق سراح أسرى البغداديين وابن القان أحمد صاحب بغداد فرفض تيمور وتوجه لغزو البصرة فأعجزه فصل الشتاء على بلوغ غايته .

« ج ١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ »

٦ - وفى عام ٧٩٩ هـ حضر إلى السلطان برقوق رسول من تيمور لنك يطلب إليه إطلاق سراح أحد الأسرى المسمى « أطلمش » فرفض السلطان حتى يطلق تيمور مالديه من أسراه . « ج ١ ص ٣٠٦ »

٧ - وفى عام ٨٠٣ هـ وفد فى يوم الاثنين ٣٢ ذى الحجة رسول من قبل ملك العثمانيين صاحب بلاد الروم وهو بايزيد بن مراد بك وفد إلى سلطان مصر فرج ابن برقوق ومعه هدايا للسلطان وللأمراء . وقد جاء محذرا من تيمور لنك مخبرا بأنه جمع عددا كبيرا من الجند الذى يخشى بأسه ويخاف قوته على مصر .

« ج ١ ص ٣٣٩ » .

٨ - فى عام ٨٣٦ هـ جاءت رسل إلى سلطان مصر الأشرف برسباى من قبل قرا ملك . فصعدوا إلى القلعة وقدموا إليه هدايا ملكهم وفى عدادها مرآة مذهبة وخروف بأليتين وخلعة للسلطان من الحرير المذهب . فاستهان السلطان بهذه الهدايا وفهم منها معانى أخرى مؤداها استهزاء قرا ملك بالسلطان . إذ فهم أنه يرمى من إهداء المرآة أن جنود السلطان كالنساء ينظرون فى المرآة . ومن إهداء الخروف أنهم أمامه كالنعاج ومن إهداء الخلعة أن السلطان من جملة نوابه . - ولهذا عامل السلطان رسل قرا ملك معاملة سيئة وتهكم بهم وأرجعهم إلى ملكهم ليبلغوه أن يلاقيه على الفرات . وأخذ السلطان بعد ذلك فى إعداد العدة للقائه . وقد توجه فعلا إلى الديار الشامية فالحلبية فديار بكر وحاصر مدينة آمد ثم عاد بلا كثير طائل .

« ج ٢ ص ١٩ »

٩ - فى عام ٨٥٧ هـ وصل القاهرة فى شهر شوال رسول من لدن ملك بلاد

الروم وهو سلطان العثمانيين محمد الفاتح ينبىء السلطان الأشرف إينال بفتح القسطنطينية . وقد زينت القاهرة وعم أهلها الفرح لهذه البشرى . وعاد الرسول ومعه رسول آخر من لدن السلطان ليقدم التهنئة بهذا الفتح العظيم . وهذا الرسول هو الأمير برسباى أمير أخور الذى ذكر فى سفراء مصر . « ج ٢ ص ٤٤ » .

١٠ - وفى جمادى الأولى عام ٨٦٠ هـ جاء الخواجا جمال الدين عبد الله القابونى رسولا من لدن ملك بنى عثمان محمد الفاتح ومعه رسالة إلى السلطان إينال تتضمن ما تم له فتحه من البلاد فنال من سلطان مصر ما يليق به من إكرام وعاد ومعه رسول آخر هو قانى باى اليوسفى المهمندار ومعه هدايا السلطان إلى محمد الفاتح . وقد سافرا فى شعبان « ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ »

١١ - وفى ذى الحجة عام ٨٦٠ هـ وفد إلى مصر قاصد جهان شاه ومعه هدايا نفيسة للسلطان إينال . وفى يده رسالة يشكو فيها الشاه إلى السلطان من حسن الطويل ملك العراقين ويشرح جوره عليه وأنه زحف على بلاده . فرد السلطان بمكاتبة أخرى عليه . « ج ٢ ص ٥٦ »

١٢ - وفى شهر المحرم عام ٨٧٣ هـ جاء رسول من عند حسن الطويل ملك العراقين ومعه رسالة للسلطان الأشرف قايتباى يهنئه فيها بالملك وبصحبته هدايا قيمة وعاد بعد مدة . « ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠٢ »

١٣ - وفى شهر رجب عام ٨٧٢ هـ وفد رسول آخر من قبل حسن الطويل ملك العراقين ومعه هدية قيمة للسلطان الأشرف قايتباى وفى صحبته رسالة ضمنها ما أفاء الله عليه من قلاع وحصون . وفيها يتملق السلطان ويتودد إليه ويظهر خضوعه كأنه نائب عن السلطان فى بلاده . فأكرم السلطان وفادته وأذن له بالسفر

وكان هذا خداعا من حسن الطويل لأنه أظهر غير ما أبطن .

« ج ٢ ص ١٠٦ »

١٣ - فى شهر رمضان عام ٨٧٤ هـ وفد إلى السلطان قايتباى رسول من لدن « سوار » ملك الابلستين ليعرض عليه الصلح - وكانت العلاقات قد فسدت بينهما - وكان مع القاصد هدية ومكاتبة مضمنة شروط الصلح - ومن بينها أن يكتب السلطان تقليدا له بإمارة الأبلستين وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب . وإن رضى السلطان بذلك يسلم سوار مدينة « عينتاب » إلى السلطان ، - وقد رفض السلطان هذه الشروط وطال بينه وبين الرسول أمد المفاوضة دون طائل . وعاد الرسول دون جدوى .

« ج ٢ ص ١١٧ »

١٥ - فى شهر المحرم عام ٨٧٥ هـ وفد رسول من لدن حسن بك الطويل ملك العراقين ومعه مكاتبة يذكر فيها أنه قتل عددا من أولاد تيمور لنك وملك بلادهم

« ج ٢ ص ١٢٢ »

١٦ - وفى شهر المحرم عام ٨٧٥ هـ أيضا جاء رسول من لدن ملك بنى عثمان يخبر السلطان بما فتح من بلاد الفرنجة « البنادقة » . « ج ٢ ص ١٢٢ » .

١٧ - فى شهر جمادى الآخرة من عام ٨٧٦ هـ قدم قاصد من لدن صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين ومعه هديه من الملك إلى السلطان قايتباى . وهدية إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف . وأرسل يطلب من الخليفة أن يكتب له تقليدا بولايته على إقليم الهند عوضا عمن كان قبله من ملوك الهند . فأكرم السلطان وفادته وأهدى إلى الرسول خلعة . وكتب له الخليفة التقليد المطلوب. « ج ٢ ص ١٣١ »

١٨ - وفى ذى القعدة عام ٨٧٦ هـ جاء رسول من لدن حسن الطويل ومعه

مكاتبة تضمنت أمورا لم ينشرح لها السلطان . « ج ٢ ص ١٣٤ » .

١٩ - وفى ذى القعدة عام ٨٧٧ هـ جاء رسول من لدن ملك بنى عثمان - وقد وفد من ناحية البحر - فأكرمه السلطان . وعرض على السلطان مكاتبة أرسلها حسن الطويل إلى ملوك الإفرنج يحرضهم على سلطان مصر وملك بنى عثمان . يهجمون عليهما من البحر ، وهو - أى حسن الطويل - يهجم من البر . - وقد ضبطت هذه المكاتبة مع رسول حسن بك الطويل الذى قبض عليه فى أثناء سفره إلى بلاد الفرنجة بحرا . - ثم إن الرسول أقام ردحا من الزمن مكرما ثم خلع عليه السلطان خلعة وأذن له فى السفر . « ج ٢ ص ١٤٥ » .

٢٠ - فى المحرم عام ٨٧٩ هـ قدم رسول من حسن الطويل ملك العراقين ومعه رسالة إلى السلطان قايتباى يعتذر فيها عما صدر منه . فأكرمه السلطان وعفا عما سلف ، وكانت المنازعات مستمرة فيما بينهما - . « ج ٢ ص ١٥٠ » .

٢١ - وفى ربيع الثانى عام ٨٧٩ هـ وفد على السلطان قايتباى مبعوث من قبل ملك العثمانيين ومعه رسالة من ملكه يشفع فى « إينال الحكيم » ، وكان السلطان قد غضب عليه ففر إلى بلاد الروم . فقبل السلطان شفاعته وأكرم وفادته وخلع عليه خلعة وأقام بمصر زمنا ثم عاد إلى بلاده . « ج ٢ ص ١٥١ » .

٢٢ - وفى شهر جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ وفد إلى السلطان قايتباى رسول من ملك الهند ومعه هدية إليه ومن بينها سبع عظيم الخلقة وخيمة كبيرة نفيسة غريبة الصنع . فأكرمه السلطان . « ج ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ »

٢٣ - فى صفر ٨٠٢ هـ وفد رسول من لدن ملك بنى عثمان ومعه رسالة إلى السلطان قايتباى فأكرمه ورد على رسالته وسافر إلى بلاده بعد أيام .

« ج ٢ ص ١٢٧ »

٢٤ - فى شعبان عام ٨٨٤ هـ حضر قاصد من عند بعض ملوك الهند صحبة أبى الفتح نائب جدة ومعه هدية نفيسة للسلطان . « ج ٢ ص ١٩٠ »

٢٥ - وفى المحرم عام ٨٨٦ هـ وفد قاصد من ملك الحبشة فأقام له السلطان قايتباى موكبا بالحوش واستقبله استقبالا حافلا وأكرمه . وسبب وفادته أنه جاء يطلب إلى بطرك القبط أن يولى عنه نائبا فى بلاده . « ج ٢ ص ٢٠٤ » .

٢٦ - وفى رمضان عام ٨٨٦ هـ جاء موفد من لدن يعقوب بن حسن الطويل ملك العراق ومعه مكاتبة إلى السلطان قايتباى يعتذر فيها عما وقع من بابندر - وهو أحد نوابه ، وكان قد آذى جنود السلطان وقتل بعض أمرائه ومنهم الأمير يشبك - فعتب السلطان على الرسول تسرع بابندر بما قام به من الأعمال . ثم ظل الرسول زمنا بمصر وعاد إلى بلاده مكرما . « ج ٢ ص ٢١٠ » .

٢٧ - فى شهر ذى القعدة عام ٨٩٢ هـ جاء قاصد من ملك الغرب صاحب الأندلس ومعه مكاتبة يطلب فيها إلى السلطان قايتباى معونة عسكرية لمساعدته فى قتال الفرنجة الذين حاصروه وحاصروا مدينته غرناطة وأشرفوا على امتلاكها . - وصاحب غرناطة هذا هو أبو عبد الله آخر ملوكها من بنى الأحمر (١) .

وقد رأى السلطان أن يعاونه عن طريق آخر وذلك أنه بعث إلى القسوس الفرنجة المقيمين بجهة القمامة بالقدس - وهى تابعة لمصر وهم يعتبرون من رعاياها -

---

(١) ذكر الأستاذ عبد الله عنان فى كتابه « مصر الإسلامية » هذه الوفادة فى الفصل السابع من الكتاب الثانى ، وحققها ، وخلص بأن صاحب الأندلس هو « الزغل » ملك وادى آش . لا أبو عبد الله ملك غرناطة (ص ١٣٨) .

أن يرسلوا رسالة على يد قسيس منهم ومن كبارهم إلى ملك نابلى ليراسل بدوره صاحب أشبيلية وهو الذى يحاصر مدينة غرناطة ليفك عنها الحصار . وإلا أساء السلطان معاملتهم - أى معاملة القسس الفرنجة المقيمين فى بلاده - ويمنع جميع طوائف الفرنجة من الدخول إلى القاهرة ويهدمها .

وقد تم إرسال هذه المكاتبات كلها ولكنها لم تفد شيئا وملك الفرنج مدينة غرناطة . « ج ٢ ص ٢٤٦ » .

٢٨ - فى شهر رجب عام ٨٩٣ هـ وصل إلى مصر قاصد ملك الفرنج الانكيروس من بنى الأصفر وصحبته هدية حافلة للسلطان فأكرمه وأنزله فى مكان أعده له .

« ج ٢ ص ٢٥٢ » .

٢٩ - فى جمادى الآخرة عام ٨٩٤ هـ قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن عثمان يشير على السلطان بأن يبعث قاصدا إلى ملك بنى عثمان للمفاوضة فى الصلح بينهما - وكانت المنازعات قد بدأت بين الطرفين - فأجاب السلطان بأنه إذا أطلق تجار المماليك الذين أسرهم لديه ، وبعث مفاتيح القلاع التى أخذها يكاتبه فى أمر الصلح ، وبعث إليه بمن ينوب عنه فى مفاوضته . « ج ٢ ص ٢٦٠ » .

٣٠ - وفى جمادى الآخرة عام ٨٩٦ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك العثمانيين صحبة ماماى الخاصكى الذى أوفده السلطان اليه منذ أمد . وكان هذا القاصد من أجل قضاة ابن عثمان تولى القضاء بمدينة بروسة ، وهو من أهل العلم ويدعى « الشيخ على جلبى » فصعد إلى السلطان . بالقلعة فأكرمه وبالغ فى تعظيمه جدا . وأحضر معه مفاتيح القلاع التى استولى عليها ملكه فسلمها إلى السلطان . وكلمه فى المصالحة . « ج ٢ ص ٢٧٠ »

٣١ - فى رجب عام ٨٩٨ هـ جاء رسول من عند رستم بن قرا ملك صاحب

العراقين . « ج ٢ ص ٢٧٩ » .

٣٢ - فى جمادى الأولى عام ٩٠٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد ابن عثمان ملك الروم وصحبته هدية حافلة للسلطان الأشرف الغورى . فأقام له السلطان موكبا عظيما بالحوش وكان يوما مشهودا .

وفى جمادى الآخرة دعا السلطان هذا القاصد فى الميدان تحت القلعة حيث أقيمت حفلة رمى النشاب من فوق الخيل وقام بذلك عدة من المماليك . ونصب لهم هناك القَبَق (١) يرمون عليه . وأحرق النفط بالنهار وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الثلاثاء ١١ من رجب أقام الأمير أزدمر الدوادار مأدبة حافلة لهذا القاصد فى جهة قناطر العشرة . وكان الزمن ربيعا . ولبثا مدة ثم عادا . - ثم أقام السلطان حفلة أخرى فى ميدان القلعة حضرها القاصد . ثم خلع عليه خلعة وأذن له فى السفر . « ج ٤ ص ٤٦ ، ٤٧ » .

٣٣ - وفى ذى القعدة عام ٩١٢ هـ وفد رسول ملك الروم ابن عثمان فأكرمه السلطان وأحسن إليه . « ج ٤ ص ١٠٧ » .

٣٤ - وفد فى رمضان عام ٩١٤ هـ رسول من عند مراد خان بن يعقوب صاحب بغداد ، يستمد المعونة من سلطان مصر الغورى لسيده . وذلك لأن الشاه اسماعيل بن حيدر الصوفى المتغلب على ملك العراق طغى على بلاده وسلب منه بغداد فأكرمه السلطان ولبث فى رحابه زمنا غير أنه لم يجب طلبه . ورجع فى ذى القعدة

---

(١) القبق : لعبة كانت معروفة حينذاك . وهى عمود طويل من الخشب ، فى رأسه هدف من ذهب أو فضة على شكل قرعة عسلية - كرة - بها حمام . يتبارى اللاعبون بقذفها وهم فوق الجياد . (سلوك ج ١ ص ٥١٨ - هامش)

عام ٩١٤ هـ . « جزء ٤ فى التواريخ المذكورة »

٣٥ - فى ذى القعدة عام ٩١٤ هـ وفد رسول من لدن صاحب قبرص ومعه هدايا للسلطان قيمة فأكرمه ورحب به . « ج ٤ فى حوادث ذى القعدة المذكور » .

٣٦ - فى يوم السبت ١٦ ذى القعدة عام ٩١٦ هـ وصل إلى القاهرة رسول من لدن ملك الروم ابن عثمان إلى السلطان الغورى ومعه مكاتبة . فلما ناولها للسلطان قبلها ووضعها على عينيه ، ثم ناولها إلى كاتب السر فقرأها بحضرة السلطان والأمراء. وكانت ألفاظها منمقة مزوقة بضروب من البديع ونعت السلطان فيها نعتا رفيعا . وكان من مضمونها أنه بعث إلى السلطان عدة مراكب فيها زردخاناه، فما يدرى هل وصلت إلى السلطان أم لا . وأخبر فيها أن الرئيس كمال المجاهد قد غرق ولا يعلم له خبر . فأقام القاصد بمصر أياما قلائل . وكتب له الجواب عن مكاتبته وأذن له فى السفر إلى بلاده. « جزء ٤ فى حوادث ذى القعدة المذكور »

٣٧ - وفى صفر عام ٩١٦ هـ جاء إلى مصر رسول من قبل الملك محمود شاه صاحب كنبايه ومن قبل بعض ملوك الهند ، يستحثون سلطان مصر الغورى لإرسال حملة لتأديب الفرنجة العابثين فى المحيط الهندى الذين أوشكوا يستولون على البلاد. فأرسل السلطان رسوله بشير الطواشى إلى ناحية اليمن لتدبير هذا الأمر . وقد عاد بشير المذكور فى المحرم سنة ٩١٧ هـ . « ج ٤ فى حوادث الشهرين المذكورين »

٣٨ - فى يوم السبت ١٨ ربيع الأول سنة ٩١٧ هـ دخل إلى مصر قاصد اسماعيل شاه الصوفى . فأنزل فى بيت قانى باى سُلَـق الذى يقع فى رأس الرملة عند سوق الجُلاق . فاستقر هناك إلى أن يؤذن له بمقابلة السلطان . وفى يوم قدومه رسم السلطان لبعض الأمراء والجند بالخروج إلى المطرية للقائه . فخرجوا وخرج الجم الغفير من العسكر حتى ضاق بهم رحب الفضاء .

قال ابن إياس . « ولكن وقع من السلطان فى ذلك غاية الخفة وهو أنه نزل وسار إلى نحو المطرية ليرى القاصد والعسكر عن بعد . فانعقد الغبار هناك فلم يتمكن السلطان من رؤية القاصد ولا العسكر فرجع إلى القلعة . »

وفى ٢٠ منه أقام السلطان موكبا بالحوش وجلس على المصطبة وحفت به الأمراء والجنود وهم بآلات الحرب والسلاح . ثم أذن للقاصد بالطلوع إلى القلعة ، فلما مثل بين يدى السلطان قبل الأرض ثم رجل السلطان ثم قرئت مكاتبته بين يديه ثم قدم إليه مصحفا شريفا وسجادة صلاة . فقبل السلطان المصحف ، ثم أحضر القاصد صندوقا لطيفا ففتح بين يدى السلطان فوجد به رأس شخص من ملوك التتار يسمى « أزبك خان » وهو الذى قتله الصوفى . فرسم السلطان بدفنه ثم أحضر القاصد قوسا عريضة عرضها شبر فكسرها أحد الزردكاشية بعد نزول القاصد ـ ثم نزل القاصد بعد هذا الموكب والمجلس العظيم .

وفى يوم ٢٨ منه دعا السلطان هذا القاصد إلى ميدان القلعة وشاهد ضرب الكرة إذ اشترك السلطان هو والأمراء المقدمون فيه . ثم خلع عليه السلطان سلاريا من الصوف .

وقد كان السلطان حذرا فى معاملة هذا القاصد إذ وكل به وبمن معه جماعة من الخاصكية تمنع وصول الناس إليهم وحرم عليهم المشى فى الأسواق . وكان القاصد مع ذلك يتردد على حفلات السلطان بين الفينة والفينة .

ثم أذن له السلطان فى العودة إلى بلاده يوم الجمعة ٦ جمادى الأولى عام ٩١٧هـ ولم يعلم بماذا أجابه السلطان على جواب البيتين اللذين قيل إن مولاه اسماعيل شاه أرسلهما إليه وهما :

السيف والخنجر ريحاننا أف على النرجس والآس

مدامنا من دم أعدائنا وكأسنا جمجمة الراس

مع العلم بأن نحوا من مائتى شاعر من شعراء مصر عارضوا هذين البيتين بمقطوعات طريفة (١). «ج ٤ فى التواريخ المذكورة».

٣٩ - فى يوم الخميس ١٩ جمادى الأولى عام ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من ملك الكرج فأكرمه السلطان وقرأ مطالعته وأقام له موكبا بحوش القلعة وجلس على المصطبة التى أنشأها عوضا عن الدكة.

«ج ٤ فى حوادث جمادى المذكورة».

٤٠ - فى يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة عام ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد على دولات ومعه هدايا «انظر وصفها فى باب الهدايا من هذا الجزء من كتابنا». - وقد أكرمه السلطان ودعاه إليه مرارا فى الميدان. وألبسه سلاريا بصمور من ملابسه. وأذن له فى السفر فى ٤ المحرم عام ٩١٨ هـ.

«ج ٤ فى حوادث التواريخ المذكوة».

٤١ - فى يوم الاثنين ١١ المحرم عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قصاد من عند ملوك الفرنجة الفرنسيين وكانوا من رؤساء الفرنجة. فبعث إليهم السلطان خيولا يركبونها من بولاق إلى القلعة. ثم أقام لهم موكبا حافلا بالحوش بالقلعة، وزين باب الزردخانة وغيره بالصناجق واللبوس وآلات السلاح.

وكان القصاد نحو خمسين رجلا وقد بدوا فى أحسن زينة وأفخر لباس. ومن

---

(١) راجع هذه الأبيات فى باب «المعارضات الشعرية» فى الجزء الثالث من كتابنا هذا.

بينهم اثنان برزا أجمل من سواهما بثياب مخملة كفورية وفى رقبتيهما سلاسل من ذهب . فلما مثلوا بين يدى السلطان أدوا عظمة ، ثم قبلوا له الأرض وقرئت كتبهم ثم انصرفوا ، ونزلوا فى بيت كاتب السر أبى بكر بن مزهر ببركة الرطلى وفى صحبتهم نائب المهمندار . وساروا فى وسط القاهرة وكان يومهم مشهودا . . . وقد قدموا إلى السلطان هدايا حافلة . « تجد وصفها فى باب ذكر الهدايا من هذا الجزء » .

« ج ٤ فى حوادث التاريخ المذكور » .

٤٢ - فى الاثنين ٢٣ صفر عام ٩١٨ هـ حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ملك البنادقة فكان له يوم مشهود . وأقيم له موكب شائق . وزين لأجله باب الزردخاناه باللبوس والسلاح . ثم صعد القاصد وفى صحبته هدية حافلة « انظر باب الهدايا » وكان راكبا فرسا وأمامه سبعة من أخصائه يركبون الخيول مثله . وبقية حاشيته مشاة . وعدد الجميع نحو خمسين رجلا . وكان القاصد مسنا ذا ذقن بيضاء ، وهو بدين يبدو عليه الوقار وعليه خلعة مذهبة من الحرير الأصفر .

فتلقاهم السلطان بالقلعة ثم غادروها إلى مكان أعد لإقامتهم . وأشيع أن القاصد جاء يسعى لدى السلطان فى أن يأمر بفتح القيامة بالقدس الشريف . وكان السلطان قد أغلق بابها ومنع الفرنجة الدخول من اليها بسبب ما تقدم منهم - « لعل المراد أنهم لم ينزولوا على إرادة السلطان فيدعوا بلاد الأندلس لصاحبها - انظر رقم ٢٧ فى هذا الباب - » وقد سافر القاصد فى ٢٦ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ .

« ج ٤ - التاريخ المذكور »

٤٣ - فى ١٢ ربيع الثانى سنة ٩١٨ هـ رجع تمربای الهندى رسول السلطان إلى الشاه اسماعيل وكان غير مكرم منه . وكان فى صحبته قاصدان : أحدهما قاصد من الشاه اسماعيل . والثانى من ملك الكرج . فأمر السلطان الزينى بركات بن موسى

المحتسب بأن يلاقيهما ويقيم لهما الموائد . فصدع بالأمر ومد لهما بالخانكة . وكان مع قاصد اسماعيل شاه نحو مائة رجل . وقيل كان فظا شديد البأس . ونزل فى بيت قانى باى سلق فى رأس الرملة عند سويقة عبد المنعم .

وفى يوم ١٤ منه صعد هذا القاصد إلى السلطان بالقلعة فى موكب حافل بالحوش فجلس السلطان على المصطبة ونصب السحابة الزركش ، وحوله الأمراء المقدمون وعديد من الجنود . وزين باب الزردخاناه بالأسلحة والاعلام وقد خرج القاصد إلى السلطان من بيت قانى باى سلق وفى صحبته أزدمر المهمندار والأمير كرتباى والى القاهرة . ثم مثل بين يدى السلطان وقدم اليه هدايا حافلة فكانت نحوا من أربعين حمالا ، ومنها من الفهود سبعة ـ وكانوا تسعة فمات اثنان ـ وقد شقت طريقها فى القاهرة وعليها جلال من الحرير . ومن بينها هدايا كثيرة أخرى « انظر باب الهدايا »

ومثل القاصد بين يدى السلطان ومعه رجل آخر وكلاهما من أعيان الأمراء لدى الشاه اسماعيل الصوفى فقبلا الأرض ثم ركبة السلطان ثم قدما إليه مكاتبة مولاهما فقرئت فوجد فيها ألفاظ جافة نابية وكلام فج فلم يرتح السلطان اليه وبدا الغضب على وجهه فكظمه . ثم نزل هذا القاصد من لدنه .

وفى عقبه صعد قاصد ملك الكرج ومعه هدية حافلة بأثواب ثمينة وأقمشة غالية . وقد سافر هذا القاصد فى ٢٦ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ . وقيل فى ١٠ جمادى الأولى.

أما قاصد الشاه اسماعيل فلبث مدة بمصر يحضر مع السلطان حفلات عدة . وقد رد السلطان جواب سيده بكلام يابس مثله . وكان ذلك بدءا للوحشة بين العاهلين . « ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٤٤ - فى يوم الاثنين ٢٨ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ حضر قاصد ابن رمضان

أمير التركمان ومعه هديه للسلطان حافلة . «ج ٤ فى حوادث اليوم المذكورة» .

٤٥ـ قال ابن إياس ما ملخصه : «فى شهر ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ أنه من العجائب أن اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا . كل قاصد من لدن ملك على انفراده . ومنهم : ١ ـ قاصد الشاه اسماعيل الصوفى ، ٢ ـ قاصد ملك الكرج ، ٣ ـ قاصد ابن رمضان أمير التركمان ، ٤ ـ قاصد من لدن ابن عثمان ، ٥ ـ قاصد من عند يوسف الصوفى أحد أمراء التركمان ، ٦ ـ قاصد من عند صاحب تونس ملك الغرب ، ٧ ـ قاصد من مكة ، ٨ ـ قاصد من عند الملك محمود ، ٩ قاصد ابن دُلغل من أمراء التركمان ١٠ ـ ـ قاصد نائب حلب ، ١١ ـ قاصد من ملك الفرنج «الفرانسة» . ـ وغير هؤلاء . «ج ٤ فى التاريخ المذكور» .

٤٦ ـ فى الخميس ٢ رمضان عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك الهند وصحبته فيلان عظيمان فى الخلقة وعليهما «بركستوانات (١) محملة بمسامير كف ، وعلى ظهرهما صناجق وعلى أنيابهما غلوف من الفولاذ فرجت لهما القاهرة . ولما دخلوا على السلطان عرضا عليه فى الميدان وأمامهما الطبل والزمر . «ج ٤ فى التاريخ المذكور» .

٤٧ ـ فى أواخر رمضان عام ٩١٨ هـ حضر الأمير حسين الذى وجهه السلطان إلى بلاد الهند لرد عبث الفرنجة فلق الشدائد . وعاد بعد سبع سنوات تقريبا . وكان معه قاصد من قبل الملك المظفر شاه بن الملك محمود شاه صاحب كنبايه الذى توفى . وقد حضر قاصد المظفر ليكتب الخليفة تقليدا لمولاه بولايته . فخلع عليه السلطان وأكرمه . «ج ٤ فى التاريخ المذكور» .

---

(١) البركستوانات : السروج

٤٨ - فى ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٠ هـ حضر رسول من لدن سليم شاه بن عثمان ملك الروم . وكان السلطان بالميدان . فلما قرئت عليه مكاتبته أشيع بين الناس أن السلطان سليما يرغب فى قتال اسماعيل الصوفى ملك العراقين . فبعث يخبر السلطان بذلك حتى يكون عونا له ضد الصوفى . - وقد أذن السلطان الغورى لهذا القاصد فى السفر يوم ٢٢ ربيع الثانى من العام المذكور . فعاد ومعه إينال باى دوادار سكين قاصدا إلى سليم الأول ليتحسس الأخبار « انظره فى باب القصاد رقم ٢٠ » « جزء ٤ فى التواريخ المذكورة » .

٤٩ - فى ٤٧ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ وفد رسول من عند السلطان سليم الأول . وهو أحد الأمراء الأجلاء لديه . فنزل فى بيت الظاهر تمربغا جهة سوق السلاح . ثم قابل السلطان فى مستهل جمادى الآخرة عام ٩٢٠ هـ، فأوكب له بالحوش وجلس على المصطبة ونصب على رأسه السحابة الزركشية ، وزين له باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق . واصطفت الأمراء والعسكر بالحوش من غير شاش ولا قماش . ثم طلع القاصد ومعه ازدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب ، فقدم هدية نفيسة إلى السلطان « انظرها فى باب الهدايا » . وكان جميل الهيئة ومعه جماعة من العثمانيين ذوو هيئات جميلة فأكرمهم السلطان وقرأ مطالعتهم وانفض الموكب وكان يوما مشهودا .

وفى اليوم الثانى استدعاه السلطان وجلس معه فى قصر المقياس ومد له هناك أسمطة حافلة .

وفى ١٢ جمادى الآخرة عام ٩٢٠ هـ وفد قاصد آخر من لدن السلطان سليم . فلما وصل إلى الصالحية سرقت منه أقمشة فى طياتها مكاتبة إلى السلطان .

فغضب الغورى لذلك وأرسل إلى شيخ العرب بتلك الجهة أحمد بن بقر وشدد عليه فى البحث عنها فبحث حتى وجدها وردت إلى صاحبها .

أما القاصد الأول فقد لبث مقيما فى مصر مكرما لدى السلطان . وأقيمت له حفلة فى ٦ رجب عام ٩٢٠ هـ ولعب الرماحة أمامه بما أعجبه وملأه دهشة . وقد قصد السلطان من إقامتها أن يريه ما عليه جند مصر من قوة ومهارة وفروسية .

وبعد أن أذن له فى السفر عاد فاستمهله وعاقه عنه ، حتى يثوب رسول السلطان إينالُ . لأن الأخبار كانت تتوالى باشتباك السلطان سليم مع الشاه اسماعيل الصفوى .

ومن الغريب أن القاصد الثانى عرض على القاصد الأول - إذ أنهما من جهة واحدة ووفدا فى زمنين متقاربين - فأنكره ولم يعترف به ! فما كان من السلطان إلا أن خلع عليه وأنعم بمال . فسافر هو ورفيق فاختلفا فى الطريق على اقتسام المال . فما كان من رفيقه إلا أن عاد إلى السلطان وأعلمه ان هذا القاصد جاسوس من قبل حسن بن أحمد بك العثمانى الذى فر من وجه السلطان سليم إلى إسماعيل الصوفى ، وأنه جاء إلى مصر ليتسمع الأخبار . فرسم السلطان برده ، فقبض عليه وسجن بالمقشرة وأشهر فى القاهرة وهو مقيد بالحديد وحملة المشاعل تنادى عليه : هذا جزاء من يكذب على الملوك .

أما القاصد الأول فإن السلطان أذن له فى العودة إلى بلاده فى ٢١ رجب عام ٩٢٠ هـ بعد أن خلع عليه ومن معه ، فأخذ فى الاستعداد ثم عاد .

« ج ٤ فى التواريخ المذكورة » .

٥٠ - فى يوم الخميس ٢٩ رمضان عام ٩٢٠ هـ حضر سفير من لدن السلطان سليم الأول العثمانى ومعه مطالعة تتضمن أخبار انتصاره على الشاه اسماعيل ملك العراقين . وتصف له أخبار هذه المعركة بما يشيب الولدان . فقرئت هذه المطالعة

ثم خلع السلطان على القاصد ، ولم يأمر حين لقائه بالزينة كما أمر فى المرار السالفة، ثم أذن له فى السفر فى أواسط شوال سنة ٩٢٠ هـ ومعه جواب تهنئة .

« ج ٤ فى التاريخ المذكور » .

٥١ - فى أوائل المحرم عام ٩٢١ هـ حضر قاصد من عند السلطان سليم ومعه مكاتبة مضمونها أن شخصا من أبناء الشاه سوار وقع بينه وبين عمه على دولات نائب حلب ، شجار بسبب بلاد أبيه ، فخنق من عمه وتوجه إلى السلطان سليم فتعصب له ، وأرسل إلى السلطان الغورى يطلب إليه أن يعطى ابن سوار أملاك أبيه التى استولى عليها عمه على دولات . - فلم يوافق السلطان الغورى على ذلك ، وغضب أشد الغضب وتشاور مع الأمراء فى الأمر خوفا من الفتنة أن تتسع ، ويزيد الخلف بينه وبين السلطان سليم .

وأشيع أن السلطان سليما أورد فى مكاتبته المذكورة ألفاظا تنم عن عظمته وتشعر بسطوته إذ كان يقول عن نفسه : « مقامنا الشريف » ويقول عن السلطان « مقامكم العالى » . وهذا التغاير نوع من الاستخفاف ...

وقد ورد بعد ذلك رسول من لدن على دولات ومعه مكاتبة أكد فيها للسلطان الغورى ما وقع بينه وبين ابن أخيه سوار مما ذكرته مكاتبة السلطان سليم وذكر تعصب هذا السلطان لابن سوار ضده .

« ج ٤ »

٥٢ - فى يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ حضر رسول من لدن السلطان سليم ومثل بين يدى الغورى سلطان مصر وهو جالس فى الحوش على المصطبة، فقدم إليه علبة وجد بها رأس على دولات نائب السلطان على حلب ، ورأس ولده ووزيره . فشق على السلطان رؤيتها ، وقال للقاصد : « هل هذه رءوس ملوك الفرنجة انتصر عليهم حتى أرسلهم إلى » . ثم أمر بدفنها وأذن للقاصد بالمسير إلى بلاده،

فى ١٠ رجب عام ٩٢١ هـ وكتب له مجاوبة عن مكاتبته .

أقول إن هذه السفارة والتى قبلها تنبىء عن الأسباب التى كان يخلقها السلطان سليم لإيقاع النزاع بينه وبين سلطان مصر ليتخذ منها ذريعة إلى غزوها فى المستقبل

« ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٥٣ - فى المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند سوار شاه الذى تعصب له السلطان سليم ضد على دولات . وأحضر صحبته هدية للسلطان وكانت غير نفيسة وهى خمسة عشر جملا بخاتيا وثمانى أكاديش وستة بغال . وقد أرسله ليترفق للسلطان ومعه مطالعة يبغى من ورائها رضاه . فاستشار السلطان الأمراء فى قبول الهدية أو ردها فاجتمعوا عنده وظلوا إلى قبيل الظهر ولم يعلم أحد ما تم عليه اتفاقهم .

« جزء ٣ ص ٥ »

٥٤ - وفى يوم الخميس ٢٥ من شهر المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر قاصد من لدن ملك الحبشة - وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويلة لم يدخل منهم أحد إلى مصر - وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة فى دولة الملك الأشرف قايتباى وذلك فى عام ثمانين وثمانمائة ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة وأعمالهم فى مصر قليلة متضائلة -

فلما حضر هذا القاصد أقام له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا قماش - كما تقدم للأشرف قايتباى - فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ، ونصب على رأسه السحابة الزركشية واصطفت الأمراء عن يمينه وشماله ، كل واحد منهم فى منزلته . ثم طلع القاصد من الصليبة وفى صحبته الأمير أزدمر المهمندار ، وجماعة من الرءوس النوب ومن المماليك السلطانية وغير ذلك . وكان مع القاصد من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة رجال . والبقية ليسوا من الأعيان . وفيهم من

هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه «شوشة» شعر . وفيهم من فى أذنه حلق من الذهب متسع الدائرة « قدر القرصة » وفى أيديهم أساور ذهبية . وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير فى الحبشة . وقيل إن أباه هو الذى حضر فى دولة الملك الأشرف قايتباى . وكان على رأسه خوذة من الحرير المخمل الأحمر وفيها صفائح ذهبية وبعض فصوص . وعلى رأس الخوذة درة كبيرة غالية وعليه علامات من الحرير الملون . ـ وعلى بقية أمراء الحبشة علامات « شايات » من الحرير الملون وعلى رءوسهم « شدود » من الحرير . وذكروا أن فيهم شخصا شريفا . ـ وكان مجموع هؤلاء الأحباش الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان وأوساطهم مشدودة بحوائص كهيئة الدنانير . وكان معهم حينما خرجوا من الصليبية طبلان على جمل يضربون عليهما وكان فى صحبتهم البترك وعليه برنس من الحرير الأزرق . وكانت أعيانهم راكبة فوق الخيول ، والبقية مشاة . فصعدوا إلى القلعة من سلم المدرج . والبترك ماش أمامهم . فلما وصلوا إلى باب الحوش كان فى صحبتهم كراسى عالية من الحديد وأرادوا الجلوس عليها بحضرة السلطان ، فلم تمكنهم رءوس النوب ، من ذلك . ـ ووقع فى أيام الملك الأشرف قايتباى مثل ذلك فما أجلسوهم ...!

فلما بلغ القاصد الحوش قبل الأرض ثم لما وصل إلى أوائل البساط السلطانى قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة . ولم يدخل معه أمام السلطان غير سبعة أنفس . ولم تدخل البقية . فلما اقتربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة . ثم قدموا كتاب ملك الحبشة ـ قيل أنه كان فى غلاف من فضة ، وقيل من ذهب ـ فلما قرىء على السلطان سمع منه ألفاظا حسنة ونعتا رفيعا له . وعلم منه أن ملكهم أوفدهم إلى مصر مستأذنين فى زيارة القيامة بالقدس ، وظلوا واقفين زمنا حتى قرى مكتوبهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة وأمرهم السلطان أن يقيموا

فى ميدان المهارة الواقع قرب قناطر السباع حتى يسافروا . وضربت لهم به خيام ونيطت حراستهم بعدد من الجند المماليك .

ولما عادوا من لدن السلطان عاد فى صحبتهم الوالى والمهمندار وجماعة من رءوس النوب ، فما زالوا فى صحبتهم حتى أوصلوهم إلى حيث ينزلون . وقيل إن هذا القاصد أمضى تسعة أشهر مسافرا حتى بلغ مصر .

ثم إن القاصد بعث إلى السلطان بهدية لم تكن حافلة - قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك . فلما شهدها السلطان وبخ من قدم بها إليه . . وأطلعه على قوائم هدايا ملوك الحبشة إلى ملوك مصر فى العصور السالفة كالأشرف برسباى والظاهر جقمق والأشرف قايتباى وغيرهم وتواريخها .

قال ابن إياس ماملخصه : « ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة فى هذه الآونة بالنسبة إلى ما كان عليه أسلافهم فى قديم الزمان ، حتى نقل أحد المؤرخين أنه كان لملوك الحبشة على نواحى النيل ستون مملكة لا ينازع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الأراضى . وضعفوا الآن عما كانوا عليه . - وقد أرسل بعض ملوك الحبشة هدية للملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٢ هـ فقومت بمائة ألف دينار أو أكثر حتى عدت من النوادر »

وقد أقام قاصد الحبشه فى الميدان ثلاثة أيام ثم سافر هو ومن معه إلى القدس ليزوروا القمامة . « ج ٣ ص ٧ ، ٨ ، ٩ » .

٥٥ - فى ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ أخذ السلطان الغورى يجمع جموعه ويعد عدته للرحيل إلى الشام لقتال بنى عثمان . وبينما هو فى يوم من أيام ربيع المذكور جالسا بمخيمه إذ وردت عليه مطالعة من نائبه فى حلب يخبره أن السلطان العثمانى بعث إليه رسولا . وقد منعه النائب من المسير إلى مصر وأخذ الرسالة التى يحملها

وبعث بها إلى السلطان .

اطلع السلطان الغورى على رسالة السلطان سليم فإذا بها عبارات رقيقة وألفاظ معسولة ومخاطبة بكلمة « ياوالدى » . وأنه يطلب إليه الدعاء له . وأنه ما زحف على بلاد على دولات إلا لبغيه على ابن أخيه وأنه كان يثير الخلاف بين والد السلطان سليم والسلطان قايتباى . وأنه كان جرثومة فساد فى مملكة سلطان مصر . وأن ابن سوار تحت أمر السلطان إن شاء أبقاه على ولايته أو عزله . وأنه ما منع تجار المماليك الجراكسة من جلب المماليك ومن مسيرهم إلى مصر ، بل هم الذين شكوا ما يصيبهم من الحيف والضر من جراء معاملتهم بالنقد المصرى . لذلك امتنعوا عن جلب المماليك الجدد - وفى هذه الرسالة يبدى السلطان سليم استعداده لرد جميع ما استولى عليه من ولاية على دولات .

وقد سر السلطان الغورى من هذه الرسالة هو ومن معه من الأمراء وانشرحت صدورهم وأنسوا قرب الصلح وفض الحرب والعودة إلى الوطن .

قال ابن إياس : « وكان هذا كله حيل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده . وقد ظهرت حقيقة ذلك فيما بعد . » « ج ٣ ص ٣٠ »

٥٦ - فى جمادى الآخرة عام ٩٢٢ هـ كان السلطان الغورى قد رحل إلى الشام فحلب ، بجيوشه الكثيفة لمحاربة السلطان سليم فلما بلغ مدينة حلب ودخلها وفد عليه فيها توا قصاد من لدن السلطان سليم على رأسهم قاضى عسكره واسمه « ركن الدين » ، وأحد أمرائه واسمه « قراجا باشا » . فلما مثلوا بين يديه ، قيل إنه عاتبهم على ما صنعه سيدهم من الإغارة على ممتلكات مصر واستيلائه على ولاية « على دولات » فقبلوا عتابه ، وأبدوا رغبة مولاهم فى مصالحة السلطان ، وأنه ينزل

عند رأيه ، ويسير وفق مشيئته ، وأطلعوه على مكاتبته إليه ويقول فيها له : «ياوالدى» ويطلب إليه الدعاء له .كما يطلب منه ألا يدخل فى النزاع القائم بينه وبين الشاه اسماعيل الصوفى . وأطلعوه على فتوى من علماء العثمانيين بقتل هذا الشاه . ـ وكما يطلب إليه أن يبعث له كمية من السكر والحلوى . ويفهمه أنه ما جمع جنوده إلا لقتال الصوفى وأنه متجه بها إليه .

فانخدع السلطان الغورى بكل أولئك وبعث إليه بمائة قنطار من السكر والحلوى . .

قال ابن إياس ما مؤداه : « كل هذا كان خداعا وتحيلا من السلطان سليم حتى يثبط همة الغورى ويثنيه عن عزمه ويفت فى عضده ويبعده عن فكرة القتال حتى يكر عليه على حين غفلة . وقد جازت هذه الحيلة على سلطان مصر . إذ وقع فى جيشه الخلف والفتنة والخيانة وضاعت معنويته ،حتى كان لذلك أسوأ الأثر إذ أدى إلى الهزيمة والاحتلال» « ج ٣ ص ٤٠ ».

الهـــدايا

ليس عجيبا أن نتبع الفصل السابق بفصل ذكر فيه الهدايا المتبادلة بين سلاطين مصر وغيرهم من ملوك وأمراء ونواب ، وذلك لشدة الارتباط بين الرسل والهدايا . إذ كان الغالب أن يحمل الرسول القادم من بلد هدية إلى سلطان البلد الذى يمم .

وأكثر ما كانت هذه الهدايا المتبادلة من الأقمشة والأسلحة والخيول المطهمة والمماليك والجوارى وبعض حاصلات البلاد ، وبعض الأموال ، فإذا وفدت من ناحية العراق وفارس كان من بينها السجاجيد ، وإن وردت من ناحية الشام وحلب كان فيها الدواب والمماليك والأقمشة النفيسة والفاكهة والحلوى . وإن وردت من موانى أوربا كان من بينها الجوخ والحرير والبلور . وإن كانت من مصر كان فيها السكر والحلوى والدواب والمال والمماليك .

ويظهر أن الهدايا كان لها دور خاص فى الرسميات ومنزلة مرعية وقيود عرفية كما كانت لها جداول وسجلات تُرقم فيها وتنعت بين سطورها ، وتحفظ الاطلاع عليها وقت الحاجة . كما كانت السلاطين تقيم لها وزنا وتجعل لها أهمية . وتستدل منها على أمور يكون لها دخل كبير فى العلاقة بين مصر والبلد الآخر . وكذلك كانت طبقات الشعب تلهج بذكر ما يُهدى إلى سلطانها وتحوك حول أوصافها الأقاويل الكثيرة .

ويفهم هذا من جملة حوادث منها :

١ - فى عام ٨٣٦ هـ جاء إلى السلطان الأشرف برسباى قصاد من قرا مملك ومعهم هدايا من بينها مرآة مذهبة وخروف باليتين وخلعة للسلطان من الحرير

الأحمر المذهب . ففهم السلطان من ذلك أن قرا ملك ينعته وجنوده بأنهم نساء يحتاجون للمرآة . وأنهم كالنعاج لا يأبه لهم . وأن السلطان نائب من نوابه ، ولذلك خلع عليه الخلعة . .

وكانت النتيجة أن غضب برسباى ، وأهان الرسل وتوعد ملكهم ، فما عادوا إليه حتى وقعت الحرب بين الملكين . « ابن إياس جزء ٢ ص ١٩ »

٢ - وفى يوم الخميس ١٥ المحرم عام ٩٢٢ هـ ، وفد إلى السلطان الغورى رسول من لدن ملك الحبشة ومعه عدد كبير من الأحباش . فقدم هدية إليه لم تنل منه الرضا ولا الإعجاب ، قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار فوبخ من صعد بها إليه وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة إلى سلاطين مصر السالفين أمثال برسباى وجقمق وقايتباى وتواريخ هدايا ملوك الحبشة إلى ملوك مصر ، فقرئت عليه .

« ابن إياس جزء ٣ ص ٨ » .

٣ - وفى عام ٩٢٢ هـ وفى نفس شهر المحرم أيضا وفد على الغورى ، قاصدمن سوار شاه وقدم إليه هدية قال عنها ابن إياس إنها « فشروية » وأنها « وجودها وعدمها سواء » وهى خمسة عشر جملا وثمانى أكاديش وستة بغال ، فتردد السلطان فى قبولها وردها وشاور الأمراء . ولكن لم يعلم ما استقر عليه رأيهم .

« ابن إياس جزء ٣ ص ٥ » .

ومن هذا يفهم ما ذهبنا إليه . وقد أشرنا فى باب السفارة إلى بعض هذه الهدايا ونذكر هنا عددا منها نقلا عن ابن إياس (١) فنقول

١ - فى سنة ٦٦٩ هـ أرسل صاحب طرابلس هدية قيمة للسلطان الظاهر بيبرس

---

(١) إذا نقلنا عن غير ابن إياس نصصنا عليه . وج ٤ منه فى تواريخه

وأظهر له الطاعة . فقبلها منه وأقره على ما كان بيده من البلاد . وأهدى إليه صاحب اليمن هدية فيها تحف ودب أسود وفيل . « ج ١ ص ١٠٨ - سلوك ج ١ ص ٥٩٥ »

٢ - فى سنة ٧٠٤ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة فى عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، صاحب دنقلة « من أعمال الصعيد » وكان صحبته هدايا جميلة من رقيق وجمال وأبقار حبشية وغير ذلك . فخلع عليه السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة . « ج ١ ص ١٤٧ » .

٣ - فى سنة ٧٦٢ هـ أهدى بعض ملوك اليمن إلى سلطان مصر الناصر حسن ، خيمة عظيمة غريبة الشكل ، بها هيئة قاعة وبها حمام . وهى منقوشة بصنعة غريبة . فتوجه السلطان إلى بر الجيزة ونزل بكوم برا ، ونصب هناك تلك الخيمة . فكان أهل القاهرة يخرجون لمشاهدتها . وقال فيها ابن أبى حجلة المغربى الشاعر الأديب :

حوت خيمة السلطان كل عجيبة ... فأمسيت منها باهتا أتعجب

لسانى بالتقصير فيها مقصر ... وإن كان فى أطنابها بات يطنب

وقال : إذا ما خيمة السلطان لاحت ... فقل فى حسنها نظما ونثرا

وإن رفعت ورمت النصب منها ... فصف أطنابها وهلم جرا

« ١ ص ٢٠٨ »

٤ - فى عام ٧٨٨ هـ بعث صاحب افريقية « أحمد بن محمد » من سلالة الموحدين هدية نفيسة لسلطان مصر مع الذين وفدوا من بلاده إلى الحج . وهى عدد من الجياد العربية الأصيلة ، فسر منها السلطان . « ابن خلدون ج ٥ ص ٤٧٩ » .

٥ - فى عام ٧٩٢ هـ ، بعث إليه صاحب أفريقية أيضا هدية أخرى من الجياد الأصيلة كذلك . « ابن خلدون ج ٥ ص ٥٠١ »

٦ - فى عام ٧٩٢ هـ . أرسل ملك العثمانيين إلى برقوق ملك مصر ، يطلب إليه إرسال طبيب حاذق ومعه الأدوية اللازمة لعلاجه من وجع المفاصل . فبعث إليه الرئيس شمس الدين بن صغير الطبيب ، ومعه حملان من الأدوية .

« ج ١ ص ٣٠٠ ».

٧ - فى عام ٧٩٦ هـ اقتحم تيمورلنك مدينة بغداد على أهلها وعلى صاحبها القان أحمد بن أويس . فهرب القان من وجهه ، وتم شطر البلاد المصرية فى عهد السلطان برقوق . فلقيه خير لقاء ، وأنزله خير منزل . وأسكنه فى دار الأمير طقزدمر ، وأهدى إليه ضروبا من الهدايا إعانة له . ومن جملتها عدة خيول مطهمة بسروج ذهبية وكنابيش ، وعشرون مملوكا صغيرا ، وعشرون جارية بكرا ، وأقمشة وخمسة آلاف دينار .

« ج ١ ص ٣٠١ » .

٨ - فى عام ٧٩٩ هـ وفد إلى الأبواب الشريفة فى عهد السلطان برقوق ، المقر السيفى « تنم الحسنى » نائب الشام فلما بلغ السلطان وصوله إلى الربدانية نزل من القلعة فلقيه وأنزله بالميدان الكبير عند الناصرية وخلع عليه .

فقدم النائب إلى السلطان عشرة مماليك جراكسة وعشرة جوار وعشرة آلاف دينار ومصحفا شريفا مكتوبا بالذهب ، ونمجاة مسقطة بالذهب ومرصعة بفصوص من الياقوت والفيروز ، وأربعة كنابيش وأربعة سروج من الذهب وأربع بدلات ذهبية زنة كل منها أربعمائة مثقال من صنع المعلم « بهرام » وعشرة كواهى للصيد ، ومائة وخمسين حملا ما بين سمور ووشق وسنجاب وقاقم وقرضيات وأثواب من الصوف الملون ، ومائة فرس خاصة وخمسين جملا وعشرين حملا من الأثواب البعلبكية ، وثلاثين حملا من الفاكهة ، وحلوى شامية ، وعشرين حملا من المخللات وحملين من عملب السكر النباتى الحموى وغير ذلك أشياء كثيرة . « ج ١ ص ٣٠٦ »

٩ - وفى عام ٧٩٩ هـ أيضا ورد رسول من قبل صاحب اليمن وهو الملك الأشرف محمد بن الفضل ومعه القاضى برهان الدين المحلى التاجر الكارمى . ومعهما هدية حافلة مختلفة الأنواع . فخلع السلطان برقوق على القاصد وأكرمه .

« جزء ١ ص ٣٠٧ »

١٠ - فى عام ٨٠٣ هـ فى عهد السلطان فرج بن برقوق ، طلب إليه تيمورلنك أن يطلق قريبا له يدعى « أطلمش » كان أسيرا منذ عهد السلطان برقوق فى مصر . ووعد أن يطلق من لديه من أسرى المصريين فى نظير ذلك . فأطلقه السلطان فرج وأرسله إليه مع بعض أمرائه مكرما . ففرح به تيمور وأطلق من عنده من الأسرى وأرسل إلى السلطان فرج هدية حملها إليه الخواجا مسعود الكججاوى وكان فى عدادها فيل عظيم الخلقة وعلى ظهره صندوق من الخشب يسع عشرة رجال يجلسون فيه للضرب بالكتوسات . وعدا ذلك أشياء ثمينة . وكان وصوله إلى مصر حافلا وعجب له أهلها .

« جزء ١ ص ٣٣٦ » .

١١ - فى سنة ٨٣٦ هـ وفد إلى السلطان الأشرف برسباى قصاد قرا ملك ومعهم هدية له فمن جملتها قرص مرآة مكفتة بالذهب وخروف باليتين وخلعة للسلطان من المخمل الحرير المرقوم بالذهب وبعض أثواب حريرية أخرى وصقور صيد . فلما رأى السلطان هذه الهدية استصغر شأنها . ودعا القصاد إلى البحيرة بالقلعة وألبس الخلعة المهداة لشخص من الشهدارية وكان مضحكا ! فرقص بها أمام السلطان فضحك عليه . ثم أحرق السلطان الخلعة أمامهم ، وذبح الخروف ! ثم سأل القصاد عن الكيفية التى بها يسخر ملكهم من أحدهم . فقالوا : يرميه فى الماء . فأمر السلطان برميهم فى البحيرة فظلوا بها ساعة ثم أخرجوا . ورسم بأن تقص أذناب خيولهم . وعجل

لهم فى السفر قائلا : «قولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات».

ثم أخذ السلطان فى تجهيز تجريدة لقتال هذا الملك . ووقعت بينهما الوقائع . — والسبب الذى أهم برسباى هو ما أشرنا إليه فيما سلف من أنه ظن الهدية ضربا من التهكم به ، وأن قرا ملك يصفهم بأنهم نساء ونعاج وأنه — أى السلطان — نائب من نوابه . «ج ٢ ص ١٩»

١٢ — فى ربيع الأول عام ٨٥٩ هـ فى عهد السلطان إينال العلائى وصلت إليه هدية من الملك أصلان صاحب الأبلستين ، وكانت حافلة وفى جملتها خيول وبغال وجمال وأقمشة من الحرير . «ج ٢ ص ٤٨»

١٣ — فى سنه ٨٨٤ هـ حج السلطان الأشرف قايتباى ، فلما عاد من حجه أوائل عام ٨٨٥ هـ أهدى إليه الأمراء والمباشرون هدايا قيمة منها مال وخيول وقماش . وكذلك أهدى إليهم . «ج ٢ ص ١٩٣»

١٤ — فى سنة ٩٠١ هـ فى شهر المحرم منها عاد الشيخ عبد المؤمن العجمى شيخ قبة السلطان بالمرج والزيات . وكان قد بعثه السلطان قايتباى إلى ملك بنى عثمان ليتعرف أخباره . وكان السلطان قد بعث معه هدية من جملتها قماش فاخر وسبع وزرافة وببغاء حمراء اللون وغير ذلك . «ج ٢ ص ٢٩٢»

١٥ — فى شوال سنة ٩١٦ هـ قدمت إلى السلطان الغورى هدية حافلة من نائب حلب وهى : أطباق فيها ذهب عين ، ومماليك جراكسة نحو من ثلاثين أو أربعين مملوكا ، ومن الخيول خمسون فرسا منها فرس بسرج بلور ..! وكنبوش من الذهب قيل إن ثمنه ألف دينار . وجملة من الأقمشة المتنوعة النفيسة .

«ج ٤»

١٦ — وفى شوال سنة ٩١٦ هـ أيضا وصلت عدة سفن من لدن ملك العثمانيين

فيها زردخاناة للسلطان الغورى . فوصلت إلى بولاق عند الرصيف وشرعوا ينقلون ما فيها إلى القلعة . فكان من جملة ما فيها مكاحل سبقيات عدتها ثلثمائة . وثلاثون ألفا من النشاب أسهما . وأربعون قنطارا من البارود . وألفا مقذاف خشبي وغير ذلك من نحاس وحديد وبكر وحبال وسلب ومراسى حديدية ، وسوى ذلك مما تحتاج إليه السفن . فشكره السلطان لذلك . وكان السلطان الغورى قد أرسل فى مقابل ذلك مالا مع قاصده « يونس العادلى » ليشترى بها أخشابا ونحاسا وحديدا من بلاد العثمانيين . فلما بلغ ذلك أسماع ملك بنى عثمان رد المال إلى السلطان وبعث إليه بما سبق ذكره هدية إليه . « ج ٤ » .

١٧ - فى يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول عام ٩١٧ هـ ، جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب جربة انتصر على الفرنجة نصرة عظيمة وغنم منهم غنائم كثيرة وقتل منهم وأسر . وبعث للسلطان مكحلة من النحاس كبيرة ، ومعها أشياء أخرى على سبيل الهدية ، واثنين من أسرى الفرنجة وعليهم سلاحهم . فشكر له السلطان الغورى وسُر بهذه النصرة . « ج ٤ »

١٨ - فى يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة سنة ٩١٧ هـ حضر الى الأبواب الشريفة قاصد على دولات « نائب حلب » ومعه هدية حافلة للسلطان الغورى . ومن جملتها مماليك وخيل وجمال بخاتى ، وخيمة كبيرة منقوشة بحرير ملون على شكل أشجار مزهرة وفوقها أطيار . وخركاة من الخشب مدهونة بماء الذهب ، ولازورد وألوان غريبة وهى منقوشة برسوم من أشكال الوحوش المتقاتلة بينها الغالب والمغلوب. ولها غطاء من الجوخ الأزرق المقصوص . ولها أطناب وعُرا من الحرير الأحمر . ولها باب خشبى موشق وعليه ضبة . ولتلك الخركاة بساط مستدير على سعتها ، وهو منقوش نقشا غريبا قليل النظير . وكانت هذه الخركاة من تحف حسن بك الطويل ملك العراقين كان . فظلت حتى وقع ملكها للشاه إسماعيل الصوفى فبعث بها إلى

على دولات . فأرسلها هذا إلى السلطان الغورى . فكانت هذه الحركاة والخيمة من عداد التحف الغريبة . فأمر السلطان بنصبها فى الحوش ليشاهدها الناس ويتفرجوا بها . وأقام موكبا حافلا للقاصد فى ذلك اليوم بلا شاش ولا قماش .

« جزء ٤ » .

١٩ - فى شهر المحرم عام ٩١٨ هـ طلع قاصد ملك الفرنج ؟ بهدية حافلة للسلطان مابين أوانى بلور مزيكة بالذهب وحمالين يحملون أقمشة من الجوخ والحرير والثياب المذهبة ، وقيل بها أيضا ذهب عين « ج ٤ »

٢٠ - فى الاثنين ٢٣ صفر عام ٩١٨ هـ حضر قاصد ملك البنادقة إلى مصر ومعه هدية للسلطان الغورى منها نحو مائة حمل بين أوانى بلور وجوخ وحرير من أصناف متعددة ، وأطلس وغير ذلك . « ج ٤ »

٢١ - فى ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ . حضر إلى مصر قاصد الشاه اسماعيل بن حيدر الصوفى المتغلب على فارس والعراق . فقابل السلطان الغورى مقدما إليه هدايا مولاه وفى عدادها سبعة فهود - وكانت تسعة مات منها أثنان أثناء المسير - وعليها جلال حريرية . ومنها خيول وأباريق من الفضة وطاسات من الذهب ، وزرديات وخوذ وأثواب من المخمل الملون وأدوات للبس الخيل وشقق حريرية مقصبة وسجاجيد رومية ومدى وغير ذلك . « ج ٤ »

٢٢ - فى أواخر ذى القعدة عام ٩١٨ هـ . كان الغورى قد رحل إلى زيارة الفيوم وعند عودته مر بدهشور . فخف لملاقاته فيها الخليفة محمد المتوكل على الله العباسى ، وأهدى إلى السلطان مهارا وأغناما وأبقارا وكثيرا من الدجاج والأوز وقدور العسل النحلى وجرار اللبن وغير ذلك كثير . ولعله كان ذا أرض ذات غلة فى تلك الاصقاع .

« ج ٤ »

٢٣ - فى ١٥ ربيع الأول عام ٩٢١ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير قانى باى قرا - أميرا خور كبير - باش العسكر الذى وجه إلى حلب . ثم بعد ثلاثة أيام أهدى إلى السلطان الغورى هدية حافلة ، قيل : كان من جملتها عشرة آلاف دينار من الذهب الخالص ، وخمسة وعشرون مملوكا من الجراكسة ، وكثير جدا من الخيول والأغنام والأثواب البعلبكية والصوفية . وغير ذلك . «ج ٤ فى التاريخ المذكور»

٢٤ - فى المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر إلى الغورى قاصد الشاه سوار وقدم هدية تافهة وهى خمسة عشر جملا بخاتيا وثمانى أكاديش وستة بغال . فتردد السلطان فى قبولها ورفضها وعرض الأمر على أمرائه ولم يعلم ما تم رأيهم عليه .

«ج ٤ فى التاريخ المذكور»

٢٥ - فى ٢٥ المحرم عام ٩٢٢ هـ جاء قاصد ملك الحبشة وقدم للسلطان الغورى هدية تافهة وبخ السلطان من صعد بها ، وأطلعه على قوائم الهدايا والتواريخ التى أهداها فيها ملوك الحبشة السابقون إلى ملوك مصر السالفين . وقد قال ابن اياس إن الأمر أصبح على عكس ما كان ، إذ ضعف ملوك الحبشة اليوم - عام ٩٢٢ هـ - عما كان عليه أسلافهم . «ج ٤ فى التاريخ المذكور»

حسنات هذا العصر وسيئاته

لا يخلو عصر من العصور من حسنة يقدمها إلى الناس بيد ، ومن سيئة يقدمها باليد الأخرى . فهو بذلك يجمع فى آن واحد بين الحسن المقبول وبين القبيح المرذول . وكذلك هذا العصر .

وأهم حسناته :

١ - دفع التتار عن اقتحام الأراضى المصرية . ٢ - دفع الفرنجة عنها أيضا . ٣ - المحافظة على استقلال البلاد . ٤ - رصد الأوقاف الكثيرة على وجوه البر والاحسان ، مع البذل الكثير . ٥ - تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب .

وأهم سيئاته :

١ - احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية . ٢ - فداحة الضرائب المفروضة عليه . ٣ - الجور والعسف الذى نزل به . ٤ - كثرة الفتن الداخلية . ٥ - تعدد الزلازل والطواعين والغلاء .

ونتكلم الآن بإيجاز عن كل واحد مما ذكرنا فنقول :

حسناته

١ - دفع التتار عن اقتحام الأراضى المصرية : (١)

(١) نذكر فى الجزء الثانى كلمة أخرى عن التتار . وقد اعتمدنا فى هذا الباب على العبر لابن خلدون ، والبدائع لابن إياس ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى والسلوك للمقريزى وعجائب المقدور لابن عربشاه .

لقد كان زحف التتار من أواسط آسيا إلى غربها شرو باء أصيب به غرب آسيا في العصور الوسطى. فلقد طغت سيول التتار عليه ، وسقطت دوله في أيديهم ، أذاقوا بلاده مر الخسف والهوان ، وأراقوا الدماء فيه بلا روية ولا ورع، غير مبالين بصغير ولا كبير ولا عالم ولا جاهل ولا امرأة ولا طفل . وما زالوا جادين في زحفهم وطغيانهم كسيل العرم ، حتى بلغوا مدينة بغداد فأسقطوها وقتلوا خليفتها وولى عهده وشتتوا شمل أهلها ، وكادوا لهم كيدا شديدا ، وملكوا الكثير من بلاد العراق ، وساروا على ضفاف الفرات ، وتاخموا حدود المملكة المصرية في الشام وفي حلب ، وامتلكوا بعض تلك النواحي .

في تلك الأثناء كانت دولة سلاطين المماليك قد تكونت في مصر ، وامتلك أمراؤهم ناصية الأمور فيها. فلمحوا الخطر التتري يقترب منهم رويدا رويدا ، فجمعوا جموعهم وحملوا أسلحتهم ، وهناك في بلاد الشام وحلب وقعت الوقائع بين الفريقين ، وكان النصر فيها غالبا حليف سلاطين مصر ، فردوا بذلك التتار عن ملكهم مدحورين .

ظلت دولة التتار متاخمة للدولة المصرية وأملاكها طيلة قرنين تقريبا . وتقلبت بها الأحوال حتى انقسمت دولا ، ثم زالت جميعها عام ٩٠١ هـ ، وكان آخر ملوكهم « محمد بن أبي سعيد » صاحب سمرقند ، وقد قتل في العام المذكور (١) وكان لابد من النزاع بين الدولتين . وكان التتار في أغلب أمرهم الطاغين الباغين على أملاك مصر ، والمعتدين على أطرافها ببلاد الشام وحلب . فصبر لهم ملوك مصر إلى آخر لحظة من لحظاتهم ، وظلت الحرب دائرة الرحى بينهما ، والعداء مستمرا ، والوقائع

---

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٢٩٢.

سجالا ، والنصر متبادلا ، وبين الفينة والفينة فترة صبر و انتظار ، وريث وراحة .

وكان التتار يمنون النفس بدخول مصر أسوة بسواها ، فردتهم شجاعة المماليك وتماسكهم إزاء هذا العدو الخارجي الممقوت . فدالوا ودالت معهم أمانيهم . وسلمت مصر وقاهرتها من كل أذى كان مرتقبا ، ومن كل سوء كان منظورا ، كذلك الأذى والسوء اللذين أصابا بلاد العراق وبغدادها .

ونستعرض هنا بإيجاز تاريخ هذا النزاع فنقول :

حروب التتار فى الممتلكات المصرية ومقاومة سلاطين مصر لهم

نذكر هنا أهم هذه الحروب ووقائعها الفاصلة فمنها :

١ ـ لما فرغ التتار من احتلال بغداد والتمثيل بأهلها ، لووا أعناقهم شطر بلاد المملكة المصرية والشامية وبدءوا ببلاد الشام . فبعث ملكهم « هولاكو » ثلاث رسائل إلى أمير دمشق المسمى الملك الناصر ؛ إحداها بعد الأخرى يهدده فى كل منها ويتوعده ، ويراوده على التسليم . وفى إحدى هذه الرسائل يقول له :

أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء (١)

وأخذ هولاكو فى الزحف على مدن الشام وحلب فاسقطها مدينة أثر مدينة ودخل فى طاعته كثير من حكامها وفر آخرون من وجهه .

فشعر سلطان مصر حينئذ المظفر قطز بخطر الغزو يهدد سلطنته من أطرافها ، وخاصة عند ما وافته الأخبار بأن طلائع التتار بلغت ظواهر دمشق ، وأخذت فى

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى فى ترجمة الخليفة المستعصم بالله . وسلوك المقريزى ج ١ ص ٤١٥ .

النهب والسلب والقتل والأسر . وخاصة أيضا عند ما بعث هولاكو إليه أحد أمرائه « كتبغا » برسالة تهديدية أخرى يذكر فيها سطوته وقوة جنده . وفيها يقول : « ياأهل مصر أنتم قوم ضعاف فصونوا دماءكم منى ، ولا تقاتلونى أبدا فتندموا (٢) » .

فاستشار السلطان المظفر قطز أمراء دولته فى الأمر فأجمعوا على محاربة التتار . فجمعوا عددا ضخما من الجنـــود بينهم كثير من عربان الشرقية والغربية . وقد عاونهم أهل مصر بالمال والرجال ، فهما منهم أن هذا القتال جهاد فى سبيل الله . ولعل مما ساعد على ذلك أن التتار كانوا وثنيين ومنهم من يعبد الشمس .

وفى أواخر شهر شعبان سنة ٦٥٨ هـ نزل السلطان المظفر من قلعة الجبل فى موكب عظيم حتى بلغ الريدانية وهناك أمر بإعدام رسول هولاكو « كتبغا » وأربعة وفدوا معه من التتار . ثم أخذ فى المسير إلى الصالحية ثم فلسطين حتى بلغ بجنده « عين جالوت » ، وكان هولاكو قد رحل عن بلاد الشام تاركا فيها جنده ونائبه . وهناك تلاقى العسكران فى موقعة هائلة استمر فيها القتل فى كل فريق ثم انجلت بغبارها عن هزيمة شنيعة للتتار قتل فيها قائدهم « كتبغا » ، وانتصر جنود مصر انتصارا مبينا . وكانت هذه الواقعة فى يوم الجمعة ٢٥ رمضان عام ٦٥٨ هـ .

ثم تتبع جند مصر أثر التتار حتى تلاقوا بهم مرة أخرى عند « بيسان » ، فكانت بها موقعة أحر من الأولى قتل فيها نصف التتار وغنم جند مصر غنائم كثيرة .

وقد تجلت شجاعة المماليك البحرية فى هاتين الموقعتين وخاصة الأمير « بيبرس » الذى ملك مصر فيما بعد ، وتلقب بالظاهر .

٢ — لما استوى الظاهر بيبرس على عرش مصر ، وأقام الخلافة العباسية الثانية

---

(١) ابن إياس ج ١ ص ٩٦ . والسلوك ج ١ ص ٤٢٧ وفيه نص الرسالة .

وأجلس فى كرسيها الإمام أحمد الملقب بالمستنصر بالله عام ٦٥٩ هـ ، رأى أن يجهزه بطائفة من العساكر السلطانية ويمده بالمال والعتاد نحو بغداد ، كى يستردها من التتار ويعيد ملك بنى العباس . فسار المستنصر فى هذا العام بجنده حتى بلغ إلى الفرات فخرج إليه أمير التتار إذ ذاك وهو « قرابغا » والتقى به عند « الأنبار » فدارت الدائرة على التتار وولوا الأدبار . ولكنهم عادوا فى الليل فكروا على جند الخليفة وأحاطوا بهم وشتتوا شملهم وهزموهم هزيمة نكراء. واختفى الخليفة من ذلك الحين ولم يعثر عليه . ـ وقد كانت هذه الحادثة مثار أسف شديد لدى الظاهر بيبرس .

٣ ـ وفى عام ٦٧٠ هـ فى عهد بيبرس جاءت الأخبار بعودة التتار إلى الإغارة على البلاد وأنهم بلغوا الفرات وملكوا « البيرة » فخف للقائهم ومعه أمراؤه وجنوده يتقدمهم الأمير قلاوون الألفى ـ المنصور قلاوون فيما بعد ـ والأمير بيسرى ، فتلاقوا على ضفاف الفرات فى موقعة عظيمة دارت رحاها على التتار فقتل منهم وأسر عدد كبير .

وفى عام ٦٧٥ هـ عاود التتار الزحف ، فخرج إليهم بيبرس ، واتجه إلى حلب ولقيهم فى معركة حامية ، فأثخن فيهم ، حتى فر ملكهم « أبغا » ، فاتبعه بيبرس إلى « الأبلستين » وتلاقوا مرة أخرى ، فانتصر بيبرس بعد أن قتل نحو مائة ألف نفس وهرب أبغا إلى جهة « زبيد » وبيبرس يطارده . ثم عاد بيبرس إلى « قيسارية » وحاصرها ، فاستسلم له أهلها .

٤ ـ وفى عام ٦٧٩ هـ فى عهد المنصور قلاوون أغار التتار بزعامة الأمير « منكوتمر » أخى ملكهم « أبغا » على مدينة حلب فملكوا ضياعها وأوشكوا على امتلاكها هى . فخف إليهم المنصور فى عديد ضخم من جنده على ظهور الخيل . فما سمع التتار بقرب قدومهم حتى جلوا عن حلب وفروا ، بعد أن ألحقوا بها

ضروبا من الفساد . فلما سمع المنصور خبر نكوصهم وهو فى غزة إلى القاهرة . وما لبثوا هم أن عادوا الى حلب يعيثون فيها فسادا . فخرج المنصور ثانيا إلى لقائهم وأخذ السير فى أثرهم حتى تلاقوا على « المرج الأصفر » فى أوائل عام ٦٨٠ هـ . فكانت بين الفريقين واقعة هائلة ، انهزم فيها التتار شر هزيمة ووقع السبى والغنم فى صفوفهم وعتادهم .

٥ - وفى عام ٦٩٩ هـ فى عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ، أخذ التتار فى الزحف على مدينة حلب مرة ثانية ، بقيادة ملكهم غازان بن أرغون بن أبغا ابن هولاكو ، بجند يبلغ عددهم نحو مائتى ألف . وقد زين لغازان هذا الغزو الأمير قفجق الذى كان نائبا على الشام فى عهد المنصور لاجين ، وهمّ المنصور بالقبض عليه ففر إلى غازان .

خرج الناصر محمد إلى لقائه بجند كثيف فى ١٥ صفر من العام المذكور ، فبلغ دمشق فى ٨ ربيع الأول ، ثم تلاقى الفريقان فى « سلمية » قرب بعلبك ، فدارت الدائرة على الناصر ففر إلى بعلبك ونهب عتاده وذخيرة جنده .

هذا النصر الذى أصابه « غازان » خول له غزو بلاد الشام جميعها ودخول مدينة دمشق . ولهذا تحول اليها . فخاف أهل دمشق مغبة الأمر ، وأفدوا وفدا من خيار علمائهم إليه ليطلبوا منه الامان . وكان فيه بدر الدين بن جماعة وزين الدين الفارقى وتقى الدين بن تيمية الحرانى ونجم الدين بن الصرصرى وعز الدين بن تركى وعز الدين بن القلانسى وجلال الدين القزوينى وغيرهم . - وكان غازان قد بعث إلى أهل دمشق الأمان

ثم إن « غازان » حاصر قلعة دمشق ولم يستطع الاستيلاء عليها لمناعتها . فرحل عنها وولى نيابة دمشق للأمير قفجق ثم إن الملك الناصر عاد إلى القاهرة

وأعد جيشه من جديد وزحف به على دمشق فأظهر له نائبها قفجق الخضوع ومن ثم عاد إلى عاصمة ملكه .

ثم مالبث التتار حتى أعادوا الكرة على ضفاف الفرات عام ٧٠٠ هـ ، فخرج الناصر للقائهم مرة ثالثة . فلما بلغ غزة جاء الخبر أن نائب حلب كسرهم كسرة حاسمة فروا على إثرها هاربين . فعاد الناصر الى القاهرة .

وفى عام ٧٠٢ هـ ، تواترت الأخبار عن حلب أن أحد أمراء غازان وهو « قطلوشاه » قد دخلها فجأة بجملة من جنده واحتلوها . فبعث إليهم الناصر عدة من الجنود لإجلائهم . فسار الجنود فبلغوا غزة وهناك علموا أن غازان قد تحرك، وأنه وصل إلى الرحبة ، وأن نائبها قد خضع له . فهب الناصر حينذاك لقتال التتار وجمع جموعا كثيفة بينهم كثير من العربان . وسار بهم إلى الشام . وكان « غازان » قد قارب حماة . فبلغ الشام فى مستهل رمضان وهناك فى « مرج اهط (١) » دارت واقعة رائعة انفرط على إثرها عقد التتار ودارت الدائرة على « غازان » وجنوده ، وأبيد نحو ثلثهم ، وتشتت شمل البقية وغنم منهم الشىء الكثير . وكانت هذه الواقعة إحدى الوقائع الحاسمة بين التتار ومصر .

ومع ذلك فقد عادوا لعبثهم مرة أخرى عام ٨٠٧ هـ ، ولكن وقع الخلف فى صفوفهم فنجت بذلك حلب من شرورهم .

وفى عهد السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون أرسل إليه نائب حلب فى عام ٧١٢ هـ مملوكا يخبره أن التتار قد عادوا إلى حركتهم ضد البلاد ، فعبأ السلطان جنوده على عجل فى سبعة أيام ، ورحل توا إلى ديار حلب . فلما بلغ غزة وردت

---

(١) يسميه ابن خلدون « مرج الصفر » ويقال له أيضا « شقحب » .

إليه الأخبار بتراجع التتار خوفا منه ، ورحلوا عن مدينة الرحبة إلى بلادهم بعد أن كسرهم نائبها كسرة قوية . فعدل الناصر عن المسير إلى حلب وسافر إلى بلاد الحجاز حاجا .

ومن ذلك الحين وقف نسبيا تعدى التتار على أملاك الدولة زمنا طويلا حتى كانت سلطنة الظاهر برقوق .

٦ - وفى عهد السلطان برقوق ظهر ملك للتتار قوى الشكيمة قاسى القلب محب للتدمير شبيه بهولاكو . وهو « تيمور لنك » . وقد وردت أنباؤه إلى أسماع المصريين عام ٧٨٨ هـ ، إذ أرسل إليهم صاحب ماردين رسولا ينبىء السلطان أن « خارجيا » من التتار الجفطاوية يقال له « تمرلنك » استولى على البلاد وبلغ مدينة « تبريز » وخربها وقتل كثيرا من أهلها ، وعلى وشك الزحف إلى بغداد ، وأن صاحب بغداد القان أحمد بن أويس أخذ حذره لهذا الزحف .

وبعد قليل جاء رسول من القان أحمد ينبىء السلطان أن « تيمورلنك » استولى على مدينة « قرباغ » ونهبها وسبى أهلها . ويطلب إليه الحذر . .

فأرسل السلطان برقوق الأمير « طغاى » ليتلمس أخبار هذا الطاغية . فعاد إليه فى جمادى الآخرة عام ٧٨٩ هـ ، وأخبر أن « تيمورلنك » قد وصلت طلائعه إلى إلى الرها وانهزمت أمامها جنود « قرا محمد » أمير التركمان ، وأن بوادر عسكره أيضا قد وصلت إلى ملطية . حينئذ أخذ السلطان برقوق يعد العدة للقتال . غير أنه عدل ثانيا عن عزمه حينما علم أن « تيمور لنك » انسحب إلى بلاده . - وكان برقوق قد أرسل طليعة إلى بلاد حلب ، فلما بلغت سيواس تقابلت بجند « تيمورلنك » وكسرته

ثم إن « تيمور لنك » ما عتم أن كر على بلاد الأكراد ، ثم حاصر البصرة ، وتواترت الأخبار أنه يعد العدة لغزوها وفتحها . فساد الخوف بلاد مصر وهب

سلطانها برقوق يجمع الجند ويستعد للقائه .ولا سيما عند ما بلغته أخبار تيمورلنك فى أوائل عام ٧٩٦ هـ بأن طلائعه وصلت إلى الرها . فخرج بحملته إلى بلاد الشام فى ربيع الآخر فوصل دمشق فى يوم الاثنين ٢٢ منه .ثم رحل إلى حلب ، فعلم أن جنود «تيمورلنك» قد بلغت إلى البيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات . فأخذ جند مصر فى عبوره ليلا - وقيل إنهم كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل فيعبرون بها إلى الضفة اليسرى .وأوقعوا بهم وغنموا منهم الشىء الكثير ولكنهم لم يلتقوا جميعا فى معركة حاسمة . ثم رحل «تيمورلنك» بلا منازلة ، فعاد برقوق إلى مصر .

وفى عام ٧٩٩ هـ جاء رسول من «تيمورلنك» يطلب إلى السلطان برقوق إطلاق سراح «أطلمش» المأسور لديه .وهو قريب تيمور . فرفض برقوق ، حتى يطلق «تيمور» ما لديه من الأسرى والنواب التابعين لمصر .

٧ - وفى عهد الملك الناصر فرج بن برقوق اعتدى جند «تيمورلنك» على بغداد ، فاجتمع لصده صاحبها القان أحمد بن أويس ومعه قرا يوسف أمير التركمان وكسروا الجند كسرة بالغة . وذلك فى عام ٨٠٢ هـ . فلما انكسروا قصدوا مدينة «ملطية» وكانوا نحو سبعة آلاف نفس . ثم بعثوا إلى نائب حلب يطلبون إليه أن يخلى لهم مكانا لنزولهم . فهب نائب حلب ومعه نائب حماة ومعهما جنودها ودارت دائرة الحرب بين العسكرين فانهزم نائب حلب وحماة وقتل من عسكرهما عدد كبير منهم «جانى بك اليحياوى» أتابك العسكر بحلب ، وأسر نائب حماة «دقماق المحمدى» فاشترى نفسه منهم بالمال وعاد نائب حلب اليها مهزوما .

جاءت أخبار هذه الوقائع كلها إلى مصر فى ذى القعدة من العام المذكور . فلما سمع بها السلطان فرج رسم لنائب الشام ونائب صفد ونائب طرابلس بأن يجمعوا

جنودهم ويبيموا شطر حلب ويقيموا بها .

وفى أوائل عام ٨٠٣ هـ أرسل نائب حلب رسولا إلى السلطان يخبره بوصول جند « تيمورلنك » إلى سيواس ، وأن ملك بنى عثمان والقان أحمد بن أويس وقرا يوسف توجهوا الى مدينة « برصا » وتركوا بلادهم خوفا . وقيل إنه نهب مدينة سيواس ، وقتل أهلها ، يدفن بعضهم أحياء ، ويحرق البعض الآخر .

ثم جاءت الأنباء بامتلاكه عنتاب وغيرها ووصوله إلى الباب وبزاغا قرب حلب. وبعث يهدد نائب حلب ويغلظ له فى الحديث ، فخنق هذا وضرب أعناق رسل تيمور لنك ، وأخذ فى تحصين المدينة والاستعداد للقاء العدو بالمدافع والمكاحل والجنود . فما كان من « تيمور » إلا أن دلف إليها من ناحية قرية « جبلان » وأحاط بها. فخرج إليه عسكرها فبطش بهم « تيمور » بطشا بليغا ، ففروا إلى مدينتهم فى أسوأ حال ، وجنود « تيمور » فى أثرهم ، فقتلوا من قتلوا وسبوا من سبوا ونهبوا الشىء الكثير . وعاثوا بها وبأهلها فسادا ، وصارت المدينة أمامهم كالكلأ المباح . وذلك فى شهر ربيع الأول عام ٨٠٣ هـ . وقيل كانت القتلى أكواما مكدسة فى شوارع المدينة . حينئذ طلب نائبها ومن معه الأمان فآمنهم تيمور وامتلك زمام المدينة وقلعتها (١) .

سمعت مصر وسمع سلطانها وأمراؤها بأخبار تيمور ، وما أجرى على مدينة حلب من الشقاء ، فسرى الألم فى النفوس وملك الخوف الأفئدة . وبعث السلطان الأمير « سودون بن زاده » والأمير « إينال حطب » لكشف الأخبار .

وقد علم بعد قليل أن « تيمور » أقام بحلب شهرا ثم انصرف إلى بلاد الشام ،

---

(١) أسهب السخاوى فى ذكر حوادث تيمور هذه فى ترجمته بالضوء ج ٣ رقم ١٩٢

وأنه بلغ جبل الثلج . فأخذ السلطان فرج فى جمع جنوده وتنظيم صفوفهم استعدادا للقتال . ثم يمم بجنده الكثيف شطر البلاد الشامية فى شهر ربيع الثانى عام ٨٠٣ هـ فبلغ غزة . ثم سار إلى دمشق فبلغها فى يوم الخميس ٦ جمادى الأولى . ثم التقى من الجمعين طائفتان فانهزمت طائفة تيمور وولوا الأدبار .

قيل إنه لما وقعت الهزيمة فى صفوف التتار ، فر كثيرون منهم إلى صفوف سلطان مصر ، وانضووا تحت لوائه مظهرين الطاعة له . وعقب ذلك ظهر الخلف بين أمراء السلطان وجنوده وانقسموا شيعا وراجت الفتن وزايله من زايل ، فاضطره بعض من معه الى العودة الى مصر ، فعاد ، فبلغها فى جمادى الآخرة . — أقول لعل الوقيعة تسببت عن هؤلاء الدخلاء من جند التتار بين صفوف جند السلطان ولعلهم كانوا « طابورا خامسا » على حد تعبير الساسة فى عصرنا الحديث .

عاد السلطان فرج هذه العودة على الرغم من انتصار جنده ، وعلى الرغم مما قيل من أن « تيمورلنك » بعث اليه فى طلب الصلح . . . عاد السلطان فأخذ يعد عدة جديدة للخروج إلى بلاد الشام ولقاء التتار فى موقعة حاسمة . وخاصة أن التتار لما علموا بنكوص السلطان وبالفتنة التى وقعت فى جنود مصر ، زحفوا إلى دمشق ووقعت معارك عدة بينهم وبين أهلها . ثم طلب منهم تيمورلنك أن يتفاهموا معه فبعثوا إليه من لدنهم سفيرا للمفاوضة وهو القاضى « تقى الدين بن مفلح الحنبلى » ومعه خمسة من أعيان دمشق . ثم عاد ابن مفلح إليهم وطلب إليهم الخضوع لتيمور وانحاز هو إلى جانبه ، وأراد أن يفتح لجنوده باب النصر ليدخلوا منه إلى دمشق . فمنعه نائب القلعة وهدده بإحراق البلد كله إن فعل . وقد انقسم سكان دمشق فريقين فريقا يريد التسليم ، وفريقا يأباه . ثم أرسل « تيمورلنك » أمانا لأهل دمشق مع فئة من أعيانها ، فقرىء عليهم فى جامع بنى أمية ، ففرحوا به وفتحوا له أبواب مدينتهم ! وبذلك سقطت دمشق فى يد تيمور . فلما امتلك ناصية الأمور فيها فرض عليها

الغرامات الباهظة الثقيلة ، وكان زعيم جبايتها له القاضى ابن مفلح . فلقى الناس منه الأذى والسوء ، إذ جمع مالهم ودوابهم وألقى بها غنيمة باردة بين يدى تيمور ، ومع ذلك لم يقنع بها وطلب منه سواها . فلما أخبره أن البلد أقوى وأقفر ، ولم يعد به مال ولا دابة ، حنق منه وقبض عليه وعلى أعوانه وقيدهم بالحديد . . . ثم إن تيمور لنك قسم المدينة بين أعوانه لينزلوا بها ويجبوا منها الأموال كل فى قسمه . ثم أذاقوا أهلها مر العذاب من ضرب وقتل وهتك عرض وتعذيب مختلف الأنواع ، وامتلأت ساحاتها بجنود التتار ينشرون فيها كل فساد وموبقة . . . وظل الحال كذلك حتى شهر شعبان من عام ٨٠٣ هـ وفى مستهله أمر « تيمور لنك » بإحراق دمشق فاشتعلت فيها النار وتداعت مبانيها وصوحت أرضها وأصبحت إطلالا باليـة . . . وهذا جزاء الاستسلام والاختلاف .

ثم رحل « تيمور » عنها بعد فساد دام ثمانين يوما أقامها فيها . وقيـل إنه أمر بالفتك بأطفال المدينة الذين بقوا بعد هذا الدمار كله فقتلوا جميعا .

ومن عجيب الأمر أن « تيمور لنك » بعث إلى السلطان فرج يطلب إليـه الإفراج عن « إطلمش » قريبه الذى كان أسيرا لدى برقوق ولم يرض بإطلاقه ويعتذر إليه عما بدر منه . . . فأطلقه فى مقابل أن يطلق « تيمور » سراح من عنده من الأسرى ، فأطلقهم . ورحل بحملته عن بلاد الشام .

حينئذ عين السلطان الأمير نوروز الحافظى نائبا على الشام ليصلح فيها ما أفسدته يد « تيمور » .

ومن لطف الله أن مات « تيمور لنك » ، وجاءت أخبار موته إلى مصر فى عهد السلطنة الأولى لفرج بن برقوق . وقد أثبت ابن إياس خبر موته فى حوادث عام ٨٠٤ هـ . وأثبتها ابن عربشاه فى كتابه « عجائب المقدور » عام ٨٠٧ هـ فى ليلة الأربعاء

١٧ شعبان . وذلك بعد أن ملك من أواسط آسيا إلى حدود الشام .

وطبيعى أن الفتن والحروب الكثيرة التى وقعت فى صفوف التتار وبين دولهم المتعددة فيما وراء الشام شرقا إلى أواسط آسيا ، بين الحين والحين كانت تعفى سلاطين مصر وأهلها وأهل الشام من مدافعتهم . ويضاف إلى هذا قيام دولة بنى عثمان واستحرار النزاع بينها وبين التتار وسواهم مما أقعد همة التتار فى الأجزاء الأخيرة من العصر الذى نحن بصدده عن انتقاص أطراف المملكة المصرية . وإن كان بنو عثمان أنفسهم أصبحوا جارا وخصما خطرا عليها جديدا ، شغلها بكفاحه زمنا حتى أضاع استقلالها فى سنة ٩٢٣ هـ .

٢ — دفع الفرنجة عن ممتلكات مصر ودوائر نفوذها

مما شغل بال سلاطين المماليك فوق انشغالهم بمدافعة التتار ، إغارة الفرنجة على ممتلكاتهم وطمعهم فى الاستيلاء عليها ، وما كانت الحروب التى وقعت بين الفريقين إلا امتدادا لتلك الحروب الصليبية التى اشتهرت فى العصور الوسطى مبتدئة من عهد الفاطميين فالأيوبيين . وكان الفرنجة قد أسسوا وملكوا مدنا عدة فى سواحل البحر الأبيض فى داخل بلاد الشام وحلب ، وأصبحت هذه المدن عبارة عن مستعمرات لهؤلاء الأوربيين فعمل سلاطين مصر على استردادها منهم ومقاومتهم .

١ - ومن أشهر سلاطين مصر الذين قاوموهم : « الظاهر بيبرس » . فقد حاربهم واسترد منهم كثيرا من المدن التى انتزعوها فيما سلف أو أسسوها مستعمرات لهم فى الشام وسواحل البحر المتوسط الشرقية ، ومن هذه البلاد : قيسارية وأرسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا والمرقبة وحلب وبانياس وطرسوس .

وكان فتح صفد عام ٦٦٤ هـ ، وفتح أنطاكية عام ٦٦٦ هـ ، وفتح قيسارية عام ٦٧٥ هـ .

٢ - ومنهم المنصور قلاوون ، وقد فتح مدينتى المرقب وجبلة ، وفتح طرابلس عام ٦٨٨ هـ، حاصرها ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة بعد ٣٤ يوما (١) ومنهم الأشرف خليل بن قلاوون ، فقد جرد على مدينة عكا جيشا كثيفا وسار إليها فى عام ٦٩٠ هـ ونصب حولها ٧٥ منجنيقا ، وحاصرها عدة أيام ثم اقتحمها فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة من العام المذكور ، وهدم أسوارها . ومنها سار الى جبت وبيروت فاقتحمهما . ويعتبر بعض المؤرخين سقوط مدينة عكا ومدن الساحل فى يد سلاطين مصر عام ٦٩١ هـ نهاية للحروب الصليبية الدامية .

٣ - على أن ثمت وقائع أخرى تلت هذه منها : هجوم فرنجة جزيرة قبرص على ميناء الاسكندرية عام ٧٦٧ هـ بقيادة حاجبهم فى أسطول عظيم يقال إنه بلغ سبعين مركبا مليئة بالعدد والعدة والخيول والفرسان ، فباغت سكانها ونضحهم بالنبل وأحرق باب المدينة واقتحمها ، ففر أهلوها منها وأصابهم فى فرارهم كثير من الأذى والسوء من عربان ضواحيها . أما فرسان قبرص فقد نهبوا من المدينة ما استطاعوا حمله ، وأسروا من أسروا ، ثم عادوا إلى سفنهم وأقلعوا إلى حيث أتوا . وكان نائب المدينة إذ ذاك قد فارقها للحج ، وكان سلطان مصر إذ ذاك الأشرف شعبان بن الأمجد حسين وكان نائب سلطنته يلبغا العمرى فكتب كتيبة وساقها إلى الاسكندرية حينما علم الخبر ، فوجد الفرنجة قد رحلوا عنها فامتلأ غيظا وحنقا ، وأمر بإصلاح ما أفسدوا . ثم هم بصنع عمارة بحرية قوية ، ولكن الأيام لم تعاونه (٢) .

وذكر ابن إياس فى هذه الواقعة أن نائب الاسكندرية جمع عددا من عربان البحيرة والتقوا بالفرنجة القبرصيين فى معركة حامية فانكسر النائب ومن معه

---

(١) العبر ج ٥ ص ٤٠١

(٢) العبر ج ٥ ص ٤٥٤ ، البدائع ج ١ ص ٢١٤

وفروا من وجههم . فأحرقوا باب رشيد ودخلوا منه إلى المدينة وعاثوا فيها فسادا ، ونهبوا وسلبوا وقتلوا كثيرا من المسلمين ، ثم فروا قبل مجيء جند السلطان من القاهرة .

٤ - ومما يذكر أن السلطان الأشرف برسباى بعث تجريدة قوية إلى قبرص عام ٨٢٩ هـ ففتحها وأسر ملكها وجيء به الى القاهرة مصفدا أسيرا ، ومعه عدد من جنده . وكان ملكهم راكبا وعليه خوذته وسلاحه . فأمر الأشرف بأن تعلق هذه الخوذة على باب مدرسته الواقعة بسوق الوراقين لتكون عبرة وذكرى .

٥ - وفى عام ٨٦٣ هـ استغاث ملك قبرص على أعدائه بملك مصر الأشرف إينال فبعث معه تجريدة بقيادة الأمير يونس الدوادار فبلغت قبرص ولكن قائدها عاد بلا نتيجة وترك بقية جنده بها .

٦ - وفى عهد الأشرف قايتباى أخذت جموع من الفرنجة يتلصصون على سواحل مصر الشمالية ويباغتونها بين الحين والحين ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم ، ويأسرون من التجار وغير التجار من يقع لهم . وأكثر ما تلصصوا على سواحل دمياط والإسكندرية . فاهتم قايتباى للأمر وكان يعين لهم فى كل مرة تجريدة بحرية لتتبعهم وإرجاع ما أخذوا وقطع دابرهم . وفى عام ٨٨٠ هـ وقعت إحدى حوادثهم فى مدينة الاسكندرية حيث أغاروا عليها واحتالوا حتى أسروا عددا من تجارها ومن بينهم أخصاء للسلطان منهم ابن عليبة يعقوب وعلى الكيزانى وعلى التمراوى . وحملوهم معهم إلى بلادهم . فأمر السلطان بالقبض على جميع تجار الفرنجة بثغر الاسكندرية وبعث أحد خواصه وهو « قيت الساقى » لتنفيذ الأمر ، فاضطلع به ، وطلب إلى المقبوض عليهم أن يراسلوا ملوكهم بما فعل السلطان ليكون ذلك عبرة وعظة ولكى يطلقوا سراح تجار الاسكندرية حتى يطلق سراحهم فى مقابل ذلك.

وقد تم الأمر وفق مشيئة السلطان وعاد الأسرى .

٧ - وفى عهد الأشرف الغورى نشط البرتغاليون إلى إيذاء مصر بدافع حقدهم عليها لما كانت تجبيه من الضرائب على البضائع المارة بها بين الشرق والغرب ، إذ كانت مصر هى الطريق الوحيد بين الجهتين فأخذوا فى التلصص على الشواطىء المصرية وغير المصرية من سواحل البحر الأبيض والأحمر وشرق أفريقيا ، يتلمسون السفن المصرية والمتاجر المصرية فيلحقون بها السوء . وكان من نتائج نشاطهم كشف طريق رأس الرجاء ، الذى هدد مصر فى مورد من أهم موارد ثرائها . وقد استغاث بالغورى عدد من أمراء الهند والعرب ممن تربطهم بمصر روابط اقتصادية ودينية ، زد على ذلك إيحاء هؤلاء الفرنجة إلى ملك الفرس إذ ذاك بالاغارة على ممتلكات مصر واعديه بالمساعدة .

فاضطر الغورى إزاء ذلك إلى إنشاء عمارة بحرية بقيادة أحد أمرائه لرد عدوان البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة فى شرق إفريقيا وبلاد العرب والهند . فظلت عدة سنوات ولكنها لم تفلح فى رد عدوانهم .

٣ — المحافظة على استقلال البلاد وبسط نفوذها

على الرغم من أن طبقة المماليك طبقة طارئة على البلاد المصرية ، وعلى الرغم من أنها طبقة متجددة تجددا خارجيا باستمرار ، اكتسبت بالاقامة والاستقرار صفة المصرية ، واتخذ سلاطينها وأمراؤها هذه البلاد لهم موطنا لا يعرفون لهم موطنا سواه . ولا بدع فقد جلبوا إليه أو نشئوا فيه صغارا ، وشبوا تحت سمائه وفوق أرضه ، وملأ هواؤه صدورهم حياة وحركة ، وحاطتهم نعمه أينما ساروا ، واتسع لهم صدره بما لم يتسع به لهم صدر غيره . وآل إليهم حسب تقلبات

الأحوال ، حكمه . وتطلب منهم حمايته .

فلا غرابة إذن أن نصبوا أنفسهم ذادة عنه ومدافعين ، وحاطوا استقلاله بكل ضرب من ضروب الصيانة ، وغزوا باسمه فى كل مكان يحيط به ، ونشروا رايته على كثير من الآفاق المجاورة ، وأدخلوا فى حوزته عددا ضخما من البلاد . وأحسنوا سمعته بين دول العالم المعروفة إذ ذاك بصفة عامة ، وبين دول المسلمين بصفة خاصة. فانتشر صيت مصر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وامتد ملكها فى بعض أيامهم بل وفى معظم أيامهم إلى بلاد المغرب غربا ، والنوبة جنوبا ، وبلاد الحجاز والشام وحلب وضفاف الفرات شرقا ، وإلى قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط شمالا .

حافظوا على استقلالهم ، وبطشوا بكل من بغى عليه ! واعتدى على طرف هذا الوطن . لذلك شغلوا جزء اكبيرا من زمنهم بالحروب الخارجية .

وحافظوا بصفة خاصة على بلاد الشام وحلب كأنما اعتبروهما جزءا من مصر لا يتجزأ . وعنوا بهما عنايتهم بالبلاد المصرية ، ونسقوهما من الناحية الإدارية نسقا مشابها للنسق الادارى المصرى تقريبا ، فكانت مدنهما نيابات مصرية يعين السلطان لكل منها نائبا ، فمنها نيابة صفد وطرابلس وحلب وحماة ودمشق وغزة وغيرها . وكان نائب دمشق يعتبر أكبر نواب السلطان بعد نائب السلطنة وكافلها المقيم بالقاهرة .

ومن أجلهما اعتركوا مع التتار والفرنجة ، وردوا كلا منهما مرارا عنهما . ومع ذلك لم يقتصر نزاعهم الخارجى على التتار والفرنجة فحسب ، بل كان هناك أمراء التركمان وملوك فارس وملوك بغداد وأمراء الأرمن وعربان الحجاز ، وغيرهؤلاء وهؤلاء ، كثيرا ما طمعوا فى أملاك الدولة ، ووثبوا أو تحفزوا للوثوب عليها ، فهب لهم أمراؤها وردوهم على أعقابهم داحرين .

ومن أدهى ما ابتليت به السلطة المصرية ، قيام دولة الأتراك العثمانيين ، التى أسست على أنقاض الدول السلجوقية ثم الدول التترية المتبعثرة ، وملكت بلادا فى أرمينية وشرق الفرات فوق رقعتها فى بلاد الأناضول . لقد أخذ النزاع بينها وبين مصر يحتدم شيئا فشيئا منذ عهد الأشرف قايتباى ، فنادهم سلاطين مصر عنها ودفعوا غائلتهم وأوقفوا أطماعهم . ولكن ما زال شرهم يكبر ويستشرى حتى كانت الطامة الكبرى التى أصابت مصر على يدهم إذ افتتحها سلطانهم سليم الأول . بعد جهاد عنيف من سلطانيها الأشرفين الغورى وطومان باى .

هكذا حافظوا على مصر واستقلالها . ولولا ما طرأ عليهم من فساد فى النية والتواء فى الطوية وتنازع أملته الأهواء والمطامع ، لظل لهم استقلالهم مصونا ولتغير بهم وجه التاريخ . وما ذلك إلا لأن بهم نزعة استقلالية ملموسة واستقتالا فى سبيلها .

ولم يقف جهد المماليك عند هذا الحد ، بل كانوا يمدون يد المعونة إلى كل من لجأ إليهم واستنجد بهم من ملوك المسلمين وأمرائهم . فعاون الظاهر بيبرس الخليفة المستنصر بالله لرد عرش العباسيين من التتار . وساعد السلطان برقوق القان أحمد ابن أويس صاحب بغداد ضد التتار أيضا . وبعث الغورى عمارة بحرية لمعاونة ملوك الهند والعرب على الفرنجة العابثين بسواحلهم وذلك حينما جاءت رسلهم فى طلب النجدة . وأرسل الغورى أيضا رسله إلى ملوك الفرنجة يلفتهم إلى ضرورة الرفق بمسلمى الأندلس وضرورة الكف عن محاصرة مدنهم فى نظير أنه يعامل رعاياه من الفرنجة معاملة حسنة ، مهددا بالاساءة إلى هؤلاء الرعايا إذا لم يستجب ملوك الفرنجة إلى ندائه . وذلك كله حينما ناداه صاحب الاندلس مستغيثا به من الحصار .

هكذا أتيحت فرص عدة لهؤلاء السلاطين ، بوءوا مصر فيها مركز الزعامة

الحربية والسياسية والأدبية بين أمم المسلمين فى العصور الوسطى .

٤ - رصد الأوقاف وبذل الأموال وصنع البر

من المفاخر التى تسابق إليها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأعيانهم إقامة الاوقاف ورصد الأموال الوفيرة على ضروب البر والإحسان . وسواء أكانوا مدفوعين إليه بعامل من الإيمان الصحيح بالله والعطف الحق على الفقراء والرغبة الخالصة فى عمل الخير ، أم كانوا مدفوعين إليه بعامل حب الظهور والرغبة فى المباهاة والسمعة والصيت فحسب ، أو بعامل الملق إلى الشعب وغض طرفه عن مساوئهم وأنواع ظلمهم أو بعامل الخوف على ذراريهم من الفاقة بعدهم إذ تئول أملاكهم إلى السلطان أو بأى عامل آخر من العوامل الاجتماعية أو الاقتصادية . فسواء أكان هذا أم ذاك فقد نشط المماليك إلى إنشاء الأربطة والسبل والمدارس والمساجد وأوقفوا عليها الدور والأراضى والأموال . وكثيرا ما كانوا ينتهزون فرصة عيد أو موسم أو جمعة أو أى ظرف آخر مناسب ويفيضون بالخير الكثير على الفقير والمحتاج من مال وطعام وكسوة فى البلاد المصرية أو الأماكن المقدسة أو غيرها . بل كان لبعض السلاطين عادات مرعية متبعة فى مناسبات خاصة يمدون فيها يد المعونة إلى المعوزين والمنكوبين . فكان هذا العمل من جانبهم حسنة من الحسنات خففت كثيرا من الويلات .

ونحن نسوق هنا طرفا من هذه الأعمال الخيرية نقلا عن ابن اياس لا على سبيل الاستقصاء والاستيفاء ولكن على سبيل المثال والاستدلال . فمنها :

١ - المستشفى المنصورى « البيمارستان » الذى أنشأه السلطان قلاوون عام ٦٨٢ هـ - قال ابن إياس : وجعل له فى كل يوم من الرواتب ألف دينار ، ووقف عليه أوقافا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك . وشرط فى وقفه أشياء

كثيرة من أنواع البر والخير مما لم يسبق فعله لأحد من الملوك من قبل ومن بعد . فهو من حسنات الزمان تحتاج إليه الملوك ويفتقر إليه الغنى والصعلوك .

وقال ما ملخصه : إن سبب بنائه أن كان المنصور قلاوون قد أطلق مماليكه فى العوام وأمرهم بقتلهم فظلوا يقتلون منهم نحو ثلاثة أيام وذلك لتوهمه مخالفتهم، ثم ندم على ما جنى وتقرب إلى الله بإنشاء هذا المستشفى . « ج ١ ص ١١٦ »

٢ ـ فى عام ٧٠٢ هـ وقعت زلزلة بالبلاد المصرية تهدم من جرائها عدة أبنية وأصيبت عدة مساجد منها الجامع الحاكمى والمدرسة المنصورية وجامع الظاهر بالشوايين وجامع صالح بباب زويلة وجامع عمرو . فقام عدد من الأمراء بترميم هذه المساجد على نفقتهم الخاصة عام ٧٠٣ هـ . « ج ١ ص ١٤٦ »

٣ ـ ومن محسناتهم خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان : قيل كانت ذات دين وبر وإحسان . أنشأت مدرسة بالتبانة ورتبت بها دروسا للمذاهب الأربعة ومجلسا للصوفية فى كل يوم ، وأسست مكتبا للأيتام وحوضا وسبيلا .

« ج ١ ص ٢٢٧ »

٤ ـ قيل إن السلطان برقوقا لما مرض فى أخريات حياته تقرب إلى الله بأن تصدق على العلماء والفقراء بمائتين وخمسين ألف دينار . وقيل إنه كان كثير البر والصدقات، فمن ذلك أنه أوقف لمدا فى الجيزة ينتفع من إيرادها الحجاج المنقطعون بالحجاز ، وكان له فى كل يوم من شهر رمضان عشرون بقرة تطبخ وتفرق على الفقراء ومعها ألف رغيف ، وكان يفرق فى كل سنة من القمح سبعة آلاف أردب فى الزوايا والمزارات . « ج ١ ص ٣١٤ ، ٣١٥ »

٥ ـ فى عام ٨٢١ هـ اشترك الطاعون والغلاء فى الهجوم على البلاد المصرية ، فاستسقى السلطان المؤيد شيخ ثم ذبح بيده قربانا لله عددا من الاغنام والابقار وفرقها على

الفقراء ، وفرق كذلك عليهم ثلاثين ألف رغيف . « ج ٢ ص ٦ »

٦ - فى عام ٨٢٢ هـ كملت عمارة جامع المؤيد فأوقف عليه السلطان المؤيد شيخ أوقافا كثيرة ، ورتب فيه الدروس وأجرى على الحاضرين فيها الطعام .

« ج ٢ ص ٧ »

٧ - ومن المحسنات خوند مغل بنت البارزى زوجة الملك جقمق ، كانت دينة خيرة ولها بر ومعروف ، عمرت جامع الشيخ مدين بالمقس ، ووقفت عليه أوقافا كثيرة . « ج ٢ ص ١٣٤ »

٨ - وفى سنة ٨٧٩ هـ رمم السلطان قايتباى مسجد عمرو ورتب ثلاثين صوفيا يقرءون فى تربته الخاصة وبنى لهم عدة بيوت حولها للسكنى ، وأجرى عليهم الأرزاق من الخبز والزيت والصابون وغيره . « ج ٢ ص ١٥٣ »

٩ - ولما حج قايتباى عام ٨٨٤ هـ بذل كثيرا من المال للفقراء فى طريقه وتصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار . ولما دخل المدينة المنورة فى أوائل عام ٨٨٥ هـ تصدق على فقرائها بخمسة آلاف دينار ، ثم إنه لما عاد إلى القاهرة من حجه هذا أخرج ستين ألفا من الدنانير الذهبية ليشترى بها قاضى قضاة الشافعية ما يناسب من أماكن أو ضياع أو غيرها ويجعلها وقفا لله على فقراء المدينة . فامتنع القاضى من ذلك ، فتولاه السلطان بنفسه وبنى ربوعا فى جهة باب النصر والبندقانيين والخشابين والدجاجين وغيرها . « ج ٢ ص ١٩٢ ، ١٩٤ »

١٠ - وفى عام ٨٨٦ هـ شرع قايتباى فى تجديد المسجد النبوى الشريف وتجميله وإعادة بناء قبته وتزويده بالحديد المرخم بدل الخشب وتغيير المنبر والمآذن . وبعث لذلك كبار المهندسين وعددا من البنائين والنجارين والمرخمين . وقد انتهى العمل منه فى أواخر عام ٨٨٧ هـ . وقيل أنفق السلطان فى ذلك نحوا من مائة ألف

دينار . وفى عام ٧٨٨ هـ بعث قايتباى مع المحمل مقصورة من الحديد للحجرة النبوية

« ج ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ »

١١ - ولما دخلت سنة ٩١٢ هـ تجمع عدد من الفقراء و« الحرافيش » فى يوم عاشوراء بأمر السلطان الغورى ، وكانوا جمعا غفيرا ، ونزل السلطان بنفسه ووقف فوق سلم المدرج وصار يعطى كل إنسان من الفقراء رجلا أو امرأة ، كبيرا أو صغيرا ، أشرفيا من الذهب . وقيل إنه فرق فى ذلك اليوم نحوا من ثلاثة آلاف دينار

« ج ٤ حوادث عام ٩١٢ هـ »

١٢ - وفى ذى الحجة عام ٩١٣ هـ . فرق السلطان الأضحية على العسكر وجماعة من المباشرين والفقهاء .

« حوادث عام ٩١٣ هـ »

١٣ - وفى ٨ شعبان عام ٩١٤ هـ نزل الغورى إلى الميدان وجمعت له فقراء المدينة « وحرافيشها » فاجتمع خلق كثير منهم رجالا ونساء ففرق عليهم لكل واحد منهم نصفين من الفضة . قيل إنه فرق فى ذلك اليوم نحوا من ٤٠٠ دينار .

« ج حوادث عام ٩١٤ هـ »

١٤ - وفى ٣ جمادى الآخرة عام ٩١٧ هـ ، نزل السلطان الغورى من القلعة وذهب إلى جامعه الذى أنشأه بالشرابشيين إلى مدرسته ، فمد له هناك الأمير « خاربك » مائدة حافلة . وأنعم السلطان فى ذلك اليوم على صوفية المدرسة وعلى البوابين والفراشين وأيتام المكتب بنحو من خمسمائة دينار . ولكل شيخ من مشايخ الدروس بعشرة دنانير أشرفية .

« ج حوادث جمادى الآخرة عام ٩١٧ هـ »

١٥ - ومما فعله الغورى فى باب البر والإحسان أنه لما وقف له فى جمادى الأولى عام ٩١٩ هـ القاضى فخر الدين بن العفيف وشكاله ضيق حاله رسم له بألفى درهم فى

كل شهر ، وزبديتين من اللحم فى كل يوم . وصنع مثل هذا الصنيع مع كثير من الناس فى الشهر المذكور ، ورد كثيرا من الرواتب والمجريات التى قطعت عن أهلها إليهم . « حوادث جمادى الأولى عام ٩١٩ هـ »

١٦ - وفى يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة عام ٩١٩ هـ حضر طومان باى الدوادار وكان مسافرا إلى الصعيد لجمع الغلال ، وساق معه عددا كبيرا من مشايخ العربان فى الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المغل . قيل إن عليهم نحوا من سبعين ألف أردب من القمح ، فلما عرضوا على السلطان سأل عن سبب قيدهم ، فأخبره . فسكت قليلا ثم قال : أطلقوهم جميعا فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى (١) . « ج ٤ حوداث جمادى الآخرة عام ٩١٩ هـ »

٥ — تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب

أفردنا لهذا الموضوع جزءا خاصا من كتابنا هذا ، وهو الجزء الثانى منه استوفينا الكلام فيه عن هذه الناحية لأنها من أهم ما نعنى به . وسقنا فى خلال بحوثه كلا ما عن المدارس والمساجد التى أنشئت فى هذا العصر لارتباطها به أكثر من ارتباطها بغيره ، ولهذا لم نتعرض لذكرها فى الباب السابق وهو باب الكلام عن الأوقاف وأعمال البر والإحسان .

سيئـــاته

١ - احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية :

أعتقد أن أول فرض على سلطان البلاد ، وأولى الامر فيها ، السهر على الرعية

---

(١) فى دار الكتب المصرية حجة شرعية مخطوطة تاريخها عام ٨٦٢ هـ صادرة من الاشرف إينال بوقفه على مدرسته بظاهر القاهرة خارج باب النصر . ومنه أملاك بطرابلس الشام ، وبالغربية بمصر وغير ذلك وهى رقم ٦٢ تاريخ .

والمحافظة على كرامتها ، وإنهاضها من عثارها ، وتوجيهها إلى خيرها ، وتزويدها بوسائل القوة المعنوية وتقويم أخلاقها بطرق عملية ، وبث التعليم بين طبقاتها ، بسياسة ثابتة وخطط مرسومة دقيقة ، وإفهامها موضع حقوقها ومكان واجباتها ؛ لتسير فى حياتها وفق هذه الحقوق والواجبات ، فلا تشتبك فيها الأطماع ، ولا تختلف الأهواء ولا تتضاد المصالح ، ما دام كل فرد يضطلع بنصيبه الطبيعى من المسئولية .

بهذا كله تسعد الأمة ، ويعيش الشعب عيشة هى أدنى إلى الكمال . والملك السعيد هو الذى يحكم شعبا سعيدا ، الثقة بينهما موفورة ، والمحبة متبادلة ، والروابط وثيقة تامة ، والصلة بينهما صلة ما بين الرأس والأعضاء فى الجسد الواحد .

فهل سرت هذه الروح الطيبة فى سلاطين مصر وأمرائها فى عصر المماليك؟ وهل كان هدفهم الأساسى من نضالهم فى الداخل والخارج إسعاد هذا الشعب وتزويده بوسائل الرفاهية والطمأنينة والحياة الكريمة ؟ كلا ! ولن يستطيع إنسان ما أن يقول إن الشعب كان وجهة هؤلاء السلاطين والأمراء . بل إن طبيعة وجودهم والطريقة التى توخوها فى حكم هذه البلاد تتنافى تنافيا كليا مع ما كنا نرجوه أن يكون بينهم وبين الشعب .

ونحن نعتقد أن على أولى الأمر واجب إنهاض الشعب ، وتثقيفه ، وحسن توجيهه إلى غاياته هو الانسانية لا إلى غايتهم هم الشخصية . نحن نعتقد ذلك لأن الشعب المربى المثقف الكريم الذى حسن توجيهه ، يكون أكثر صلابة على احتمال أعباء الحياة ، وأكثر تماسكا عند نزول الحوادث وأكثر إنتاجا وأوفر إيجادا ، وأعمق شعورا بلذة الحياة . وفى ذلك كله حياة أسمى لحكامه أنفسهم ، ومنزلة لهم أعلى وأشرف . لهذا نعتقد أن واجبهم الأول أيضا نحو أنفسهم ، هو إنهاض الشعب ، لأنه نهوض لهم هم وسمو لمكانتهم وعلو لمنزلتهم .

ولم تكن هناك فكرة كهذه الفكرة تتمشى فى عقول حكام مصر أولئك ، بل إن

طريقة حكمهم ـ كما قلنا ـ تتنافى معها تنافيا كليا .

لم يكن هم المماليك إلا الاحتفاظ بحكم هذه البلاد فحسب، واستقلالها، وتسخير أهلها فى مصالحهم الخاصة وجبى الضرائب منهم . فهم إذا كانوا قد دافعوا عنها، ودفعوا كثيرا من أعدائها فى الخارج ، فما فعلوا ذلك إلا خوفا على سلطانهم هم أن يضيع ، وخشيـــة على نفوذهم أن ينهار ، وحرصا على نعيمهم أن يزول ورهبة على دولتهم أن تدول .

هم عبارة عن شراذم من الأفراد جمعتهم ظروف واحدة ، وغاية واحدة ففرضوا أنفسهم حكاما لهـذه البلاد ، دون أن يـكون لأهلها رأى فيما فرضوه . ولم يرضوا لأنفسهم أن يندمجوا فى شعبها ، بل حافظوا على جنسيتهم ، وظلوا طبقة ممتازة ، لها تعاليمها الخاصة ، وتقاليدها الخاصة . وهم جيش الدولة وموظفوها . ولم يشركوا أفراد الطبقات الأخرى من الشعب فى شىء من ذلك كله . مع أن للشعب حقوقا فيه طبيعية . ولـكن الخطة التى انتهجوها فى معاملة الشعب وإقصاء أفراده عن كل نفوذ وسلطة ، جعلت هذه الحقوق مجهولة من الشعب إلى درجة أنه لم تكن تحوم له حولها آمال . . . ولم يقع فى نفسه يوما أن له حقوقا فى هذه النواحى . . وهذا موت أدبى شنيع ، وتلك هى الجناية التى جناها المماليك على الشعب المصرى . . .

ويتجلى اهمالهم للشعب فى عدة مظاهر منها : التعليم والجيش وملـكية الأرض والوظائف العامة ، والتقاضى . ولنتكلم كلمة يسيرة فى كل موضوع من هذه توضيحا له وبيانا فنقول :

ا ـ التعليم :

كتبنا فيما سبق فصلا عن ثقافة المماليك وطريقة تعليمهم ، وبينا فيه أنه كانت ثمة عناية بتنشئتهم تنشئة حربية ممتازة وأنهم كانوا يلقنون فى صغرهم ضروبا من

الكتابة والقراءة ، وبعض آيات من القرآن الكريم ، وكانوا يراقبون مراقبة دقيقة ويؤخذون أحيانا بالحزم حتى ينشئوا نشأة خلقية صحيحة. فإذا ماشبوا دربوا تدريبا عسكريا ، وعاشوا عيشة رياضية بحتة تنمو فيها عضلاتهم ، ويمهرون فى فنون الحرب من كروفر وحمل سلاح وضرب نشاب ورمى سهم ، إلى غير ذلك .

بينا هذا مفصلا فى الفصل المذكور . فهل كان هذا النظام مباحا لفرد من أفراد الطبقات الأخرى ، وهل كان هذا التعليم عاما لجميع الطبقات على السواء . وهل كانت ثكنات القلعة وطباقها مبيتا لغير طبقة المماليك ؟ . . كلا ! بل كان ذلك عليهم محرما .

أما طبقات الشعب الأخرى ، فقد كانت أمامهم أبواب المساجد مفتحة ، يلجها من يشاء منهم بمحض رغبته ، ووفق ظروف حياته ، وبين أفنية هذه المساجد يجدون من الشيوخ والمدرسين أصنافا عدة يلقون دروسهم على الناس ، ولمن يشاء ، دون أن يتجشم فى سبيل ذلك مالا يدفعه لقاء تعليمه .

وهذه الطريقة التعليمية نشعر بما فيها من ملاحة وجودة وتيسير ومعونة لطالب العلم ، إذ التعليم فيها حر وبالمجان . بل كانت المعونات المادية تتوالى على طلاب العلم والمنقطعين له تواليا مشكورا . وبذلك كله تقوى النزعة إلى العلم الصحيح وتشتد الرغبة فيه ، وتنتج نتيجتها المرجوة .

هذا حسن ! ولكننا هنا ننظر إلى المسألة من ناحية أخرى . ونسأل : هل كان السلاطين قد سنوا هذه السنة التعليمية لتثقيف الشعب باعتبار أنها حق من حقوقه وعلى أن له أن يتعلم ، وعلى أنها واجب عليهم نحو الشعب يقومون به ؟ .

الجواب على ذلك : كلا ! بل إنما كانوا ينشئون المدارس ويشيدون المساجد ، ويقررون بها الدروس المختلفة ، ويرتبون بها مشايخ العلم والفقهاء والمدرسين ، صدقة على الشعب وعلى محبى العلم من أفراده ، يتقربون بذلك إلى الله سبحانه وتعالى . ونحن نحمد لهم الزلفى إلى الله ، ولكننا نشعر بفرق بعيد بين من يقوم بعمل هو واجبه

الذى يشعر بالإثم والجناية لو تركه ، ومن يقوم بهذا العمل صدقة وزكاة ونافلة لا يشعر إثم ولا جناية لو تركه ، هناك فرق بعيد بين الشعورين وبين العاطفتين ، فرق كبير بين اعتبار الشعب صاحب حق يؤدى إليه ، وبين اعتباره مستجديا يتصدق عليه .

بهذه الروح وبهذا الشعور وبنفس العاطفة كان سلاطين المماليك وأمراؤهم يقومون بنشر العلم . وهى روح وشعور وعاطفة تسىء إلى كرامة الشعب أكبر إساءة ، فإن الشعب من حقه أن يتعلم ، ومن حقه أن تيسر له وسائل التعليم ، ومن حقه أن تنظم له طرق التعليم ومناهجه تنظيما دقيقا يوصله إلى غاياته ويوجهه إلى سعادته .

ولعلنا نشعر بغضاضة إذا قلنا إنه يندر أن نجد بين المماليك من اندمج فى غمار الشعب وتلقى العلم كما يتلقى أفراد منه ، وتتلمذ لبعض مشايخه كما يتتلمذون . وانقطع إلى طلبه كما كانوا ينقطعون . ثم اصبح من بعد شيخا يشار اليه فى علم أو أدب . . . وإن كان ثمه منهم من كتب أو نظم أو تفقه .

ب ـ الجيش :

لم يسن سلاطين المماليك هذه السنة التعليمية التى أشرنا إليها إلا لتنشئتهم أسرة عسكرية ضخمة يكون سوادها جنودا ، وتكون خاصتها أمراء عليهم ، ويقطعون لكل منهم الاقطاع الذى يناسبه . وسواء أكان جنودهم هم الجنود السلطانية الذين ينفق عليهم السلطان من الخزائن الشريفة . أم كانوا أتباع الأمراء . فالجميع سواسية فى هذا الشعور وفى هذا التوجيه .

ولم يكن يسمح لفرد من أفراد الشعب من غير الطبقة المذكورة أن يندمج فى عدادها وينغمر فى غمارها ويصبح عضوا من أعضاء هذا الجيش . وكيف يتسنى

لفرد أن يندمج هذا الاندماج وهو لم يثقف ثقافة عسكرية ، ولم يتدرب التدريب الرياضى المناسب الذى يؤهله لهذه العضوية ؟

كان غرض المماليك من هذا أن يظل جيشهم سليما من الشوائب الغريبة ! متجانسا بريئا من كل عضو دخيل ، ومن غريب الأمر أن كانوا يفضلون الجنود الاتراك أو الجراكسة الجدد الطارئين من الخارج والوافدين مع تجار الرقيق ، على ناشئة البلاد وشباب الشعب المقيمين فى داخل هذا الوطن . وكأنما كانوا يظنونهم طبقة عاملة لا تصلح لحرب أو ضرب ، أو تفيد فى قتال أو نزال ، وكأنما ظنوها خلقت وليس فى طبيعتها همة تقدرها على الثبات فى ميادين الوغى ، أو أنها طبيعة متأبية على الفنون العسكرية ، تلك الفنون التى كانت وقفا على الجنس التركى فى ذلك الحين .

ومع ذلك لم ينج الجيش من اختلاف الجنسية ، ولم ينج من الحزبية التى تشعبت بتشعب الملوك والأمراء ، فلكل منهم طائفة تنتمى اليه . فكان فيه فى بعض الظروف : المماليك الأشرفية وغير الأشرفية . والمماليك الجلبان والمماليك القرانصة . وأكثر ما طرأ هذا الفساد فى القسم الأخير من العصر .

ومع هذا كله ، كانت نظم جيشهم تنفر دون قبول فرد من أفراد الشعب ، وكيف كان يتسع صدرها لقبول فرد منه وهم ينعتون هؤلاء الأفراد بالفلاحين تارة ، وتارة بالعوام والزعر ، وأحيانا بأولاد الناس ! .

ولما فسدت نظم الجيش ونظم تعليم جنده فى أواخر العصر تسرب عدد من « أولاد الناس » هؤلاء إلى صفوفه وانضووا تحت لوائه ، فكان هذا فى نظر الترك ونظر بعض المؤرخين أحد ضروب الفساد التى طرأت على نظمه .

هذه الحالة التى وصفناها أقرت فى نفس الشعب شعورا عجيبا أو فكرة عجيبة

وهى أن هؤلاء السادة طبقة ممتازة حقا منحها الله حكم هذه الديار ، وأصبحوا ولاة أمرها بمالهم من قوة وشجاعة وجاه وحيلة ، وليس على الشعب سوى طاعتهم والائتمار بأمرهم والانتهاء بنهيهم ، ودفع ما يطلبون من الضرائب ، وقد ألقت المشيئة أمر الدفاع عن البلاد على كاهلهم وحدهم . والله يولى منهم من يصلح ...

وقد يعجب قارىء ويعترض على هذا ويحتج بأن كثيرا من العامة وعربان البلاد اشتركوا فى بعض الحروب ورجحوا كافة سلاطينهم ، وهذا صحيح ، ولكنهم كانوا يقاتلون معهم لا على أساس ثابت ونظام موضوع ، بل هو أمر مرتجل تدعو إليه الساعة الشديدة والحدث القاسى المشترك . على أن هؤلاء العامة والعربان يغلب عليهم اشتراكهم فى القتال ، إما بدافع دينى أو حبا فى النهب والسلب والاستحواذ على ما يمكن الاستحواذ عليه بأى طريق ، ولم تكن غايتهم المستقرة فى نفوسهم غالبا ، الدفاع عن الوطن ، باعتباره وطنا . هذا على الرغم من ادعاء بعض العربان حينذاك أن البلاد بلادهم دون الاتراك . . .

ولا أدل على ما وصفنا من أن الصلة الروحية لم تكن قوية بين جيش البلاد وأفراد الشعب إذ كان هؤلاء الأفراد - كما قلنا - يشعرون أن هذا الجيش مسلط على الشعب لحكمه وإخضاعه فحسب ، وقليلا ما تجلى عطف الشعب على جيشه المحارب ، أو زوده هذا العطف بقوة معنوية اعتمد عليها ، أو شعر الجيش نفسه أنه فى حاجة إلى هذا العطف عليه .

وهذا غير ما نفهم فى عصرنا الحديث - على الأقل - من متانة الصلة بين الأمة وجيشها ، ومن أن الأمة تعتبر جيشها أعز فلذها ، وأنه يضم أفضل بنيها وأحبهم إليها وتظل توليهم عطفها ومحبتها الدائمة وتظل عواطفها متعلقة بهم ، ليدافعوا عنها بنفسية قوية كما يدافع العاشق عن معشوقه ، وكما يدافع الولد عن أمه وأبيه ، وكما يدافع الرجل عن نسائه وبنيه . - وإن أفراد الأمة الآخرين ولو لم يشتركوا - كما

اشترك أفراد الجيش - فى قتال الأعداء، فهم مشتركون معهم بالنفس والروح والقلب والعقل والعاطفة والمال وبكل شىء. وهم على قدم الاستعداد للانضمام إلى صفوفهم إذا دعت الحاجة. وينتظر كل منهم دوره فى الذود من وطنه بصبر فارغ، وقلب يملؤه الشوق.

ولا ينهض حجة علينا ما قد يصادفه القارىء، حين يقرأ خبر الفتوح والانتصارات التى تمت على يد سلاطين المماليك من أن الأفراح قد سرت فى البلاد وأن الزينات انتشرت فى أرجائها، ودقت الطبول... إلى آخر ما هنالك. فأغلب الظن أن هذه مظاهر رسمية قليلا ما اشترك فى إقامتها أفراد الشعب عن إخلاص أو صدرت منهم عن عاطفة قلبية عميقة صادقة...

وإلا! فكيف نفسر امتناع بعض المصريين عن دفع الضرائب المتأخرة عليهم حينما طلبها منهم نائب الغيبة الأمير «طومان باى» حينما كان سلطان البلاد الأشرف الغورى يقاتل العثمانيين فى «مرج دابق». وكان «طومان باى» فى حاجة قصوى إلى المال لتعزيز القتال وإقامة الاستحكامات فى مصر انتظارا للقاء العثمانيين... امتنع هؤلاء عن دفع المتأخر عليهم، وكانت حجتهم فى ذلك أنهم لا يدرون لمن تكون البلاد، ومن سيكون وليها الشرعى..! الذى تجب تأدية الضرائب إليه..! وقالوا إنهم صابرون حتى تنجلى هذه المعارك ثم يدفعوا هذه الضرائب لمن يغلب وتخضع له البلاد... وحسبنا هذا

جـ - ملكية الأرض:

بعد أن دخل العرب مصر، وفشا الإسلام فيها، اتبع فى الأراضى الزراعية نظام «القبالات (١)». ومعنى ذلك أن تقسم الاراضى أقساما، ثم ينادى عليها قسما

---

١ - الذى نفهمه من كلمة القبالات «الاراضى المقبولة بما عقد عليها من خراج» ومفردها قبالة، وفى رأينا أن قافها مثلثة، وكلها يؤدى المعنى. قال فى المحيط ما مؤداه: قبالته

قسما فى « مزاد علنى » ، ويتقدم فيه لقبولها من يشاء من أهل مصر . ويتزايد الناس فى تقدير خراج القسم المعروض ، حتى يرسو المزاد على أحدهم ، بما قدره من خراج يتعهد بدفعه فى مواعيده ، بعد أن يخصم منه مقدار المال الذى أنفقه فى استصلاح أرضه . وكان هذا الخراج بمثابة إيجار للأرض لمدة معينة ، ويدفع خراجها المقدر سنويا ، حتى تنتهى مدته . وحينئذ يعاد النداء على الأرض ويعقد لها كتاب الخراج مزادا جديدا ، وهكذا .

واعتادوا إثر كل ثلاثين سنة ، أن يعيدوا تقسيم الأراضى تقسيما جديدا ، على ضوء التجارب وباعتبار مازاد منها واتسع واستصلح ، أو ماقل وضاق وبار ، وهذه اعتبارات لها اتصال بتقدير خراجها الجديد . وظل نظام « القبالات » متبعا حتى حل محله نظام الاقطاع .

ونظام الاقطاع عبارة عن تقسيم الاراضى الزراعية أقساما أو اقطاعات أو « دوائر وتفاتيش » بلغة عصرنا . ثم يختص السلطان نفسه بنسبة خاصة من هـذه الاقطاعات . ويمنح البقية أمراءه وجنوده فحسب . أما عامة الشعب فقد حرموا ملكية الأراضى أو إيجارها .

ويبدو أن نظام الاقطاع اتبع منذ عصر صلاح الدين الايوبى (١) . ثم ظل سائدا فى مصر طيلة عصر المماليك فكان فى جملة مساوىء العصرين .

وصاحب الاقطاع يستغله لنفسه ما دام ممنوحاله ، سواء فى ذلك السلطان أم الامير أو الجندى . وجميع السكان الذين يعيشون فى الاقطاع ، ويفلحون أرضه ،

بالضم تجاهه . وقبلت المرأة كعلم أخذت الولد عند الولادة ، قبالة بالكسر . وقبّلت العامل العملَ تقبلا نادر ، والاسم القبالة بالفتح . أه

١ ـ مقدمة تقويم النيل ص ١٢٤

أجراء بل خدم وعبيد لصاحب الاقطاع . وقد عرفوا من ذلك الحين «بالفلاحين» قال المقريزى فى خططه (١) .

«واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم . لا يعرف هذه الأبذة التى يقال لها اليوم «الفلاحة» . ويسمى المزارع المقيم بالبلد «فلاحا» قرارا. فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ، ومن ولد له كذلك . . . » .

والإقطاعات لا تورث ، بل ترد إلى يد السلطان إذا مات أصحابها ، ليعود السلطان بدوره ، فيهبها لمن يشاء ، ولمن يستحقها من جديد . ومن هنا نفهم السر فى أن الأمراء كانوا يستغلون إقطاعاتهم إلى أقصى حدود الاستغلال، لمصلحتهم الخاصة، لكى يحوزوا من المال البعيد عن الاقطاع ، الشىء الكثير . وكثيرا ما يستعينون باستبقاء ما فى أيديهم من ممتلكات بوقفها ، حتى لا تمتد إليها يد السلطان فى حياتهم أو بعد موتهم ، وحتى ينتفع بها ذراريهم . وأفراد الشعب، على كل حال ، محرومون الملكية أو الانتفاع من أراضى بلادهم الزراعية ، إلا ما قد يصيبهم من الأجر على العمل ، أو المعونة من مال الأوقاف .

وقد قال ابن خلدون : «ولقد وقع لهذه العصور بمصر ، منذ مائتين من السنين فى دولة الترك ، من أيام صلاح الدين بن أيوب ، وهلم جرا . وذلك أن أمراء الترك

---

١ ـ الخطط ١ ص ١٣٨

فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لماله عليهم من الرق والولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته. فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شركاء لولدهم بنظر عليها أو نصيب فيها. مع مافيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال. فكثرت الأوقاف..».

على أن السلطان كان يتصرف أحيانا فى الإقطاع، فيسترده من صاحبه لدواع من الرضا أو الغضب - فيمنحه إقطاعا آخر جديدا أكثر غلة، أو يحرمه فيرسله «طرخانا» - أى عاطلا - وينفيه إلى القدس أو مكة مثلا. كما أن بعض السلاطين كان يجترىء على ما أوقفه أمراؤه، فيأمر بحله. وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون بحل ما أوقفه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار نائب سلطنته. (١)

وقد وفى المقريزى فى خططه الحديث عن «القبالات» (٢). أما الاقطاعات فقد اشتهر فى عصر المماليك تقسيمان لها يسميان «الروكين» هما الروك الحسامى، والروك الناصرى. (٣)

أما الروك الحسامى. فقد تم فى عهد المنصور حسام الدين لاجين. قيل: إنه لما أفضت إليه السلطنة، راك البلاد - أى قسمها - وذلك لما رأى أن الأرض ٢٤ قيراطا، منها ٤ للسلطان، و ١٠ للأمراء، و ١٠ للأجناد وكانت إقطاعات الأجناد لا تصل إليهم، لتغول الأمراء عليهم، فدخلت فى إقطاعاتهم. فأبطل السلطان هذا التقسيم، وجعل للأجناد والأمراء عشرة قراريط، وللسلطان أربعة، ولخدمة

---

(١) الخطط المقريزية ج ١ ص ١٤٥ (٢) الخطط المقريزية ج ١ ص ١٣١
(٣) ج ١ ص ١٤١

العسكر تسعة ، وواحد لزيادة من عساه يطلب الزيادة .

فكان هذا سببا لتنكر قلوب الأمراء له ، وسرعان ما ذهبت دولته عام ٦٩٨ هـ. ولما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى سلطنته عودته الثانية ، زاك البلاد من جديد. وعرف روكه بالروك الناصرى وذلك عام ٧١٥ هـ .

أما الروك الناصرى ، فملخص ما قيل فيه : أن الناصر بن قلاوون رأى أن يروك البلاد المصرية روكا جديدا عام ٧١٥ هـ . فأبطل مكوسا كثيرة . وقد نظم له هذا العمل القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش : فأرسل الأمراء والكتاب والقياسين إلى النواحى للاطلاع على « مكلفات » كل ناحية وضبط ما فيها من حيوان ومالها من غلة ، وما عليها من خراج ، ثم القيام بقياس كل ضيعة ، وتطبيق ذلك على « المكلفات » ، والأوراق ، مسترشدين فى ذلك بأهل الاقطاع ومشايخها وعدولها وقضاتها . وقد أنجز هذا العمل فى نحو ٧٥ يوما ، ثم انقسمت كل الأراضى إلى عدة مثالات ـ أقسام ـ منها الكثير الغلة ، ومنها القليل الغلة ، وقام السلطان بعرض عام ، استعرض فيه الجنود جنديا جنديا ، كل طائفة مع مقدمها ، يقدمها نقيب الجيش أمام عيون الأمراء فيسأل السلطان الجندى عن اسمه وسنه ومولده ووفوده على مصر ، والحوادث التى اشترك فيها ، إلى غير ذلك ، ثم يمنحه مثالا .

هكذا وزع الناصر الأراضى على أمرائه وأجناده مستبقيا لنفسه عشرة قراريط من مجموع الأراضى ، اختار مواقعها حسب مشيئته ، وترك لجنوده وأمرائه أربعة عشر قيراطا . فكانت نسبة التقسيم ١٠ : ١٤ ، ويبدو أن تعديلات متكررة قد أدخلت على هذا التقسيم وواضع الاقطاعات دون أن تمس نسبته ، ومنها ما وقع فى عهد الأشرف شعبان والظاهر برقوق .

ومما يتصل بهذا الموضوع ، ما أورده ابن اياس عن السلطان الغورى ، قال إنه

، أحدث شيئا لم يفعله أحد من الملوك قبله ، وهو أنه نقص من إطلاقات الأمراء أشياء كثيرة ، وأخذ منهم الحلوان زيادة عن العادة . فنقص من إطلاق الأمير الكبير سودون العجمى مائتى فدان . وكان قبل ذلك سلخ من إقطاعه جهات بنحو من عشرين آلاف دينار ، كون أنه كان لين الجانب فاستضعفه . ونقص من إطلاق بقية الأمراء المقدمين كل واحد مائة فدان . ومن إطلاقات الأمراء الطبلخاناه كل واحد عشرين فدانا . ومن إطلاقات الأمراء العشرات كل واحد خمسة عشر فدانا (١)

ويبدو أن من الأمراء والمقطعين من كان يدفع أرضه إلى الزراع يفلحونها ويزرعونها وينالون من غلتها لقاء مال يفرضه عليهم صاحب الاقطاع . وكثيرا ما كان السلطان يفرض على هؤلاء المساكين الغرامات الفادحة ، ويسخرهم فى إعداد جمال أو دواب ، أو تقديم شىء من التبن والغلال والفاكهة ، لقاصد يمر بهم ، أو أمير يجتاز إقطاعهم ، أو تجريدة أشخصت لقتال أو إخماد فتنة .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان نظام الاقطاع ذا أثرين سيئين بارزين ، أولهما إغراء الأمراء بالاسراف والمباهاة وحب الظهور ، والامعان فى الترف والملاذ لكى تمتص هذه الأمور ثراءهم قبل أن تنتهى حياتهم فيئول إلى السلطان ، ولما يتمتعوا به . وثانيهما : فقر الشعب فقرا أورثه الهم والخمول والشقاء .

د ـ الوظائف العامة :

إذا استثنينا وظائف القضاء والكتابة وما إليهما ، وجدنا وظائف الدولة

(١) البدائع ج ٤ حوادث شعبان سنة ٩١٨ هـ ـ والاطلاق أرض معفاة من الضرائب ، راجع السلوك ج ١ ص ٧٨٨ ـ هامش ،

عسكرية ، لا يليها إلا الأمراء ، سواء فى ذلك إمارات الجند وغيرها ، حتى ما كان منها أبعد عن الجندية وأدنى إلى غيرها مثل الحسبة ، فلم يكن لفرد من الشعب مهما سمت همته أن يصل إلى منصب منها إلا نادرا جدا ، وفى أحوال فردية . وبذلك حرم الشعب الهيمنة على إدارة شئونه ، كما أن تصرف الموظف فى شئون وظيفته منوط برأى السلطان ، إذ كانت المناصب ذات مئات وثيق به ، وكلها تسهر على خدمته ورعايته وتنفيذ إرادته .

أما العمل فى مجال القضاء والكتابة فلا يتفق وطبيعة النشأة التى نشأ عليها أمراء المماليك . ويندر أن تجد لأحدهم اجتهادا فى فقه ، أو بروزا فى أدب ، أو مشاركة فى علم . والدولة فى حاجة إلى قضاة يحكمون بين الخصوم بما أنزل الله ، حتى لا تتعطل مصالح الناس . وفى حاجة إلى كتاب نابهين فى العربية لضبط أمورها وحسابها — وكانت قد اتخذت العربية أداة لتفاهمها الرسمى — لهذا لجأت مضطرة إلى استخدام القضاة والمنشئين والكتاب من البارزين بين أبنـــاء الشعب ، فى مناصب القضاء والكتابة . وهؤلاء هم المتخرجون فى المساجد ، ويعرفون « بالمتعممين » .

وقد يكون لبعض هؤلاء نفوذ ما ، وجاه ، لما يتحلون به من فضل وعلم ، ولما يعرفون به من ورع وتقوى . ومن هؤلاء قضاة كان يؤخذ رأيهم عند فرض الضرائب الجديدة ، وفى مال الأوقاف عند الحاجة إلى شىء منه . ويستشارون فى الحرب قبل إعلانها . وكذلك كان بعض كبار الكتاب من أصحاب ديوان الإنشاء وكتاب السر يبلغ نفوذ أحدهم إلى مثل ما يبلغه وزير الخارجية فى زماننا . فترد إليه المكاتبات الخارجية ويرد عليها ، بعد أخذ رأى السلطان .

هؤلاء وهؤلاء — إن جاز أن نعتبرهم ممثلى الشعب فى هذه الدولة — لا ننسى أن تعيينهم فى وظائفهم كان رهنا بمشيئة السلطان وحده ، لهذا غلب عليهم الخضوع له .

وأن حوادث نفوذهم فردية ، وأن آراءهم استشارية فحسب . ومن برزوا منهم، وكان لهم رأى مسموع : عز الدين بن عبد السلام فى عهد بيبرس . وسراج الدين عمر البلقينى فى عهد برقوق ، وأمين الدين يحيى الأقصرائى فى عهد قايتباى ، وزكريا الانصارى فى عهد الغورى ، وكلهم من رجال الدين . ومحيى الدين بن عبد الظاهر فى أيام بيبرس ، وشهاب الدين بن فضل الله ، وعلاء الدين بن الأثير فى أيام الناصر ابن قلاوون ، وناصر الدين محمد بن البارزى ، وتقى الدين بن حجة الحموى فى أيام المؤيد شيخ ، وكلهم من رجال القلم .

هـ ـ التقاضى

كانت قوانين القضاء المعمول بها ، مستمدة من الدين الحنيف ـ كما بينا فى فصل القضاء ـ والمتخاصمون متساوون أمامها . وهذا ما يحمد عليه العصر . ولكن وجود حاجب الحجاب وأعوانه وإعطاءهم حق الفصل فى قضايا المماليك ، ثم اتساع نفوذهم بمضى الأيام ، يشعرنا بأنهم كانوا يتأبون على التساوى مع عامة الشعب أمام القانون .

ولا نترك هذا الباب دون أن نقول إن المماليك ، إلى جانب حرمانهم الشعب حقوقا كثيرة ، كانوا ينظرون إلى طبقاته على اعتبار أنها طبقات منحطة ، لا تصلح لحكم ولا رياسة . ولعلهم كانوا يصدرون فى ذلك لا عن عقيدة ، ولكنها شهوة الحكم وحب الاستئثار به ، وجهتهم هذه الوجهة . وكانوا يطلقون على عامة الشعب «الفلاحين» ـ كما مر ـ

ومن لطيف ما انساق اليه ابن إياس متأثرا بهذه الروح السائدة ـ ج٤ حوادث ربيع الثانى عام ٩٢٠ هـ ـ قوله عن شمس الدين بن عوض من رؤساء عصره :ـ ولما صار شمس الدين بن عوض من جملة الرؤساء ، لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى

ربى عليه . فكانت عمامته عمامة الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث . . ولم ينطل فى رياسته . فكان كما يقال :

فقيه ريف يقول إنى برعت فى العلم والرواية
فقلت لاشك أنت عندى تصلح للدرس والدراية ،

٢ - فداحة الضرائب وتعدد أنوعها :

لابد للدولة من أن تفرض على رعيتها ضرائب مختلفة لتكون وسيلتها إلى الانفاق على شئونها . ولكن بشرط العدالة والمساواة ، والتبديل فيها والتغيير حسب مقتضيات الأحوال .

وقد كانت الأراضى الزراعية ملكا للسلطان - كما بينا - يقطع منها من يشاء من أمرائه وجنوده ، فى حدود أربعة عشر قيراطا . ويزرع الفلاحون هذه الأراضى ويؤدون ثمراتها للمقطعين ، فيؤدون بدورهم ما فرض عليهم للسلطان من خراج إقطاعاتهم .

وبجوار طبقة الزراع ، طبقات التجار والصناع وأرباب الحرف ، وملاك المنازل وسكانها . هؤلاء جميعا تفرض عليهم ضرائب أخرى ، فى نظير مزاولة البيع والشراء أو فى نظير الحراسة أو نحو ذلك .

ويخيل إلينا أن السلاطين لم يتركوا ناحية يستطيعون فيها فرض ضريبة إلا سلكوها . وكثيرا ما فرضوها ظالمة فيها الشطط الكثير . وفرضوها دون أن تدعو إليها مصلحة عامة ، بل كثيرا ما فرضوها للمصلحة الخاصة . ولكى يسدبها السلطان أفواه الثائرين عليه من الجنود . وكثيرا ما انتهز السلاطين فرصة الحرب لفرض الضرائب الفادحة بدعوى الانفاق عليها . ومنهم من تطلع فى هذه المناسبة أو فى غيرها - إلى مال الأوقاف ، ومنهم من أثقل على أرباب المناصب بالمصادرات

وفرض الغرامات الباهظة ، عند وقوعهم فى خطأ ما . فكانت هذه الغرامات لونا من ألوان الضرائب التى أثقل بها كاهل الناس . ومن الحق أن نذكر أن بعض السلاطين - مثل الناصر بن قلاوون - كان يلغى شيئا من الضرائب المفروضة أو يخفف منها ، فيلهج الناس بالثناء عليه ، ويضجون له بالدعاء . . ولكنها حوادث فردية ونادرة .

ونسوق هنا عددا من الأمثلة على الضرائب وثقلها ، وعددا من الحوادث التى تشعرنا بظلم هذا العصر وفداحة مكوسه . فمن ذلك ما ذكره المقريزى فى خططه بالجزء الأول عند الكلام عن الروك الناصرى . قال ما ملخصه إن السلطان الناصر محمدا أبطل ضروبا من المكوس والمقررات فمنها :

١ - مكس ساحل الغلة : « وكان جل متحصل الديوان . وعليه إقطاعات الأمراء والأجناد . ويتحصل منه فى السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم . وعليه أربعمائة مقطع ، لكل منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف . ولكل من الأمراء من أربعين ألفا إلى عشرة آلاف . وكانت جهة عظيمة . لها متحصل كثير جدا . وينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى . ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم . فإن مظالمها كانت تتعدد ما بين نوتية تسرق ، وكيالين تبخس ، وشادين وكتاب ، يريد كل منهم شيئا . وكان مقرر الأردب درهمين للسلطان ، ويلحقه نصف درهم غير ما ينهب ويسرق . وكان لهذه الجهة مكان يعرف « بخص الكيالة » ، فى ساحل بولاق ، يجلس فيه شاد وستون متعمما ما بين كتاب ومستوفين ، وناظر وثلاثون جنديا مباشرون . ولا يمكن أحدا من الناس أن يبيع قدحا من غلة فى سائر النواحى . بل تحمل الغلات حتى تباع فى « خص الكيالة » ببولاق .

٢ - نصف السمسرة . عبارة عن أن البائع يدفع عن كل شىء يبيعه بمائة درهم نحو

درهمين يدفعان للدلال . فقرر على الدلال دفع درهم من الدرهمين . فأخذ كل دلال يبذل جهده لاستيفاء هذا الدرهم من البائع نفسه ، حتى لا يقل نصيبه . فأصاب الحيف كل بائع وعلا الضجيج والشكوى من الدلالين ولا من مغيث ولا سامع .

٣ ـ رسوم الولاية : ضريبة يجبيها الولاة والمقدمون من عرفاء الأسواق وبيوت الدعارة . وكثيرا ما نال الناس منها ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجوم على بيوت الناس .

٤ ـ مقرر الحوائص (١) والبغال : وكان يجبيه من القاهرة وسائر مدن مصر . الولاة والمقدمون أيضا ويحمل متحصله إلى بيت المال . ويجبى عن الحياصة ثلثمائة درهم وعن البغل خمسمائة درهم . وكان يصيب الناس من الضريبة كثير من عسف المراقبين .

٥ ـ مقرر السجون : ضريبة يدفعها كل من يدخل إلى السجن بريئا كان أم مظلوما ، ولو لم يقم فى السجن إلا لحظة قصيرة . وكان يدفع منها للسجان ستة دراهم من ضريبة كل مسجون .

٦ ـ مقرر طرح الفراريج : وهى عبارة عن أن الفراريج اختص ببيعها جماعة من الضامنين يطرحونها على الناس للشراء فمن احتاج إلى فروج ، اشتراه من الضامن بالثمن المفروض ، وفى ذلك كثير من الظلم : ومن اشترى أو باع فروجا عن طريق آخر غير طريق الضامن ، قال المقريزى : « جاءه الموت من كل مكان وما هو بميت . . . »

٧ ـ مقرر الفرسان : ضريبة يجبيها ولاة النواحى فوق كل ضريبة ، أى أنها

---

(١) الحوائص جمع حياصة وهى الحزام ، قال ابن اياس « وأوساطهم مشدودة بحوائص » انظر ص ٢٦١

ضريبة إضافية فمن يدفع درهما ضريبة أصلية يدفع معها درهما آخر أو نحوه ضريبة إضافية للجباة .

٨ ـ مقرر الأقصاب والمعاصر : وهو ما يجبى من مزارع قصب السكر ، ومن المعاصر ورجال المعاصر .

٩ ـ مقرر رسوم الافراح : يجبى ممن يقيمها ويغالى فيها أحيانا، وتفرض فوقها غرامات عادة . .

١٠ ـ حماية المراكب : ضريبة تؤخذ من كل مركب ، وهى عبارة عن رسم يدفعه المسافر فيها، وكل من ركبها حتى الفقير والمحتاج والسائل .

١١ ـ حقوق القينات : يجبى هذه الضريبة من أهل الدعارة ومرتكبى المنكرات.

١٢ ـ مقرر المشاعلية : وهو عبارة عن ضريبة تؤخذ من أصحاب المنازل نظير كسح الأفنية ومحال القذارة . وكان هناك لهذه الحرفة صناع مخصوصون ولكل جهة ضامن يقوم بهذه العملية ، ولا يستطيع أحد سواه أن يقوم بها . ولذلك كان يشتط كما يشاء فى فرض الأجر.

وإلى القارىء الآن بعض ما ذكره ابن إياس فى تاريخه عن الضرائب وفرضها وإلغائها وظروفها وما لابس ذلك من الحوادث والاعتبارات فمنه :

١ ـ لما قرر السلطان المظفر قطز أن يحارب التتار عام ٦٥٨ هـ أخذ فى جمع المال اللازم لذلك . فأخذ من أهل مصر والقاهرة دينارا واحدا لكل رأس ذكرا كان أو أنثى . وأخذ من إيجار الأملاك والأوقاف أجرة شهر ، ومن أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلة . ومن ضرائب الأراضى الأهلية ثلث ما فرض عليها معجلا وعلى الغيطان والسواقى أجرة شهر . ـ قال : وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة . .

«١ ص ٩٦»

٢ ـ أبطل المنصور قلاوون وظيفة « ناظر الزكاة » وهو من يأخذ ممن عنده مال، زكاة هذا المال . فإن مات ذو المال أو عدم ماله يظل المقرر عليه يجبى منه إن كان حيا أو من ورثته أو من أقاربه إن مات ، ولو كانوا واحدا فحسب ، ولو كان المال قد هلك وزال منذ زمن بعيد . « ج ١ ص ١٢٠ »

٣ ـ فى سنة ٧٤٨ هـ فى عهد السلطان الناصر أبى المحاسن حسن تهدمت سواحل النيل من ناحية الجيزة ، فرسم للامير منجك اليوسفى الوزير أن يتولى ترميم هذه الجسور . ففرض على كل دكان بمصر والقاهرة درهمى فضة ، وعلى كل نخلة بالشرقية درهمى فضة أيضا . فاجتمع مال كثير اشترى به منجك حجارة كبيرة الحجم ورممها به ولكنها لم تفد شيئا وطغى عليه الماء فقبض عليه بسبب ذلك وصودر ماله وعزل من الوزارة . « ج ١ ص ١٩٠ »

٤ ـ ومما أبطله الناصر بن قلاوون « ضمان الغوانى » وهو عبارة عن ضريبة تجبى من البغايا ، وذلك بأن البغى إذا أرادت احتراف البغاء ونزلت عند امرأة تسمى « الضامنة » ودفعت لها مالا معينا ، أمنت أن يدهمها أى إنسان فكان يجبى من وراء ذلك مال كثير .

ويظهر أن هذه الضريبة قررت مرة أخرى بعد عهد الناصر لأن الأشرف شعبان أبطلها فى عهده أيضا . « ج ١ ص ١٧٥ ، ٢٣٠ »

٥ ـ ومما أبطله الأشرف شعبان عام ٧٧٨ هـ « ضمان القراريط » وهو عبارة عن ضريبة يدفعها البائع الذى يبيع ممتلكات ، فيؤخذ منه عن كل مائة ألف درهم عشرون درهما « ج ١ ص ٢٣٠ »

٦ ـ وفى عام ٧٨٩ هـ أراد برقوق أن يعد حملة عسكرية لملاقاة التتار فى بلاد الشام وحلب فعقد مجلسا كان فى جملته الخليفة والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى وطلب إليهم أن يأخذ جانبا من مال أوقاف المساجد

والمدارس، فلم يوافق القضاة ولا البلقينى على ذلك . ووقع بين الجميع جدال عنيف ثم انجلى غباره عن أن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن لمدة سنة ومن خراج الأرض لمدة السنة أيضا ، وتبقى الأوقاف كما هى .وقد شرع السلطان فى جبى هذه الأموال من الناس وقسا الجباة عليهم فى ذلك حتى استعملوا معهم العصا والضرب والإكراه .

«ج ١ ص ٢٦٧»

٧ - وفى عام ٨٠٣ هـ أراد السلطان فرج بن برقوق أن يخرج إلى الشام فى تجريدة لقتال التتار ،فرسم بأن يؤخذ من بلاد المقطعين ومن أملاك القاهرة وضواحيها أجرة شهر واحد ، وعن كل فدان عشرة دراهم ، ومن البساتين عن كل فدان مائة درهم ،وأخذ الجباة يفتحون المتاجر قوة واقتدارا باحثين وراء المال زاعمين أن السلطان يريد الاقتراض من مال التجار . فمن كان من التجار موجودا وقت البحث فى متجره أخذوا نصف ماله وتركوا له النصف الآخر ، وإلا جردوا المتجر مما فيه من قماش ومال .

ثم أخذ السلطان كذلك من أوقاف الجوامع والمساجد أجرة شهر واحد حتى من أوقاف المستشفى المنصورى «البيمارستان» وقد أوذى كثير من الناس فى هذه الحوادث ،وكم صودرت أموال وكم سجن رجال . . . .

وكان القائم بجباية هذه الأموال الأمير «يلبغا السالمى» الأستادار . وقيل إنه أخذ لنفسه منها أضعاف ما ورده إلى السلطان . - وهذا دليل على فوضى الجبى - فلما بلغت هذه الدعوى سمع السلطان قبض عليه وسجنه وعزله من الاستادارية.

«ج ١ ص ٣٣٠»

٨ - ومما صنعه السلطان فرج أيضا بمناسبة تجريدته إلى بلاد الشام أن عرض أجناد الحلقة فمن كان قادرا على حمل السلاح والسفر معه سافر ، ومن لم يجده قادرا طلب إليه أن يقدم بديلا عنه أو يأخذ منه نصف خراج إقطاعه عن سنة كاملة

فجمع من وراء ذلك مالا جزيلا . «ج ١ ص ٣٣١»

٩ - وفى عام ٨٧٢ هـ أخذ السلطان قايتباى فى إعداد حملة عسكرية ضد «سوار» ولما كان المال ينقصه أراد أن يمس أوقاف المساجد . فيبقى منها ما يكفى ريعه نفقات المساجد ويستولى هو على البقية لينفق منها على تجاريده وحملاته . فجمع لذلك مجلسا فيه الأمراء والخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام أمين الدين يحيى الأقصرائى ، فتجادلوا زمنا فى الأمر وكادوا يوافقون السلطان على رأيه لولا أن أغلظ الأقصرائى لهم القول وأنكر هذا المساس بمال الاوقاف كل الانكار وأنذر السلطان بعاقبة هذا العمل . وخوفه من الله سبحانه . وطلب اليه أن يلتمس ما يحتاج إليه من مال ، من بيت المال ، وإلا فمن أموال الأمراء والجند وحلى النساء أولا . ثم بعد ذلك يمس مال الاوقاف فينال منه الضرورى الذى يدفع الأذى عن المسلمين . بذلك حفظ مال الأوقاف من العبث . ورضى السلطان مرغما .

«ج ٢ ص ٩٧»

١٠ - وقد عاود السلطان قايتباى اظهار رغبته فى حل الأوقاف وإجراء حركة استبدال فى أعيانها ، وذلك عام ٨٧٧ هـ فعارضه قاضى قضاة الحنفية شمس الدين الامشاطى فى ذلك معارضة شديدة . فلم ينفذ من رغبته السلطان شىء .

«ج ٢ ص ١٤٤»

١١ - وقد استطاع قايتباى فى عام ٨٩٤ هـ أن ينال موافقة القضاة الأربعة على أن يجبى من أرباب الاملاك ، ومن إيجار الأوقاف بمصر والقاهرة أجرة شهرين ، معاونة له ، للنفقة على الجند . «ج ٢ ص ٢٥٧»

١٢ - وفى سنة ٨٩٦ هـ اضطر قايتباى الى مال كثير لينفق منه على حملة يبعثها إلى بلاد الشام لرد اعتداء العثمانيين . فجمع لذلك مجلسا فيه القضاة الأربعة ، فشرح لهم غرضه وطلب إليهم أن يقروه على فرض إيجار سنة على الأوقاف والاملاك

بمصر والقاهرة سواء أكانت أماكن أم أرضا مزروعة أو حمامات أو طواحين أو أفرانا أو مراكب أو غير ذلك . وبعد جدال وتوقف وأخذ ورد اتفقوا على فرض إيجار خمسة أشهر فقط . وفرضت هذه الضريبة أيضا على الاملاك والاوقاف

ومع هذا كله لم ينفق السلطان هذه الضريبة فى وجهها .

« ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٥ »

١٣ - وفى سنة ٩٠١ هـ فرض قايتباى ضريبة على بيع الغلال فجعل على كل إردب مبيع نصفا فضة « ج ٢ ص ٢٩١ »

١٤ - وفى ذى الحجة عام ٩٠٣ هـ اشتط السلطان الناصر بن قايتباى فى جمع الأموال لكى ينفق منها على المماليك الجلبان الذين زادت أطماعهم ، واستشرى شرهم وثاروا فى وجه السلطان المذكور وأرغموه على أن يدفع لهم مالا . فلم يجد بدا من أن يفرض غرامات فادحة على كل من المباشرين وقضاة الشرع والأعيان والتجار وصغار الباعة واليهود والنصارى ، ووكل أمر الجمع إلى خاله قانصوه وأعوانه ، فقسوا فى معاملة الناس ، وآذوا الكثير منهم ، وألحقوا بهم ضروبا من الاهانة والتعذيب ، واستعملوا لذلك المعاصير والكسارات ، والخوذ الحديدية المحماة ، فاختفى ابن تقى القاضى المالكى ، والشهاب الشيشينى القاضى الحنبلى ، وطرح شهاب الدين أحمد ناظر الجيش على الأرض ليضرب لامتناعه عن الدفع . وكذلك فعلوا بعلاء الدين بن الصابونى ناظر الخاص وبكثير من الأعيان . فجمعت هذه الضرائب أو الغرامات بالضرب والحبس ، فكان جمعها أحد مظاهر الظلم الصارخة . وقد كثر دعاء الناس على هذا السلطان « ج ٢ ص ٣٤٣ »

١٥ - وبعد أن ولى الأشرف الغورى بزمن قليل رأى الخزائن خاوية وثار عليه المماليك مرات متوالية لطلب النفقة التى تأخرت ثلاثة أشهر . ورأى

الاستيلاء على مال الأوقاف وأرضها . ثم تشاور مع الأمراء والخليفة والقضاة، فقر رأى الجميع بعد جدال عنيف على أن يأخذ من ريع الأوقاف سنة واحدة ، ومن إيجار الأملاك بالقاهرة عشرة أشهر . فثار الناس لهذا العمل وضجوا ، فاكتفى بايجار سبعة أشهر بدل عشرة . (١)

١٦ - وفى ١٤ جمادى الآخرة عام ٩٠٧ هـ أرسل الغورى خاصكيا يرعى « نانق » الخازن ليتوجه إلى بلاد الشرقية والغربية ليجمع المال من المقطعين . فضيق الخناق على الفلاحين . وأراد أن يحاسب المقطعين حسابا عسيرا . ففحص أصل خراج كل حصة حتى إن بعض الفلاحين غادر بلده خوفا وخشية . ثم إن بعضهم قدم إلى « نانق » المذكور جملة من المال ، فرحل عنهم ، وبذلك ضاع خراج تلك السنة على المقطعين مابين « نانق » والفلاحين .

١٧ - وفى عام ٩٠٨ هـ عاد أمير الحج الأمير الناصرى محمد بن خاص بك ، وكان العربان قد نهبوا ركبه فى الحجاز . فأمر الغورى بحبسه وفرض عليه عشرين ألف دينار يؤديها غرما . فما زال محبوسا نحوا من ثلاثة أشهر حتى أدى ما فرض عليه ، بعد أن أنقص منه السلطان خمسة آلاف دينار .

١٨ - ومن غريب ما حدث فى عهد الغورى عام ٩١٢ هـ أن تقدم إليه شخص اسمه « أبو الخير المرافع » والتزم للسلطان أن يجمع له مائتين وخمسين ألف دينار يستخلصها له من الناس ممن يعلم لديهم مالا . وبشرط أن يطلق السلطان يده فى جمعها . وكاد السلطان يجيب دعوة هذا الرجل ، لولا أن اجتمع به بعض الأمراء وقبحوا هذا العمل .

---

١ - من رقم ١٥ إلى ٢٤ مرجعه بدائع ابن اياس ج ٤ فى حوادث التوايخ المذكورة بكل رقم .

١٩ - وفى ٢٢ ربيع الأول عام ٩١٨ هـ رسم السلطان الغورى لكاشف الشرقية والغربية بجباية ضريبة الجماية والشياخة عن السنة المذكورة قبل استحقاقها فأخذاهما وأعوانهما يجمعونها من الفلاحين والمقطعين، واستخدموا فى ذلك الضرب والقوة والاهانة والهجوم على المنازل للبحث عن المال. ولم يرعوا حرمة مسافر ولم يكترثوا لهارب، بل من لم يجدوه أرغموا أهله على دفع ما يطلب منه. ومن عجيب الأمر أن الخراج لم يكن قد استحق، وكان القمح لايزال فى مزارعه لم يحصد، والنيل لم يصل حد الوفاء. وقد زايل كثير من الفلاحين دورهم وبلادهم بسبب مالاقوا حينئذ من جور وعسف.

٢٠ - ولما فشا الطاعون فى أوائل عام ٩١٩ هـ وكثر الموتى رسم السلطان الغورى فى شهر صفر منها، للأمير مغلباى الزردكاش بأن يأخذ من تركة من يموت من المماليك السلطانية ممن له «جامكية» سيفا مسقطا بفضة وزردية وخوذة وتركاش، وكلها أسلحة، وله أن يحجز وصيه حتى يفى بما قرر عليه. فكان الأمير مغلباى يحجز زوجات المتوفين من المماليك حتى تؤدى كل ماعليها.

ورسم للأمير آخور كبير بأن من يتوفى من المماليك ممن له «جامكية» و «عليق» يأخذ من وصيه فرسين أو ثمنهما. وعن الخاصكى ثلاثة رءوس خيل وبغلة، وعن كل من أصحاب الوظائف خمسة رءوس خيل وبغلة.

ورسم لألماس دوادار سكين بأن يجبى عن كل من يتوفى من المماليك الأجلاب خمسين دينارا. وعن كل جمدار عشرين دينارا. هذا ولم يعهد المماليك مثل هذه الضرائب من قبل؛ ولا فداحتها وكادت تكون فتنة بينهم بسببها.

٢١ - وفى أواخر صفر عام ٩١٩ هـ. أيضا رسم الغورى بابطال جملة من الضرائب منها المشاهرة والمجامعة وكل المكوس المقررة على السوقة والباعة وعلى

طواحين القاهرة . وضريبة بيع الغلال . وذلك بمناسبة الغلو وارتفاع أثمان الحاجيات . ففرح الناس بما رسم .

٢٢ - كان على أبواب الأمراء مقاعد يجلس عليها نقباؤهم الذين يقدمون إليهم أرباب القضايا ، للفصل فيها فى نظير جعل خاص . فلما فشا الطاعون عام ٩١٩ هـ رسم السلطان الغورى برفع هذه المقاعد وإبطال هؤلاء النقباء . ونودى أن كل من له مظلمة أو قضية فعليه أن يتوجه بها إلى الوالى أو إلى أحد قضاة الشرع . وحاول الأمراء أن يرجعوا السلطان عن قراره فلم يفلحوا . وكانت هذه الضريبة تدر على الأمراء أموالا طائلة . وكانت حجة السلطان فى رفض طلبهم أنه وضع عن الناس ضرائب قيمتها نحو أربعين ألف دينار . ثم أمر بأن من له حق عند الغير فليتوجه بغريمه إلى القضاة . وأما الجناة واللصوص فيساقون إلى بيت الولى .

هذا ، وقد عاد الغورى عن هذا القرار وطاوع الأمراء فى رأيهم فى يوم الخميس ٤ جمادى الأولى من نفس السنة . وكانت حجتهم الجديدة التى ساقوها إليه هى أن السلطان أصبح ولا حكم له ، وكذلك الأمراء لم تعد لهم يد فى الحكم بين الناس ، وهذا - فى نظرهم - فساد كبير . ومن هنا نودى بوضع المقاعد وإعادة الرسل والنقباء ! ونودى بأن من له مظلمة يتوجه إلى الأمراء كالعادة ، وبشرط ألا يغلو النقباء فى الجعل الذى يفرضونه على الأخصام .

٢٣ - وظلت الضرائب التى رفعها الغورى عن العامة والسوقة والباعة المتسببين ملغاة منذ صفر عام ٩١٩ هـ ، حتى كان رجب من نفس العام إذ تعرض كثير من العوام للسلطان فى الطريق شاكين إليه من فساد العملة . فحنق عليهم وغضب وأمر بإعادة هذه الضرائب كما كانت .

٢٤ - وفى شهر رجب المذكور أراد السلطان الغورى إصلاح جسر أم دينار بجهة الجيزة، ففرض على المقطعين بناحية هذا الجسر ألف درهم تدفع عن كل فدان، فنالهم من ذلك ظلم كثير.

٢٥ - تقلبت ضريبة بيع القمح وما إليه بين الإلغاء والتقرير عدة مرات منذ عهد قايتباى فلما كان عهد الغورى زاد خطرها. وأصبحت ثلاثة أنصاف فضة من البائع والمشترى - وكانت تسمى « الموجب » - بعد أن كانت نصفا واحدا فى عهد قايتباى. وقد رأينا كيف قررها الغورى مرة جديدة فى رجب عام ٩١٩ هـ. فلما حل يوم الخميس ٢٥ من شهر المحرم عام ٩٢٢ هـ أمر بإلغائها عن القمح والشعير والفول والبطيخ. ونودى بذلك فى سواحل مصر « العتيقة، وبولاق.

« ج ٢ حوادث المحرم عام ٩٢٢ هـ ص ١٠ »

٢٦ - وفى يوم الاثنين ٦ صفر عام ٩٢٢ هـ أمر الغورى بإبطال ضريبة المشاهرة والمجامعة التى كانت تجبى للمحتسب وأمر بإلغاء بعض الضرائب التى كانت تؤخذ على الغلال وتعرف « بمكس البحرين » ففرح الناس بذلك. « ج ٣ ص ١٢ »

ملحوظة : كتب ابن إياس فى الجزء الثالث من تاريخه ص ٥٩، ٦٠ معددا محاسن ومساوىء الغورى، وقد عرض لذكر بعض الضرائب التى فرضها والتى أشرنا إلى بعضها. فليرجع إليها من يشاء فى الجزء المذكور.

٣ - الجور والعسف :

رأينا عند الكلام عن الضرائب، كيف كانت فادحة ثقيلة، وأنها كانت تفرض على بعض الناس دون بعض، وأنها لم يكن يراعى فى فرضها منفعة عامة فى أحيان كثيرة، ولم يكن الأمر مقصورا على ذلك، بل إن الطرق نفسها التى كانت تجبى بها الضرائب

طرق شاذة سقيمة ظالمة ، إذ كان الجباة يصبون جام غضبهم ويطلقون سوط عذابهم على الناس لاستخراج الأموال منهم ومضاعفة ما يطلبونه، فمن سجن إلى تشريد إلى تعذيب إلى وعيد إلى مطاردة، وهكذا حتى اضطر البعض إلى الاختفاء . . . وحسبنا أن نقول إن الجمهور لم يكن يدفع ضريبة ما وهو يعتقد أن واجبه الوطنى يقضى عليه بدفعها، فيدفعها إذن عن طيب خاطر ونفس راضية ، بل كان يشعر دائما أن كل ضريبة إنما هى غرم عليه ومغنم السلطان وأتباعه .

وهناك ضروب أخرى من الظلم تجلت فى غير الضرائب . وذلك كسوء معاملة العامة وازدرائها واعتبارها مثل السائمة، وتسخيرهم بلا أجر فى عمل حكومى . ومثل التماس التهمة عند البرىء ، وإغفال الجانى حسب الظروف وما تدعو إليه . ومثل العنت والشدة فى الحكم على المتهم ، ومثل القسوة فى تنفيذ العقوبات وهكذا . وقد تعددت الحوادث التى من هذا النوع . ونحن نسوق منها هنا بعضا ، فمنها :

١ ـ فى عام ٦٨٢ هـ . أنشأ المنصور قلاوون «البيمارستان المنصورى» وقيل فى سبب إنشائه أنه كان أمر مماليكه بأن يضعوا السيف فى رقاب العوام لأنهم خالفوا أمره فى بعض ما أمر ، فاستعمل السيف فى قتلهم ثلاثة أيام وقتل منهم عدد لا يحصى وذهب البرىء منهم مع المسىء ، والصالح مع الطالح ، وما زالوا حتى ضج الناس وعلا الصراخ وعمت الشكوى وطفحت الكأس ، فشفع فيهم القضاة وعلماء الدين فعفا عنهم المنصور . ثم ندم على ما فعل وتقرب لله بهذا المستشفى . «ج ، ص ١١٦»

٢ ـ حينما اعتزم الملك المؤيد شيخ أن يبنى مسجده الشهير بجوار باب زويلة عام ٨٢٢ هـ ، بث أعوانه فى فجاج القاهرة يجمعون له الرخام قوة واقتدارا من كل منزل به أثارة منه ، فظلموا فى ذلك كثيرا من أعيان الناس . «ج ٢ ص ٦»

٣ ـ وهناك رجل من الرؤساء ولى الاستادارية أكثر من مرة وكذلك الوزارة

وهو مجد الدين بن البقرى ، كان الأشرف قايتباى يكرهه . فترقب فرصة فيه ليبطش به . سنحت هذه الفرصة له حينما بلغه أن مجد الدين فرح هو وأهله فى مقتل الأمير يشبك الدوادار أحد القواد العظام فى ذلك الحين ، وأحد المقربين الى السلطان . فقبض عليه وأمر بقتله فقتل . « ج ٢ ص ٢٤٩ »

٤ - (١) وفى يوم الأحد ١٤ ربيع الأول عام ٩٠٨ هـ ، رسم السلطان الغورى بشنق رجل من أهل حلب لم يستطع أن يدفع مالا فرض عليه . فشنق على باب زويلة .

٥ - وفى سنة ٩١٢ هـ : ازداد ظلم الأمير « طرابای » رأس نوبة النوب . وأطلقت يده فى بلاد وفى بيوت وغيرها، يستولى على ما فيها من الأوقاف ويأمر بحلها والتصرف فيها توا ، ويأخذ منها ما يشاء بأبخس الأثمان . وكل من امتنع وعارضه يضرب ضربا مجهدا وحجر عليه . ومن هؤلاء شخص يدعى « يونس بن جانم الزردكاش » أخذ منه بيت أبيه - وكان فى زقاق حلب - فامتنع من تسليمه فضربه ضربا مؤلما . وغيره كثيرون .

٦ - ومن الحوادث فى المحرم عام ٩١٣ هـ أن ضرب الأمير « أرزمك الناشف » وهو أحد المقدمين ، شخصا من النوتية ، حتى مات من شدة الضرب . وكان سبب ذلك أن النوتى حمل الى هذا الأمير بضاعة فوصلته ناقصة ... فلما مات شكا أولاده للسلطان الغورى فتعامى عن ذلك ، وأشار على الأمير أرزمك أن يرضى أولاد المقتول ، وذهبت دماؤه عبثا .

٧ - ومن حوادث شهر رجب عام ٩١٥ هـ . أن « قرقاس » المقرى أحد أمراء

---

(١) رقم ٤ وما بعده مرجعه ابن إياس ج ٤ فى حوادث تاريخ كل رقم .

العشرة، سرق من منزله بزقاق الكحل عملة بألف دينار، فقبض على جيران الحارة أجمعين وسلمهم لوالى القاهرة فعاقبهم أشد عقوبة وغرمهم أضعاف ما سرق. ومن بينهم أسر مجيدة كأسرة البقرى.

ثم اتضح فى أواخر المحرم عام ٩١٦ هـ أن سارق هذه العملة مملوك هذا الأمير وهرب بها إلى الحجاز، فقبض عليه وأعيد إلى القاهرة وسلم إلى سيده فضربه فاعترف. ثم إن جيران الأمير شكوه إلى السلطان فوبخه وطلب إليه أن يرضى هؤلاء الجيران، ولكن بعد ما غرموا وضربوا وأوذوا... فراضاهم.

وما دمنا بصدد ذكر ضروب الظلم والقسوة فلا مانع من أن نقول كلمة فى أنواع التعذيب فى هذا العصر وننوه بذكر السجون الشهيرة.

وقبل أن ننوه بذكر التعذيب والسجون نرى لزاما علينا الاعتراف بأنهما أمران ضروريان للدولة حتى تصان الحقوق من العبث وتحفظ الأرواح من الاعتداء عليها. وهما أمر مشروع فقد أمر الله بقتل القاتل وقطع يد السارق وحبس المدين وهلم جرا. وقال جل شأنه «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب».

وكل الذى نحمل عليه هو أن يبدو فى العقوبة الرغبة الأولية فى الإيذاء، ويبدو فيها القسوة والتمثيل البشع وهكذا. وهناك حوادث سنقصها منقولة من تاريخ هذا العصر تدل على القسوة فى العقوبة، والتفنن فى التعذيب، الذى من ضروبه ما يلى:

الإعدام والتعذيب:

كان للإعدام طرق شتى: منها حز الرأس ثم وضعه أحيانا فوق حامل لإشهاره فى المدينة، وقد ينادى عليه ويسار به فى شوارعها ويقال أمامه: «هذا جزاء من خالف السلطان»، «هذا جزاء من صنع كذا». ويقوم بهذه المناداة عادة عدد

من حملة المشاعل ويوقدونها إذا كان الوقت ليلا . ومن طرق الإعدام : التوسيط وهو على ما جاء فى شرح سلوك المقريزى - ضرب وسط المحكوم عليه بالسيف بعد طرحه أرضا . ومن طرق الإعدام استخدام الخازوق ، وهو - كما شرحه صاحب كتاب « تاريخ حماة » - عبارة عن عمود طويل رأسه مخروط الشكل يغرز فى الأرض كأحد عمد السلك البرقى ، يوضع الرجل عليه محمولا ، ويدخل رأس الخازوق فى مقعده ، ثم يترك على هذه الحال مدة ثم يجذب بعنف حتى يدخل جوفه . - ومن طرق الإعدام : الشنق بالحبال ، فبعد أن يعلق المتهم على حامل مرتفع ويوضع الحبل فى رقبته يخلى بينه وبين الأرض فيهوى مختنقا فيموت . ومنها أيضا الاغراق فى النهر . ومنها الخنق فى السجن .

ومن طرق التعذيب التسمير فى الأخشاب وهو مثل الصلب ، ثم وضع المسمرين فوق الدواب وإشهارهم فى شوارع المدينة ، والمناداة عليهم بأنهم فعلوا كذا وكذا.

ومنها الاعتقال والسجن والقيد فى الحديد والضرب بالمقارع .

ومنها ضرب الجسد عاريا . ومنها قيد الأرجل والضغط عليها وإيلامها بآلات تسمى « المعاصير » و « الكسارات » ، وكذلك كانت تعصر الأصداغ والأيدى .

ومنها إحراق الأصابع بالنار ، ومنها وضع خوذة حديدية أو نحاسية فى النار ثم تثبت على رأس المتهم .

هذا وكان أعوان السلطان يقومون بتنفيذ ما يأمر به من العقوبة . وربما أمر بتنفيذها أمام عينيه - وربما زاول هو بنفسه تنفيذها فضرب المتهم أو قتله بيده .

وإلى القارىء بعض الحوادث التاريخية الناطقة بما ذكرنا فمنها :

١ - فى عام ٦٨٩ هـ ولى السلطان الأشرف خليل الملك ، وكان يكره نائب السلطنة الأمير « طرنطاى » ، فقبض عليه وسجنه بالقلعة ثلاثة أيام ثم أمر بخنقه

فى السجن ، فخنق ودفن . «ج ١ ص ١٢٢»

٢ - روى المقريزى أن الناصر محمد بن قلاوون ، بينما كان مضحكه يسليه ، وهو جالس فى بستانه ، إذ بدت منه بادرة أشعرت الناصر بأنه يتنقص عمله ، فأمر لوقته بربطه فى الساقية عاريا ، وألهبت ظهور دوابها فأسرعت ، والمسكين يغرق فى الماء آنا بعد آن حتى كاد يموت ، والناصر ينظر إليه ، ثم أطلقه ونفاه .

«الخطط ج ١ ص ١٤٦»

٣ - فى عام ٧٦٨ هـ . قبض السلطان الأشرف شعبان على الصاحب فخر الدين ابن قرونة وسلمه إلى الأمير قرابغا الصرغتمشى فما زال يعاقبه حتى مات تحت الضرب . قيل إنه أحرق أصابعه بالنار ، وأحمى له خوذة فى النار وألبسها له حتى مات

«ج ١ ص ٢٢٠»

٤ - وفى عام ٧٨٨ هـ . قبض السلطان برقوق على القاضى موفق الدين أبى الفرج ناظر الجيوش المنصورة ، وضربه مائة وخمسين عصا كما ضرب القاضى تقى الدين ابن محب الدين التيمى . «ج ١ ص ٢٦٤»

٥ - لما تولى فرج بن برقوق عرش البلاد ، شق عليه عصا الطاعة الأمير «تنم» نائب الشام وانضم إليه عدد ضخم من الأمراء والنواب والجند ، فخف اليه السلطان فرج عام ٨٠٢ هـ ، وهزمه وأتباعه وقبض على كثيرين منهم . وقتل نحو أربعة عشر أميرا ، ذبحوا كلهم ببرج الحمام بقلعة دمشق . وكان من بينهم الأتابكى ايتمش البجاسى » ، والأمير « فارس » حاجب الحجاب ، فبعث السلطان رأس هذين الأميرين إلى القاهرة فطيف بهما فى شوارعها ثم علقا على باب زويلة . ثم خنق «تنم» النائب من بعدهم بعد أن استصفى أمواله ، وصادر ممتلكاته ، ودفعه إلى الاعتراف بما سلب من أموال البلاد . «ج ١ ص ٣٢٤»

٦ - وفى عام ٨١٢ هـ ازداد جور السلطان فرج بن برقوق على مماليك أبيه ، وحنق عليهم ، فشرد بعضهم وأغرق البعض . ثم أنه أخذ يسفك دماءهم بلا روية ، وذلك أنه كان يسكر إلى نصف الليل ثم يخرج إلى حوش القلعة وهو سكران ، فيعرض عليه هؤلاء المماليك وهم فى قيودهم الحديدية ويقدمون واحدا فواحدا ، فيقول : من هذا ؟ فيقولون له : فلان ! من الطبقة الفلانية فيقول : قدموه ، فيبطحونه على الأرض فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله ، وربما بال عليه أوصب فوقه النبيذ . « ج ١ ص ٣٥٣ »

٧ - فى عام ٨٧١ هـ أمر السلطان خشقدم بإغراق «يرش» خازندار الأمير جانى بك نائب جده ، وكان شابا صغيرا فأسف الناس الاغراقة . « ج ٢ ص ٨١ »

٨ - وفى الخميس ٢٩ ذى الحجة عام ٩١٧ هـ رسم الغورى بتسمير ثلاثة أشخاص قيل إنهم سرقوا حجزة من حجزاته ، تقوم بنحو مائتى دينار ، فسمروا ثم وسطوا أى أعدموا (١) .

٩ - فى شهر جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ . ادعى رجل شامى دعوى كذب ، بأن جزيرة رودس فتحها المسلمون بلا حرب ولا قتال ، وألف فى ذلك كتابا ، فصدق السلطان ما جاء به ! . ثم اتضح كذبه بعد ذلك . فأتى به وعرى وضرب بالمقارع وأرسل إلى المقشرة .

١٠ - فى جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ . قبض على رجل ينبش القبور ويستخرج لحوم الموتى ، ويبيع جماجمها للإفرنج فسمر على جمل وأشهر فى القاهرة ثم شنق .

١١ - وفى ذى القعدة عام ٩١٩ هـ ، ضبط أحد نواب الشافعية وهو « الشالى » مع

---

(١) رقم ٨ وما بعده مرجعه ابن اياس ج ٤ حوادث تاريخ كل رقم .

زوجة أحد نواب الحنفية « غرس الدين خليل » فضربهما حاجب الحجاب بالمقارع وأشهرا فى القاهرة والصليبية وقنطرة السباع . ثم حبسهما السلطان ورسم بشنقهما فشنقا وجها إلى وجه معا .

١٢ - وفى ربيع الآخر عام ٩٢٠ هـ : اعتدى خياط يقال له « نجا بن تمساح » على صبي صغير فأتلفه ، فاستغاث الصبي فخنق عليه الخياط فذبحه ورماه فى بئر ، ثم شاع خبرهما ، فقبض على الجانى فاعترف ، فرسم السلطان بشنقه فى المكان الذى قتل فيه الصبي . وقيل رسم السلطان بقطع مذاكيره وتعليقها فى عنقه وهو مشنوق . ففعلوا به ذلك . . .

ورسم السلطان فى حادثة مماثلة اتهم فيها طحان ، بأن يوضع على الخزوق . ففعلوا به ذلك .

١٣ - وفى جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ . أخذ الزينى بركات فى تعذيب « شمس الدين بن عوض » وولده ، وبذل فى ذلك كل جهد مستطاع من ضرب كسارات وعصر أكعاب وأصداغ وأيد . وإحراق الأصابع .

السجون الشهيرة :

تعددت السجون فى هذا العصر ، وشهد كل منها عددا ضخما من المساجين ما بين أمراء عظام بل وملوك أجلاء ، وبين مماليك موظفين وجنود وعامة . ويبدو أنه كان فى كل مدينة كبرى سجن حصين ، وكان فى القاهرة وحدها عدة منها . ويبدو أيضا أن أمر الاعتقال فى السجون ومدته منوطان بإرادة السلطان وحده ، كما يبدو أن بعض السلاطين كان ينتهز فرصة رمضان فيعرض المساجين فى مستهله ثم يطلق سراح بعضهم حسب مشيئته (١) .

(١) راجع ابن إياس ج ٢ ص ٣٦٦ .

ونتوه هنا بذكر بعض هذه السجون وبعض من أقام فيها باختصار فنقول :

١ - الجب : كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلما كثير الخفافيش كريه الرائحة ، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه . عمره الملك المنصور قلاوون فى سنة ٦٨١ هـ ، فلم يزل إلى أن قام الأمير بكتمر الساقى بحملة ضده لدى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم إلى الابراج ، وردمه وأقام فوق أرضه طباقا فى سنة ٧٢٩ هـ . وتم هدمه فى يوم الاثنين ١٧ جمادى الأولى عام ٧٢٩ هـ . وممن ابتلى بالسجن فيه تغرى بردى الترجمان ، والجمالى يوسف بن أبى أصبع الحلبى .

« الخطط ج ٣ ص ٣٠٦ ، ٣٤٦ - والسلوك ج ١ ص ٣١٠ - ابن إياس ج ٤ حوادث ربيع الآخر عام ٩١٩ هـ » .

٢ - حبس المعونة : كان بالقاهرة ، استخدم سجنا منذ عصر الفاطميين ثم لما ولى الناصر محمد بن قلاوون أمر بهدمه . « الخطط ج ٣ ص ٣٠٥ »

٣ - خزانة شمائل : مكانها الآن جامع المؤيد شيخ بجوار باب زويلة « بوابة المتولى » . وهى منسوبة إلى الأمير « علم الدين شمايل » الذى كان من أتباع والى القاهرة فى العهد الأيوبى ، ثم اتصل بالملك الكامل محمد بن العادل بن أيوب ، فأقامه واليا على القاهرة ، فبنى له هذا السجن ليسجن فيه من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطريق ، ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة . وكان سجنا شنيعا قبيح المنظر ، وقد استمر مستخدما فى أداء هذه المهمة زمنا طويلا فى عهد المماليك ؛ حتى كان عصر المؤيد شيخ المحمودى ، وقد كان هذا السلطان فى جملة من حبس فى هذه الخزانة فى عهد السلطان برقوق ، ولقى فيها كثيرا من الأذى . فندر إن من الله عليه بالخلاص منها ثم وصل إلى سلطنة مصر

أن يهدمها ويبنى فى مكانها مسجدا لله سبحانه وتعالى . وقد من الله عليه بما أمل ، فأمر بهدمها فى يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٨ هـ ، وبنى مكانها مسجده الشهير . وممن سجن فيها الأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة فى عهد برقوق .

« ابن إياس ج ١ ص ٣١٣ ، ج ٢ حوادث عام ٨٢٢ هـ ، الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٠٥ تحت عنوان « ذكر السجون » .

٤ ـ المقشرة : قال المقريزى : هذا السجن بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين الجامع الحاكمى . كان يقشر فيه القمح ، ومن جملته برج من أبراج السور على يمنة الخارج من باب الفتوح ، استجد بأعلاه دور لم تزل إلى أن هدمت خزانة شمائل ، فعين هذا البرج والمقشرة لسجن أرباب الجرائم ، وهدمت الدور التى كانت هناك فى شهر ربيع الأول سنة ٨٢٨ هـ وعمل البرج والمقشرة سجنا . ونقل إليه أرباب الجرائم ، وهو من أشنع السجون وأضيقها ، يقاسى فيه المسجونون من الغم والكرب مالا يوصف .

هذا ، وممن سجن فيه « معين الدين بن شمس » وكيل بيت المال ، وكاتب السر فى زمن السلطان الغورى . وفيه عذب وضرب بالمقارع وتوفى فى ٢٧ المحرم عام ٩١٧ هـ « الخطط ج ٣ ص ٣٠٦ ، وابن إياس ج ٤ حوادث المحرم عام ٩١٧ هـ »

٥ ـ الحجرة : يبدو أنها كانت خاصة بالنساء ، قال ابن إياس فى حوادث صفر عام ٩١٩ هـ : عرض السلطان محابيس « الحجرة » من النساء وأطلق من كان بها . « ابن اياس جزء ٤ حوادث صفر سنة ٩١٩ هـ »

٦ ـ العرقانة : سجن فيه « على شرف الدين الصغير » ، كاتب المماليك ، . وعلى شرف الدين النابلسى ، الأستادار ، وقررت عليها غرامة ووضعا فى الحديد ، وذلك فى ذى القعدة عام ٩١٦ هـ . « ابن اياس جزء ٤ حوادث القعدة سنة ٩١٦ هـ »

هذا وكان ثمة سجون أخرى فى الأقاليم هناك وأماكن أخرى ودور تستخدم

سجونا أحيانا فمنها :

١ ـ قلعة دمشق : وسجن بها كثيرون .

٢ ـ سجن الكرك : وهو فى مدينة الكرك شرق مصر . وسجن به كثيرون من أمراء وغيرهم ومنهم الملك السعيد بن بيبرس بعد خلعه . ومنهم الأمير « طقزدمر » نائب الشام ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان بن الناصر بن قلاوون .

« ابن إياس جزء ١ ص ١٨٤ »

٣ ـ سجن الاسكندرية : شهد هذا السجن كثيراً من السلاطين المخلوعين والأمراء المغضوب عليهم . ومنهم الأمير « آل ملك » الذى كان نائبا للسلطنة ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان أيضاً . « ابن إياس جزء ١ ص ١٨٤ »

٤ سجن دمياط : شهد كذلك كثيراً من السلاطين المنفيين والأمراء المنبوذين ، ومنهم الأمير « قارى » استادار العالية ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان كذلك . « ابن إياس جزء ١ ص ١٨٤ »

٥ ـ سجن قوص : وكذلك هذا السجن . وممن سجن فيه السلطان المنصور أبو بكر هو وأخواه . سجنوا فيه بأمر الأتابكى « قوصون » لما استبد بالملك .

« ابن إياس جزء ١ ص١٧٧ »

٦ ـ الجامع الصغير : وهو موجود ـ كان ـ بداخل الحوش السلطانى بالقلعة . استخدم أحيانا سجنا ، وممن سجن فيه بأمر الغورى « شرف الدين يونس النابلسى » الذى كان أستادارا . ظل فيه ثلاث سنوات ثم أفرج عنه فى ١٦ شعبان عام ٩١٨ هـ

« ابن إياس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١٦ هـ »

٧ ـ بيت الوالى ، وبيت المحتسب : كثيراً ما كان يساق المحكوم عليهم ، وخاصة بغرامة مالية إلى بيت والى القاهرة أو بيت محتسبها حيث يسجنون ويعذبون حتى

يستخلص منهم المال المقرر . ومن هذه البيوت بيت المحتسب الزينى بركات بن موسى فى عهد الغورى ، وممن سجن وعذب فيه لذلك « شمس الدين بن عوض » .

« ابن إياس جزء ٤ حوادث ربيع الثانى سنة ٩٢٠ هـ »

٨ - بيوت الأمراء . وكان يسجن فيها أحيانا المعتقلون « السياسيون » .

٤ — كثرة الفتن الداخلية :

لا نغلو إذا قلنا إن شر آفة ابتليت بها مصر فى هذا العصر ، هذه الفتن المحتدمة والمؤامرات المستعرة الواسعة النطاق ، التى دبرها الأمراء بعضهم ضد البعض الآخر . أو دبرها بعض الأمراء ضد سلطانهم أو قام بها عدد من المماليك ضد سادتهم من سلاطين أو أمراء .

وقد صحبت هذه الفتن حياة دولتى المماليك تقريباً ، ولاسيما الدولة الجركسية ، ومما عاون على وجودها طريقة الحكم المتبعة . فقد غرست الآمال الواسعة فى نفوس الأمراء والجند ، وأوحت إلى كل بالأمانى المعسولة فى الوصول إلى العرش والسلطنة ، أو الاستحواذ على المال والجاه والنفوذ . فامتلأت صدورهم هوى ، وأفعمت قلوبهم طمعا ، وصبت نفوسهم إلى استعجال الأمر ، فلم يجدوا بدا من إشعالها فتنة شعواء وثورة جامحة ، خبوا فيها ووضعوا ، وغامروا بحياتهم ، وقامروا بمستقبلهم ، ابتغاء أن تكون الورقة الرابحة من نصيبهم .

ومما ساعدهم على ذلك أيضا هذه الحزبية ، أو هذه العصبية التى كانوا يؤلفونها حول أنفسهم ، فكل أمير له أتباعه وأخصاؤه ، وله مماليكه الذين اقتناهم بماله وأمدهم بخيره وبره ، وألف من شتاتهم مجموعة قوية تتبعه وتتعصب له . وتأتمر بأمره وتنتهى بنهيه ، لأنه إنما ادخرها للملمات ، وملأ قلوب أفرادها أملا قويا وطمعا .

وطبيعى أن تؤثر هذه الفتن والقلاقل فى مرافق الحياة بالبلاد فترميها بسهم

صائب من الإهمال فتصميها . كما أنها تشغل بال السلاطين بإطفائها والقضاء على مثيريها، عن أن يحسنوا القيام بشئون الدولة ، ويهيمنوا على أمورها ، كما أنها تطمع كل خارج على الدولة فيها ، وتوحى إلى أعدائها بالانقضاض عليها والانتقاص منها وهذا هو ماحدث فعلا ، فإن هذه الفتن ظلت كالسوس تنخر فى عظام الدولة حتى تداعت أركانها ، وقوض بنيانها ، وسقطت فى يد العثمانيين نتيجة للأطماع غير المشروعة وعاقبة لاختلاف القلوب . . .

وكثيراً ما أفلحت هذه الفتن فوصلت إلى غاياتها فسلبت العرش من معتليه ، وفتكت بأرواح عدة ، وأسالت دماء كثيرة وأضاعت أموالا وأضعفت جندا . ولكنا نلحظ فيها جميعا بوجه التقريب أنه لم يكن يقصد منها إلى مصلحة عامة أو منفعة وطنية .

ونسوق فيما يلى أخبارا عن بعض هذه الفتن والمؤامرات ونتائجها ملمحين إليها فحسب إذ سبق ذكرها فى تاريخ الملوك والأمراء فى القسم الأول من هذا الجزء . فمنها (١)

١ - أول المؤامرات التى فتحت بها هذه السلسلة الطويلة منها : دؤامرة شجرة الدر على زوجها « المعز بن أيبك » أول سلاطين المماليك . فانها بعد أن نزلت له عن الملك وتزوجها، لقى منها ما أحنقه عليها . فغضبت منه فى نفسها وأضمرت له السوء . واختارت له خمسة من خدامها أمرتهم بقتله واغتياله . فاقتحموا عليه حمامه وخنقوه على مرأى منها وهو يستغيث بها فلم تغثه ، ويقبل يدها فلا تأبه له . وذلك عام ٦٥٥ هـ

٢ - المؤامرة التى قتل فيها بيبرس سلطانه المظفر قطز عقب انتصاره على التتار .

---

(١) تراجع أخبار هذه الفتن والمؤمرات فى مواضعها بالقسم الاول من هذا الكتاب ، وفى تراجم الامراء .

٣ ـ وفى سنة ٦٧٧ هـ كان سلطان البلاد ، هو الملك السعيد محمد بركة خان بن بيبرس . خرج عن طاعته نائب الشام فهب لتأديبه وسافر إلى دمشق فى جمع من الجند والأمراء . وهناك انضم بعضهم إلى نائب الشام بحجة أن السلطان يريد القبض عليهم ، فحاول هو وأمه إصلاح الأمر بينهما فأبوا ، فجمع جموعا من العربان وغيرهم وفرق عليهم أموالا ليكونوا عونا له على أعدائه . فنالوا أمواله ثم زايله منهم عدد كبير . فأخذ سمته عائدا إلى القاهرة ، فهم من فيها من الأمراء بلقائه وقتله ولكنه أفلت منهم واحتمى بالقلعة . ثم سفر بين الفريقين الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد العباسى ، بعد حروب بينهما دامت سبعة أيام ، فاضطر السلطان إلى النزول عن عرشه وسار إلى الكرك مسجونا . ثم بايع الأمراء أخاه العادل سلامش.

٤ ـ ومنها المؤامرة التى دبرها الأمير « بيدرا » لقتل السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون ، وهو يرتاض ، وقد فتك به فى عام ٦٩٣ هـ

٥ ـ وفى عهد السلطنة الأولى للملك الناصر محمد بن قلاوون حدثت فتنة كبيرة بين نائب السلطنة الأمير كتبغا ، وبين الوزير سنجر الشجاعى ، أثارها الشجاعى ودبرها لكى يخلو له الجو من كتبغا فيستبد هو بالسلطان لصغر منه . فانقسم المماليك قسمين ، وشبت بينهما نار الحرب الداخلية عام ٦٩٣ هـ ، وظلت أياما ، وكانت عاقبتهما قتل الشجاعى وعزل الناصر ، وأيلولة الملك إلى الأمير كتبغا فتلقب بالعادل .

٥ ـ وفى عام ٧٦٢ هـ وقعت فتنة حارة بين السلطان حسن بن الناصر ، وبين مملوكه « يلبغا » وكان هذا السلطان قد رقى مملوكه المذكور حتى أصبح فى مصاف عظماء الامراء . فحسده كثير منهم على هذا الجاه ، ووشوا به إلى السلطان ، وأوقعوا بينهما العداوة والبغضاء ، فجمع كل منهما عصابته وكيده واقتتلا ، فانهزم السلطان حسن . وكانت النتيجة أن قبض عليه ، قيل إنه خنق بعد ذلك وآلت

السلطنة إلى المنصور محمد، ورقى « يلبغا » إلى منصب الأتابكية وأصبح صاحب الحل والعقد.

٦ - وابتلى السلطان برقوق بعداوة مملوكه « منطاش »، الذى ظل زمنا طويلا يعيث فى الأرض فسادا طورا بمصر، وطورا ببلاد الشام، وكان سببا فى زوال سلطنة برقوق الأولى عام ٧٩١ هـ. وارتقى السلطنة بعده أمير حاج، وكان أتابكيه يلبغا الناصرى، فاشتدت الشحناء بينه وبين « منطاش »، ووقعت بينهما حروب هزم فيها يلبغا، فقبض عليه « منطاش »، وخلا له الجو، وظل يكيد لبرقوق وهو فى سجنه بالكرك، حتى أفل نجمه، وعاد برقوق إلى السلطنة، ففر منطاش إلى بلاد الشام عابثا بها حتى قبض عليه فانتحر.

٧ - وفى سنة ٨٠٠ هـ. أخذ الأمير « على باى » فى الكيد للسلطان برقوق، مع أنه مملوكه، وهو الذى رقاه حتى صار رأس نوبة النوب، وهيأ له كمينا من أتباعه ليفتكوا به حين عودته من تخليق العمود فى حفلة كسر السد، ولكنه نبه عليه فلوى عنان فرسه مبتعدا عن هذا الكمين، فحنق « على باى »، وكر على السلطان ومن معه بمن لديه من الجند والاتباع، فترامى الفريقان، ثم هزم « على باى »، ثم قبض عليه بعد زمن، وسيق إلى السلطان، فسجنه ثم أخذ يسأله عن أموال لديه ثم حنق منه ولكزه بحديد فى يده فقضى عليه. وكان سبب هذه الفتنة كما قال « على باى » أن السلطان لم ينصفه من عدوه الأمير « أقباى ».

٨ - وقد نوهنا فى باب « الجور والعسف » بما ألحقه السلطان فرج بن برقوق بمماليك أبيه من سجن وقتل وتعذيب جزاء لهم على خيانتهم له وإنكارهم نعمته.

٩ - ولما تولى الملك المظفر أحمد بن المؤيد شيخ عرش مصر عام ٨٢٤ هـ، كان رضيعا، فاستبد به أتابكيه قطر، ونزع منه الملك وتزوج أمه، فما كان من أمه - على ما قيل - إلا أنها دست السم لهذا السلطان الجديد.

١٠ - ومن الفتن التي وقعت في عهد قايتباى، تلك الفتن التي كان يقوم بها المماليك الجلبان بين آن وآن. والعداوة التي شبت نارها بين « قانصوه خمسمائة » و « أقبردى الدوادار » والمماليك الجلبان .

١١ - وفى عام ٩٠٣ هـ غدر الأمير طومان باى بالسلطان الناصر بن قايتباى وأعد له كمينا بالجيزة ودعاه إلى النزول عنده ليقضى ساعة هنيئة ، ثم اغتاله . - وممن أثار الفتن فى عهد الناصر المذكور أيضا الأمير « قانصوه خمسمائة » حيث استعرت بين الفريقين نار حرب أهلية غشوم انهزم فيها قانصوه واختفى .

١٢ - ولما تولى الملك العادل طومان باى السلطنة ، كان ممن عاونه على بلوغها معاونة صادقة الأمير « قوصروه » نائب الشام ولكن هذا السلطان خانه وفتك به دون جريرة فخنقه عام ٩٠٦ هـ .

١٣ - وممن ابتلى بهم السلطان الغورى وأقلقوا باله وأقضوا مضجعه : المماليك الجلبان، فقد أكثروا الفتن والمشاغبات وتعددت ثوراتهم بدعوى طلب أجورهم، والسلطان يمينهم تارة ويلاينهم تارة أخرى ، ويغلظ لهم القول آنا ، حتى هددهم مرة بالنزول عن العرش وترك الأمور فوضى يزاولونها كما يشاءون ... وهم فى كل مرة لا يزيدون إلا شراسة وعراما ، وما كانوا يهدءون مرة إلا ليثوروا مرة أخرى وهكذا .... حتى كانوا من أهم الاسباب التي أدت إلى سقوط البلاد ...

وفى يوم السبت ١١ المحرم عام ٩١٦ هـ ثاروا طلبا للنفقة المتأخرة، وذهبوا إلى منزل الأتابكى قرقماس ومنزل غيره من الأمراء وأركبوهم مكرهين ليفاوضوا عنهم السلطان فى أمرها، فلما غضب عليهم ورفض مطالبهم تجمعت جموعهم وهجموا على حى الصليبة وسوق جامع ابن طولون، وانضم إليهم لفيف من العامة وخربوا نحوا من ٥٧٠ دكانا ونهبوا ما يقدر بنحو عشرين ألف دينار . وحاولوا أن يقيموا الأمير « دولات باى » سلطانا . ولكنه فر منهم إلى السلطان . ثم سمعوا أن الأمراء يتجمعون للبطش بهم فتفرقوا وعادوا إلى طباقهم بالقلعة .

ومن ثوراتهم : ثورتهم فى جمادى الأولى عام ٩١٧ هـ . وثورتهم فى ٥ رجب عام ٩١٧ هـ ، وثورتهم فى ذى الحجة عام ٩٢٠ هـ ، وثورتهم فى مستهل رجب عام ٩٢١ هـ وفى شوال عام ٩٢١ هـ أيضا .

وكانوا فى كل مرة يكررون ماصدر منهم فى المرة الأولى من التهديد والوعيد والنهب والسلب والقتل « ابن اياس ج ٤ »

ثورات العربان (١) :

ومما يتصل ذكره بذكر الفتن الداخلية ثورات العربان . فقدكان فى داخل البلاد كثير من هؤلاء يقيم فى أنحاء متعددة منها : الشرقية والغربيه والبحرية والوجه القبلى . وكذلك كان هناك عرب صحراء الشام ، وصحراء بلاد العرب . وإذا ثار هؤلاء اعتبرنا ثورتهم من الأمور الداخلية . ـ وقد تعددت منهم الفتن وشغلوا السلاطين والأمراء زمنا بمكافحتهم . ويغلب عليهم حب النهب والسلب والرغبة فى الاستيلاء على ما بيد الأتراك من جاه ونفوذ . ـ وكثيرا ما كانوا ينتهزون فرصة الفتن الداخلية بين الأمراء ، أو خروج الجنود المماليك إلى غزوة فى الشام أوغيرها ، أو هزيمة تصيب جيشا محتربا ، ثم يغيرون عليه أو على البلاد وفلاحيها وزراعها ، فيسلبون مالديهم من قوت ودابة . وكذلك قد يغريهم المال الذى يبذله لهم سلطان أو أمير فيعاونونه فى قتاله . وكانوا فى معيشتهم أقرب إلى الاستقلال بشؤنهم منهم إلى اندماجهم فى عداد الشعب ، ونشعر أنهم كانوا أكثر استقلالا واتباعا لتقاليدهم الخاصة فى هـــذا العصر منهم فى عصرنا الحديث . . . وإلى القارىء نبذا من أخبارهم :

١ ـ فى سنة ٦٥١ هـ ثار العربان ببلاد الصعيد والوجه البحرى ، وقطعوا الطريق

---

١ ـ النقل هنا عن ابن اياس ، وإذا نقلنا عن غيره نصصنا عليه .

برا وبحرا بقيادة الأمير الشريف « حصن الدين بن ثعلب »، وكان بناحية دَهْرُوط صَرَبان » - وهى ديروط الحالية بمديرية أسيوط - وقالوا : « نحن أصحاب البلاد ، وصرحوا بأنهم أحق بالملك من المماليك » ، وكفى أنهم عاونوا بنى أيوب ! ولكن ان يعاونوا عبيدهم . . . .

وتجمعت جموعهم من أماكن عدة حتى بلغت عدة فرسانهم ١٢ ألف ، ورجالتهم لا تعد كثرة . فتجمع لهم الترك بقيادة الأميرين « فارس الدين أقطاى » المستعرب و« فارس الدين أقطاى » الجمدار واوقعوا بهم فى ناحية « ذَرَوَة » وغيرها . وكذلك فعلوا بعرب الغربية والمنوفية من قبيلتى سِنْبِس و كَوَ ته . فقتلوا منهم وسبوا وغنموا ، وأخمدوا جذوة ثورتهم . وفر أميرهم « ابن ثعلب » . ثم طلب الأمان فأجيب اليه . ثم قبض عليه مع عدد من أصحابه وشنقوا جميعا إلا « ابن ثعلب » فإنه سجن بالاسكندرية . »

« السلوك ج ١ ص ٣٨٦ » .

٢ - وفى عام ٦٩٩ هـ فى عهد الناصر بن قلاوون اختلفت قبيلتا جابر ومرديس بالبحيرة فأغاروا على أجرانها وأحرقوا ما فيها . فبعث إليهم السلطان حملة تأديبية بقيادة الأمير « بيبرس المنصورى » الدوادار ، فوصلوا إلى تروجه وكسروا العرب كسرة قوية ، فهربوا الى الجبال . . وغنم جنود السلطان جمالهم وغنمهم وعددا من أولادهم ونسائهم « ج ١ ص ١٢٢ »

وفى عام ٧١٣ هـ سافر الناصر محمد إلى بلاد الصعيد لاعتلال عربانها عليه ، فضيق عليهم الخناق حتى جلوا ورحلوا إلى الجبال ، ومات منهم كثيرون بالجوع والعطش ، وأسر منهم الناصر عـــددا كبيرا ساقه إلى القاهرة ، وسجنهم هناك واستخدم بعضهم فى حفر الجور .

وفى عام ٧١٦ هـ ثار عربان عيذاب بأعالى الصعيد فجرد عليهم الناصر ألف مملوك بقيادة ستة أمراء مقدمين ولكنهم عادوا بلا طائل « ج ١ ص ١٥٩ ، ١٦٠ »

٣ - وفى عام ٧٥٤ هـ فى عهد سلطنة الملك الصالح صلاح الدين صالح، ثار عربان الصعيد ثورة جامحة ونشروا الفساد فى أرجائه ونهبوا جميع الغلال وقتلوا عددا من العمال، والتفوا حول كبير منهم اسمه «ابن الاحدب» شيخ قبيلة «عرك» واجتمعوا حوله جموعا كثيرة. فخرج إليهم السلطان بنفسه ومعه أمراؤه وجنده بقيادة الأمير «طاز» والأمير «شيخو العمرى» والأمير «صرغتمش الناصرى». وأوقعوا بهم وقتلوا نحو نصفهم وقطعوا رءوس كثير منهم. وعادوا بمعهم أسرى وغنائم عدة من خيل وجمال وأغنام وسيوف وورق. وما دخلوا بها القاهرة حتى أعدموا الأسرى وكانوا نحو سبعمائة. وقيل فر كثير من البقية إلى بلاد الزنج .... وبعد مدة طلب شيخهم ابن الأحدب الأمان من السلطان فأمنه وخلع عليه وأقره على مشيخته. «ج ١ ص ٢٠٠»

٤ - وفى عام ٧٨١ هـ فى عهد الملك المنصور على بن الأشرف شعبان، سطا نحو خمسة آلاف عربى من عربان البحيرة بزعامة كبيرهم «بدر بن سلام» على مدينة دمنهور ونهبوا أسواقها وبيوتها وما حولها من القرى. فبعث إليهم أتابكى العصر برقوق، ثمانية من الأمراء المقدمين ومعهم نحو أربعمائة جندى. فخيموا فى ناحية من البحيرة، فهجم عليهم العربان ليلا. وكان الأتراك قد أخذوا الحيطة لذلك، فكروا عليهم كرة شتتت شملهم وقتلوا نحو ألف منهم، وأسروا عددا آخر من بينهم نساء وصغار، وغنموا ما لديهم من دواب ومال. وهرب زعيمهم. وعاد الجنود إلى القاهرة بما معهم ظافرين. (١)

وقد عاودوا عصيانهم عام ٧٨٢ هـ فسار اليهم نحو ٥٠٠ جندى فهزمهم العرب

---

١ - للقيم خلف الغبارى الزجال زجل فى هذه الواقعة تراه فى باب الزجل بالجزء الثالث من هذا الكتاب.

ثم سار إليهم نائب الاسكندرية ومعه عربان من الغربية فهزموهم وانتصروا عليهم هذه المرة حتى فر كثير منهم إلى برقة «ج ١ ص ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤»

٥ - وفى سنة ٨٠٤ هـ فى عهد فرج بن برقوق اعتدى عربان بنى عقبة على الحجاج ونهبوا ما معهم، فكر عليهم أمير الحاج وأسر شيخهم «منجد بن خاطر» فهم السلطان فرج بقتله، فالتزم برد ما نهب، فظل أسيرا حتى رده.

«ج ١ ص ٣٤٠، ٣٤١»

٦ - وفى عام ٨٦٥ هـ فى عهد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ثار عربان «لبيد» ووصلوا إلى البحيرة وشنوا عليها الغارات ونهبوا الغلال. فبعث إليهم السلطان تجريدة. «ج ٢ ص ٦٧، ٦٨»

٧ - وفى عام ٨٧٠ هـ فى عهد الملك خشقدم خرجت تجريدة إلى الجيزة بسبب عصيان العربان بها وثوراتهم، وكانت بقيادة الأميرين بلباى المؤيدى وبردبك هجين. فطردوهم وعادوا.

وفى عهد هذا الملك عام ٨٧٢ هـ ثار العربان بجهة العقبة وأفسدوا البلاد، فبعث إليهم جندا بقيادة الأمير «أزبك بن ططخ» - وثار كذلك عربان الصعيد فسارت إليهم جنود أخرى. «ج ٢ ص ٧٩، ٨١»

٨ - وفى عهد قايتباى حدثت من العربان جملة من الحوادث نلخصها فيما يلى:

١ - إنه فى عام ٨٧٢ هـ تحالف عربان البحيرة على الخروج على السلطان، فوثبوا على بلادها وأحرقوا أجرانها ونهبوا بلاد المقطعين. فعين السلطان تجريدة لهم، وأخرى إلى الشرقية، وثالثة إلى الوجه القبلى بسبب ثورة عربان أولاد ابن عمر. وخلع على شيخ العرب «صقر» وقرره شيخا لعربان البحيرة. - ولكن جاءت الأخبار بهزيمة جند السلطان على يد «سوار» ملك الأبلستين، فشغل السلطان بأمرهم عن التجاريد السالفة وعن إتمامها. «ج ٢ ص ٩٦»

ب ـ وفى ذى الحجة عام ٨٧٥ هـ خلع السلطان على شيخ عربان الشرقية «صقر ابن بقر» وقرره فى مشيختها عوضا عن قريبه «عيسى بن بقر» الذى سجن بالمقشرة بعد ضربه ضربا مبرحا بين يدى السلطان. وبعث الأميرين «تمر» حاجب الحجاب و «قانصوه الخفيف» الإينالى ليسير إلى الشرقية بسبب فساد عربانها، وأمرهما بالقبض على كل من يجدونه من بنى سعد وبنى وائل. وقد عاد حاجب الحجاب المذكور فى صفر عام ٨٧٦ هـ وقد قبض على جماعة من المفسدين وفيهم «موسى بن عمران» وآخر اسمه «طاجن» وجماعة من بنى سعد وبنى وائل. فرسم السلطان بإعدامهم. فكان ذلك سببا فى أن عاود عربان الشرقية الثورة، لذلك عاد إليهم حاجب الحجاب لتأديبهم مرة أخرى. ـ إلا أن فسادهم زاد وعبثهم استشرى، وخاصة فى ذى الحجة من العام المذكور، إذ ثار عربان بنى حرام وبنى وائل بالشرقية وأفسدوا أمورها على السلطان، وزحفوا على القاهرة حتى بلغوا حى الحسينية ونهبوا حوانيتها وسلبوا سكانها أثوابهم، وعبثوا بها ساعات ثم عادوا. فجهز لهم قايتباى حملة تأديبية بها عدد من الأمراء الكبار منهم «أزبك بن ططخ» و «قانى بك قلقسير» و «ازدمر الطويل». فهموا سراعا إلى الشرقية، وعاد أزبك بعد قليل ومعه عدد من أسراهم فسجنوا بالمقشرة. وأقام بقية الأمراء زمنا فى الشرقية لإصلاحها وتطهيرها من هذا الفساد.

وما لبث عربان البحيرة أن ثاروا مرة جديدة فى صفر عام ٨٧٧ هـ فأدبهم أزبك بن ططخ وأسر عددا منهم سجنوا بالمقشرة. وما هدأت هذه الفتنة حتى جددها عرب الشرقية من بنى وائل وبنى حرام، فخرج لتأديبهم الأمير «يشبك الدوادار» وذلك فى شوال عام ٨٧٩ هـ. وفى ذى القعدة من نفس العام هجم عرب غزالة على ضواحى الجيزة ونهبوا خيول المماليك وقتلوا جماعة من الغلمان وأطلقوا من كان فى السجن، فجرد عليهم السلطان عددا من الجند فلم يظفروا منهم بطائل. ولكن لم

يلبث بعد قليل أن وفد على السلطان خلال عام ٨٨٠هـ شيخ العربان «مهنا بن عطية» رأس المفسدين ، وشفع فيه بعضهم، فأمنه السلطان وعفا عنه فدخل تحت طاعته .

« ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤ الى ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٢ »

ج ـ هدأت فتن العربان حينا حتى كانت أواخر عام ٨٨٢ هـ حيث ثار عرب « هوارة » فى بلاد الصعيد ومعهم « يونس بن عمر » فى وجه كاشف الوجه القبلى « برسباى » ووقع بين الفريقين معركة دموية حارة قتل فيها كثير من الجند وكسر الكاشف كسرة قاسية . فهم السلطان قايتباى بالسفر إلى الوجه القبلى لتأديبهم ـ وكان حينئذ يرتاض بالفيوم ـ فمنعه الأمراء ، فأخذ يحث الأمير «يشبك» الدوادار على الخروج إليهم ـ وكان مريضا ـ فخرج بعد قليل ومعه جماعة كثيفة من الجنود . فقبض على « يونس بن عمر الهوارى » بعد أن تتبعه إلى بلاد النوبة ثم قطع رأسه وبعثه إلى القاهرة فطيف به ثم علق على باب زويلة أياما . وكذلك قبض على أخيه أحمد وعلى فئة كثيرة من أتباعه . ثم عاد فى جمادى الأولى ٨٨٣ هـ ومعه أسراه فأمر بعضهم فأعدموا ، والبعض الآخر فسجن . وفى ذى القعدة عام ٨٩١هـ أمر السلطان بإعدام « عبد العزيز بن عمر الهوارى » المعروف بعزوز ، وجماعة من أقاربه .

« ج ٢ ص ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٤٠ »

د ـ وفى شهر شعبان من نفس العام ٨٨٣ هـ أطلق السلطان سراح شيخ العرب « محمد بن عجلان » وكان منذ عشر سنوات مقيما فى السجن بالقلعة فى البرج . فأفرج عنه وخلع عليه وأعاده إلى مشيخته بالشرقية . « ج ٢ ص ١٨٤ »

هـ ـ وثار بعد ذلك عرب الأحامدة بالوجه القبلى أيضا فسار الأمير « أقبردى الدوادار » إليهم وأدبهم خير تأديب وأسر منهم عددا وقتل عددا آخر ، وعذبهم تعذيبا شديدا ودفن بعضهم أحياء ، وباع بعضهم بيع الأرقاء . وقد بلغت أخبار

نصرته مدينة القاهرة فى جمادى الأولى عام ٨٩٢ هـ وطهر بلاد الصعيد منهم .

« ج ٢ ص ٢٤٣ »

٨ - وفى عصر الناصر بن قايتباى وقعت فتنة « قانصوه خمسمائة » واضطربت القاهرة بمن فيها عام ٩٠٢ هـ فانتهز عرب الشرقية والغربية هذه الفرصة وعاثوا فى أرجائهما فسادا وقطعوا الطرق حتى اعتاص السفر إليها من القاهرة . وفى نفس العام بعد قليل هبت فتنة كبيرة بين فريقين من عربان الصعيد أحدهما بزعامة « حميد بن عمر » أمير هوارة ، والثانى بزعامة « ابراهيم » الهوارى ، وهبت الشحناء كذلك بين بنى حرام ، وبنى وائل . ولذلك ظل « أقبردى » ببلاد الصعيد زمنا ليقضى على هذه الفتن ، ثم عاد بعد قليل إلى القاهرة . « ج ٢ ص ٢١٢ ، ٣٢٢ »

وفى شوال عام ٩٠٤ هـ يوم عيد الفطر جاءت الأخبار بأن عربان « عزالة » ثاروا فى وجه كاشف البحيرة فحاربهم ، ففروا منه وعبروا النيل من « الوراق » ، واتجهوا قريبا من « شبرا » ثم توجهوا من خلف الجبل الأحمر إلى ناحية « طرا » « فالمعيصرة » حيث ضربوا خيامهم . فجرد عليهم السلطان الناصر بن قايتباى تجريدة بها عدد كبير من الأمراء الكبار منهم « قانصوه البرجى » أمير مجلس و « قرقماس ابن ولى الدين » رأس نوبة و « قيت الرحبى » حاجب الحجاب و « سنباى » نائب سيس وأحد المقدمين ، « وطرابای الشربنى » الدوادار الثانى ، ومعهم عدد ضخم من الجنود واتجهت الحملة فى نفس اليوم إلى « المعيصرة » حيث التقت بعرب « عزالة » فاقتتل الفريقان قتالا شديدا انهزم فيه جنود السلطان هزيمة منكرة وقتل منهم نحو خمسين ، ومن غلمانهم نحو خمسين . وجرح « قرقماس » و « قيت » و « طرابای » . ونهب العرب ما معهم ، وحملوا أمتعتهم وفروا إلى بلاد الصعيد وعادت فلول الحملة إلى القاهرة فاشتد فيها النواح والعويل . . .

وقد خفف من هذا المصاب ووقعه أن كان الأمير « طومان باى » الدوادار

- وهو الذى ملك فيما باسم العادل - كان فى ناحية الصعيد وسمع بأخبار هذه الهزيمة فجمع جنوده وبغت بها عرب عزالة وشتت شملهم وأسر منهم نحو ثلثمائة إنسان من رجال ونساء وأطفال ، وعاد بهم الى القاهرة فطيف بهم فى الحديد والحبال بعد أن رسم السلطان بتسميرهم ووضعهم على الجمال، ثم أمر الناس برجمهم بالأحجار. وقد نظم الشيخ بدر الدين الزيتونى زجلا فى هذه الموقعة ، فانظره فى الجزء الثالث من كتابنا هذا بعون الله . « ج ٢ ص ٣٥٦ الى ٣٥٨ »

٩ - وفى عصر السلطان الغورى وقعت من العربان جملة حوادث نلخصها فيما يلى :

ا - فى عام ٩٠٧ هـ اعتاص على السلطان أمر عرب الشرقية . فبعث إليهم فى شهر شعبان الأمير « قانصوه بن سلطان جركس » كاشفا فلم يستطع هذا الكاشف أن يتفاهم معهم ، وازدادوا عصيانا فوق عصيانهم ، وتندروا على هذا الكاشف وسموه « هات لبن » - ويظهر أنه كان يكثر من ترديد هذه الكلمة لهم - فلبث فيهم أربعين يوما ثم عاد بغير جدوى.

وفى أواخر العام نفسه اعتدى عربان مكة بزعامة « الجازانى » على ركبى الحاج المصرى والشامى وقتلوا عددا من رجالها ونهبوا المال وعروا النساء من ثيابهن وعاد الحجاج فى أوائل عام ٩٠٨ هـ على أسوأ حال . ولذلك أعد لهم السلطان حملة مكونة من ستمائة مملوك ، رافقوا المحمل فى خروجه من القاهرة فى شوال عام ٩٠٨ هـ.

وفى ذى القعدة عام ٩٠٨ هـ ازداد شر عربان الشرقية والغربية وبلاد الصعيد وكادوا يملكون البلاد من أيدى مقطعيها ، فجرد عليهم الغورى حملات عدة بقيادة أمراء ، هزم بعضها فأمده ، حتى كسروا شوكتهم بكل مكان وأثخنوا فيهم حتى

قيل قتل منهم نحو ألفين ، وقيل كان الأمير « طرابای » ينشر بعضهم بالمنشار من الرأس إلى القدم. وقطعت رءوس شبانهم وأرسلت إلى القاهرة فى تبن على جمال . ثم عاد الأمراء فى صفر عام ٩٠٩ هـ .

وقبلها فى المحرم عام ٩٠٩ هـ قبض على أحد عصاة العرب الكبار واسمه « علاء الدين بن قرطام » من بنى حرام فى جبل الطور ، قبض عليه « نجم » أحد مشايخ العربان . فقطع هو رأسه وبعثه إلى القاهرة . فطيف به وعلق على باب زويلة .

وفى القعدة عام ٩٠٩ هـ أيضا أرسل « إقبای الكاشف » رأس إعرابى شرير من عربان الشرقية كان من العصاة واسمه « ابن بيسار » فعلق كذلك على باب زويلة . ثم بعث شخصا آخر من العصاة أيضا اسمه « ابن بهيج » فرسم السلطان بشنقه على باب النصر .

وفى شهر رجب عام ٩١٠ هـ خلع السلطان على شيخ العرب « بيبرس بن بقر » وأعاده إلى شياخة العرب كما كان - وأقر « اقبای » فى كشف الشرقية ليمدها من الثائرين فيها من العربان بهمته المعروفة .

وفى شوال عام ٩١١ هـ جاءت الأخبار من مكة بأن الأحوال فاسدة ، وأن عربان « بنى ابراهيم » قد التفوا على « يحيى بن سبع » أمير ينبع - وهو الذى عينه فى تلك الامارة السلطان الناصر بن قايتباى عام ٩٠٣هـ والتفوا كذلك حول « مالك بن رومى » أمير خليص . وعقدوا النية على الثورة والفتنة والفساد ولهذه الأسباب أبطل السلطان الحج فى هذا العام .

وفى ذى الحجة عام ٩١١ هـ وقعت فتنة هائلة بين شيخ العرب « بيبرس بن بقر » وبين « نجم » شيخ العابد . فقتل فيها عدد كبير وفر من وجوههم « أقطوه » الكاشف

بالشرقية . واستمرت الفتن زمنا حتى وردت الأخبار إلى القاهرة فى ربيع الأول عام ٩١٢ هـ بأن العربان العصاة المذكورين قطعوا جسور الماء على الأجران حتى غرقت . وكان النيل قد أشرف على الوفاء - وفى ربيع الثانى عام ٩١٢ هـ جاءت أخبار الكرك بأن عربان « بنى لام » هزموا نائب القدس وقتلوا عددا من المماليك السلطانية . فحنق الغورى وبعث إلى نائب الشام ونائب طرابلس بقتال « بنى لام » . وبينما هؤلاء فى عبثهم إذ جاءت أخبار عربان الشرقية فى شوال عام ٩١٢ هـ كذلك، بأنهم قطعوا طريق المحلة ونهبوا ما فيه وفى جملته أموال للسلطان . - وفى ٢٤ من الشهر المذكور حضر إلى القاهرة « خاير بك المعمار » ومعه خمسون رأسا ممن قتل من العربان من « بنى ابراهيم » ، فأنعم عليه السلطان .

ثم طيف بهذه الرءوس ونودى عليها : هذا جزاء من يقطع الطريق على الحجاج . ثم علقت على أبواب القاهرة . ثم رسم السلطان للأمير « أزدمر الدوادار » بالخروج على حين غفلة ليباغت عربان « بنى لام » فى الكرك ونابلس فخرج ومعه نحو خمسمائة جندى .

وفى ذى القعدة عام ٩١٢ هـ وفد إلى القاهرة عدة من الهجانة وأخبروا أن الجند السلطانية برئاسة « خاير بك » انتصروا على « يحيى بن سبع » بالقرب من ينبع . وهو الذى ثار فى العام الفائت ووجه إليه السلطان هذه الحملة . . فقتل من الفريقين عدد كبير، ثم انتصرت الجنود المصرية ، وفر « يحيى بن سبع » .

أما ثورة عربان الشرقية فقد شغلت بال السلطان وجرد عليها الحملة تلو الحملة بغير جدوى ، ثم قبض على « أحمد بن منها » شيخ بنى وائل بعد هربه من السجن وقتله السجان . ورسم السلطان بشنقه ، فسمر هو وأقاربه وطيف بهم فى القاهرة ثم شنقوا على باب النصر فى ربيع الأول سنة ٩١٣ هـ

وفى ١٤ ربيع الأول عام ٩١٣ هـ جاءت الأخبار من عند الأمير « أزدمر »

الدوادار أنه لما وصل إلى الكرك ونابلس قاتل عربان « بنى لام » الذين كانوا من عصبة « يحيى بن سبع » فانتصر عليهم وقتل منهم عددا ضخما .

وقبض على « عبيد بن أبى الشوارب » أحد كبار العربان المفسدين ، وكذلك قبض على « قاسم الغريب » أحد أشرار عربان الشرقية ورسم السلطان بإعدامها فى ٢ جمادى الآخرة عام ٩١٣ هـ . — وخلع على شيخ العرب « عبد الدايم بن أبى الشوارب » وقرره فى مشيخة العرب بالقليوبية .

وفى رجب عام ٩١٤ هـ وفد إلى الأبواب السلطانية « ابن يحى بن سبع » ذلك العربى الثائر على السلطان منذ أعوام . فطلب السلطان إليه أن يخاطب والده فى المثول بين يديه . وأعطاه ما شاء من الأمان . — ولما نزل هذا الابن من لدن السلطان كاد العوام يفتكون به لأن أباه وجماعته نهبوا مال الحجاج . ولكن الأمراء تقدمت لحمايته منهم ، ورسم السلطان بألا يتعرض له إنسان وإلا قتل . وقد فسر العوام هذا الأمر بأن السلطان تسلم منه مالا ! وبذلك سكت عن محاسبته عن أموال الحجاج فضاعت هباء . . . !

وفى رمضان عام ٩١٤ هـ وفد إلى القاهرة كاشف الشرقية ومعه شيخ العرب « عبد الدايم » بن الأمير « أحمد بن بقر » وقد قبض عليه بحيلة . وكان عاصيا مفسدا ، فرسم السلطان بتقييده وإيداعه فى البرج مسجونا .

وفى جمادى الآخرة عام ٩١٦ هـ رسم السلطان بشنق أحد العربان المفسدين واسمه « عمر بن موسى » النفعى من عربان ثعلبة . وكان شجاعا .

ولما فر « يحيى بن سبع » من وجه السلطان وجنوده عام ٩١٢ هـ أقام السلطان أميرا لينبع بدلا منه وهو « هجار » . ثم توفى هذا الأمير عام ٩١٧ هـ فحاول « يحيى بن سبع » أن يعود إلى إمارته فرفض السلطان وعين ابن عم المتوفى واسمه « أجود

بن مسقار » فى ١٤ صفر من العام المذكور .

وفى الخميس ١٤ ربيع الآخر عام ٩١٧ هـ قبض نائب الغيبة بالشرقية على عربى مفسد يقال له « أحمد بن شكر » فسلخ جلده وحشاه تبنا وأرسله إلى السلطان ! . . .

وفى الثلاثاء ٢٦ المحرم عام ٩١٨ هـ وردت أخبار عربان البحيرة واتفافهم على الثورة والعصيان وقيل تحالفت على ذلك منهم سبع طوائف . فأمر السلطان بعض الأمراء بالخروج إليهم ، فماطلوا وتباطئوا حتى حنق السلطان عليهم ، وعزم على الخروج إليهم بنفسه . وظل يعرض الجنود آنا بعد آن . حتى توالت الأخبار فى يوم الجمعة ٢٩ منه بأن عرب « عزالة » وغيرهم من العربان قد أظهروا العصيان وزحفوا على البلاد بالبحيرة ، وأفسدوا الزروع ونهبوا الغلال . وأنهم ضيقوا الخناق على شيخ العرب « الجويلى » . وأنهم طردوا كاشف المنوفية وغيره من البلاد . فبعث إليهم السلطان تجريدة بها من الأمراء الأمير « طومان باى » الدوادار الكبير ، وأمدهم السلطان بحملة من الجنود فخرجوا لتأديبهم . ثم عاد طومان باى فى ١٦ صفر عام ٩١٨ هـ . ورسم لبعض الجنود بالاقامة بالبحيرة زمنا حتى يتم وفاء النيل .

وفى السبت ٢٨ صفر عام ٩١٨ هـ أرسل الأمير قانصوه بن سلطان جركس الذى توجه إلى الصعيد ، ثمانية رءوس من عرب « عزالة » منهم شخص يسمى « خضر بن كروان » وكان من كبار المفسدين .

وفى ٥ جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ وفد على السلطان الامير « بيبرس » بن الأمير « أحمد بن بقر » شيخ العرب فخلع عليه ورضى عنه - وكان عاصيا منذ أمد .

وفى ٤ ذى الحجة عام ٩١٨ هـ رسم السلطان بشنق « ابن حمادة » شيخ العرب بالقليوبية ، فشنق على قنطرة الحاجب .

وفى الثلاثاء ٤ ربيع الأول عام ٩١٩ هـ بعث السلطان طائفة من الجنود إلى الغربية لفساد عربانها الذين قتلوا كاشفها .

وفى شهر ربيع الأول عام ٩٢٠ هـ أخبر أن عرب « عزالة » نزلوا بالقرب من البدرشين ، فركب إليهم الأمير « طومان باى » وفجأهم بها وقبض على عدد منهم وسيقوا إلى القاهرة فسجنوا فى المقشرة ، وخيف من أن يحكم عليهم بالشنق لئلا ينهب أقرباؤهم إقليم الجيزة جميعه انتقاما لهم .

وفى شعبان عام ٩٢٢ هـ عاث عربان « بنى عطية » و « النعائم » بضياع الشرقية ونهبوا منها نحو أربعمائة رأس غنم من غنم السلطـــان والدوادار طومان باى . ودخلوا وادى العباسة . فخرج اليهم الدوادار المذكور ومعه خمسمائة مملوك وفجأهم ، فهربوا من وجهه بما غنموه . فعاد إلى القاهرة . وما لبث العربان أن عاثوا مرة أخرى فى بلاد الشرقية وغيرها وسرقوا كثيرا من مواشيها وحلى نسائها وقتلوا من فلاحيها عددا كبيرا ـ وكان هذا الفساد أيام شاعت أخبار انكسار الجيش المصرى أمام العثمانيين ، وعلم أن الغورى قد قتل . فانتهز هؤلاء الناس الفرصة ، وقطعوا الطرق وسلبوا المارة وتلمسوا الفارين من الجنود العائدين إلى الوطن فنهبوا مامعهم وقتلوا من قتلوا . . فكان ذلك أحد أسباب الفوضى الضاربة فى البلاد أثر هذه الهزيمة .

« تراجع هذه الحوادث فى الجزء الرابع من تاريخ ابن إياس فى أخبار التواريخ المذكورة . وفى ج ٣ ص ٥٣ ، ٥٤ »

٥ ـ الزلازل والطواعين والقحط والغلاء :

فشت فى مصر فى هذا العصر جملة من الزلازل والأوبئة ، وضروب من القحط وسنون من الغلاء ، زادت فى شقاء الناس ، وأطالت تعسهم . ولا يد للسلاطين ولا لأمرائهم فى هذه الحوادث إلا قليلا . ولكنها كانت من سيئات ماأصيب به الناس فى أيام حكمهم . ونشعر أنهم لو طووا من بينهم هذه الشحناء واللجاجة فى البغضاء

ولووا عنان عنايتهم إلى مرافق الشعب الحيوية لأمكنهم إلى حد ما تخفيف هذه الويلات الطبيعية عن المصابين بها .

ولكنهم — والحق يقال — عنوا بعض العناية بهذه الحوادث بعد نزولها ، فرمموا من الأبنية ماتهدم ، وبنوا المستشفيات للمرضى والمصابين . وأقاموا المغاسل للأموات . وتبرعوا بالأموال والكسى والأطعمة للمنكوبين ومدوايد المعونة للأسر المفجوعة . وهكذا . . صنعوا ضروبا من المروءة والجميل مما نشير إليه فى الحوادث التالية . والآن نسرد بعض هذه الحوادث ليكون القارىء على ذكر منها . فمنها :

ا ـ الزلازل :

١ ـ فى عام ٧٠٢ هـ فى عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ، حدثت زلزلة عظيمة فى ٢٣ من ذى الحجة وشعر بها الناس فى أماكن عدة وخاصة فى مدينة الاسكندية ، إذ هدمت سورها وسبعة عشر من أبراجها وجزءا من منارتها ، وأربعين من مآذنها ، وفاض من جرائها ماء بحرها وطغى على بساتينها — وهدم أكثر جدران الجامع الحاكمى ، ومئذنة المدرسة المنصورية ، ومئذنة جامع الظاهر بالشوايين ، ومئذنة جامع الصالح بباب زويلة ، وبعض جدران جامع عمرو بن العاص وأحدثت شقوقا فى جبل المقطم . وأسقطت كثيرا من الدور . وهلك من جراء ذلك كثير من الناس . وأخذت الزلزلة تعاودهم فى مدى عشرين يوما ، حتى ظنوا أنها القيامة . . . فخرجوا من دورهم إلى العراء وأقاموا فى الصحراء ، حتى هدأت الاهتزازات . وهبت فى عقبها ريح سوداء لافحة لم يطقها كثير من الناس ، فأغمى عليهم . وأصابت هذه الزلزلة دمشق والكرك والشوبك وصفد وكثيرا من البلاد الشامية .

وقد اهتم الأمراء بترميم المساجد والأبراج والأبنية التى تهدمت ، وشرعوا فى إصلاحها عام ٧٠٣ هـ .

قال المقريزى فى سلوكه يصف هذه الزلزلة ما ملخصه : «أنها بدأت عند صلاة الصبح فاهتزت الأرض كلها وقعقعت الحيطان وصوتت السقوف . وسقط الماشى والراكب وخيل للناس أن السماء انطبقت على الأرض . فملأ قلوب الناس الفزع وهرعوا إلى الطرقات ومعهم النساء غير متسترات . والكل يعول ويصيح . ووضعت الحوامل . وتهدمت مآذن الجوامع والمدارس . وأعقبتها ريح عاصفة وفاض النيل وقذف بما فيه من السفن بعيدا عن الشاطىء . وسرق من الدور كثير من المتاع . ولم تكد دار بمصر تسلم من الهدم . وتهدمت مدينة سخا ، وانشق منار الاسكندرية وتهدم جزء منه كبير . وفاض بها البحر وقذف سفنه بعيدا عن شاطئه . وخربت ضيعتان بالشرقية .

وأصيبت مدينة قوص . واكتسحت الرياح دورا عدة ومواضع من الأرض كثيرة وحتى بان من تحتها عمائر مطمورة . وتهدم بعض جامع عمرو وجامع الحاكم والأزهر ، فقام بترميمها جميعها الأمير «سلار» النائب وعاونه فى ترميم الأزهر الأمير سنقر الأعسر . وتهدم مساجد أخرى وأمكنة أخرى . ثم قام الأمراء بإصلاحها . وقد مات فى هذه الحوادث خلائق لا تحصى» .

«ج ١ ص ١٤٦ - سلوك المقريزى جزء ١ ص ٩٤٢»

٢ - وفى رجب عام ٨٨١ هـ فى عهد قايتباى وقع بالقاهرة زلزلة أخرى فى الليل تهدم بسببها بعض الاماكن . «جزء ٢ ص ١٦٧»

٣ - وفى ١٧ المحرم عام ٨٨٦ هـ فى عهد قايتباى أيضا حدثت بمصر زلزلة هائلة مادت بها الأرض والمآذن ، وسمع لذلك دوى عظيم . وخاف الناس فهبوا مذعورين خارج المنزل ، ومعهم النساء حاسرات وتوفى بسببها خلق منهم : قاضى القضاة شرف الدين بن عيد الحنفى ، سقط عليه ما أهلكه . «ج ٢ ص ٢٠٣»

٤ - فى عهد الغورى عام ٩١٦ هـ فى يوم الجمعة ٧ ذى الحجة وقعت زلزلة خفيفة ارتجت لها الأرض ولم يشعر بذلك إلا قليل من الناس .

ب - الطواعين والأوبئة (١)

١ - فى عام ٦٧١ هـ حدث وباء قتل به كثير من الناس، وظل نحو ستة أشهر: «ج١ ص ١٠٨»

٢ - فى عام ٧٤٩ هـ فى عهد الناصر حسن بن الناصر محمد وقع طاعون جارف، قيل مات به فى شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف إنسان. وقيل كان يخرج من القاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرين ألف جنازة. وظل فى البلاد زمنا طويلا حتى أهلك الحرث والنسل، ومات به مالا يحصى من الفلاحين، فبارت الأرض وأقفرت وكثر الجدب وعم الخراب وأصيبت به الحيوانات حتى الكلاب والقطط والوحوش. وارتفعت أثمان الحاجيات لقلتها وزاد الغلاء وخرج الناس للدعاء كما يفعلون فى الاستسقاء. ونظم الشعراء فى ذلك مقطوعات «ج ١ ص ١٩١ و ١٩٢»

٣ - وفى عام ٧٦٩ هـ فى عهد الأشرف شعبان، فشا فى القاهرة الوباء حتى أفنى كثيرا من الناس. قيل كان يخرج من القاهرة كل يوم اثنا عشر ألف جنازة. «ج ١ ص ٢٢٢»

٤ - وفى عام ٧٩١ هـ فى عهد برقوق وقع طاعون مات به كثير من الناس وارتفت أثمان الحاجيات. «ج ١ ص ٢٦٩»

٥ - وفى عام ٨٠٧ هـ فى عهد فرج بن برقوق فى سلطنته الأولى، فشا بالبلاد وباء جارف وكثر موت الفجاءة واشتد مرض السعال فمات بذلك خلق لا يحصى وكانوا

---

(١) اعتمدنا فى هذا الموضوع على ابن إياس، وإذا نقلنا عن غيره نصصنا عليه. ويبدو لنا أن ابن إياس اعتمد فيه على «بذل الماعون فى أخبار الطاعون» لابن حجر راجع البدائع ج١ ص ١٩٢.

يتساقطون فى الطرق جماعات . وقد تبرع المقر السعدى ابن غراب بافتتاح مغسل على نفقته يغسل فيه الموتى ويكفنون . فكان الحمالون يفدون إلى هذا المغسل بمن حملوا من الموتى . - وقد سمى فصل الوباء المذكور «فصل ابن غراب» نسبة إلى هذا الرجل.

«ج ١ ص ٣٤٨»

٦ - وفى عام ٨١٣ هـ فى عهد السلطنة الثانية لفرج ، وقع طاعون آخر وزاد واشتد فى شعبان ورمضان حتى قال فيه القاضى مجد الدين بن فضل الله . .

تزايد الطاعون لما أتى شعبان والحمى به صعبه

ودام فى الصوم على فتكه وفطر الضيف على كبه

«ج ١ ص ٣٥٣»

٧ - وفى عام ٨١٩ هـ فى عهد المؤيد شيخ فشا طاعون آخر فتك بالناس فتكا ذريعا .

«ج ٢ ص ٥»

٨ - وفى عام ٨٢١ فى عهده أيضا ازداد الطاعون واستمر حتى دخلت سنة ٨٢٢ هـ

«ج ٢ ص ٦»

٩ - وفى عام ٨٣٣ هـ فى عهد السلطان برسباى انتشر الطاعون بالبلاد ، وكان طاغيا فتاكا - قال ابن إياس «كان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين . فان عادة الطعن يقع فى فصل الربيع . وهذا وقع فى وسط الشتاء واستمر أربعة أشهر» وقال: «وكانت قوة عمله فى الغرباء والأطفال والمماليك والعبيد والجوارى !! . فمات فيه من الناس مالا يحصى عددهم ، حتى قيل انتهى من مات فى يوم واحد إلى أربعة وعشرين ألف جنازة . حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضا» . وقال فيه بعض الشعراء :

قد نقص الطاعون ثلث الورى وأهلك الوالد الوالدة

كم منزل كالشمع سكانه أطفأهم فى نفخة واحـــدة

وقد انتهى خطره فى شعبان فى ليلة واحدة منه ، بعد أن مات به كثير من الأعيان قال ابن إياس نقلا عن ابن حجر : « ولما كثر الطاعون بمصر اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ، ودعوا الله برفعه ، فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص » !!

« ج ٢ ص ١٨ و ١٩ »

١٠ - وفى عام ٨٤١ هـ وقع طاعون بمصر كان أخف من سابقه وهذا هو الطاعون الثانى الذى وقع فى عهد برسباى . قيل : مات به عدد لا يحصى من مماليك وأطفال وجوار وعبيد وغيرهم .

« ج ٢ ص ٢١ »

١١ - وفى عام ٨٤٩ هـ فى عهد الظاهر جقمق وقع طاعون خفيف مات كثيرون.

« ج ٢ ص ٢٩ »

١٢ - وفى عام ٨٥٣ هـ وقع طاعون آخر فى عهد الظاهر جقمق كذلك هلك به عدد كبير من الناس . قيل كان يموت فى كل يوم نحو عشرة آلاف إنسان .

« ج ٢ ص ٣٢ »

١٣ - وفى عام ٨٦٤ هـ فى عهد الأشرف إينال فشا طاعون جارف قاس سرت عدواه من البلاد الشامية . وتفشأ فى مصر . قيل مات به ثلث المماليك والأطفال والجوارى والعبيد والغرباء واستمر خمسة أشهر ، وقيل : كان تعداد الجنائز يوميا اثنى عشر ألف جنازة . وكان الورد فى تلك الأثناء كثيرا فاتخذوه للتوابيت زينة .

« ج ٢ ص ٦٤ »

١٤ - وفى عام ٨٧٣ هـ فى عهد قايتباى ، وقع أول طاعون فى عهده ، وكان فى شهر رجب من العام المذكور . وقد فشا فى مصر والشام ، واستمر حتى شهر رمضان فاشتد فيه وزادت ضحاياه وكثر فتكه بالناس ثم زال خطره فى شوال وقد

أنشأ الأمير يشبك فى هذا العام مغسلا للموتى يكفنون به فعظمت فائدته .

« ج ٢ ص ١٠٦ الى ١٠٨ »

١٥ - وفى عام ٨٨١ هـ وقع ثانى طاعون فى أيام دولة قايتباى ، وكان وقوعه فى شهر رمضان ، واشتد خطره فى شوال وفتك بالمماليك والأطفال والعبيد والجوارى والغرباء فتكا ذريعا ، وكان المطعون يموت فى يوم إصابته . وظل فى تفاقم خطره حتى شهر ذى القعدة وذى الحجة إذ مات به نحو ألفين من المماليك السلطانية ومات عدد من خدم السلطان وطواشيه . وعدد آخر من أعيان الناس ووجهائهم ، منهم عمر بن الأمير دولات باى الدوادار . وكان جميل الصورة شابا ، ومنهم محمد ابن الأمير يونس العلائى أمير أخور كبير . وعدد كبير من الأمراء العشرات ومن الخاصكية . ومات بترك النصارى اليعاقبة وهو « ميخائيل المنفلوطى » وفقد كثير من الناس أولادهم . ولما هبت ريح الخماسين بدأ خطره يزول . « ج ٢ ص ١٦٧ ، ١٧٠ »

١٦ - وفى عام ٨٩٧ هـ فى عهد قايتباى كذلك ، حدث فى ربيع الثانى بدء وقوع الطاعون ، وأخذ فى الانتشار ، وهو الطاعون الثالث فى عهد قايتباى . وقد عجب ابن إياس من بطء هذا الطاعون ، فقد مضى على سابقه نحو ستة عشر عاما . . . فكأنما اعتادوا أن تكون الفترة بين كل طاعونين أقل من هذه الأعوام المذكورة! ويقول ابن إياس : « وكان فى مدة انقطاعه عن مصر ، كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس . » - فكأنما يجعل هذه الأمور من أسباب وقوع الطاعون فى البلاد . ولذلك قال بعد ذلك : « وقد روى عن رسول الله ﷺ : أنه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالفناء . »

وزاد شره فى جمادى الآخرة وانتشر خطره فى القاهرة فى هذا الشهر . وبالغ فى الفتك بالناس حتى فر كثير منهم وغادروا البلاد خوفا من العدوى . وارتفعت أثمان الحاجيات . وتوفى به عدد من كبار الناس منهم والى القاهرة « قيت الساقى » .

وما زال فى شدة وخطر حتى أواخر رجب فخفت وطأته ثم زال فى شعبان . بعد أن أخلى كثيرا من الدور من سكانها. وقيل أحصى من ثبت موته بطريقة رسمية، فكانوا نحو مائتى ألف ، من بينهم عشرة آلاف بنت عذراء من مصر والقاهرة والضواحى . وقد قال الشيخ بدر الدين الزيتونى زجلا فى هذا الحادث يرثى فيه أهل مصر ، انظره فى باب الزجل فى الجزء الثالث » . « ج ٢ ص ٢٧٢ إلى ٢٧٦ »

١٧ - وفى عام ٩٠٢ هـ فى عهد الناصر بن قايتباى . ظهر الطاعون فى جمادى الآخرة بجهة قطيا . ثم فى رجب ظهر فى مدينة القاهرة ومات به كثيرون منهم « الشاه بضاع بن دلغادر » أمير التركمان ، وكان ضيفا بالقاهرة . وزاد خطره فى رمضان . وفى أواخر هذا الشهر خفت وطأته بعد أن لبث زهاء ثلاثة أشهر ، ومات به نحو مائتى ألف إنسان من بينهم نحو ألف ومائتين من المماليك السلطانية .

« ج ٢ ص ٣٣٨ الى ٣٤١ »

١٨ - وفى عهد الغورى وقع طاعون خفيف عام ٩٠٩ هـ واشتد خطره فى أواخر ذى الحجة بعد أيام فطر النصارى فى الخماسين .

١٩ - وفى عام ٩١٠ هـ فشا الطاعون فى مصر - ويظهر أنه امتداد لطاعون السنة الماضية . فقوى خطره فى رمضان من هذه السنة وازداد فى شوال حتى بلغ عدد الجنازات فى اليوم الواحد أربعة آلاف . فلما تزايد أمره فتح السلطان مغسلا للأموات بجوار سبيل المؤمنى فانتفع به الناس أيما انتفاع . وصحبه غلاء فاحش حتى بيع الرطل من السكر النباتى بثمانية أنصاف وعز وجود البطيخ الصبغى والرمان. وجاءت أيام الخماسين فى ذى الحجة والطاعون يفتك بالناس فتكا لاحد له . وقد نظم السيوطى فى هذه الحوادث شعرا تجده فى باب الشعر بالجزء الثالث .

٢٠ - وفى أواخر ٩١٢ هـ فشا الطاعون ببلاد الصعيد . مع أنه لم يفش بها عام ٩١٠ هـ أيام كان بالقاهرة .

٢١ - وفى أوائل عام ٩١٩ هـ ظهر طاعون آخر وقتل عددا من الأطفال والعبيد والجوارى . ثم فتك بالناس فتكا ذريعا . . وازداد خطره فى صفر ، حتى ألقى الرعب منه فى قلوب الناس وفر بعضهم بأولاده وأهله إلى جبل الطور لأنه - كما قيل - لا يقربه الطاعون ! وظل فى شدته إلى أواخر ربيع الأول .

قال ابن إياس: إن بعض الأطباء أشار على السلطان بأن يلبس فى أصابعه خواتم من الياقوت الأحمر ، فإنه يمنع الطاعون ! ! فأخرج من الذخيرة فصين منه ثمينين صاغهما على قطع من الذهب خاتمين . وكان يلبسهما فى المواكب . . . ! قال ابن إياس فعد ذلك غريبا وخصوصا من سلطان تركى .

« ج ٤ فى التواريخ المذكورة »

جـ - القحط والغلاء :

١ - فى عام ٦٦١ هـ فى عهد الظاهر بيبرس ، شح النيل وفشا الغلاء فتعاون السلطان والامراء على معونة الفقراء . « ج ١ ص ١٠٣ »

٢ - فى عام ٦٩٥ هـ . فى عهد كتبغا أجدبت البلاد وشح النيل وارتفع ثمن الحاجيات وبلغ سعر أردب القمح مائة وسبعين درهما . وكذلك الفول ، ورطل اللحم بسبعة دراهم وبيعت البيضة بأربعة دراهم ، وبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهما . وبيعت الدجاجة بخمسة عشر درهما . واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال ، وحتى لم يبق عند أحدهم شىء من الدواب . وقيل كان يباع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم ! ثم أرسل الله على الناس الجراد بوفرة عظيمة ، فأقبلوا على تناوله ، وبيع منه كل أربعة أرطال بدرهمين . وقد عم الغلاء سائر البلاد المصرية والشامية والحجازية وكل ممتلكات مصر - وقد أعقب ذلك فناء عظيم ومات الناس جماعات وفى الطرقات .

وقيل إن الملك العادل كتبغا كفن على نفقته فى مدة يسيرة مائتين وسبعين ألف إنسان . . ثم كشف الله عن الناس هذه الغمة وأزال الكرب بعد انقضاء هذا العام فانحطت الأسعار وصلح الحال . « ج ١ ص ١٣٣ »

٣ - فى ٧٠٦ هـ . فى أيام السلطنة الثانية للناصر محمد وقع غلاء فاحش فى البلاد المصرية وقلت الغلال وزادت أثمانها ، واضطرب الناس لذلك . وبلغ ثمن الرغيف درهما من الفضة . ثم انجلى الحال قريبا . « ج ١ ص ١٤٧ »

٤ - فى عام ٧٣٦ هـ فى أيام السلطنة الثالثة للناصر محمد ، اشتد بالناس الغلاء وانعدم الخبز من الأسواق . وبيع أردب القمح بسبعين درهما ، واضطرب حبل الناس . فأمر السلطان بفتح مخازن غلاله ، ففتحت وبيع منها للناس بثمن رخيص . فصلح الأمر وانخفضت أسعار القمح حتى بلغ ثمن الأردب ثلاثين درهما . وما جاء شهر رمضان حتى ملأ القمح الأسواق وزالت الشدة عن الناس.

« ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ »

٥ - وفى عام ٧٧٥ هـ . فى عهد السلطان الأشرف شعبان لم يف النيل فى موعده وقل القمح وامتنع الخبز من الأسواق فخرج القوم للاستسقاء فلم يجدهم ذلك فتيلا! وازداد الغلاء وبلغ ثمن كل أردب من القمح مائة وعشرين درهما . ومن الشعير ثمانين درهماً ، وثمن الرغيف أربعة دراهم ، وثمن رطل اللحم من الضأن درهمين ونصفا . ومن البقر درهما ونصفا وبلغ ثمن البيضة عشرة دراهم ، وراوية الماء خمسة دراهم . واشتد أمر الغلاء حتى بلغ ثمن البطيخة مائة درهم ، والرمانة ستة عشر درهما . واضطر الناس إلى الإقبال على خبز الذرة والفول وماتت الدواب لقلة علفها واضطر السلطان والأمراء إلى بذل المعونة للفقراء . « ج ١ ص ٢٢٩ »

٦ - وفى عام ٨٥٣ هـ . فى عهد جقمق انتشر الغلاء وارتفع ثمن القمح والفول والشعير ، وبلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير أشرفية ثم بلغ سبعة . وعلت أثمان

الحاجيات حتى روايا الماء، وشرقت البساتين لعدم وفاء النيل وذبلت الأشجار، وماتت الدواب واضطرب بسبب ذلك حبل الأمن فى البلاد واعتدى العامة على بعض الرؤساء. قال ابن إياس: «واستمرت هذه الغلوة نحو سنتين» وقد رثى بعض الشعراء الخبز رثاء فكاهيا. تجده فى الجزء الثالث..

«ج ١ ص ٣١، ٣٢»

٧ - وفى عام ٨٧٥ هـ: فى عهد قايتباى ارتفعت الأسعار فى شهر المحرم، وغلت جميع أصناف المأكولات وغيرها. وعز وجود الأوز والدجاج، وأقبل الناس على خبز الذرة والدخن. «ج ٢ ص ١١٨»

٨ - وفى أوائل سنة ٨٩٢ هـ انتشر الغلاء وعلت الأسعار فى جميع البضائع. واختفى الخبز من الحوانيت. حتى بيع كل رطل منه بنصف من الفضة، وذلك بسبب الاضطراب فى النقد. وارتفع ثمن راوية الماء وعز وجود جمال السقائين. وما زال الأمر يشتد حتى بيع القمح بسعر الأردب ستة دنانير أشرفية، وبيعت «بطة» الدقيق بأربعمائة وخمسين درهما، وظهر خبز الذرة فى الأسواق - ولم يكن يظهر فيما سبق، حتى صنف العوام فيه رقصة وأغنية هى:

«زويجى دى المسخرة يطعمنى خبز الذرة»

وقسا الخطب على الفقراء ومات منهم على الطرقات كثيرون بتأثير الجوع. فاضطر السلطان إلى فتح مخازن قمحه وباع الأردب بسعر خمسة دنانير أشرفية، وأخذ المحتسب يضرب باعة الخبز لعدم إعدادهم الخبز وإظهاره للناس وتعريضه للبيع. وما زال الأمر كذلك حتى فرج الله الكرب وخفف الخطب، وقل سعر القمح إلى أربعة دنانير أشرفية بفضل ماجلب من الذرة، فحمد الناس الله على ذلك فهو المعين والموفق... «ج ٢ ص ٢٤١، ٢٤٢»

٩ - وفى عهد الغورى وقع غلاء عام ٩١٤ هـ فى شهر رجب ، وارتفع ثمن القمح حتى بلغ الأردب خمسمائة درهم وعز وجود الخبز فى الأسواق ، وغلا التبن حتى صار ثمن الحمل دينارا .

١٠ - وفى عام ٩١٦ هـ فى شهر ذى القعدة بدت الفواكه والخضراوات والرياحين والأزهار حتى البطيخ والثوم والبصل والقمح فاسدة ، وأصيبت زراعتها ، فضعف المحصول وبذلك ارتفعت الأثمان واشتد الغلاء .

١١ - وفى أواخر صفر عام ٩١٧ هـ قل القمح فارتفع ثمنه وبلغ الأردب أشرفيا بعد أن كان كل أردبين بأشرفى . وسبب ذلك قلة ماء النيل . ثم زاد سعر القمح إلى أشرفيين . وسرى الغلاء إلى جميع البضائع من خضراوات وسكر وعسل وزيت وسمن وزبيب وأرز وبرسيم وشعير وفول . غير أن هذا الغلاء زال فى أواخر العام المذكور .

١٢ - ثم عاود الغلاء الناس فى جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ . وكذلك فى ذى الحجة عام ٩١٩ هـ إذ ارتفعت أثمان الأضاحى فى عيد النحر . ذلك لأن المماليك اشتد أذاهم بالناس واختطفوا الأغنام والأبقار . وقد حرم الغورى فى ذلك الحين بيع الملح ، وعمل على احتكاره فارتفع ثمن الأردب منه إلى ثمانمائة درهم وزاد ثمن الفحم فبلغ ثمن قنطاره ثمانية أنصاف وحجر السلطان على الخشب « خشب السنط » ومنع بيعه بسبب احتياجه إليه فى إنشاء السفن المجردة إلى بلاد الهند بسبب عبث الفرنجة . وبعث أعوانه لاقتطاع الخشب من حقول الناس رغم أنوفهم . وعز وجود الكبريت حتى بيع كل رطل بثمانية أنصاف .

« ج ٤ فى التواريخ المذكورة »

العادات والتقاليد

لكل قوم عادات وتقاليد، يتبعها السلطان فى قصره والسوقة فى وكره. ولكل جيل، ولكل طبقة، فى كل عصر، أمور عرفية، وخطط عامة، يتبعونها دون وعى، وتحل منهم محل العقيدة، ويسيرون عليها سيرا غير شعورى، مدفوعين بدافع التقليد والاعتياد. وقد يشعر أحدهم بفساد ما يجرى عليه، وبقبح ما يتبعه، وبثقله على نفسه أحيانا. ولكنه لا يجد لنفسه مفرا من اتباع ما تعود، وانتهاج ما رسمته له الوراثة والظروف الاجتماعية. ولأنه يرى من العسير على نفسه أن يلوى عنانها إلى طريق جديد، وأن يتجه بها وجهة أخرى قد لا يأمن عليها - برغمه - فيها من العثار أو الملام.

وهذا العصر الذى نؤرخه، كان لأهله تقاليدهم وعاداتهم. وما تزال منها بقية باقية حتى اليوم، بيننا موروثة، لم نجد عنها حولا، رغم تقلبات العصور وتغاير الأجيال وتحول القرون.

ومن يتصفح هذا الجزء من كتابنا، يرى خلال ما أثبتناه فيه، ضروبا من العادات والتقاليد، رسمية وغير رسمية، متناثرة هنا وهناك. ونحن الآن نورد بعضها مدعما ببعض الحوادث التاريخية أو بذكر مراجعه، وذلك مما لم نذكره فى باب من الأبواب السابقة أو ذكرناه عرضا ودون استقصاء.

وكان بودنا أن نرسم فى مقالة صورة عامة متخيلة، للمجتمع المصرى، تكون أدنى إلى الحقيقة. ولكننا لم نستطع إحكامها لضيق ما تناولناه من المؤلفات الواصفة، التى تعين على رسم هذه الصورة.

ومع هذا فمن يقرأ كتاب « المدخل » لابن الحاج ، « والتعريف » بابن خلدون ، و« إغاثة الأمة بكشف الغمة » للمقريزى ، و« متفرقات فى السلوك والبدائع والنجوم والضوء والطالع والمؤلفات فى العلوم الكونية المذكورة فى الجزء الثانى من كتابنا هذا، وأمثال ذلك ، يستطيع أن يكون فكرة أو يرسم صورة لهذا المجتمع ، أقرب إلى الصواب .

ومما يذكر هنا أن المقريزى كتب فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » فصلا فى ص ٧٢ يفهم منه أن المجتمع المصرى فى عهده كان ينقسم إلى سبعة أقسام هى :

١ - أهل الدولة وهم السلطان والأمراء وكبار الجنود .

٢ - أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

٣ - الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم « أصحاب البز » ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة.

٤ - أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف .

٥ - الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة .

٦ - أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن .

٧ - ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤال الذين يتكففون الناس ، ويعيشون منهم.

هذا وإليك بعض عاداتهم وتقاليدهم ، فمنها :

١ - حفلة تولية السلطان :

إذا خلا عرش البلاد من سلطانه ، يتشاور الأمراء فيما بينهم ، ثم يختارون كبيرا من كبرائهم لولايته . فإذا تم هذا الاختيار ووقع الاتفاق عليه ، أقيمت حفلة شائقة لتنصيب السلطان ، فيجتمع الخليفة والقضاة وسائر الأمراء ومن حولهم كبار موظفى الدولة والجنود ، ويكتب تقليد للسلطان ، بالسلطنة يتلى فى هذا الحفل العظيم

وهذا التقليد عن لسان الخليفة يوليه به شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة فالقضاة فالأمراء بمبايعته . ويلبسونه شعائر المملكة وخلع السلطنة ، وهى - عادة - عمامة سوداء لها عذبة مذهبة ، وجبة سوداء ، وسيف ثمين ذو حمائل . ثم تقدم إليه فرس ذات سرج مذهب ، وهى مزدانة بما عليها من الثياب والحلى . ويختار له لقب من الألقاب كالأشرف والظاهر ، وكنية كأبى المعالى وأبى النصر ، ثم يركب الفرس المذكورة ويسير وسط هذه الجموع ، وهم فى ثيابهم الرسمية ، ويعبرون عنها بالشاش والقماش ، وطورا يشتمون به شوارع القاهرة ، وطورا يسيرون به ابتداء من أماكن قريبة إلى القلعة - حسب مقتضيات الأحوال - ويقصدون القلعة ويصعدون به إلى القصر الكبير بها ، حيث يجلسونه على سرير الملك . ثم يقبل الأمراء له الأرض ، فيخلع على من يشاء منهم ، ويرقى من يشاء ، ويسمرون زمنا ، ثم ينفض هذا الحفل . وينادى باسم السلطان فى أرجاء مدينة القاهرة ، ويرسل باسمه إلى الأقاليم الأخرى .

وفى أثناء مسير السلطان إلى القلعة تنشر فوق رأسه « القبة والطير » ، وهما من شعار المملكة كذلك . وكان يحملهما عادة أكبر الأمراء مقاما ، ومن رشح لبلى النيابة أو الأتابكية . - ويبدو أن القبة كانت كالمظلة وهى مصنوعة من قماش ثمين ، أما الطير فهو من الذهب ، ويوضع فوق القبة . أما الشاش فقطعة واسعة من القماش الرقيق تضفى على الرأس والأكتاف . وقد وقع قليل من التغيير والتبديل فى فى هذه الشعائر - فقد بدل الغورى بالطير هلالا من الذهب المخرم فى شوال عام ٩٢٠ هـ . ومعه جلالة مذهبة كذلك . « راجع تولية بيبرس - ابن إياس ج ١ ص ١٠١ ، وتولية برقوق جزء ١ ص ٢٥٩ ، وتولية الغورى بالجزء الرابع » .

ونسوق هنا ملخصا عن وصف ابن إياس لحفلة تولية السلطان الغورى فنقول :

« عقدت البيعة لقانصوه الغورى ، وبايعه الخليفة. ثم أحضر إليه شعار السلطنة وهو الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك . فلقبوه بالملك الأشرف وكنوه بأبى النصر . ثم قدمت إليه فرس النوبة بالسرج الذهبية ، والكنبوش . فركب من سلم الحراقة بباب السلسلة . فتقدم « قيت الرجبى » وحمل القبة والطير على رأسه - وقد رشح للأتابكية - فركب الخليفة عن يمين السلطان ، ومشت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش ، حتى طلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك. فأول من قبل له الأرض « قيت الرجبى » ثم بقيـــة الأمراء شيئا فشيئا . ثم خلع السلطان على الخليفة ونزل إلى داره . وخلع على « مصر باى » وقرره فى الدوادارية الكبرى والوزارة ، والاستدارية عوضا عن نفسه . فنزل إلى داره فى موكب حافل ثم دقت له البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء ».

٢ - حفلات الاستقبال :

وأعنى بها تلك الحفلات التى يقيمها السلاطين حفاوة بمقدم ضيف كبير أو سفير خطير ، ترحيبا به وإظهارا لعظمة مصر وقوتها . ويرسل السلطان عادة إلى القادم من يلقاه فى طريقه . ويهيىء له مكانا منا سبا يقيم به مدة مكثه بالبلاد، ويعين من يقوم بخدمته ، ويعاونه عادة بالمال والحراس . ويستقبله فى الحوش السلطانى ، وهو بملابسه الرسمية ، وحول أمراؤه وأعوانه ورجال دولته وحراسه. وهناك فى الحوش يجلس السلطان فوق المصطبة السلطانية - وهى مكان رسمى للسلطان فى مثل هذه المناسبات - وتفرش عليها وأمامها وحولها البسط الثمينة . فإذا ما وفد القادم على مجلس السلطان يصحبه أحد رجال الدولة ، قام له السلطان - عادة - وسلم عليه ورحب به ودعاه إلى الجلوس والحديث .

ثم يخلع عليه السلطان خلعة وينزل من لدنه مكرما إلى مسكنه المعد . وتقام له فيما بعدها ولائم يعدها بعض الأمراء ويحضرها السلطان بنفسه أحيانا مبالغة فى

الترحيب والعناية . وقد تزيد هذه العناية ومظاهرها أو تنقص حسب مقام الضيف .

ومما يذكر أن الغورى هو الذى بنى هذه « المصطبة » بعد أن كان مكانها « دكة » . فلم يقع هذا التغيير فى النفوس موقع قبول . .

هذا وقد نوهنا ببعض هذه الحفلات عند الكلام عن السفارة . وحسبنا هنا أن نذكر حفلة استقبال رائعة أعدها السلطان الغورى احتفاء بمقدم الأمير « قرقد بن عثمان » ملك الروم :

قال ابن إياس فى الجزء الرابع من تاريخه ما ملخصه :

« وفى يوم الأربعاء ١٨ صفر سنة ٩١٥ هـ وصل « قرقد بيك بن عثمان » إلى شبرا . وهو ابن « بايزيد » ملك بنى عثمان فلما وصل إلى شبرا أخلى له السلطان قاعات البرابخية التى ببولاق . ورسم لناظر الخاص بأن يحضر إليه جميع ما يحتاج إليه من فرش وأوانى وصينى وغير ذلك . وخرج جماعة من الأمراء للقائه . وكان السلطان قد رسم للكشاف ومشايخ العربان بأن يلاقوه بطول الطريق ، ويصنعوا له الأسمطة والموائد الحافلة . فلما بلغ البرابخية أقيمت له مأدبة بأمر السلطان . ثم توجه إليه الأتابكى « قرقماس » والأمراء قاطبة ، فسلموا عليه . ثم توجه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف . واستمر وفود الناس اليـــه حتى يوم الاثنين ٢٣ صفر ، وهو مقيم بالبرابخية . ثم أرسل إليه السلطان عشرين فرسا ، له ولمن معه منها أربعة بالسروج الذهبية ، والكنابيش المزركشة والغواشى الحريرية الصفراء . ثم رسم السلطـــان لنقيب الجيش بإعلان الأمراء أن الموكب فى الحوش بالشاش والقماش . ثم نصبت السحابة الزركشية فوق « الدكة » وفرشت هذه بالحرير الأطلس الأصفر . وزين باب الزردخاه بالصناجق السلطانية والأسلحة . وصفت على جانبيه المكاحل . وتوجه المهمندار ورءوس النوب بأمر السلطان إلى الأمير المضاف ، وهم بشاشهم وقماشهم « بملابسهم الرسمية » ، فصحبوه ركوبا وساروا أمامه إلى

القلعة . والجميع فى زينة حافلة ، والناس يملئون الطرق للتمتع بمشاهدتهم ، ثم بلغ الركب القلعة، فعطفوا به إلى مصطبة باب الدهيشة حيث أعد هناك مقعد حريرى ، استراح عليه الضيف قليلا استجماما للقاء السلطان . ثم دخل إلى الحوش السلطانى حيث « الدكة » السلطانية فحينما بلغ طرف البساط السلطانى نزل السلطان حينئذ بجوار « الدكة » وانتظر واقفا حتى بلغ إليه الأمير ، فتعانقا . وقيل إن الأمير قبل يد السلطان ووضعها على عينه . ثم تحدثا نحو ساعة وقوفا ! ثم خلع السلطان عليه خلعة ذهبية لامعة . ثم عاد ركبه مكرما إلى سكناه ومعه بعض الأمراء . وأرسل إليه السلطان بعد ذلك هدايا قيمة . » .

٣ ـ الاحتفاء بخروج السلطان من القاهرة أو عودته إليها :

يحتفى أهل القاهرة والأمراء والرؤساء بالسلطان إذا خرج منها لأمر من الأمور كحرب خارجية أو زيارة لناحية من نواحى البلاد المصرية أو ممتلكاتها ، وذلك كجهة الإسكندرية أو الفيوم أو الشام أو الحجاز للحج مثلا . فتقام الزينات المختلفة فى أماكن مروره من أعلام وثريات زيتية مختلفة الألوان وأقمشة نفيسة ذات أشكال وألوان عدة . ويسير فى ركبه احتفالا به وتود يعاله عدد من الرؤساء والأمراء ، وحين مروره يقف الناس له تعظيما ورغبة فى المشاهدة كذلك . وتمتلى نوافذ المنازل وشرفاتها بالنسوة يزغردن .

ويقام مثل هذا الاحتفاء إذا عاد من غيبته ، وقد يكون هذا الاحتفاء أبلغ من سابقه وأعم وأربى زينة ، وقد يهدى إليه ، وهو قد يمنح ويهب ويرقى من يشاء ، بمناسبة هذه العودة.

وقد سافر الغورى إلى الفيوم لزيارتها ولا بتغاء الرياضة وإصلاح جسر اللاهون . وذلك فى ذى القعدة عام ٩١٨ هـ . فلما عاد من زيارته بعد ١٧ يوماً خف

إلى لقائه بدهشور ، الخليفة . وقدم إليه بعض الهدايا فشكره السلطان وخلع عليه ثم نزل السلطان بجوار الأهرام فى وطاق خاص، فأسرع إلى مؤانسته هناك القضاة الشافعى والمالكى والحنبلى - بينما كان القاضى الحنفى عبد البر بن الشحنة يصحبه فى رحلته . ثم عبر السلطان نهر النيل ونزل بمقياس الروضة ثم عبر إلى مصر، ثم ركب جواده ومشى أمامه رءوس النوب بالعصى . . وعدد كبير من الخاصكية بغير شاش ولا قماش . وركب أمامه الأتابكى « سودون العجمى » والأمير « أركماس » ، والأمير « طومان باى » الدوادار ، وحاجب الحجاب « انصباى » وجماعة من الأمراء والمباشرين غير هؤلاء فمنحهم السلطان بهذه المناسبة خلعا ثمينة . وكان حولهم وأمامهم الجنود فساروا وقت الصباح إلى الصليبة فى أبهى زينة وأجمل ملبس . ويتقدم ركبه الأفيال الكبار التى أهديت إليه من قبل، وهى مزينة بالأقمشة والكسى الحمراء الثمينة ، وعلى ظهورها الأعلام حمراء حريرية . والموسيقا تصدح خلال ذلك وأمام الركب كذلك بعض أمراء بنى عثمان ، وكانوا ضيوفا بمصر . وكذلك عدد من العربان . وما زال الركب حتى بلغ القلعة . ثم قدمت هدايا كثيرة إلى السلطان كما قدمت إليه هدايا أخرى وقت قيامه بالرحلة . ثم إنه فرق بعضا منها على أمرائه .

« ابن إياس جزء ٤ حوادث ذى القعدة سنة ٩١٨ هـ »

٤ - الفرح بشفاء السلطان من مرضه

اعتاد الناس أن يظهروا لمليكهم ابتهاجهم وفرحهم إذا من الله عليه بالشفاء بعد مرض ألم به . وكذلك كان المصريون فى عصر المماليك . ونذكر أن السلطان الغورى مرضت عيناه فى عام ٩١٩ هـ حتى خيف عليه العمى ، وامتنع عليه النزول لمزاولة شئون الدولة ، وتوارى عن الأنظار مدة حتى أرجف الناس فى المدينة ، وأشيع أنه ابتلى بالعمى .

ولكن الله من عليه بالشفاء . فأقيمت له بهذه المناسبة وينة بالغة فى مدينة

القاهرة إعلانا بابتهاج الناس وفرحهم بشفاء ملكهم . وذلك فى يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٩ هـ .

وكان مجتمع الزينة فى «بركة الرطلى» حيث نادى محتسب القاهرة «الزينى بركات ابن موسى» بإقامتها ، فامتلات نواحيها بالقناديل والثريات وعلقت على وجوه المحال وطاقات المنازل، الأعلام وأقمشة الأقمشة الحريرية ما بين صفراء وحمراء وغيرها . وانتشرت أنواع الموسيقا فى جهاتها ، وهناك فى الخليج المار بتلك الجهة انتشرت المراكب والزوارق تحمل الناس من مكان إلى آخر للرياضة والمشاهدة والتفرج برؤية الزينة ، كما كانت تحمل أعيان الناس من سكان بركة الرطلى ليتبادلوا التحية والتهنئة والتبريك بشفاء السلطان . كما ترددت هنا وهناك من هذه الناحية أصوات المغنين والمغنيات يغردون ويسمرون، والناس طوال الليل وفود إلى مجالسهم للأنس والسماع ، ولمشاهدة الألعاب النارية التى كان يستخدم فيها زيت النفط . وظل هذا الأنس العظيم والمتعة البالغة ثلاثة أسابيع على هذا النمط السخى . . .

وبدأت الزينة فى القاهرة يوم ٥ شعبان المذكور وهو يوم الثلاثاء فامتلات الأسواق بالزينات الحافلة ، وكذلك زينت مصر «العتيقة» وبولاق ، وزين سوق الخانكاه وحارة زويلة وخان الخليلى وغير هذه النواحى والأحياء .

وبدت الزينات البالغة كذلك على أبواب منازل الأمراء والرؤساء والخليفة والقضاة . وظلت الزينة سبعة أيام متوالية .

«ابن اياس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١٩ هـ»

٥ ـ عاداتهم فى شهر رمضان (١) :

إذا اقترب مجىء هذا الشهر استعرض السلطان من فى السجون من المسجونين ،

١ ـ نشرت هذه الكلمة بجريدة الأهرام فى شهر رمضان عام ١٣٥٨ هـ

فتقع مشيئته على بعض منهم فيأمر بإطلاق سراحه ويتلمس أحيانا بعض أهل الديون فيقضى ديونهم، وقد يجمع بين المتخاصمين فيزيل من بينهم أسباب الخصام. واشتهر الغورى بضروب كثيرة من هذه الصنائع.

ثم إن ناظر الدولة ومحتسب القاهرة أو من يشابههما من كبار الموظفين ذوى الصلة بأموال السلطان، يقومون بإعداد كميات هائلة من اللحوم والأغنام والدقيق والسكر، وضروب كثيرة من الأطعمة مما يحتاج إليه قصر السلطان لطهيه أو لتفريقه على الفقراء خلال شهر رمضان. ثم يحمل الحمالون هذه الأشياء فى حفل حاشد وركب حافل تتقدمهم الآلات الموسيقية الصادحة، ويسيرون بها فى شوارع القاهرة لإشهار أمرها بين الناس. وما يزالون يسيرون بها حتى يصلوا إلى ميدان القلعة لتعرض على الأنظار السلطانية. فيطل السلطان حينئذ من القلعة ليراها. فتنال من لدنه القبول، ويجود بالخلع السنية على من تولى أمر إعدادها.

ثم إذا ما سنحت ليالى رمضان كانت فرصة لأعمال البر والإحسان، وتقديم ما يستطاع معونة للفقراء والمحتاجين. يجود بذلك السلطان والأمراء وذوو الجاه والممولون والأعيان والرؤساء، كل منهم حسبما تقضى به ظروفه ومشيئته. — وسرت هذه العادة واتبعت حتى أصبحت هذه المساعدات بمثابة ضرائب تقليدية يدفعها هؤلاء العظماء للفقراء بمناسبة شهر رمضان. — وإذا ما حدثت أحد الأمراء نفسه بالإفلات من دفعها، وإزاحة عبئها عن كاهله، زايل القاهرة قبيل رمضان! وأقام فى إقطاعه مثلا.. ولكن هذا الإفلات سرعان ما يصبح أمرا مكشوفا، ولا يمر على الناس مرور الكرام.. بل يلحظونه ويلهجون بذكره ثم يذيع أمره ويعرف خبره وتكثر تقولاتهم حول هذا العظيم الهارب الفار من ضريبة الإحسان...

ومن عادات السلاطين فى هذا الشهر العناية بقراءة الأحاديث النبوية فى صحيح البخارى، يأمرون بها القارئين من الفقهاء ويؤجرونهم لذلك. ودرجوا على أن

تكون قراءتها بقصر السلطان ثم تختم بالقصر الكبير بالقلعة .

ويكون ختام البخارى فى يوم مشهود تجتمع فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأعيان والفقهاء . ويقبل السلطان فى أبهة وعظمة ، فيجرى الختام على مسمع منه ، ثم يأمر بتفرقة الخلع السلطانية والهبات المالية على من اعتاد ذلك منه فى مثل هذه المناسبة ، كل حسب مقامه ومنزلته .

وقد تكون قراءة البخارى فى الجامع الأزهر . وفى عهد الغورى كانت تتلى فى جامع القلعة وتختم بفنائها ختاما يسيرا هينا .

وفى النصف الثانى من شهر رمضان يكون ناظر الخاص قد هيأ خلع العيد التى اعتاد السلطان أن يهب منها لمن يشاء بمناسبة انقضاء رمضان وحلول العيد . فتزف هذه الخلع فى أحد الأيام من أواخر رمضان وتعرض على الناس فى الطرقات وتشهر بينهم . ثم تعرض على الأنظار السلطانية لتنال من لدنها الرضا والقبول . . . فإذا ما حظى ناظر الخاص برضا السلطان ، تناول منه خلعه نفيسة وعاد إلى داره شاكرا . .

وكان أهل هذا العصر يستعينون على الإشعار بدخول وقت السحور بأن يؤذن المؤذنون فى المساجد ، ويقولون جملا متعارفة بين الناس يعلمون منها دخول وقت السحور ، ومنها : « تسحروا . . كلوا واشربوا » ومنها بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » وقوله تعالى « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » . . . ويتبعون ذلك بالتغنى وإنشاد بعض القصائد ، وهذا كله قبل ميعاد الأذان الشرعى للسحور . ويستعينون مع الأذان المذكور بالدق على الطبل والمناداة فى الطرقات كما هو الشأن فى أيامنا . وكذلك بقرع الدور والمناداة على سكانها كما هو الشأن فى بعض عواصم

المديريات وبعض بلاد الريف المصرى اليوم ، وكذلك يستعينون بإضاءة المصابيح، حتى إذا ما انتهى وقت السحور أطفئت فيعلم الناس دخول وقت الفجر .

« ابن إياس جزء ٤ حوادث شهور رمضان عام ٩١١ هـ ، ٩١٣ هـ ، ٩١٨ هـ . وراجع كتاب المدخل لابن الحاج ، ج ٢ »

٦ — الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى :

كان أهل هذا العصر يستعدون للاحتفال بعيد الفطر والأضحى — كما نستعد نحن أهل العصر الحاضر — وفى رمضان — كما ذكرنا — قبل عيد الفطر ، تعد خلع العيد وتزف . — وفى يوم العيد يخرج السلطان للصلاة بمسجده — الذى أنشأه غالبا — أو بغيره ، ويكون بصحبته فى الصلاة — عادة — الخليفة والقضاة الأربعة وكثير من عظماء الأمراء . ثم يعود إلى قصره ، فيصعد إليه القوم للتهنئة ، فيهب الخلع الثمينة لمن يشاء منهم — وهذه الخلع كانت فى ذلك الزمن بمثابة النياشين والأوسمة فى زمننا الآن .

ومن العادات التى اتبعت زمنا طويلا أن ينزل الوزير من القلعة إلى داره فى موكب حافل يوم عيد الفطر فيمتطى بغلته ، وعلى رأسه « طرحة » بيضاء ، وتحت عمامته « عرقية » مذهبة ويسمونها « الطاسة » ويتقلد سبحة بأكر من العنبر ، وتسير أمامه الأوجاقية وهى لابسة ثيابا خاصة من الحرير الأصفر تعرف « بالتتريات » ، وتقود جنائب الوزير ، وأمامه كذلك « مبخرة السلطان » وبها البخور . وقد بطلت هذه العادة وهذا الموكب بعد أن لبثت مدة طويلة من شعائر الدولة . وآخر من فعل ذلك من الوزراء الصاحب علاء الدين على بن الأهناسى المتوفى عام ٨٧٠ هـ « راجع باب الأفذاذ » . ثم اضمحل أمر هذه العادة وانقضى شأن هذا الموكب حتى أصبح الوزير « تغرى برمش » فى عهد الغورى إذا نزل يوم العيد من القلعة إلى داره لا يشعر به إنسان . .

ومن العادات التى اتبعت زمنا :أن يخرج السلطان إلى صلاة العيد ، وفوق رأسه « القبة والطير » . وقد أبطل برقوق ، هذه العادة . .

وللناس إذ ذاك عادات لا يزال كثير منها بيننا موروثا حتى اليوم ، منها خروجهم إلى الصلاة ثم الذهاب إلى زيارة المقابر حيث يختلط الرجال هناك بالنساء ، وتقع ضروب من المفاسد . ثم العودة إلى الدور بعد زمن طويل . وكذلك يغالون فى عيد الفطر فى إعداد الكعك والخشكنان « البسكويت » والبسندود ، والسمك المشقوق . . - ولعله السمك المقدد الذى يطلق عليه الآن « البكلاه » - ويحشى الكعك عادة بالعجوة ويرش عليه ماء الورد وكذلك يشترى النقل « الفطرة » .

وفى عيد النحر يتبارى كثيرون فى ذبح الأضحية . وكثيرا ما يخالفون فى ذلك السنة ، فيذبحون قبل الميعاد الشرعى . كما أنهم قد يتهادون بلحوم الأضاحى لا لله وإنما للسمعة ولانتظار العوض ، كما أنهم قد يقبلون على التهامها حبا فى الطعام .

وقد لا يفعلون هذا كله توسعة على الصغار والفقراء ، وإنما مباهاة وحبا للظهور . كما أن كثيرا من الأسر تعانى المشقات الكثيرة فى إعداد هذه الأشياء ، وتقع بينها الشحناء وتمديدها للدين . وبعضها قد يقاسى ألم الحرمان . . . انظر إلى البوصيرى الشاعر المتوفى عام ٦٩٥ هـ فى شكواه إلى أحد الوزراء من قصيدة يقول فيها واصفا أسرته وأطفاله :

وأقبل العيد وما عندهم ... قمح ولا خبز ولا فطرة
فارحمهم إن عاينوا كعكة ... فى كف طفل أو رأوا تمرة
تشخص أبصارهم نحوها ... بشهقة تتبعها زفرة

هذا وفى الأعياد تطوف جماعات من العذارى الأبكار والمراهقات ، ويسمين « بنات العيد » ، فى الطرقات وفى الأسواق على التجار والعلماء وغيرهم وعلى البيوت

كذلك ، يجمعن من الناس ما جادت به مكارمهم فى تلك المناسبة ، ومعهن الدفوف يدققن عليها ويغنين . . . وهذا شبيه بما اعتاده الصغار فى أيامنا فى شهر رمضان من الطواف ليلا فى الطرقات يطرقون أبواب المنازل والحوانيت والمقاهى طلبا للعطاء ، وفى أيديهم المصابيح الملونة وهم ينشدون أناشيد مختلفة .

« ابن إياس ج ٤ حوادث رمضان وشوال عام ٩١٢ هـ أيضا وج ١ ص ٢٦٠ - والمدخل لابن الحاج ج ١ - وكذلك ترجمة البوصيرى فى الشعراء بالجزء الثالث من هذا الكتاب » . . .

٧ - الزواج وحفلاته :

لم يكن زواج السلاطين ولا زواج الأمراء خاضعا لاعتبارات سياسية ومشيئة عامة ، كما يحدث كثيرا فى عصرنا الحاضر لدى بعض الدول . ولكن كان كل من السلطان والأمير حرا فى اختيار زوجته حسبما يشاء ، ومع ذلك ترى أن هذه الطائفة الحاكمة صاهر بعض أفرادها البعض الآخر حتى كانت بين كثير منهم صلات نسب متينة . وقد تزوج - مثلا - الأمير يشبك الدوادار ببنت الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال . ثم توفيت فتزوج بأخت الأمير قانصوه خمسمائة . كما أن قانصوه خمسمائة المذكور تزوج بنت الأتابكى أزبك بن طاخ . وهذا الأتابكى كانت زوجته - حماة قانصوه - ابنة الملك الظاهر جقمق . وهكذا . . .

ولم تكن هناك غضاضة على زوجة السلطان أن يتزوج غيرها مستخدما حقه الشرعى فى تعدد الزوجات . ولا غرابة فى ذلك فإن من المحال على الزوجة أن تنكر إنكارا أدبيا على زوجها السلطان ، أن يتزوج سواها ، مع وجود نظام التسرى وبيع الرقيق . وقد كان السلاطين أنفسهم يعاونون على جلبهم ويأمرون به ويعدون الأسواق خصيصا لذلك كخان الخليلى مثلا . - وهكذا تعددت الزوجات والجوارى معا بل قد يتزوج السلطان أرملة أحد الأمراء أو مطلقته . .

وكذلك لم تجد الزوجة - زوجة السلطان - فى نفسها أية غضاضة أو مرارة أو شيئا محرجا أو موقفا غير عادى إن هى أقدمت على الزواج بعد وفاة زوجها وانقضاء دولته . ولو كان السلطان الجديد ولدها وفلذة كبدها وكبد الراحل الكريم . وقد تتزوج بسلطان آخر ، وقد تتزوج بكبير من الأمراء ، وقد تتزوج برجل كان مملوكا لزوجها . . .

وإذا كانت هذه عادة زوجات السلاطين فلا غرابة أن اتبعها كذلك زوجات الأمراء وغيرهم .

ومن الأمثلة على ذلك: السلطان برسباى العلائى تزوج أرملة الظاهر خشقدم، والسلطان الناصر بن قايتباى تزوج مطلقة الأمير « كرتباى » نائب صفد . وهى التى تدعى « خوند مصر باى الجركسية » . ويظهر أنها كانت فاتنة ، لرغبة الرجال فى زواجها . فقد تزوجها السلطان الظاهر قانصوه لما ملك البلاد بعد زوجها الثانى الناصر بن قايتباى . ومن الأمثلة: أن السلطان العادل « طومان باى » عقد على « خوند فاطمة » بنت العلائى على بن خاص بك ، وهى التى كانت زوجة للأشرف قايتباى . والأشرف جان بلاط قبل أن يملك البلاد تزوج أم الملك الناصر بن قايتباى وهى أخت الملك الظاهر قانصوه بن قانصوه الذى ملك بعد الناصر المذكور . . . وهكذا

وكانت حفلات الزواج والدخول والزفاف وإعداد المتاع يبالغ فيها القوم ويغلب عليهم فيها حب الظهور والفخر ويشتد غناؤهم وتعلو أصواتهم ويدقون بالدفوف ويرقصون ويزغرد النساء . . .

وحسبنا هنا أن ننقل ملخصا عن ابن إياس مما ذكره فى زواج الأمير « قانصوه خمسمائة » بابنة الأتابكى « أزبك بن ططخ » . قال ما مؤداه :

« فى عام ٨٩٢ هـ فى شهر جمادى الآخرة وفى يوم جمعة كان عقد « قانصوه خمسمائة » على بنت الأتابكى « أزبك » من خوند بنت الظاهر جقمق . عقد بجامع

القلعة وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس . وكان عقدا حافلا ، وأحضر السلطان عدة « زبادى » صينى - وهى أوعية معروفة للآن بهذا الاسم - فيها سكر ، وأوعية مملوءة بالفاكهة ، فرقت فى القلعة .

وفى شهر رجب من نفس العام تم حفل الزفاف والدخول . فحمل الجهاز من الأزبكية - حيث دار ابيها - إلى دار الزوج بقناطر السباع ، نحو أربعمائة حمال . وقيل أنفق على هذا الجهاز نحو من مائتى ألف دينار . ولما كانت ليلة الزفاف زينت الأزبكية بأبهى زينة . وركب « قانصوه » من باب السلسلة وأمامه الأمراء المقدمون بالشاش والقماش - أى بالملابس الرسمية - وهى لا تلبس فى غير حفلة التولية وصلاة الجمعة والعيدين مع السلطان . ومشى الخاصكية وبأيديهم الشموع حتى بلغوا الأزبكية . »

وننقل أيضا وصفه لموكب زوجة الملك العادل طومان باى يوم زفافها إليه بالقلعة قال :

« فى يوم الخميس ٧ شعبان عام ٩٠٦ هـ صعدت خوند الخاصكية زوجة الملك العادل طومان باى إلى القلعة . فخرجت من بيتها بقنطرة سنقر فى محفة زركشية وأمامها رءوس النوب والحجاب والخاصكية وهم بالشاش والقماش . وأمامها كذلك الوالى ونقيب الجيش والزمام عبد اللطيف وأعيان الأكابر والمباشرين والطواشية وفى صحبتها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء ، والعظماء . فلما وصلت إلى باب الستارة فرشت لها الشقق الحريرية تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفائف الذهب والفضة ، وحمل الزمام فوق رأسها القبة والطير . حتى جلست بقاعة العواميد ، والموسيقا تصدح فى خلال ذلك . واستمر الابتهاج بقدومها فى القلعة ثلاثة أيام . ووضع أمامها فى موكبها كذلك جملة من الصرر وطست وإبريق من البلوك ومنديل كبير من الزركش . »

« ابن إياس ج ٢ ص ٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ »

٨ - حفلات الختان:

كان الناس فى ذلك الزمان يعنون بالختان ويقيمون له الحفلات - كما هو الشان فى زماننا - ويهتمون بختان الذكور أكثر من اهتمامهم بختان الأنثيات . وكلما عظم مركز أهل هذا الحفل عظم اهتمام الناس بهم ، وعنوا بالاحتفال معهم ، وأحيانا تزين وجوه المنازل والحوانيت المجاورة لمنزل الأسرة المحتفلة وتوقد الشموع القناديل ، ويقبل الناس عليهم للتهنئة ، وتتبادل الهدايا . ويغنى المغنون والمغنيات . وتمد الموائد وتقدم الأطعمة الشهية والحلويات . وقد تعرض على الحاضرين بعض الألعاب الطريفة . ومن الأمثال على ذلك :

١ - ختان أولاد القاضى كاتب السران مزهر عام ٨٨٦ هـ . وكان منزله ببركة الرطلى . فأم منزله فى ليلة الختان كثير من الأمراء المقدمين والعشرات . وزاره الأمير جمجمة العثمانى - وكان ضيفا فى مصر - وبات عنده تلك الليلة . وأوقد الناس لذلك منازلهم وحلوها بالقناديل ، حتى انقلب الليل نهارا لشدة الضوء . وانتشرت الزينات هنا وهناك حتى جذبت إليها أنظار الناس فتوافدوا إليها زمرا للابتهاج بها وللتفرج بمشاهدتها . وامتلات بركة الرطلى بالمراكب . وركابها وجلس المغنى « ابن رحاب » وغيره من مغنين ومغنيات يطربون الحضور بأصواتهم الشجية . . وربح بائعو الحلوى أرباحا وفيرة فى تلك الليلة . وبعث القاضى ابن مزهر إلى كل بيت فى البركة عشرة أرطال من الزيت ، ومائدة فيها مالذ وطاب من الطعام . . وقد عنى القاضى ابن مزهر بهذه الليلة عنايته المذكورة بناء على أمر السلطان قايتباى إذ كانت له عناية بالأمير العثمانى جمجمة ، فأحب أن يبهجه بالمبالغة فى هذه الحفلة . ثم إنها فرصة للظهور . . . انتهزوها .

« ابن إياس جزء ٢ ص ٢٠٨ »

ب ـ ومن الأمثلة كذلك ليلة ختان ابن الملك الأشرف قايتباى عام ٨٩٤ هـ فى شهر رجب . وقد استمر الاحتفال به سبعة أيام متوالية ، وزينت طرقات القاهرة وأسواقها، واجتمع سائر المغنين لإطراب الناس ، وابتهج الناس فى هذه الأيام إيما ابتهاج . وقدمت الهدايا الحافلة إلى السلطان بهذه المناسبة ، من مال وخيل وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك، وقد قومت هذه الهدايا بأكثر من خمسين ألف دينار . وفى جملتها طست وإبريق من الذهب زنة ستمائة مثقال ، قدمهما الشهابى أحمد ابن العينى . واختتن مع ابن السلطان عدة من أبناء الأعيان والأمراء والخاصكية . وأقيم لابن السلطان موكب شائق ركب فيه فرسا وسار من قاعة البحرة إلى باب الستارة ، والسلطان ينظر إليه فى مقعد خاص . وسارت أمامه الأمراء والخاصكية وسائر أعيان المباشرين ، وكثير من كبار الخـــدم ، وأمسك لجام فرسه الأمير « أقبردى الدوادار » ، والشهابى « أحمـــد بن العينى » وجميعهم بالشاش والقماش « الملابس الرسمية » وفرشت الشقق الحريرية تحت حوافر فرسه ، ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة ، وتلقته المغنيات بأناشيدهن ، وأدخل إلى قاعة البيسرية حيث جرى ختانه بوساطة أحد المزينين . . وقيل دفعت إليه على سبيل « النقطة » خمسة آلاف دينار أو تزيد . فنال منها وحده ألف دينار ، وفرق الباقى على رؤساء المزينين . . . ورسم السلطان بأن تصنع كسوة لكل طفل ممن يشتركون بختانهم فى ليالى ختان ابنه ، وكانوا نحو أربعين من أبناء الأعيان كما ذكرنا .

« ابن إياس جزء ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ »

حـ ـ ومن الأمثلة كذلك ليلة ختان ابن « على بن أبى الجواد » برددار السلطان الغورى ، فى ذى القعـدة عام ٩٠٧ هـ ، إذ زينت له القاهرة وحوانيتها . وأوقدت له الشموع والقناديل من المدرسة الأشرفية إلى الصليبة ، ومشى فى موكبه كثير من

الأعيان والرؤساء حتى تغرى بردى الأستادار ، وجماعة من الطواشية . .

« ابن إياس جزء ٤ حوادث ذى القعدة عام ٩٠٧ هـ »

٩ ـ الجنازات وما يتصل بها :

اعتاد هؤلاء الناس فى الاحتفال بالجنازات أن يكثروا حولها من البكاء والعويل والنواح . وأن يسير النسوة ليلا إذا اقتضى الحال ، فيصوتن ويعلو صياحهن المقلق فى الطرقات ـ على نحو ما نسمع ونرى فى مدينة الإسكندرية ، وغيرها الآن .

ثم يؤجر أهل الفقيد من ينادى على باب مسجد أو يؤذن فوق مئذنته بما يشعر الناس أن فلانا قد مات . ثم يأخذون فى إعداد الميت فيقومون بغسله ، ولهم فى ذلك عوائد غريبة . ويكفنونه فى نوع خاص من الأقمشة يعرف بعضه بالأثواب البعلبكية . وعند تمام إعداده ، والهم بالمسير به ، يتقدم شخص يلقب «بالمدير» ، وينادى فى وسط الجمع الحاشد مثنيا على الفقيد ، ناسبا إليه كل خير وبر . ولدى بروز الجنازة من منزل الأسرة مثلا ، يتبارى النسوة فى إخراج صيحة مزعجة جدا وهى صيحة الوداع ، يودعون بها فقيدهن الكريم . وهنا تجد اختلاط النساء بالرجال قد ازداد ، وأسفر النسوة ومشين حافيات الأقدام فى صحبة الجنازة . ـ ويقدم أهل الفقيد فى بعض الأحيان خبزا ونحوه ، يحمل فى أوعية خاصة يسعى بها الساعون أمام الجنازة لتفريقها على العامة وهى المسماة « الكفارة » . وكذلك قد يحملون معهم ، خرافا فى أقفصة ، وخبزا كذلك ، فيذبحون الخراف على القبر ، ويوزعون منها ومن الخبز على العامة قصدا للصدقة فى ظاهر الأمر ، وقصدا للسمعة فى باطنه . .

ووقت التفريق يشتد الزحام والهرج والمرج ، وقد يعطى من لا يستحق ، ويحرم

من يستحق العطاء . . . .

فإذا سارت الجنازة فى الطرقات ترى على بعض جوانبها حصرا وأبسطة يجلس عليها القراء يقرءون القرآن الكريم أو الأوراد المختلفة . كما قد تتقدم الجنازة طوائف ممن يحترفون القراءات المختلفة يرتلونها بصوت واحد وبنغمة واحدة ويسمونهم « الفقراء » . ثم يصلى على الميت فى الجامع حيث يكون فى انتظاره بعض الناس جلوسا ، ثم يسعى به إلى المقبرة ويلحد . ، ثم ينادى « المدير » على الناس بأن يتقدموا لعزاء أهل الميت ، فيعزونهم وينصرفون . وهناك فى دار الفقيد تقام عادة - ثلاث ليال تقرأ فيها آيات الكتاب الحكيم ويسعى الناس إليهم لمواساتهم .

وكثيرا ما يعنون عناية خاصة باليوم الثالث وأيام الخميس الثلاثة الأولى ويوم الأربعين . - وفى هذه الأيام المذكورة يقبل النسوة لتقديم العزاء لأسرة الفقيد . وعند اقترابهن من الدار يبادرن بالنواح والعويل المفتعل ، والصراخ ولطم الخدود فيقابلهن عدد من نساء أهل الفقيد بمثل ذلك . وهذا منهن بمثابة التحية وردها . والجميع بملابس سوداء أو زرقاء . . . ويقوم بينهن فى كثير من الأحايين نادبات يلطمن خدودهن ويسودن وجوههن ، ويرددن كلمات مثيرة محزنة ، تؤثر فى الحاضرات ، فيقابلن هذا بمثله ، وقد يحثون فوق رءوسهن التراب ، ويشركن الدفوف معهن فى هذا الصخب البذىء . . ويضعن الغلالات السود فى رقابهن . وقد حاول بعض السلاطين - الغورى - وضع حد لهذه المفاسد ، وأغلب الظن أنه لم يفلح . . .

ويعنى بعض ذوى الموتى بتقديم صنوف الطعام للمعزين والمعزيات تفاخرا وظهورا لا صدقة ولا كفارة . .

هذا ، أما المقابر فيعنى عادة بتجميلها ، ويعنى أحيانا ببناء دار خاصة بجوار كل قبر لتقيم بها أسرة صاحب هذا القبر بعد دفنه . وتزيد مدة إقامتها أو تنقص حسب

منزلته منها ومكانته بينها . . يقيمون فى تلك الدور يأكلون ويشربون ويبيتون ويوقدون الشموع والقناديل . ثم يعودون إليها بين الفينه والفينة فى المواسم والأعياد فيقيمون مرة أخرى وهكذا . وفيهم الرجال والنساء والأطفال .

ويقال إن الظاهر بيبرس حاول أن يهدم مرة تلك الدور المقامة حول المقابر فحذره أحد وزرائه مغبة هذا الهدم، وخشى أن تكون من ورائه فتنة بين السلطان والأمراء لأن لهم فيها دوراً ومواضع . . وطلب إليه أن يستفتى فى شأنها العلماء ليعتز بفتواهم إذا عارضه معارض . فأفتى العلماء بضرورة هدمها ، ولكن الوزير أهمل تنفيذ هذا المشروع .

«راجع هذه المعلومات فى كتاب المدخل لابن الحاج ، ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها ، . ج ٣ ص ٢٣٣ وما بعدها . — ابن إياس . ج ٤ حوادث شوال عام ٩١٠ هـ ، وحوادث المحرم عام ٩١٧ هـ ، . ج ٢ ص ٢٩٥ »

١٠ — إقامة الموالد والمواسم :

وتلك عادة ورثوها من العهود التى سبقتهم إذا انتشرت الموالد والمواسم فى مصر منذ أيام الفاطميين بصفة خاصة فرسخت هذه العادة وتأصلت بالبلاد المصرية حتى اليوم ، واهتم بمراعاتها ملوكها وسوقتها على حد سواء فى عهد سلاطين المماليك . والغرض منها إشباع العاطفة الدينية وتغذيتها ، وحب الظهور بالنزعة الدينية والمحافظة على الدين وإقامة شعائره ، وتثبيت الجاه وبث النفوذ عن طريقه .

ومن هذه الموالد والمواسم : مولد النبى عليه الصلاة والسلام ، وموالد بعض آل البيت النبوى الشريف ، وموالد بعض الأولياء ذوى الأضرحة الشهيرة بالبلاد . ومنها موسم عاشوراء وليلة نصف شعبان ورأس السنة الهجرية وغير ذلك من الأمور التى لا تزال مرعية بين سوادنا حتى اليوم . — وفى هذه الليالى يشتد إقبال

العامة على الطعام والحلوى، ويتجمهرون فى أماكن مخصوصة أو فى المساجد لإحياء مراسيم هذه المواسم، وللهو كذلك.

أما المولد النبوى فيقام طبعا فى شهر ربيع الأول، ويهتم سلطان البلاد بإحيائه ويجتمع فى ليلته الكبرى بالقضاة الأربعة وأعيان الأمراء والمباشرين فى حوش القلعة. وقد تنصب لهم خيمة كبرى مزدانة. وتمد موائد الطعام. ويمنح السلطان بعض الخلع أو الوظائف من يريد بهذه المناسبة.

ومن الموالد التى اهتموا بها مولد «سيدى اسماعيل الانبابى»، فكانوا يحيون ليلته فى شهر المحرم أو صفر أو ربيع من كل عام.. واستمر ذلك سنين عدة فى عهد الغورى خاصة. وكانت ليلته حافلة إذ تضرب فيها خيام عدة قد تبلغ خمسمائة، فى الجزيرة تجاه بولاق وتقام بها سوق مؤقتة للبيع والشراء.

قال ابن إياس فى حوادث المحرم عام ٩١٣ هـ، وفى ١١ منه ما ملخصه: «كان ببولاق ليلة حافلة بسبب وقت سيدى اسماعيل الانبابى رحمة الله عليه. فضربت فى تلك الجزيرة التى تجاه بولاق نحو خمسمائة خيمة، وصنعوا سوقا بدكاكين. وخرج الناس فى الفرجة عن الحد. وأقاموا هناك ليالى متوالية.»

ثم قال: «وفى عقب ذلك عمل مولد للشيخ سويدان المجذوب فى مدرسة ابن الزمن التى ببولاق عند الرصف. فكان له مولد حافل. وضربت هناك الخيام الكثيرة عند المدرسة.»

هذا وقد أقيم مولد الانبابى فى صفر عام ٩١٤ هـ، وفى صفر عام ٩١٥ هـ، وصفر ٩١٦ هـ، وصفر عام ٩١٧ هـ وفى ربيع الثانى عام ٩٢٠ هـ.

وفى عيد رأس السنة الهجرية ينزل السلطان عادة إلى ميدان القلعة ويتقدم إليه القضاة والأمراء بالتهنئة.. وكثيرا ما تمد الموائد بالأطعمة الشهية فى ذلك اليوم للمهنئين.

وأول من أحدث الاحتفال بمولد السيدة نفيسة رضى الله عنها السلطان قايتباى فى ربيع الأول عام ٨٨٩ هـ . ويطلق عليه مولد الخليفة .

« راجع المدخل لابن الحاج . وابن إياس جزء ٤ حوادث شهر ربيع الأول من كل عام . وحوادث التواريخ المذكورة هنا . وحوادث شهر المحرم من كل عام وخاصة عام ٩١٦هـ ، وراجع جزء ٢ ص ٢٢١ »

١١ -- حفلة كسر الخليج :

كتبنا وصفا لهذه الحفلة والعادات المرعية بها فى مقدمة الكلام على فيضان النيل فى هذا الجزء من الكتاب فنكتفى بمراجعتها والاشارة إليها هنا . ونسوق للقارىء ما وصف به ابن إياس إحدى حفلات كسر الخليج فنقول ملخصا :

« فى مساء الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ نزل السلطان من القلعة ثم انحدر إلى المقياس وطلع إلى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس . ودعا الأمراء قاطبة . ونصب لهم خياما على الشاطىء تجاه بر الجيزة . فبات السلطان فى تلك الليلة فى المقياس هو والأمراء . ومد له القاضى كاتب السر محمود بن أجا أسمطة حافلة أنفق فيها نحو ٧٠٠ دينارا . وكان معه القضاة الأربعة وأعيان الناس . وحضر قراء ووعاظ البلد . ثم إن السلطان أوقد فى قاعة المقياس ، وعلق أحمالا بقناديل فى القصر على شرفات المقياس . وكذلك جامع المقياس والمئذنة .

ثم إن سكان بر مصر ، وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه بر الروضة -- ثم أحضر السلطان المركب الكبير « الغلبون » الذى عمره وأنفق عليه نحوا من ٢٠ ألف دينار ، فأرسوا به قبالة المقياس وصنعوا له ثمانى مراسى فى البحر

وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط . فكان الذى أوقد فى المقياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل . — ثم صنع السلطان فى تلك الليلة إحراقة، فكان مصروفها نحوا من مائة وسبعين دينارا ، مثل إحراقة نفط المحمل التى كانت تصنع بالرملة أمام القلعة . — فشقوا بالنفط من القاهرة مزفوفا بالطبل والزمر . وكانت عدة قلاع النفط خمسين قلعة . والمآذن ستون ، والأزيار عشرة ، والجرر أربعون ، والصواريخ الكبار ثلثمائة . والمأويات : ألف ومائتان . والشجرات عشر . والتنانير عشرون . والقطع ألفان ، والشعل أربعون — فلما وصلوا بالنفط إلى شاطىء البحر أنزل فى خمسين مركبا . وصفوا المراكب قبالة المقياس عند « البهطلة » ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طبلخاناتهم فى مراكب عند المقياس ، ففعلوا ذلك . فكان صوت الطبل والزمر مع الكئوسات كالرعد القاصف .

فلما صلى السلطان صلاة العشاء جلس على سطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس والأمراء حوله ، وأحرقوا قدامه النفط — وكان النيل فى ثلاثة أصابع من عشرين ذراعا . — وكانت الليلة ليلة البدر . فدقت الكئوسات السلطانية مع كئوسات الأمراء المقدمين وهم ٢٤ ، فقاموا فى صعيد واحد عند إحراق النفط.. فكانت ليلة لم يسمع بمثلها . . . وقد بلغت أجرة كل مركب فى تلك الليلة خمسة دنانير أو أكثر . وازدحمت المراكب بالخلائق حتى كان النوتية يجبون من كل عابر عليها أربعة أنصاف ، فاجتمع لهم من ذلك مال كثير . وخرج الناس للمشاهدة. وأقام السلطان هناك الأربعاء والخميس وفى ذلك الليل الأول كان والى القاهرة وأعوانه يطوفون خلال المدينة محافظة على الأمن ورعاية للسكينة . ومع ذلك لم يخل الأمر من اضطراب وعبث . »

« راجع ابن إياس جزء ٤ حوادث ١٣ جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ . »

١٢ - خروج المحمل :

أفردنا للمحمل والحج باباخاصا فى فيمامضى ،فليراجع .

١٣ - الحفلات الأخرى وليالى السمر والمغنون والمغنيات :

وصفنا فيما مر ضروبا من الحفلات والعادات المرعية فيها ، ونذكر هنا أن للقوم حفلات أخرى خاصة تقام بمناسباتها ومثال ذلك : نزول السلطان إلى ناحية ما كالمطرية أو الأزبكية أوغيرهما . فتقام لذلك حفلة يسهر عليها بعض أمراء الناحية المذكورة وأعيانها . ومنها احتفال السلطان أو أحد الأمراء أو الأعيان بتمام إنشاء بناء أسسه على نفقته كمسجد أو قصر أو حديقة ، ومنها احتفال السلطان بختام فصل لعب الكرة .

ومن الأمور المرعية فى هذه الحفلات أحيانا تجهيز شراب الليمون والسكر فى أحواض كبيرة وسقى الناس منها . أو تفريق لون من اللبن على الحضور . أو مد موائد الأطعمة الشهية .

وقد كان لبعض السلاطين مضحكون يضحكونهم فى مجالسهم ومحافلهم . فقد روى ابن إياس أن الغورى كان له نديم يضحكه يدعى « الشنقجى العجمى » يلعب بالصحون النحاسية والجريد . « حوادث شوال عام ٩٢١ هـ » ، وروى المقريزى فى خططه بالجزء الأول ص ١٤٦ أن الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه فى مجالسه .

وكانوا يستعينون فى حفلاتهم أحيانا بالطبل والزمر وبالمغنين والمغنيات ، وكانوا يطلقون لفظ « أستاذ » على المغنى ، ولفظ « الريسة » على المغنية ، ولفظ « الريس » على المضحك ذى النكات اللطيفة والألعاب الطريفة « راجع طيف الخيال لابن دانيال »

وكانوا يقيمون للمغنى دكة يجلس عليها وحوله الناس يسمعون . وبهذه المناسبة نذكر أن البحث عن أغانى أية أمة ، وضروب تسليتها ، موضوع طريف جدا يتصل اتصالا وثيقا بالبحث عن عقليتها ، وعقيدتها ونفسيتها ودرجة ثقافتها وطريقة تهذيبها . ثم هو يتصل بترقيها ومقدار تحوله وكيفية اتجاهه ، وهو بذلك كله يطلعنا على جانب هام من جوانب تاريخها . فلعل أحد الأدباء يولى هذا البحث عناية ما حتى يقـــدم لنا وصفا شائقا لأغانى الأمة المصرية وألعابها يتضح منه جانب من تاريخها العقلى والعاطفى .

ونذكر الآن بعضا من المغنين والمغنيات الذين ورد لهم ذكر فى بدائع ابن إياس ، وبعض الحوادث التى لها صله بتوضيح هذا الموضوع فنقول :

ا ـ قال ابن إياس فى جزء ١ ص ٢١٢ عن السلطان المنصور محمـــد بن المظفر حاجى : «أنه لما خلعه الأتابكى يلبغا العمرى من السلطنة عام ٧٦٤ هـ أدخله فى دور الحرم بالقلعة . واستمر مقيما فى غبوق وصبوح لا يفيق من السكر ساعة . وعنده جوقة جوارى مغنيات نحو عشرة يدقون بالطارات عند الصباح والمساء . »

قال : وكانت هذه عادة رؤساء مصر تغنيهم المغنيات . وآخر من كان يفعل ذلك من أعيان مصر الأمير جمال الدين محمود الأستادار . ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية .

ب ـ وقال فى جزء ٢ ص ٦٢ فى حوادث عام ٨٦٢ هـ : فى «جمادى الأولى توفى المغنى الأستاذ فى فن الشيد فريد عصره ، ووحيد دهره « ناصر الدين محمد المازونى القاهرى » . وكان بارعا فى فن الغناء . وكان يضرب به المثل فى حسن النغم ، ومعرفة الفن . ولم يجىء بعده من هو فى طبقته إلى يومنا هذا . وقد رثاه الشهاب المنصورى بهذه الابيات :

يانزهة السمع سكنت الثرى فللملاهى أيما لهفى

كم لطمة من قدم أو يد فى خدى الدوكة والدف

وقال أيضا :

كانت به لذاتنا موصولة فانقطعت بموته اللذات

وكانت الأصوات تزهو بهجة فارتفعت لموته الأصوات

وكان قد أصيب المازونى بفالج فأقام به مدة طويلة حتى مات . وكان يقول : «ارحموا من سكت حسه وبطل نصفه .»

جـ - وقال فى جزء ٢ ص ٧٦ فى حوادث عام ٨٦٢ هـ : «أن الأمير جانى بك لما كملت عمارة القبة التى أنشأها فى منشية المهرانى عمل هناك وقدة عظيمة . وأحضر صوارى طوالا على البر ، وعلق فيها قناديل ، وعزم على جماعة من الأمراء ، ومد مدة عظيمة . وكانت ليلة لم يسمع بمثلها ، وحضر هناك «ابن رحاب المغنى» «وابرهيم ابن الجندى» ، وجمع بين قراء البلد والوعاظ - وكان ذلك فى ليلة الجمعة . »

د - نور الدين على بن رحاب المغنى : يظهر أن هذا المغنى كان ذا شهرة فائقة وذا فن بارع ، ولذلك كان كثيرا ما يستدعى لإحياء ليالى الملوك والأمراء وقد ورد ذكره مرارا فى سياق حوادث عصر قايتباى وقبله . فمن ذلك ما ذكرناه فى «جـ» ومنه أيضا أنه فى رجب عام ٨٧٥ هـ توجه السلطان قايتباى إلى قناطر العشرة وإلى الأهرام وأقيمت له الزينات ومدت له الموائد ، وظل كذلك سبعة أيام أحياها المغنى «ابن رحاب» ومعه كثير من المغنين المعروفين . وأحيا كذلك ليلة ختان أولاد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وكان مقيما بالإسكندرية فى عهد قايتباى .

وفى عهد السلطان الظاهر قانصوه بن قانصوه قبض الأمير طومان باى على هذا المغنى «ابن رحاب» فى شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، وكان سبب ذلك أنه كان يتشيع للأمير أقبردى الدوادار الثائر على السلطان . وكان يسب الأمراء فى مجالس

الغناء، ويهجوهم بأفحش هجاء. فنقل عنه ذلك فقبض عليه وضرب بالمقارع وشهر فى القاهرة وهو عريان مكشوف الرأس على حمار، وكان قد قبض عليه مرة أخرى قبل هـذه المرة، قبض عليه الأمير كرتباى الأحمر وهم بضربه ثم اكتفى بتوبيخه وعفا عنـــه..

فلما عاد إلى ما نهى عنه ضرب وشهر كما ذكر والمشاعلى ينادى عليه «هذا جزاء من يكثر كلامه ويدخل نفسه فيما لا يعنيه».

وقد توفى ابن رحاب «فى شهر ذى القعدة عام ٩٠٥ هـ. - وقال عنه ابن إياس: «فى ذى القعدة كانت وفاة الرئيس نور الدين بن رحاب المغنى النـاشد المادح فريد عصره ووحيـــد دهره، وكان من نوادر الزمان. ينظم الشعر ويلحن الخفائف بألحان غريبة. وكان آخر مغانى الدكة فى الدخول والطرب. ولم يجىء بعده أحد فى الدخول مثله وقد رثيته بعد موته بهذه الأبيات.

توفى نزهـــة الأسماع طرا وصار العيش منا فى ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا وأظهرت الصراخ مع انتحاب
وأبدى الدف والماصول زعقا كمن جاء المآتم فى المصاب
وأضحى الناس فى قلق ولم لا وقد ضاق الوجود بلا رحاب»

«راجع ابن إياس جزء ٢ ص ٧٦، ١٦٣، ٢٠٨، ٢١٣، ٣٥٢، ٣٦٨»

هـ - ولما خرجت خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباى، وهى بنت العلائى علاء الدين بن خاص بك، إلى الحج عام ٨٧٩ هـ كان لها ركب حافل وموكب عظيم سار أمامه أربعة من الحداة منهم «إبراهيم بن الجندى» و «أبو الفوز الواعظ».

«ابن إياس جزء ٢ ص ١٥٦»

٥ - خديجة الرحابية: قال عنها ابن إياس: «أن الأمير يشبك بن حيدر والى القاهرة قبض عليها وهى تغنى فى بعض الأفراح بتهمة إفساد عقول الناس. وكان

ذلك فى شعبان عام ٨٨٦ هـ . وأمر بضربها بين يديه نحو خمسين عصا وقرر عليها غرامة مالية ، وكتب عليها تعهدا بأنها لا تزاول مهنتها . ـ وقد لبثت بعد هذه الحادثة مريضة حتى ماتت ولها من العمر نحو ثلاثين عاما ، فأسف كثير من الناس لوفاتها .

وكانت خديجة من مشهورات المغنيات بمصر ، ذات صوت جميل وإنشاد بديع وكانت فى بدء أمرها من مغنيات العرب ، ثم عظم أمرها جدا ، فحظيت عند أرباب الدولة ورؤسائها . وكانت مع حسن صوتها جميلة الخلق حتى افتتن بها كثير من الناس . وقد قال فيها بعض الشعراء :

رحابية يخفى الشموس جمالها لها حسن إنشادين مقالها (١)
وقد خايلت بالبدر ليلة تمه فما زال من عينى وقلبى خيالها

« ج ٢ ص ٢٠٧ »

٦ ـ شمس الدين محمد بن حلة : كان من مشاهير الوعاظ ، وكان منشدا مطربا وله نظم جيد ، ولد قبل سنة ٨٢٠ هـ توفى فى شهر المحرم عام ٨٩٢ هـ .

« ج ٢ ص ٢٤٢ »

٧ ـ فى ربيع الآخر عام ٨٩٩ هـ اختار السلطان قايتباى الأمير ماماى بن خداد الدوادار الثانى رسولا إلى ملك بنى عثمان فأخذ ماماى يستعد للرحيل ، وكانت توقد له كل ليلة بناحية بركة الرطلى وقدة حافلة يمثل فيها « خيال الظل » أو يغنى بعض من مغنى العرب أو ابن رحاب المغنى أو يتفكهون بألعاب ونكات فرقة المحبظين .

« ج ٢ ص ٢٨١ »

٨ ـ فى ١٣ شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ نزل السلطان الناصر محمد بن قايتباى من القلعة واتجه نحو القناطر العشرة ، ومعه أولاد عمه قيت وهما جانم وجانى بك

---

١ ـ هكذا ، قافية بفتح اللام ، وقافية بضمها .

وعدد من الخاصكية . وقد سبق هذا الجمع الخدم والطهاة فضربوا لهم وطاقا فى ناحية الجيزة حيث أقاموا ثلاثة أيام . واستدعى لإيناس السلطان ومن معه « أبو الخير » ومعه « خيال الظل » ، وجوق مغانى العرب و « برايوه » رئيس المحبظين . »

« ج ٢ ص ٣٤٧ »

٩ ـ عزيزة بنت السطحى : قال عنها ابن إياس : « إنها توفيت فى أوائل شهر شوال عام ٩٠٦ هـ . وكانت من أعيان مغنيات مصر ، فريدة عصرها فى النشيد مع حسن الصوت وفصاحة الإعراب فى الشعر ، فلم يخلفها من بعدها إحدى النساء . ورأت لدن أعيان مصر وأرباب دولتها غاية العز والعظمة ، مما لم يره غيرها من أهل هذا الفن . وماتت وهى فى العقد الثامن من عمرها ولها من الشهرة ما زاد عن الحد ومما قاله فيها الشهاب المنصورى :

وفتاة نزهت طرفى فيها شنفت مسمعى بجوهر فيها
منذ زارت محبها وتغنت كاد يرمى بنفسه من أبيها (٢)

« ج ٤ »

١٠ ـ على بن غانم : كان علامة فى ضرب الطنبورة ومعرفة الألحان . وهو الذى أظهر الخفائف النجدية بمصر ولحنها فى التلاحين الغريبة ، حتى أبطل بها فن الموسيقا ، توفى عام ٩١٣ هـ . « ج ٤ ص ١٣٠ »

١١ ـ الريسة إنعام ريسة خوند الخاصبكية : كانت من أعيان مغنيات البلد . وكانت لا بأس بها . وتوفيت فى أواخر شهر ربيع الآخر سنة ٩١٧ هـ .

« ج ٤ »

١٢ ـ الريسة خديجة أم خوخة : كانت من أعيان مغنيات الدكة . ولها فى هذا

---

٢ ـ مرجع كل من هذا الرقم وما يليه ج ٤ حوادث العام الذى ذكر فيه .

الفن اليد الطولى . توفيت فى يوم الاثنين ٩ المحرم عام ٩١٨ هـ «ج ٤»

١٣ ـ الريسة بدرية بنت جُرَيعة : كانت من أعيان المغنيات ولها بينهن شهرة توفيت قبل أم خوخة بقليل . «ج ٤ حوادث المحرم سنة ٩١٨ هـ»

١٤ ـ هيفة اللذيذة : كانت رئيسة المغنيات . ادعى عليها بعض أعدائها دعاوى رافعها أمام السلطان الغورى . فقبض عليها فى رمضان عام ٩١٨ هـ ، وسجنت وعذبت ثم غرمت خمسة آلاف دينار . وتوسط لهـــا القاضى بركات بن موسى فدفعت ألف دينار ، باعت فى سبيلها جميع ما تملكه . وقسطت عليها خمسمائة دينار تدفع منها فى كل شهر مائة . «ج ٤»

١٥ ـ وفى ذى القعدة عام ٩١٨ هـ رحل السلطان الغورى إلى زيارة الأهرام فنصب له سرادق ووطاق واستقدم معه طائفة من المغنين وأرباب الآلات منهم «محمد بن عوينة العواد» و «جلال السنطيرى» ، و «البوالقة» ، و «ابن الليمونى» «ج ٤»

١٦ ـ الناصرى محمد بن قجق : نديم السلطان الغورى وكان علامة فى ضرب الطنبورة عارفاً بصنعة الألغام لطيف الذات حسن المعاشرة . توفى فى ١٨ رمضان سنة ٩٢٠ هـ . وكانت جنازته حافلة ، مشى فيها أعيان الناس وكبار أهل الفن من مغنين وآلاتية . فقد كان شيخا لهم ومقربا إلى السلطان . «ج ٤»

١٧ ـ ومما يذكر أن السلطان الغورى فى عام ٩٢٢ هـ وهو آخذ فى الخروج إلى الشام لملاقاة العثمانيين عرض مغنى الدكة وهم «أحمد أبو سنة» ، و «المحوجب» و «المحلاوى» ، وأمرهم بأن يسافروا صحبته . «ج ٣ ص ٢٣»

١٨ ـ محمد الريس فتات العنبر : وهو رئيس المحبظين فى عهده وكان أستاذاً فى صنعة الخيال وفاق فى ذلك «بريوه» ، وقد توفى فى جمادى الآخرة عام ٩٢٦ هـ «ج ٣ ص ٢٢١»

١٩ ـ أصيل القلعية : كانت من كبريات مغنيات عصرها ذات إنشاد لطيف وكانت بارعة فى غناء الخفائف ورأت لدن رؤساء الدولة وأعيانها غاية الحظ والحظوة، وقد توفيت فى يوم الاثنين ٨ ذى القعدة عام ٩٢٨ هـ «ج ٣ ص ٣١٢»

ومن المغنين أيضا :

٢٠ ـ الصلاح الثعلبى القوصى . وهو أحمد بن كامل بن الحسن الثعلبى القوصى، كان مغنيا ملحنا شاعراً موسيقيا . توفى بقوص عام ٦٩٩ هـ «الطالع السعيد رقم ٥٩»

٢١ ـ التقى بن الثقة الإسنائى . وهو صالح بن عبد القوى بن على بن زيد . كان موسيقيا مغنيا حسن الصوت مقرئا . مات بقوص عام ٧٢٤ هـ .
«الطالع السعيد رقم ١٩١»

٢٢ ـ ابراهيم بن بابى ـ بفتح البائين ـ وهو صارم الدين العواد المغنى . كان مقربا عند المؤيد شيخ . وكان أبى النفس ، إليه المنتهى فى العود والموسيقا . وهو رومى الأصل ، فى حديثه بالعربية عجمة . كان يسكن فى بستان الحلى المطل على النيل . . . ومات عام ٧٢١ هـ وخلف مالا جزيلا . «الضوء اللامع ج ١ ص ٣٢»

٢٣ ـ ابن القُرداح : وهو أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن عبد الرحمن ، شهاب الدين القاهرى الواعظ . ويدعى القرداح أيضا بضم القاف . برع فى فنون عدة منها الميقات والفلك وفاق فى الموسيقا . وكان ينظم الشعر الحسن ويخترع ألحانه ويغنيها . وله اليد الطولى فى الضرب بالعود ، والبراعة فى ضرب السنطير . وانتهت إليه الرئاسة فى حسن الإنشاء ورخامة الصوت فى زمانه مع فصاحة وطلاقة ، وباشر الأذان والتسبيح عند المؤيد شيخ . وكان المؤيد يميل إليه ويستصحبه فى خلواته ورياضاته . ولد فى نحو عام ٧٨٠ هـ . ومات عام ٨٤١ هـ بالقاهرة بالطاعون.
«الضوء اللامع ج ٢ رقم ٤٠٧»

٢٤ ـ شهاب الدين القلقيلى المقدسى : وهو أحمد بن محمد بن أحمد ، كان حسن الصوت ناظما ناثراً كاتبا . توفى عام ٨٤٩ هـ « الضوء اللامع ج ٢ رقم ٢١٣ »

هذا ويضيق بنا المقام إذا رحنا نعدد ما كان لهؤلاء الأسلاف من تقاليد وعادات . وحسبنا أن نجمل هنا القول عما يخاطرنا منها فنقول :

من ذلك حبهم للبناء وقد يتغالون فى ذلك تغاليا يدفعهم إلى الإسراف أحيانا أو الظلم أحيانا أخرى . وقل أن ترى سلطانا أو أميراً أو أميرة أو أحدا من أعيانهم لم يخلف أثراً كقصر مشيد أو مسجد جامع أو قنطرة نافعة أو بستان رائق أو غير ذلك . وتلك مساجدهم تملأ فجاج مدينة القاهرة ، وتتراءى مآذنها فى سمائها . كما لا يزال كثير من أسمائهم وقصورهم وشوارعهم وأزقتهم يتردد ذكره أو يلوح فيها. ومن ذلك: منح السلاطين الخلع للرؤساء وكبار الدولة فى المناسبات . وكانت هذه الخلع عادة متخذة من أفخم الأقمشة وأغلاها . وتعد بمثابة النياشين أو الأوسمة .

ومن عادات السلاطين لبس الصوف والألوان القاتمة فى الشتاء . والملابس البيضاء فى الصيف .

ومنها تخصيص موسم فى كل عام يشترك السلطان فيه مع بعض الأمراء فى لعب الكرة وهم ركوب على الخيل . وقد تصاحبهم الموسيقا أثناء لعبهم .

ومنها أن يحلف السلطان الأمراء على المصحف بألا يثوروا ضده ولا يتآمروا عليه . وذلك إذا وقعت منهم فتنة ثم خمدت ريحها .

هذا وقد كان كثير من المفاسد منتشرا فى هذا العصر كشرب الخمر وتعاطى الحشيش واقتراف الزنا بأنواعه والغش فى الكيل وما شابه ذلك . وقد عمل كثير من السلاطين على ملافاة ذلك. ومن هؤلاء الظاهر بيبرس .

ملاحظات عامة

نتبع الفصل السابق بذكر ملاحظات عامة عنت لنا أثناء تصفحنا تاريخ هذا العصر، لم نجد لها فرصة لتدوينها تحت أحد الأبواب السالفة من هذا الجزء. واضطررنا أمام أهميتها أحيانا، وطرافتها أحيانا أخرى، إلى إثباتها هنا تحت العنوان المتقدم. فمنها:

١ - عيد النيروز: كان عيد النيروز «أول السنة القبطية» من أجل المواسم بالديار المصرية. يحمل فيه لأكابر مصر من الأقباط والمباشرين الكثير من أصناف الفاكهة كالرمان والموز والسفرجل والتفاح الشامى والبلح والعنب والتمر القوصى والبطيخ الصغير والرطب والخوخ المشعر وقدور «الهريسة» المحشوة بلحوم الدجاج وغير ذلك من ضروب الحلوى. وذلك على سبيل الهدايا.

وكان جمع من «العياق» والسفلة يتعرض فى ذلك اليوم لأكابر الناس وأعيانهم فيقفون لهم على أبواب منازلهم، أو يقطعون عليهم طريق سيرهم ليبتزوا منهم ضريبة خاصة، ومن امتنع عن دفعها أوذى أكبر الأذى، طوراً يرش بالماء النجس، أو يقذف بالبيض النىء، أو يصفع بالنعال والأخفاف. وقد أمر السلطان برقوق بإبطال هذه العادة السخيفة وذلك فى سنة ٧٨٧ هـ

وكذلك كان بعض الناس ينتهز فرصة اليوم المذكور ويرسل نفسه إلى ملذاتها وعلى هواها فيشرب الخمر ويقترف الزنا. وربما وقعت بسبب هذا الفساد حوادث قتل «ابن إياس جزء ١ ص ٢٦٣»

٢ - اهتمام برقوق بلعب الرمح: اهتم السلطان برقوق عام ٧٨٩ هـ بلعب الرمح. وقد أمر المماليك فى ربيع الآخر بأن ينزلوا من طباق القلعة لمزاولة لعب

الرمح من الظهر إلى العصر فى الحوش السلطانى . وهو أول من اهتم بذلك من السلاطين . « ابن إياس جزء ١ ص ٢٦٦ »

٣ ـ شرب القمز : فى أوائل صفر عام ٧٩١ هـ ابتدأ السلطان برقوق بشرب القمز. وهو عبارة عن لبن مصنوع محمض ، وكان الملوك تعودوا ذلك . فرسم برقوق للأمراء بأن يجتمعوا فى كل يوم أربعاء فى الميدان تحت القلعة ليشربوا القمز ، وكان ذلك من جملة شعائر المملكة . فتجتمع الأمراء بحضرة السلطان جالسين فى مراتبهم بالشاش والقماش « أى بالزى الرسمى » والسقاة يسقونهم القمز فى الزبادى الصينى . وكان القمز يسكر . « ابن إياس جزء ١ ص ٢٦٩ »

٤ ـ التصدق بثمن الفرس : لما مرض السلطان خشقدم باع أحد أفراسه وتصدق بثمنه على الفقراء . وكانت هذه عادة قديمة عند الملوك إذا أصيبوا بمرض يتقربون بذلك لينعم الله عليهم بالشفاء . « ابن إياس جزء ٢ ص ٨٢ »

٥ ـ عصائب النساء : كان النساء إلى عهد الأشرف قايتباى يلبسن على رءوسهن عصابات مقنزعة وسراقوسات حريرية ويخرجن بذلك فى الأسواق . فرسم قايتباى للأمير يشبك الجمالى المحتسب فى رجب عام ٨٧٦ هـ بأن ينادى فى القاهرة بمنع ذلك ، وألا تلبس المرأة إلا عصابة طولها ثلث ذراع مختومة من جانبها بختم السلطان . وشدد فى ذلك على بائعى العصائب . كما شدد النكير على كل امرأة تخرج من بيتها بعصابتها المقنزعة أو سرقوسها الحريرى ، وإلا تضرب وتشهر فى الأسواق. فاضطر النسوة عند خروجهن إلى لبس العصابة الطويلة كارهات ، أو عدم لبس العصابات بتاتا . واستبقين المقنزعة للبسها داخل منازلهن. وقد قال فى ذلك الأديب زين الدين بن النحاس

أمر الإمام مليكنا بعصائب ... فى لبسها عسر على النسوان

فقلقن ثم أطعنه ولبسنها ... ودخلن تحت عصائب السلطان

واستمر الحال كذلك مدة ثم عاد النسوة إلى ما كن عليه من قبل .

« ابن إياس جزء ٢ ص ١٣٢ »

٦ - خلع أبواب الإسكندرية عند مقدم السلطان : كان من العادات القديمة أن السلطان إذا توجه إلى الإسكندرية لزيارتها وتفقد أحوالها تخلع له أبوابها وتلقى على الأرض حتى يرحل عنها . فلما زارها الأشرف قايتباى عام ٨٨٢ هـ لم يوافق على هذه العادة وأبطلها . « ابن إياس ج ٢ ص ١٧٣ »

٧ - عمائم النصارى واليهود : اتجهت أنظار بعض السلاطين إلى جعل عمائم النصارى واليهود من ألوان خاصة تميزا لها عن عمائم المسلمين . ومنهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد رسم فى عام ٧٠٠ هـ لليهود بأن يلبسوا عمائم صفراء وللنصارى بأن يلبسوا عمائم زرقاء ، وللسامرية بأن يلبسوا عمائم حمراء . وأشهر النداء بذلك فى مدينة القاهرة . - وكان النصارى - أى الأقباط - من قبل يلبسون عمائم بيضاء كعمائم المسلمين .

قيل : وكان سبب ذلك أن بعض المغاربة كان جالسا بباب القلعة فدخل بعض الكتاب الأقباط بالديوان وهم بعمائمهم البيضاء . فبالغ فى تعظيمهم على اعتبار أنهم مسلمون ثم تبين له أنهم أقباط . فشكا ذلك إلى السلطان الناصر فرسم بما سبق ذكره .

وفى عام ٧٥٤ هـ رسم لهم السلطان الصالح صلاح الدين بأن تكون عمائمهم عشرة أذرع لا غير . -

وبهذه المناسبة نذكر أنه رسم لهم كذلك بألا يستعان بهم فى ديوان . ولا يركبوا دابة مكارى مسلم . وإذا مروا بالمسلمين ترجلوا . ولا يدخلوا الحمام إلا والصليب معلق فى أعناقهم . « ابن إياس ج ١ ص ١٤٣ ، ٢٠١ »

٨ - الأسر البارزة : أشرقت فى أفق هـذا العصر أسر عدة من صميم الأمة أنجبت ، ونبغ منها رجال خدموا الدولة ، فى مصر أو الشام خدمات جليلة سواء أكان ذلك فى وظائف الجيش أم الإدارة أو القضاء أو الكتابة ، أو فى العلم والأدب . والبحث عن هذه الأسر ونجبائها وذكر مآثرهم بحث طريف يحتاج إلى عناية مستقلة يبذلها أحد الأدباء .

ونذكر هنا بعضا منها على سبيل المثال :

ا - أسرة الديرى : ومنها القاضى سعد الدين الديرى الحنفى . وبرهان الدين الديرى الحنفى ، ذكرناهما فى القضاة » . وابراهيم بن الديرى كاتب السر ، ذكره ابن إياس ج ٢ ص ٨٣ - والضوء ج ١ ص ١٥٠ » . وبدر الدين بن عبد الرحمن الديرى الحنفى ، ذكره بن اياس ج ٣ ص ٦٣ » . وعبد الرحمن الديرى أخو القاضى سعد الدين ، ذكره الضوء ج ٤ رقم ٣٥٣ » .

ب - أسرة البارزى : ومنها بهاء الدين بن البارزى ، ذكره ابن اياس ج ٣ ص ١٢٢ - وتاريخ حماة للصابونى ، ومنها : زين الدين عبد الرحمن بن على بن أحمد البارزى المتوفى فى رمضان عام ٧٣٣ هـ متجاوزاً الستين ، مدحه ابن نباتة فقال :

أمولاى لا زالت مساعيك للعلى ويمناك للجدوى ورأيك للحزم
مضى السلف الأزكى وأبقاك للندى فلله ما أبقى الولى من الوسمى

« ذكر فى الدر الكامنة ج ٢ رقم ٢٣٣ » - ومنها : هبة الله بن عبد الرحيم ابن ابراهيم بن هبة الله بن المسلم ، وهو شرف الدين بن البارزى الذى كان قاضى قضاة حماة ، ولد بها عام ٦٤٥ هـ ومات عام ٧٣٨ ، وكان فقيها محدثا مشاركا فى فنون كثيرة ، وألف . « ذكر فى طبقات السبكى ج ٦ ص ٢٤٨ » - ومنها :

عبد الرحيم بن ابراهيم بن هبة الله بن المسلم بن هبة الله بن حسان ، وهو نجم الدين البارزى قاضى حماة وأبو قاضيها ، ولد فى حماة عام ٦٠٨ هـ ومات عام

٦٨٣ هـ ، ودفن فى البقيع » ذكر فى طبقات السبكى ج ٥ ص ٧١ » - ومنها : الناصرى محمد بن البارزى الذى كان كاتب المملكة فى زمن المؤيد شيخ ، ومدحه ابن حجة الحموى . وذكره فى خزانته « راجع مقدمتها » .

ج - أسرة ابن بنت الأعز : منها القاضى الأشهر تاج الدين بن بنت الأعز ومنها أبناه تقى الدين وصدر الدين . « ذكرناهم فى القضاة » قال عنهم أبو حيان : « ولا يعلم أهل بيت بالديار المصرية أنجب من هـذا البيت ، كانوا أهل علم ورياسة وسؤدد وجلالة » - « راجع طبقات السبكى ج ٥ ص ١٣١ » .

د - أسرة ابن جماعة : ومنها القاضى الشهير بدر الدين بن جماعة . وابنه عز الدين بن جماعة ، وكلاهما ولى قضاء القضاة بمصر . ومنها برهان الدين بن جماعة ولى قضاء الشافعى بمصر « ترجمنا لهم فى باب القضاة وغيره » .

هـ - أسرة ابن العديم : منها الصاحب كمال الدين بن العديم الحلبى صاحب تاريخ حلب . وولده مجد الدين . « حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٠ »

و - أسرة البلقينى : ومنها سراج الدين عمر البلقينى ، وابناه جلال الدين ، وعلم الدين . وهم من قضاة مصر « ذكرناهم فى القضاة » .

ز - أسرة القزوينى : ومنها جلال الدين القزوينى المشهور فى علوم البلاغة .

ج - أسرة ابن عبد الظاهر : ومنها الكاتب المنشىء محيى الدين وأولاده ولاسيما فتح الدين .

ط - أسرة ابن فضل الله العمرى : ومنها القاضى شهاب الدين وعلاء الدين وغيرهما ، أصحاب دواوين الإنشاء والرسائل بمصر والشام :

ى - أسرة السبكى : ومنها القاضى تاج الدين السبكى صاحب طبقات الشافعية الكبرى . وأبوه تقى الدين رأس الشافعية فى زمانه . وأخوه أبو حامد بهاء الدين « راجع الطبقات ج ٥ »

ك - أسرة ابن مزهر : ومنها كاتب السر الشهير أبو بكر بن مزهر .

ل - أسرة ابن الشحنة : ومنها القاضى عبد البر بن الشحنة الحنفى صديق الغورى ،

م - أسرة ابن الجيعان : ومنها الشهابى أحمد بن الجيعان وعبد الغنى بن الجيعان وأولاده الخمسة ومنهم شاكر ابنه - ومنها زين الدين عبد الباسط بن شاكر والقاضى محمد بن يحيى بن شاكر بن الجيعان « انظر تراجمهم فى الضوء اللامع »

ن - أسرة الدميرى : ومنها القاضى محيى الدين بن الدميرى .

ص - أسرة ابن حنا : ومنها الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا وأولاده فخر الدين محمد ، وزين الدين ثم أبناؤهما « الخطط المقريزية ج ٤ ص ٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢٩٥ »

١١ - الآثار النبوية والمصحف العثمانى : قيل إن هذه الآثار كانت فى حيازة جماعة من بنى ابراهيم بينبع ، فما زال الصاحب بهاء الدين بن حنا يتلطف بهم حتى اشتراها منهم بستين ألف درهم من الدراهم القديمة . ونقلها إلى الديار المصرية . وبنى لها مسجداً خاصا مطلا على النيل تقصده الناس بالزيارة كل أربعاء . وفى عهد الغورى نقلت إلى مدرسته هى والمصحف العثمانى الذى كان فى حيازته ، وذلك فى جمادى الأولى عام ٩١٠ هـ بعد فتوى من القضاة . ونقل أيضا إلى هذه المدرسة مصحفا آخر مكتوبا بالذهب كان بخانقاه بكتمر بالقرافة . وقيل إن هذه الآثار اشتريت بألف دينار - وقد احتفل بنقلها احتفالا رائعا .

« ابن إياس ج ٤ حوادث جمادى الأولى عام ٩١٠ هـ »

١٢ - البلسان : وهو البلسم . قيل إنه من آثار عيسى عليه السلام والإفرنج عناية به خاصة يشترونه بثمن جيد . قيل إنه انقطع من مصر عام ٩٠٥ هـ فعمل الغورى على إعادة زرعه وجلب بذره من بلاد أخرى . وبذلك أعاد إلى مصر ثروة لا بأس بها . وكان يزرع من قبل جهة المطرية .

والبلسم ذكى الرائحة يشبه أوراق الملوخية ويصلح دهنه للأمراض الباردة كوجع الظهر والركب ، قيل وللأمراض البلغمية وكان يعتنى باستخراج دهنه فى ١٤ بشنس . « ابن إياس جزء ٢ ص ٣٧٣ »

١٣ - كبار الأضياف : أم مصر فى خلال هذا العصر عديد من الملوك والأمراء والأعيان زوارا فمنهم :

ا - الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأخوه الملك المجاهد سيف الدين أسحق صاحب الجزيرة وأخوه الملك المظفر : وفدوا جميعا عام ٦٦٢ هـ لتهنئة الظاهر بيبرس بالملك . . جزء أول ص ١٠٣

ب - ملك النوبة : وفد على مصر إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٢ هـ ومعه هدايا حافلة . «جزء أول ص ١٥٧»

جـ - ملك التكرور : وفد على مصر عام ٧٢٤ هـ ومعه هدايا نفيسة للملك الناصر ابن قلاوون فى طريقة إلى الحج . « جزء أول ص ١٦٣ »

د - القان أحمد بن أويس : وفد على مصر عام ٧٩٦ هـ فى عهد السلطان برقوق ولقيه السلطان لقاء حسنا « جزء أول ص ٣٠١ »

هـ - السيد على بن بركات الحسنى أخو سلطان مكة : وفد إلى مصر عام ٨٧٢ هـ فى عهد قايتباى غاضبا من أخيه المذكور فتلقاه السلطان لقاء كريما « جزء ٢ ص ٩٥ »

و - الجام بن عثمان وهو ابن محمد الفاتح سلطان الترك ، وأخو بايزيد : فر من أخيه هاربا إلى مصر هو وأهله عام ٨٨٦ هـ فتلقاهم السلطان قايتباى خير لقاء .

« ج ٢ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ »

ز - شاه بضاع بن دلغادر ملك الابلستين : وفد إلى مصر ٨٩٥ هـ وأقام بها حتى توفى عام ٩٠٣ هـ . مطعونا . « ج ٢ ص ٢٦١ ، ٣٤٠ »

١٤ - « الطابور » الخامس : قال السخاوى فى الضوء اللامع فى ترجمة تيمورلنك « ج ٣ رقم ١٩٢ » : « إن تيمورا كانت له جواسيس فى جميع البلاد التى ملكها ، والتى يملكها ، وكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها ، ويكاتبونه بجميع ما يروم ، فلا يتوجه إلا وهو على بصيرة من أمرها » .

وهذا هو ما تتبعه الدول المحاربة فى عصرنا الحديث ، فأمر « الطابور » الخامس ليس جديدا . . .

١٥ - تعليم الحيوانات : ذكر ابن خلدون فى مقدمته ص ٣٠٤ قال : « ولقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك ، مثل أنهم يعلمون الحمر الأنسية والحيوانات العجم من الماشى والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب بدورها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها » .

١٦ - الأولياء والصالحون : جاء هذا العصر عقب أيام ملئت بالحروب الصليبية ، وعاصر بدؤه حادثة سقوط بغداد على يد التتار الوثنيين ، فكان لذلك رد فعل فى العقلية المصرية إذ ملأها حماسة الإسلام وتعصبا له وحبا فى الالتفاف حول الداعين إليه . ثم عنى السلاطين والأمراء بإنشاء الربط والزوايا والخوانق وترتيب دروس فى التصوف بين المواد الدراسية . فكان لهذا كله أثره فى كثرة الأولياء أو مدعى الولاية ، وإيمان العامة بهم وتلمس الخير بوساطتهم ، ونهج بعض السلاطين والأمراء هذا النهج فائتمروا بأمرهم ونزلوا على إرشادهم ، وعنوا بإحياء ذكرى موالد المتوفين منهم ، وهكذا . ويرد عليك فى الباب القادم أمثلة توضح ذلك .

قصص هذا العصر ونوادره

نختتم هذا الجزء من كتابنا بذكر طائفة من القصص والنوادر التى وقعت فى عصر المماليك . نذكرها بلا تعليق ، ونتركها تتكلم وحدها إلى القارىء أو يستنبط القارىء منها ما يشاء من ناحية الثقافة أو الأخلاق أو المعاملات أو النواحى الأخرى الاجتماعية ونوع التفكير . وكثيرا ما تكون القصة خير شارح لإحدى هذه الأحوال بغير حاجة إلى بيان مبين أو توضيح موضح . فمنها :

١ - نادرة عن الشيخ تاج الدين الفاكهانى والشاطر الدمنهورى : وهو ممن

عاشوا فى المائة الثامنة . قال عنه صاحب الدرر الكامنة مايلى : « قرأت بخط المحدث بدر الدين حسن النابلسى قال : حكى لنا شمس الدين محمد بن عبد المحسن بن أبى الربيع العباسى الدمنهورى قال : قال الشيخ تاج الدين الفاكهانى : كان الشيخ أبو العباس الشاطر الدمنهورى يقول : لا يحجبنى عن أصحابى التراب . فكان فطلبت من الله تعالى عند قبره ثلاث حوائج : تزويج البنات من فقراء صالحين ، وحفظ كتاب الله ، وكان تعسر علىّ ، والحج وكنت أعوز من النفقة ألف درهم . فرأيت الشيخ فى المنام قبل طلوع الشمس ، وهو يقول : يأتيك فلان التاجر بألف درهم كف بها حالك . وما تدخل مكة حتى يفتح عليك بها . - قال : فاقترضت الألف وسافرت حتى وصلت إلى المعلى ولم يفتح على شىء . فلما طلعت الحدرة وأنا ماش ، وإذا رجل يسأل عنى ، فأشاروا إلى ، فناولنى ألف درهم ، وقال : رأيت البارحة قائلا يقول : خذ معك ألف درهم ، والق بها فلانا ، ففعلت . فأخذتها ، وأتيت إلى الذى اقترضت منه الألف فدفعتها إليه . فقال : ما أريدها ، فإننى اشتريت بضاعة بثلاثين ألفاً فكسدت

فلا تساوى الآن النصف . قال : فلما كان أمس ، رأيت رجلا عليه ثياب خضر وطاقية بيضاء . فقال : الألف التى بعث بها إليك أبوك مع الشيخ تاج الدين ، لا تأخذها منه . وأنت تبيع البضاعة فى أيام منى بخمسة وأربعين ألفاً . فكان كذلك.

« الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٢٩٥ »

٢ - رؤيا الشيخ فرج بن عبد الله المغربى الصفدى الخاصة بالأمرد :

وهو نزيل صفد وممن عاشوا فى المائة الثامنة ، قيل إنه تحول إلى قرب بحيرة طبرية واشتهر أمره وصار له بها أتباع ومريدون . حكى العثمانى قاضى صفد أنه توجه لزيارته صحبة الشيخ تاج الدين المقدسى . فجرت مسألة النظر إلى الأمرد ، وأن الرافعى يحرم بشرط الشهوة . والنووى يحرم مطلقا . فقال الشيخ فرج : رأيت النبى ﷺ فى المنام فقال لى : الحق فى هذه المسألة مع النووى . فصاح الشيخ تاج الدين وقال : صار الفقه بالمنامات ! فخضع الشيخ فرج وقال : استغفر الله ، أنا حكيت ما رأيت ، والبحث له طريق . « الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٥٧٩ »

٣ - زهد ابن تمام الصالحى : وهو محمد بن أحمد بن تمام بن حسان الصالحى عاش بين سنة ٦٥١ هـ إلى ٧٤١ هـ ، كان عالما زاهدا قال عنه البدر النابلسى : « العالم الزاهد له المراقبة التامة على ملوك الدنيا ! كان تنكز ملك الأمراء يدخل عليه وهو يخيط الثياب ، وإحدى رجليه منصوبة والأخرى ممدودة فلا يتغير عن هيئته وكان يفرق كل شىء يهدى إليه على الحاضرين . ولا يقتات إلا من الخياطة » .

« الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٨٣٥ » .

٤ - من توضأ باللبن : فى عهد الغورى حضر شخص من فقراء الصعيد يقال له « مهدى » . مثل بين يدى السلطان المذكور وقامت عليه البينة بأنه زنديق ساحر

يتوضأ باللبن ويستنجى به. وذُكرت عنه أشياء كثيرة على هذا النمط تخالف الشريعة. فأرسله السلطان إلى قاضى قضاة المالكية فحكم بكفره بموجب ماقامت به عليه البينة. وضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية بعد أن أشهروه على جمل وهو عريان. « ابن إياس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١١ هـ ».

٥ - الشيخ سنطباى المتصوف المزيف: كان من الأتراك، وكان يدعى التصوف وكان مقيما بالمدرسة السنقرية الواقعة تجاه خانقاه سعيد السعداء. وشى به إلى السلطان الأشرف الغورى وقيل عنه إنه يزيف الدراهم والدنانير. فتغير عليه خاطر السلطان وقبض عليه وفتشت داره. فوجدت لديه آلات التزييف، وعمال يزاولونه. فأمر السلطان بقطع أيديهم. أما الشيخ سنطباى فشفع فيه الأتابكى « قرقماس » من قطع اليد، فرسم له السلطان بأن يتوجه إلى القدس ويقيم هناك عاطلا. - وقد كان من قبل من مماليك قايتباى. ثم ادعى الصلاح ولكن انكشف أمره. « ج ٤ ».

٦ - حادث حريق فى مولد الشيخ سويدان: فى المحرم عام ٩١٣ هـ أقيم مولد الشيخ سويدان المجذوب فى مدرسة ابن الزمن ببولاق. فحدث فى تلك الليلة حادثة رائعة، وهى أن امرأة طبخت على شاطىء البحر، فطارت منها شرارة فتعلقت بمركب هناك بها كتان، فعملت النار فيه. وكانت الريح فى تلك الليلة عاصفة، فمشت النار إلى « شونه » تبن فى معصرة هناك، فدبت فيها النار وسرت فى نواحيها، حتى احترقت المعصرة ونهب ما بها من قصب وسكر وعسل، وألم الناس لهذا الحادث. ولو لا لطف الله تعالى، ثم بركة الشيخ سويدان... لاحترقت الأماكن عن آخرها. « ج ٤ ».

٧ - قاذف سيدنا ابراهيم: صدر كلام شاذ فاحش فى حق سيدنا إبراهيم عليه السلام من رجل كان خطيبا فى بعض الجوامع ويدعى عمر بن علاء الدين النقيب الحنفى المحلى. وذلك فى عهد الغورى عام ٩١٣ هـ. فاستتابه بعض القضاة

ولكن بلغ السلطان أمره فغضب وتعصب للخليل إبراهيم عليه السلام . وجمع مجلسا من قضاة الشرع موظفين وغير موظفين ؛ ووقع بينهم نقاش شديد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا بشأن الحكم على هذا الرجل . ثم انفض مجلسهم على أن يسجن الرجل مدة طويلة . ثم يتوب ويطلق سراحه . وكان السلطان قد صمم فى دخيلة نفسه على قتله . ثم سجن فلبث فى السجن زمنا كبيرا . «ج ٤» .

٨ - خديجة الكليباتية : كانت تدعى الصلاح ، وتدخل بيوت عظماء الناس . وقد توفيت فى ذى الحجة عام ٩١٣ هـ فوجد فى تركتها ذهب خالص ، يقدر بثلاثة آلاف دينار ، وأثاث منزلى بنحو خمسمائة دينار . ومع ذلك كانت تأخذ الصدقات من الناس . وقد عدت حالتها من النوادر . «ج ٤» .

٩ - جملان يحدثان حريقا : دخل أحد الفلاحين ومعه جملان يحملان تبنا ، إلى القاهرة وقت العشاء مارا بهما من السويقة الواقعة عند بيت الخليفة . فتعلق فى ذلك الكتان لهيب من مسارج البائعين هناك . فلما أحس الجملان بالنار هاجا وفرا بين الناس مرتعبين . فقتلا كثيراً من الصغار وأصابا عددا آخر من الناس ، وأتلفا كثيرا من البضائع ولم يستطع أحد كبح جماحهما حتى بلغا مشهد السيدة نفيسة فهدآ ومات أحدهما . «ج ٤» .

١٠ - رؤيا بواب جامع الحاكم : من النوادر أن شخصا قيل إنه بواب جامع الحاكم ، طلع إلى السلطان الغورى وذكر ما رآه فى منامه من أن قائلا يقول له : قل للسلطان إن فى جامع الحاكم تحت بعض دعائمه دنانير ذهبية لا ينحصر عددها . فلما سمع السلطان ذلك مال إلى كلامه وظن أنه حق . وأرسل الأمير خاير بك الخازندار وبركات بن موسى المحتسب وجماعة آخرين من أخصائه ومعهم عدد من المهندسين والبنائين . وأحضروا ذلك الرجل القائل . وطلبوا إليه أن يعين لهم الدعامة التى

رآها فى منامه وتحتها الدنانير . فقال : لا أعلم فقال المهندسون ، إن لم نعرفها فقد يجرنا هذا إلى هدم جميع دعائم المسجد . وكثر بينهم القيل والقال والأخذ والرد . ثم شاوروا السلطان فى الأمر وفى هدم جميع الدعائم ،فأبى ولم يوافق . «ج ٤»

١١ - جمال الدين الزغلى صاحب دار الضرب : كان قد التزم دار الضرب فى عهد الغورى ، فأتلف سائر العملة ، واتضح فيها غشه وتزييفه، حتى ضج الناس ومعهم الأمراء منها ، وبلغ الخبر مسامع السلطان ، وهاله ألم الناس من هذه العملة الرسمية المغشوشة والتى أكرهوا على التعامل بها ، مما أدى إلى اختفاء الدنانير البرسبية والجقمقية والإينالية والخشقدمية والقايتبايية . فاستدعاه السلطان وقبض عليه وأودعه سجن المقشرة بعد أن ضربه ضرباً مبرحا . ـ ولكنه استطاع الهرب من سجنه بعد أيام . فعاقب السلطان بسببه قانصوه أبا سنة الوالى وفرض عليه غرامة مالية قدرها خمسة عشر ألف دينار . واختفى بسبب هربه كذلك عدد من رجال سجن المقشرة خوف أن يبطش بهم السلطان . ثم إن السلطان تمكن من القبض على الهارب وطيف به على حمار ، والمشاعلية تنادى عليه بين الناس لتفضح أمره . ثم شنق . «ج ٤»

١٢ - طفلة ترى النبى فى منامها : فى رمضان عام ٩١٥ هـ ظهرت فى قليوب، وقيل بقلمة ، ابنة صغيرة دون البلوغ ، قيل إنها رأت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام مراراً عدة ، وظهرت لها كرامات خارقة . فتوجه إليها الناس أفواجا أفواجا . واشتهر عنها أنها تقيم المقعد ، وترد بصر الأعمى ! وحكى عنها من هذا النمط أشياء غريبة ليس لها صحة ! فبلغ كرى كل حمار من القاهرة إلى قليوب أشرفيا . ووفد عليها جماعة من الخاصكية والأمراء العشرات وكثير من أعيان الناس . وترددت الأحاديث عنها فى القاهرة . «ج ٤»

١٣ - ملك يرفس النيل برجله : فى عام ٩١٦ هـ نقص النيل عن مقداره فى العام الماضى ، حتى شرقت نواحى كثيرة من البلاد . فكثرت الخرافات والقصص بسبب ذلك . فمنها ما قيل « إن إمرأة صالحة رأت فى المنام أن ملكين نزلا من السماء ، وتوجها إلى البحر « النيل » ، فرفسه أحدهما برجله فهبط سريعا . ثم قال أحدهما للآخر : إن الله تعالى كان أمر النيل ان يزيد إلى عشرين ذراعا ، فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو فى ١٨ ذراعا . » . - فلما انتبهت من منامها هبط النيل فى تلك الليلة دفعة واحدة . . . « ج ٤ »

١٤ - رؤيا تضطر السلطان إلى العدل : قيل فى أواخر صفر عام ٩١٩ هـ ، لما فشا الطاعون بالبلاد المصرية ثم اشتط السلطان فى فرض الضرائب على تركات الموتى ، ثم نكص فحط عنها بعض أعباء هذه الضرائب ، قيل إن ذلك بسبب رؤيا رآها ، ومؤداها أنه رأى النجوم من السماء قد تساقطت على الأرض ، ثم بعد ذلك سقط القمر . فأول ذلك بأن النجوم هى الجند ، وأن القمر هو الملك . فعند ذلك أخذ فى أسباب العدل وإبطال المظالم . « ج ٤ »

١٥ - عبد العظيم يكبر عمامته : قال ابن إياس : إنه فى أواخر شوال عام ٩١٩ هـ خلع السلطان على عبد العظيم الصوفى وقرره فى التحدث فى أمر الشون السلطانية ، وجهات الذخيرة . فتعاظم عبد العظيم وكبر عمامته ، وصار من أعيان الرؤساء ، وركب الخيول ونسى ما جرى عليه من الضرب بالكسارات ، وعصر أكعابه بالمعاصير ، وإحراق أصابعه بالنار . فنسى ذلك كله وصار فى شمم عظيم ! « ج ٤ »

١٦ - حادثة زنا يتهم فيها أحد نواب الحكم وعزل بسببها القضاة : وقعت هذه الحادثة فى عهد السلطان الغورى ، وقد أشرنا إليها فى باب القضاء والقضاة .

وملخصها أن رجلا من نواب الحنفية يدعى « غرس الدين خليل » له زوجة حسناء عشقها أحد نواب الشافعية واسمه « نور الدين على مشالى » . وكانت بين العاشقين صلات ود ، ووفاق . ولذلك انتهزا فرصة تغيب « غرس الدين » بجهة الإمام اللبث لبعض أعماله ، واجتمعا فى منزله لمقارفة الفسق والزنا . ـ ولكن كان هناك رقيب يغار على المرأة وفى نفسه منها شىء واسمه « شميس » وهو ابن أخت القاضى « نور الدين الدمياطى » . فلحظ ماهنالك . فلحق بالزوج وأطلعه على الخبر . فأسرع إلى منزله ، ورأى ما رأى بعينى رأسه . فهاله الأمر وطغت على نفسه الحماسة وعزم على شكواها . فتوسلت إليه زوجته وعشيقها بأن يسترهما لقاء مال يدفعانه ، فأبى وأبلغ خبرهما إلى حاجب الحجاب فقبض عليهما ، فاعترفا بما كان منهما من المنكر . وكتب الفاسق « نور الدين مشالى » كتابة بهذا الاعتراف . فما كان من الحاجب إلا أن ضربهما بالمقارع وأشهرهما فى القاهرة .

ثم إن الحادثة بلغت مسامع السلطان الغورى فاستاء أكبر استياء . وصمم على قتل الزانى . وجمع لذلك القضاة الأربعة ، ووبخهم وقرعهم لأن نوابهم يعيثون فى الأرض فساداً . وظل يجمعهم ويفرقهم ليظفر منهم بحكم قاس ضد هذا الفاسق . وضم إليهم عددا آخر من قضاة الشرع المعزولين ومن علمائه فكان مجمعا علميا عظيما ، ولكنه لم يظفر . وذلك ـ ويا للعجب ـ بسبب من تعصب للزانى من القضاة ونواب الحكم . ومن بينهم رجل يدعى « شمس الدين الزنكلونى » أحد نواب الحكم وصديق المتهم ، وهو شافعى المذهب . وقد قام بكتابة ورقة فيها فتوى شرعية ملخصها أن المعترف له حق الرجوع عن اعترافه ، وحينئذ لا يحد . ووقع بمسعاه على هذه الفتوى عدد من القضاة ، ودفعها إلى قاضى قضاة الشافعية « الشيخ برهان الدين بن أبى شريف المقدسى » فأبدى هذا القاضى الحكم الشرعى فى هذا الموضوع للسلطان ، وهو أن الزانى له حق الرجوع عن الاعتراف وحينئذ لا يحد

ولا يرجم . فاشتد غضب السلطان وقال : « يا مسلمين ! رجل يطلع إلى بيت رجل يفسق فى زوجته ، ويقبض عليه تحت اللحاف مع زوجته ، ويعترف بذلك ويكتب بخط يده بما وقع منه . تقولون بعد ذلك : له الرجوع !

ثم اضطر السلطان إلى جمع المجمع الذى أشرنا إليه لاستفتائه ، فكان من جملة من كان فيه من القضاة الأعلام : برهان الدين بن أبى شريف . وبرهان الدين القلقشندى وبرهان الدين بن البكرى الحنفى . ونور الدين المحلى . وعبد الحق السنباطى وشيخ الإسلام زين الدين زكريا الأنصارى المنفضل عن القضاء . وبين هؤلاء القضاة الأربعة .

طلب إليهم الرأى . فكرر ابن أبى شريف رأيه السابق وأورد النقول التى تثبت ذلك . فلم يلتفت إليه السلطان . وقال أنا ولى الأمر ، ولى النظر العام فى ذلك. فقال ابن أبى شريف : نعم ! ولكن بموافقة الشرع الشريف ، وإن قتلتهما تلزمك ديتان عنهما . . . فحنق السلطان وكاد يبطش به .

ثم سأل الشيخ زكريا ، فرد بما رد به ابن أبى شريف . فزاد حنق السلطان ، وقيل إنه أهانه ورماه بخور قواه العقلية . . . ثم سأل الشيخ نور الدين على المحلى . فقال كما قالا ، وقال إنه نص ما نقله الإمام الشافعى ، فغضب منه السلطان وقال : « إن شاء الله تطلع إلى بيتك فتجد من يفعل فى زوجتك الفاحشة كما فعل المشالى فى زوجة خليل » ، فقال له المحلى : عافانا الله من ذلك .

وكان من نتيجة هذه المحنة العظيمة أن عزل الشيخ برهان الدين بن أبى شريف من مشيخة مدرسته وقيل نفى إلى القدس . وعزل محيى الدين يحيى بن الدميرى من قضاء المالكية ومن خطابة جامعه . وتغير السلطان على قاضى قضاة الحنفية عبد البر بن الشحنة وكاد يبطش به ، مع أنهما صديقان حميمان .

وقد سجن المذنبان ، سجن المشالى فى المقشرة . وسجنت الزوجة فى الحجرة.

ثم استدعى السلطان القاضى الشافعى « شمس الدين الزنكلونى » الذى كان سببا فى إظهار الفتوى بحق الرجوع ، وقال : « يا زنكلونى ! حكمك أنت يمشى ، وحكمى أنا يبطل » ثم بطحه على الأرض وضربه نحوا من ألف عصا ونفاه إلى الواحات وأشيع موته بعد ذلك من الضرب .

ثم عزل السلطان قضاة القضاة الأربعة وبقيت مصر خمسة أيام بغير قضاة .

ثم أمر السلطان بشنق الزانيين على باب منزل القاضى ابن أبى شريف نكاية به «ج ٤»

١٧ - نبوءة قلاوون بعصيان قفجق : قيل إن الملك المنصور قلاوون - وكان

الأمير قفجق أحد مماليكه - خرج يوما إلى جهة المطرية فى أيام النيل على سبيل الرياضة ، ومعه جماعة من أخصائه الأمراء . فانشرح السلطان فى ذلك اليوم ، وذبح خروفا سمينا بيده ، فلما حضر السماط قدموا ذلك الذبيح بين يديه ، فقطعه بيده ، ثم أخذ الكتف منه وجرده من لحمه ، وتركه ساعة حتى جف ، ثم لوحه على النار قليلا قليلا ، ثم أخرجه . ونظر فى لوحه الكتف ساعة ، وأطال التأمل ، ثم تفل عليه وألقاه من يديه وظهر فى وجهه الغضب . فسأله بعض الأمراء عن ذلك بعد ما سكن غضبه . فقال : إن ولينم قفجق بعدى نيابة الشام يحصل منه غاية الفساد ، فلا تخرجوه بعدى من مصر لئلا تتعبوا من أمره . فكان الأمر كما قال الملك المنصور.

وذلك أن قفجق تولى نيابة الشام بعد موت المنصور ، وذلك فى دولة المنصور لاجين ، فعبث بها وعصى ، ثم فر إلى غازان ملك التتر وحبب إليه غزو البلاد المصرية والشامية . فغزاهما ووقع بين العسكرين وقائع هائلة .

« ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ - سلوك المقريزى ص ٨٧١ »

١٨ - خيبة ابن مفلح : لما غزا تيمورلنك التترى بلاد الشام وخرب ديارها

عام ٨٠٣ هـ وحاصر دمشق ، وذعر أهلها من فظاظته ، بعث إليهم يطلب منهم أن

يرسلوا إليه أحد عقلائهم لمفاوضته فى الصلح . فوقع اختيارهم على القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى لمعرفته التركية والعجمية وجماعة معه . فتلطف معه تيمور لنك وأفهمه أنه لا يقصد بدمشق سوءا لأنها بلد الأنبياء وبها قبر أم حبيبة زوجة رسول الله عليه السلام .

فعاد ابن مفلح من لدنه يخذل الناس عن قتاله حتى تخاذلوا . ثم عاد ابن مفلح إلى تيمور . فكتب له أمانا لأهل دمشق . فعاد إليهم وقرأ عليهم هذا الأمان . ففرحوا به وفتحوا باب المدينة لتيمور وجنده . فاحتل أحد أمرائه هذا الباب .

ثم طلب تيمور أن يحضر إليه ابن مفلح فحضر . فأمره بأن يجبى من أهل المدينة ألف ألف دينار . فعاد إليهم وجمعها منهم وحملها إليه . فحنق منه تيمور ، وادعى أنها ليست المقدار الذى طلب إليه جبايته ، وأنه يطلب عشرة أمثال هذا المبلغ .

عاد ابن مفلح إلى دمشق وأخذ فى إرهاق أهلها ليجمع منهم المال وأصبح عليهم سوط عذاب ، وسلط عليهم ضروب الأذى حتى جمع منهم هذا المقدار وحمله إلى تيمور ، بعد أن أفقر الناس وأجاعهم .

لم يكتف تيمور بذلك بل طلب إليه استحضار جميع الودائع الخاصة بأمراء السلطان وعسكره ، فأحضرها إليه . فقال له تيمور : قد بقى عليك أن تجمع لنا كل دابة فى البلد من فرس وبغل وحمار وجمل . . . فعاد ابن مفلح إلى المدينة يجمع لتيمور دوابها ، فكانت نحو اثنتى عشرة دابة ، ساقها إليه . . .

لم يكتف تيمور بذلك بل قال له : بقى عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها وجميع خططها . فكتب له ذلك وقدمه إليه . . . فقال له تيمور : قد بقى عليك أن تجبى لنا بقية ما قررناه على المدينة من المال . . . وعدته سبعة آلاف

ألف دينار . . فقال له ابن مفلح : لم يبق فى البلد لا درهم ولا دينار! ، فحنق منه تيمور وقبض عليه وعلى أصحابه وقيدهم بالحديد . . . » ج ١ ص ٣٣١ إلى ٣٣٣ »

١٩ - الشيخ أسد الدين المزيف : ذكر ابن إياس فى حوادث عام ٨٥٢ هـ وفى عهد الظاهر جقمق ، أن رجلا أعجميا يدعى « الشيخ أسد الدين » كان يدعى أنه شريف ، فجاء إلى الشيخ - على المحتسب - وقال له اجمعنى على السلطان فإنى أعرف صنعة الكيمياء ، فجمعه عليه فأوحى إليه أنه يطبخ الكيمياء ، وأن هذا وجه حل . فانطاع السلطان لكلامه ، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من أسباب ذلك ، وصرف عليه جملة مال نحوا من عشرة آلاف دينار ، ولم تصح معه الكيمياء ، فكان يأخذ الحرير الأحمر بالأرطال ويوقده فى النار ولا يأكل شيئا فيه روح . فأتلف على الملك الظاهر جملة مال ولم يفد ذلك شيئا ، وقد قيل :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا ... لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

وقد تحدث قوم باجتماعهما ... وما أظنهما كانا ولا اجتمعا

فأوحى إلى السلطان أنه يعبد النار . وتحدث بعضهم فى حقه بكلمات كثيرة . فأرسله السلطان إلى المدرسة الصالحية فحكم عليه القاضى المالكى بدر الدين التونسى نائب الحكم بأنه كافر ! فضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية وكان له يوم مشهود . » ج ٢ ص ٣٠ »

٢٠ - الاستسقاء بنى العباس : لما آن أوان زيادة النيل فى عام ٨٦٦ هـ توقف عن الزيادة نحو خمسة عشر يوما حتى ضج الناس وارتفعت أثمان البضائع ، فرسم السلطان خشقدم للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا هناك يتلون القرآن والحديث ويدعون الله ليزيد النيل . فتوجه عدد منهم ومكثوا أياما ثم رجعوا بلا جدوى ، ولم يزد النيل . فأرسل السلطان رسله إلى شيخ

الإسلام فى عصره أمين الدين يحيى الأقصرائى واستفتاه فى هذه المسألة فقال له : اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء ومن الصغار والكبار ، ثم ليضعوا فى أفواههم شيئا من الماء يمجونه فى إناء ثم يصبونه فى فسقية المقياس . . . ففعلوا ذلك فكان فيه البركة . . . ووفى النيل بعد ذلك . «ج ٢ ص ٧٤»

٢١ - انشقاق بين العلماء بسبب ابن الفارض : فى عام ٨٧٥ هـ وقعت فتنة رائعة بين علماء الشرع وفقهائه بسبب ابن الفارض الشاعر المتصوف المشهور وذلك لاختلافهم فى فهم بعض الأبيات الشعرية من قصيدته التائية . وكثرت بينهم المحاجة والمناظرة : فمنهم من أخذه بظاهر قوله ، ونسبه إلى الحلول والاتحاد ، وحكم بفسقه وكفره ، وعلى رأس هذا الفريق : برهان الدين البقاعى ، وقاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وولده عبد البر ، ونور الدين المحلى ، وقاضى القضاة عز الدين المحلى . فتبعهم جماعة كبيرة من العلماء .

ومنهم من لم يأخذ بظاهر القول ، وتأول كلام الشيخ ، ولم ينسبه إلى فسق أو كفر أو حلول أو اتحاد ، بل حكم بإيمانه الثابت الراسخ . وعلى رأس هذا الفريق : الشيخ محيى الدين الكافيجى الحنفى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى والشيخ بدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين يحيى بن حجى ، وجلال الدين السيوطى ، وزكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف .

كثر القال والقيل بين الفريقين ، وزاد التراشق بينهما ، وكل يعزز مذهبه وسبيله . فلما زاد بينهما الأمر كتبت مقالات عدة وفتاوى كثيرة ، فمنها مقالة للكافيجى . ومنها كتاب للجلال السيوطى سماه « قمع المعارض فى الرد عن ابن الفارض . ومنها كتاب البدر بن الغرس ، وهو واضح شاف فى الرد على من طعن على ابن الفارض . وصنف أحدهم كتابا سماه « دياق الأفاعى فى الرد على البقاعى » .

واشتزك فى المشاحنة بعض شعراء العصر من محبى ابن الفارض ، ونظموا الأبيات فيمن طعنوا عليه يهجونهم بها ، ويلصقونها أحيانا بمزاره . ومن هؤلاء الشعراء الشهاب المنصورى حيث يقول هاجيا البقاعى مع التورية:

أن البقاعى بما قد قاله مطالب
لا تحسبوه مسالماً فقلبه يعاقب

ونظم كذلك قصيدة طويلة ضمنها كثيراً من أبيات قصيدة لابن الفارض منها :

بين البقاعى وبين التاج من شرف ما بين معترك الأحداق والمهج
يقول من صح فيه سهم صاحبه أنا القتيل بلا إثم ولا حرج
كلاهما مدع خوضا بفكرته .. فى كل معنى لطيف رائق بهج

ولبعضهم يهجو ابن الشحنة :

أصبحت يا ابن الشحنة الحنفى فى كل القبائح أوحد الأزمان
فى مصر علم أبى حنيفة تدعى جهلا وأنت معرة النعمان

هذا ولما طال الأمر وزاد الخطب وتفاقم الجدل ، وبلغ الأمر مسامع السلطان قايتباى تعصب لابن الفارض ورسم لكاتب السر ابن مزهر أن يكتب سؤالا فى الموضوع يوجهه إلى الشيخ زكريا الأنصارى الشافعى فكتب ما صيغته .

« ما يقول الشيخ الإمام العالم العلامة البحر الفهامة زكريا الأنصارى الشافعى ، نفع الله المسلمين به ـ عمن قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدى عمر بن الفارض تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه ، فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على ما فهمه من كلامه فى مواضع مرجعها إلى إطلاقات معلومة عند السادة الصوفية باصطلاح تخاطبهم ، لا محذور فيها شرعا ، فهل يحمل كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته ، أم على اصطلاح أهل ملة غير الإسلام ، فما الجواب عن ذلك ؟ أفتونا مأجورين . » .

فأجاب الشيخ زكريا على هذا الاستفتاء بعد تمنع شديد ونص إجابته مايلى :

« يحمل كلام هذا العارف - رحمة الله عليه ونفع ببركاته - على اصطلاح أهل طريقته، بل هو ظاهر فيه عندهم، إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى مجاز فى غيره كما هو مقرر فى محله . ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره فى أبيات فى التائية من القول بالحلول والاتحاد ، فإنه ليس من ذلك فى شىء بقرينتى حاله ومقاله المنظوم فى تائيته بقوله من أبيات فى القصيدة .

ولى من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأى الحلول عقيدتى

وهذا يصدر عن العارف بالله إذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته فى ذاته ، وصفاته فى صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه ، بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التى يرقى إليها كما قاله جماعة من علماء الكلام رضى الله عنهم . ولكن ينبغى كتم تلك العبارات عمن لم يدركها، فما كل قلب يصلح للسر ، ولا كل صدف ينطبق على الدر ، ولكل قوم مقال ، وما كل ما يعلم يقال . وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها ، كما قيل :

وإذا كنت بالمدارك غرا ثم أبصرت حاذقا لا تمارى
وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه . كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلى صبابتى صبا معى لكنه ما ذاقها

والحالة هذه . والله يمنح بفضله من يشاء بعدله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وكتبه زكريا بن محمد الأنصارى الشافعى . »

وقد كانت هذه الفتوى سببا فى ركود ريح الخلاف وسكون الفتنة بين المتراشقين .

« ج ٢ ص ١١٩ إلى ١٢١ » .

٢٢ ـ كتاب الفصوص لابن عربى : فى جمادى الآخرة عام ٨٨٧ هـ توفى المدعو يحيى بن حجى ، وأحيلت تركته على « شمس الدين الحلبى » لحصرها ، فرأى بين كتبه كتاب « الفصوص » لابن عربى . فقال : هذا الكتاب ينبغى أن يحرق وأن ابن عربى كان كافراً أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان . فقال له بعض الحاضرين : كيف تحرق كتاب الفصوص وفيه آيات من كتاب الله تعالى ؟ فقال : ولو كان ! فتمسكوا عليه بذلك ، وأرادوا تكفيره ، فبادر ورامى على كاتب السر ابن مزهر . فعاونه حتى آل أمره إلى الاكتفاء بتعزيره وكشف رأسه . ثم حكموا بإسلامه وحقنوا دمه . . « ج ٢ ص ٢١٩ » .

٢٣ ـ السلطان قايتباى يقبل رجل الدشطوطى : فى شهر المحرم عام ٨٩٤ هـ وقعت للسلطان قايتباى نادرة غريبة . وهى أن عبد القادر بن الرماح أحد أخصائه العقلاء . . قال له : « إن الشيخ عبد القادر الدشطوطى من عباد الله الصالحين » . فرغب السلطان فى لقائه للتبرك به . فأخبره ابن الرماح أن الشيخ المذكور يفد أحيانا إلى جامع فى مكان عند القرافة تحت جبل المقطم فطلب اليه السلطان أن يراقبه حتى إذا حضر يعلمه ليذهب إلى لقائه هناك . فعمد عبد القادر بن الرماح إلى شخص كان شبيها بالشيخ عبد القادر الدشطوطى ، واتفق وإياه على ملاقاة السلطان . ثم ذهب ابن الرماح إلى قايتباى وأخبره أن الدشطوطى سيكون الليلة بالمكان الذى يفد إليه وأخبره عنه .

فلما كانت العشاء صلى السلطان ونزل ومعه ثلاثة من رجاله وأتى إلى المكان المعين ، ونزل عن فرسه فوجد ذلك الشخص جالساً ورأسه فى قميصه . فشرع السلطان يقبل رجليه ويقول : يا سيدى ! احمل حملتى مع ابن عثمان ـ وكان بينه وبين العثمانيين نزاع ـ فصار ذلك الشخص يغرب عليه ، ويقول : أنت لا ترجع عن ظلم

العباد . . فطال المجلس بينهما ، ثم دفع السلطان إليه كيسا فيه ألف دينار - وقيل خمسمائة - فتمنع الشيخ عن قبولها والسلطان يتلطف به ويقول له : فرق ذلك على الفقراء . ثم ركب فرسه وانصرف من لدنه معتقدا أنه الدشطوطى . . .

ثم نمى إلى السلطان بعد حين سر المسألة وانكشفت له حقيقتها وأطلعه بعضهم على جليتها . فاستدعى ابن الرماح والشخص المزيف والخدم المقيمين بتلك الجهة وأمر بهم فضربوا بالمقارع بين يديه . ورسم بحلق ذقن ابن الرماح ، وتشهيره بالقاهرة على حمارة . ثم سجنه بالمقشرة إلى أن مات . . . « ج ٢ ص ٢٥٦ »

٢٤ - عبد الصليب يذم النبى :

فى رمضان عام ٩١٨ هـ ضبط نصرانى يقال له « عبد الصليب » من نواحى دلجة بالوجه القبلى ، وهو يتحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، حديثا فاحشا ، وشهد عليه بذلك جماعة ، وكتبوا له محضرا ، وثبت لدى قاضى الناحية . فأشخص النصرانى إلى السلطان الغورى ، فاعترف لديه بما قال . فعرض عليه الإسلام فأبى ، فبعثه السلطان إلى بيت الأمير طومان باى الدوادار ، فعقد له فيه مجلس بين يدى القضاة ، فاعترف فيه أيضا بما قال ، وصمم عليه ، وباع نفسه على ألا يرتد عن دينه . فحكم القضاة بسفك دمه ، ثم أركبوه جملا وسمروه على خشب ، وأشهروه فى القاهرة . ثم ضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية . ثم إن العوام أحرقوا جثته بالحطب وسط السوق وتركوه . فلما جن الليل نهش الكلاب لحمه وعظمه ، ومضى كأن لم يكن . « ج ٤ »

٢٥ - النحال ينظم الشعر :

ولد ابراهيم بن خلف النحال ببلبيس قبل عام ٧٨٠ هـ بقليل . وكان يحفظ

القرآن الكريم ، ثم نسيه . . وكان لا يعرف النظم وكان يجهل النحو . . ثم وفد عليه واعظ يقال له « الطبندى » فتكلم فى تفسير قوله تعالى : « ألست بربكم قالوا بلى » والناس يسمعون . وقال : إن الله لما استخرج ذرية آدم من ظهره فى صورة الذر وقال لهم « ألست بربكم » انقسموا فريقين : فريقا قال : بلى ، وفريقا سكت . ثم انقسم كل منهما قسمين فمن قال « بلى » أحدهما ظل على إجابته ، والثانى قال : ليتنا سكتنا . ومن سكت : أحدهما ظل على سكوته ، والثانى قال : « ليتنا أجبنا » . ولهذا انقسم الناس أربع فرق : مؤمن يموت مؤمنا . ومؤمن يموت كافرا . وكافر يموت كافرا وكافر يموت مؤمنا . ثم قال :-

حكى أن عابدا عبد الله مائة سنة ثم حضرته الوفاة ، فاستدار نحو المشرق -أى على عادة النصارى - فاستعظم خادمه ذلك ، وقال إن نفسه ملكها الإعجاب فخذلت ، فمات على غير التوحيد . فطار قلب الخادم خوفا . وأكثر من النحيب . فبينما هو كذلك إذ طرق الباب فخرج ، فإذا راهب ، فقال : ماشأنك ؟ قال : « إن راهبا منا مات فوجهناه إلى الشرق فتوجه إلى القبلة ومات مسلما ، فجئت إليك لتسأل لى شيخك ، ماذا نصنع به ؟ فقال : « إن شيخى قد مات إلى الشرق كافرا » . فهات ميتنا وخذ ميتكم . . . » فدفن الراهب بالزاوية . ونقلوا الشيخ إلى مقبرة الرهبان . . .

قال النحال : فلما سمعت هذه الحكاية حصل منها ما أزعج نفسى وأطار عقلى وأدهش فكرى وأطال غمى وأدام همى ، بحيث بقيت أياما لا أنام أصلا ، ولا آكل إلا كما يأكل العليل . . . ، وكانت هذه الحادثة سبب جريان الشعر على لسانه بسهولة ، بغير معرفة للنحو . . « الضوء اللامع ج ١ ص ٤٧ »

الحمد لله

تم القسم الثانى من الجزء الأول التاريخى من كتاب

« عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى »

وقد تم طبعه فى يوليو عام ١٩٤٧ م

ويليه القسم الأول من الجزء الثانى وأوله : « مدينة بغداد ومركزها العلمى والأدبى »

كشاف

بأعلام القسم الثانى من الجزء الأول

(ا)

آمنة بنت المستكفى : ٤٢

ابراهيم بن أبى شريف « برهان الدين » ١٢٨ ، ١٤٠ ، ٤٠٨ إلى ٤١٠

ابراهيم بن بابى : ٣٩٢

ابراهيم بن الجندى المغنى : ١٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨

ابراهيم بن خلف النحال - ٤١٧

ابراهيم بن عبد الرحمن « برهان الدين الكركى » : ١٣١ ، ١٣٦ إلى ١٣٨ ، ١٨٧ ، ٤٠٩

ابراهيم بن علاء الدين « جمال الدين القلقشندى » : ١٣٩ ، ١٤٦

ابراهيم بن محمد « برهان الدين الديرى » : ٧٣ ، ١١٩ ، ١٤٨ ، ٣٩٧

ابراهيم بن محمد « برهان الدين المغربى » ١٢٥

ابراهيم بن هبة الله الحموى « عماد الدين » : ٨٧

ابراهيم الهوارى : ٣٤٤

ابراهيم الواثق بالله العباسى : ١٥ ، ٢٥ الى ، ٢٨

ابغا ملك التتار : ٢٧٨

ابن أبى حجلة المغربى : ٢٦٧

ابن أبى الرداد : ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ إلى ٢٢٩

ابن الأحدب : ٣٤٠

ابن إياس : ١٧٧

ابن بهيج : ٣٤٦

ابن بيسار : ٢٤٦

ابن حجر العسقلانى : ٣٥ ، ٧٨ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٦

ابن حماده : ٣٤٩

ابن درغل : ٢٥٦

ابن رحاب المغنى : فى على

ابن الرفعة : ٨٦

ابن رمضان التركمانى : ٢٥٥ ، ٢٥٦

ابن السعلوس : ٧٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦

ابن عربى : ٤١٦

ابن عساكر : ١٠٧

ابن الليمونى المغنى : ٣٩١

ابن مفلح : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٤١٠ إلى ٤١٢

أبو أحمد بن الأفضل : ٦٥

أبو البقاء بن الجيعان : ١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٣٦ ، ٣٩٩

أبو بكر بن الشحنة : ١٤١

أبو بكر بن مزهر : ١٧١ ، ٣٧٧ ، ٣٩٩ ، ٤١٦

أبو بكر الليثى : ١٨٠

أبو الخير المغنى : ٣٩٠

أبو زرعه : ٧١
أبو السعادات البلقينى : ١٢٣ ، ١٥٤
أبو السعود الجارحى : ١٧
أبو عمر بن أبى محمد الصنهاجى : ١٠
أبو الفضل بن الأزرق : ٦٥
ابو الفوز الواعظ : ١٧٦ ، ٣٨٨
أبو نمى « أمير مكة » : ١٦٦
أجود بن مسقار : ٣٤٨
أحمد أبو سنة : ٢٩١
أحمد بن ابراهيم « عز الدين الحنبلى » : ٥٨ ، ٨٠ ، ١١٨ ، ١٢٦
أحمد بن أحمد « موفق الدين الحنبلى » ١١٠ ، ١١٣ ، ١٥١
أحمد بن أويس : ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ إلى ٢٨٣ ، ٤٠٠
أحمد بن إينال « المؤيد » : ٤٠ ، ١٧١ ، ٢١٤ ، ٣٤١ ، ٣٧٤ ، ٣٨٧
أحمد بن بقر : ١٩٤ ، ٢٥٨
أحمد بن تانى بك البردبكى : ١٧٤
أحمد بن الجمالى : ١٨٠
أحمد بن شكر : ٣٤٨
أحمد بن طولون : ٢٣ ، ٢٠٢
أحمد بن عبد الخالق « ولى الدين الأسيوطى » ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٤٢ ، ١٥٤
أحمد بن عبد العزيز « شهاب الدين الفتوحى » : ١٤٨
أحمد بن العينى « شهاب الدين » ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٧٢ ، ٣٨٧
أحمد بن فرفور « شهاب الدين » : ٧٥ ، ٧٦ ، ١٢٨ ، ١٣٨ .
أحمد بن القرداح المغنى : ٣٩٢
أحمد بن المؤيد شيخ « المظفر » : ٣٦ ، ٣٧ ، ١٥١ ، ٣٣٦
أحمد بن مهنا : ٣٤٧
أحمد بن وجيه : ١٧٥
أحمد الحاكم بأمر الله العباسى الأول : ١٣ ، ٣٣٥
أحمد الحاكم بأمر الله العباسى الثانى : ١٥ ، ٢٦ ، ٢٨
أحمد « المستنصر العباسى » : ٨ إلى ١١ ، ٢١ إلى ٢٣ ، ٩١ ، ٢٧٨ ، ٢٩١
أرزمك الناشف : ١٩٨ ، ٣٢٤
أركماس : ٣٦٨
أزبك بن ططخ « الأتابكى » : ١٢٦ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢١٦ إلى ٢١٩ ، ٢٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥

أزبك خان : ٢٥٢
أزبك المكحل : ١٨٥
أزبك اليوسفى : ١٧٦ ، ١٨٠
أزدمر الأشقر : ١٨٠
أزدمر تمساح : ١٨٠ إلى ١٨٤، ٢١٨ ٢١٩
أزدمر الدوادار : ٢٥٠ ، ٣٤٧
أزدمر الطويل : ٣٤٢
أزدمر المسرطن : ١٨٢
أزدمر المهمندار : ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠
أسامه بن زيد التنوخى : ٢٠٢
أسد الدين المزيف : ٤١٢
اسماعيل بن حيدر الصوفى : ٢٣٨ إلى ٢٤٠ ، ٢٥٠ إلى ٢٥٨، ٢٧١، ٢٧٢
اسماعيل بن لؤلؤ « الصالح » : ٤٠٠
« الانبابى « الشيخ » : ٣٨٢
« « الصالح » : ١٦٣ ، ١٦٨
« « المؤيد صاحب حماة » : ١٦١ ١٦٢ ، ١٦٧
اسنباى الخاصكى : ١٧٩
الأشرف إينال : فى أينال
« برسباى : فى ب
« جان بلاط : فى ج
« خليل : فى خ
« شعبان : فى ش
« طومان باى : فى ط
« فرج : فى ف
« قايتباى : فى ق
« قانصوه الغورى : فى ق
اصطمر بن ولى الدين : ١٨٤ ، ١٨٦، ١٨٧
أصلان صاحب الأبلستين : ٢٧٠
أصيل القلعية : ٣٩٢
أطلمش : ٢٤٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥
أقباى الطويل : ٢٣٩ ، ٢٤٠
« الكاشف : ٣٤٦
اقبردى بن اصباى : ١٧٣
« الأشقر الأشرفى : ١٧٧ ، ١٧٨
« الدوادار : ٩٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٦، ٢٣٧، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٧٨، ٣٨٧
أقش الباخلى : ١٦٦
اقطوه الكاشف : ٣٤٦
الماس الأشرفى استادار الصحبة : ٢٣٣
« دوادار سكين : ٣٢٠
أمير حاج « الملك » : ١٥٠ ، ٣٣٦
أمين الدين الأقصرائى : ٤٠ ، ١٣١ ، ١٧٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٣١٧ ، ٤٢٣

أمين الدين الطرابلسى : ١١٤ ، ١٥١
أنصباى : ٣٦٨
انعام المغنية : ٣٩٠
الأوزاعى : ٧١
أيبك « المعز » : ٨٩ ، ٩١ ، ٣٣٤
إيدكن « علاء الدين البندقدار » : ٩
إيدمر « عزالدين الحلى » ٥١ ، ٦٩ ، ٩٣
إينال باى دوادار سكين : ٢٣٩ ، ٢٥٧
إينال حطب : ٢٨٣
إينال الحكيم : ٢٤٧
إينال العلائى « الملك الأشرف » ٣٨ إلى ٤٠ ، ٧٦ ، ١١٥ إلى ١١٨ ، ١٢١ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٢ ، ٢٤٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٣٥٥
إينال الفقيه : ١٨٢ ، ١٨٤
اينبك البدرى : ١٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣

(ب)

بابندرة : ٢٣٤ : ٢٤٨
بايزيد « ملك العثمانيين » : ٣٢ ، ٢٤٤
بدر بن سلام : ٣٤٠
بدر الدين بن جماعة : انظر محمدا
بدر الدين بن الغرس : ٤١٣
بدر الدين البغدادى : ١٥٢ ، ١٥٣
« التونسى : ١٥٢ ، ٤١٢
« الديرى : ٣٩٧
« الزيتونى : ٣٤٥ ، ٣٥٧
« السبكى . فى محمد
« السعدى : فى محمد
« السنجارى : فى يوسف
« العينى . فى محمود
« محمد أبو السعادات : ١٥٣
« المكينى : ٧٣
بدرية بنت جريعة : ٣٩١
برايوه : ٣٩٠ ، ٣٩١
برد بك البجمقدارى : ١٧٠
برد بك نائب جدة : ١٨٤
برد بك هجين : ٣٤١
برسباى « الأشرف » : ٣٦ ، ٣٧ ، ١١٤ ، ٢٤٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٧٥
برسباى أمير خور : ٢٣٢ ، ٢٤٥
« الشرفى : ١٧٤ ، ٢٣٣
« العلائى : ١٨٠
« الفيل : ١٩٧

برسباى قرا - ١٢٤
برسباى كاشف الوجه القبلى - ٣٤٣
برسباى اليوسفى - ١٨٢
برقوق « الظاهر » : ١٥ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٢٣ ، ٥٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٥٠
١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٤٢ ،
٢٤٤ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،
٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٠٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ،
٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٥٣ ، ٣٧٣
بركات بن موسى « الزينى » : ٢٥٤ ،
٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٦٩ ، ٣٩١
بركات شريف مكة : ١٨٧ ، ١٩٧
برهان الدين بن أبى شريف :
انظر ابراهيم
برهان الدين بن جماعة : ١١٥ ، ١٤٩
« الدين البقاعى : ١٢٢ ، ٤١٣
« الدين الديرى : ٧٣
« الدين السنجارى : انظر الخضر
« الدين العسقلانى : ١٥٠
« الدين القلقشندى : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٤٠٩
« الدين الكركى : فى ابراهيم
« الدين اللقانى : ١٥٤
« الدين المحلى : ٢٦٩
« الدين المغربى : فى ابراهيم
بشير الطواشى : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥١
بضاع بن دلغادر : ٤٠٠
بكار بن قتيبة : ٢٠٤
بكتاش الفخرى « بدر الدين » : ١٠٢
بكتمر الساقى : ١٦٧ ، ٢٣٠
بلباى المؤيدى : ٣٤١
البوالقة : ٢٩١
بهاء الدين بن حنا : ١٠ ، ٩٧ ، ٢٩٩
« « بن قدامة « عبد الرحمن » :
١٣٠ ، ١٥٤
بهاء الدين البارزى : ١٩٧
« « السبكى ، ١٤٩ ، ٣٩٨
بهادر الجمالى ، ١٦٨
بيبردى بن كسباى : ١٩٧
بيبرس بن أحمد بن بقر : ٣٤٦ ، ٣٤٩
« الأشرفى : ١٧٠
« « الظاهر » : ٨ إلى ١٤ ، ٢١ إلى
٢٤ ، ٥٩ إلى ٩٣ ، ١٠١ ، ١٥٥ ، ١٥٦
١٦٦ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦ ، ٢٩١
٣١٠ ، ٣٣٤ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٤٠٠
بيبرس المنصورى : ٣٣٩
« « المظفر » : ٢٠٩ ، ٢٠٦
بيدرا « الأمير بدر الدين » : ١٠٠ إلى

إلى ١٠٢ ، ٣٣٥
بيسرى : ٣٧٨
بيغوا « سيف الدين » : ٥٦

(ت)

تاج الدين بن بنت الأعز : فى عبد الوهاب
« بن شرف - ٤١٣
« البلقينى - ١١٣
« الديرى - ١١٥
« السبكى - ٣٩٨
« الفاكهانى - ٤٠٢
تانى بك الأبج - ١٨٣ ، ١٨٨
« الجركسى - ١٦٩
« الجمالى - ١٧٧ ، ١٨٣ إلى ١٨٦
« بك قرا - ١٨٤ ، ١٩٢
« بك المعلم - ١٧٣
تغرى بردى بن ططر - ١٨٠
« « الأستادار - ١٢٤ ، ٢٧٩
« « الترجمان - ٢٣٧ ، ٣٣٠
تغرى برمش - ٣٧٢
تقى الدين بن بنت الأعز - فى عبد الرحمن
« بن تيمية الحرانى - ٢٧٩
« بن الثقة الاسنائى - ٣٩٢
تقى الدين بن حجة الحموى - ٢١١ ، ٣١٠
« بن دقيق العيد - فى محمد بن على
« بن رزين - فى محمد
« بن محب الدين التيمى - ٣٢٧
« بن مفلح - فى ابن مفلح
« الحصنى - ١٤٢
« الزبيرى - ١٥٠
« السبكى - ٧١ ، ١٠٨ ، ٣٩٨
« شبيب الحرانى - ٨٤
« الشمنى - ١٢١
« القرشى - فى عبد الرحمن
تمراز - ٢٢٠
تمربای الهندى - ٢٣٨ ، ٢٥٤
تمربغا « الملك » ١١٨ ، ١٢٣
تمر الحاجب - ٣٤٢
تمر الحسنى الزردكاش - ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٦٨
تنم نائب الشام - ٣٢ ، ٣٢٧
تيمورلنك - ٣٢ ، ١١٠ ، ١٥١ ، ٢٤٢ إلى ٢٤٦ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ إلى ٢٨٥ ، ٤٠١ ، ٤١٠ إلى ٤١٢

(ج)

الجازانى - ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨

الجام بن عثمان - ١٨٠ ، ٤٠٠

جان بردى تاجر المماليك - ١٨٩

جان بلاط « الأشرف » : ٤٣ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٨٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ، ٣٧٥

جان بلاط الأشرفى - ١٨٢

جان بلاط الموتر - ١٨٥

جانم الزردكاش - ١٧٨

جانم الخاصكى - ٢٤٠

جانى بك الأشرف - ١٧٤

جانى بك الأشقر - ١٧٥ ، ١٧٦

جانى بك حبيب العلائى - ٢٣٤ ، ٢٣٥

« الحشن - ١٧٥ ، ١٧٦

« الظريف - ١٧٠

« للفقيه - ١٧٧

« اليحياوى - ٢٨٢

جرجى « سيف الدين » : ٥٧

جقمق « الظاهر » - ٣٧ ، ٣٨ ، ١١٥ إلى ١١٨ ، ١٥٢ ، ١٧٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٤١٢

جلال بن قاسم - فى عبد الرحمن

جلال البلقينى - فى عبد الرحمن

جلال الدين السيوطى - ١٩ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤١٣

جلال الدين القزوينى - فى محمد

جلال السنطيرى - ٣٩١

جمال الدين بن خير السكندرى - ١١١ ؛ ١٥٠

جمال الدين الأفقسى - ١٥١

« إيدغدى - ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٢ ، ٩٣

« الزرعى - ١٤٩

« الزغلى - ٤٠٦

« خضر أبو نوكبة - ١٦٧

« السلمونى - ٨٥ ؛ ١٣٢

« عبد الله التركمانى - فى عبد الله

« عبد الله القابونى - ٢٤٥

« القلقشندى - فى ابراهيم

« محمود الأستادار - ٣٨٦

« محمود القصيرى - ١٥٠

« يحيى بن عبد المنعم - ١٠

« يوسف الملطى - ١٥٠ ، ١٥١

الجمالى يوسف بن أبى الأصبع - ٣٣٠

الجمالى يوسف الحنبلى - ١٥٤

الجمالى يوسف ناظر الخاص - ١١٨، ١٧٢
جمجمة بن عثمان - ٣٧٧
جهان شاه - ٢٤٥
جنكيز خان - ٥٥، ٥٦
الجويلى « شيخ العرب » - ٣٤٩

(ح)

الحاكم بأمر الله أحمد - ٨، ١٣، ٢٢، ٢٣، ٢٤
حامد المغربى - ٢٣٩
حسام الدين بن بغداد - ١٩٤
حسام الدين بن حريز المالكى - ٧٥، ١١٨، ١٢٤، ١٢٥، ١٥٣
« بن الشحنة - فى محمود
« مظفر - ١٦٦
حسن بن أحمد العثمانى - ٢٥٨
الحسن بن على - ٤٢
حسن بن الناصر محمد « الناصر » - ٢٦٧، ٣٣٥
حسن الطويل - ٢٣٣، ٢٤٥ إلى ٢٤٧، ٢٧١
حسين الكردى - ٢٥٦
حصن بن ثعلب - ٣٣٩
حضر بن كروان - ٣٤٩
حمزة « الخليفة القائم بأمر الله » - ٣٨، ٣٩
حميد بن عمر - ٣٤٤

(خ)

خاير بك بن إينال - ١٩٠، ١٩٤
« « كاشف المحلة - ١٨٢
« « المعمار - ٣٤٧
« « « ملك الأمراء » - ١٤٥، ٢٣٧، ٢٩٥
خاتون بنت خليل - ١٨٦
خديجة أم خوخة المغنية - ٣٩٠
« الرحابية - ٣٨٨
« الكليباتية - ٤٠٥
خشقدم الأحمدى الزمام - ١٧٨، ١٧٩
« « الظاهر » - ٤٠، ١١٥ إلى ١٢٣، ١٦٠، ١٧٢، ١٨٣، ٢٠٥، ٢١٥، ٢٣٤، ٢٤١، ٣٧٥، ٣٩٥، ٤١٢.

خشكلدى السيفى - ٤٠
الخضر بن الحسين « برهان الدين السنجارى » - ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٧ إلى ١٠٠
خليل بن شاهين « غرس الدين » : ١٧٠
« ابن عم المستمسك بالله - ٤٣ إلى ، ٤٥
خليل بن قلاوون « الأشرف » - ٢٣ ، ٢٤ ، ٥١ ، ٧٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ٢٨٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٥
خوند الأحمدى - ١٧٢
« أصلباى - ١٩٢
« بركة - ٢٩٣
« جان كلدى - ١٩٢
« الخاصكية - ٣٧٦
« زينب - ١٧١
« فاطمة - ١٧٦ ، ٣٧٥ ، ٣٨١
« مصر باى الجركسية - ٣٧٥
« مغل بنت البارزى - ٢٩٤

(د)

داود « المعتضد بالله » - ١٨ ، ٣٦
دقماش المحمدى - ٢٨٢
دلوكة العجوز - ٢٠٢
دولات باى « الأمير » - ٣٣٧
« « الجركسى - ١٧٠
« « الحسنى - ١٨٠
« « حمام - ٢٣٣
« « قرموط - ١٨٦

(ر)

رستم أمير الركب العراقى - ١٧٥ ، ٢٣٦
« بن قرا - ٢٤٦
رسلان بصل - ٥٦

(ز)

زبيدة أم الأمير - ٤٢
زكريا الانصارى « زين الدين » - ٧٨ ، ١٣٤ إلى ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ إلى ٤١٥
زكريا « المستعصم بالله » : ١٥ ، ٢٩ ، ٣١ إلى ٣٣

زين الدين بن البارزى - ٥٩٧
« « بن النحاس - ٣٩٥
« « أبو محمد عبد السلام الزوادى - ٦٧
« « الانصارى - فى زكريا
« « التفهنى - فى عبد الرحمن
« « الفارقانى فى - ٢٧٩
« العابدين بن الطويل - ١٤٧
الزين قاسم بن قطلو بغا - ١٣١
الزينى بركات بن موسى - فى بركات

(س)

سالم « مجد الدين الحنبلى » - ١١٣
ست الخلفاء - ٤٠
سديد الدين عثمان بن عبد الكريم - ١٠
سراج الدين بن حريز - فى عمر
« « البلقينى - فى عمر
سرى الدين بن الشحنة - فى عبد البر
سعد الدين الديرى - ١١٥ ، ١١٩ ، ٣٩٧
السعيد محمد بن بيبرس « الملك » - ٢٤ ، ٩٤ إلى ٩٧ ، ١٥٦ ، ١٦٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥
سلار المنصورى - ٥١ ، ٣٠٦ ، ٣٥٣
سلامش « العادل » - ٩٦ ، ٩٧ ، ٣٣٥
سلطان بن رشا - ٦٥
سليم « ملك بنى عثمان » - ٢٠ ، ٤٥ إلى ٤٧ ، ٨٤ ، ١٤١ إلى ١٤٧ : ١٥٤ ، ٢٣٩ إلى ٢٤١ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩١
سليمان بن عبد الملك - ٢٠٢
سليمان « المستكفى بالله » - ١٥ ؛ ١٧ ، ٢٤ ؛ إلى ٢٨ ؛ ٣٣ ؛ ٣٧ ، ٣٨ ، ٢١٣
سنباى نائب سيس - ٣٤٤
سنجر الشجاعى « علم الدين » - ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ٣٣٥
سنطباى المتصوف - ٤٠٤
سنقر الأعسر - ٣٥٣
سوار ابن أخى على دولات - ٢٤٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ؛ ٢٧٣
سوار ملك الأبلستين - ٢٤٦ ، ٣٤١
سودون العجمى - ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ إلى ٢٢٨ ، ٣٠٨ ؛ ٣٦٨
سويدان المجذوب - ٣٨١ ؛ ٤٠٤

سيف الدين اسحق « المجاهد » - ٤٠٠

(ش)

الشاطر الدمنهورى - ٤٠٢
شاهين الجمالى - ١٧٨
شجرة الدر - ٣٢٤
شرف الدين بن عين الدولة - ٨٨
« البارزى - فى هبة الله
« البردينى - فى يحيى
« البوصيرى - ٣٧٣
« السبكى - فى عمر
« الصغير - ٣٣١
« عيد - ٣٥٣
« الفائزى - ٨٩
« المناوى - فى يحيى
« النابلسى - ٣٣١ ، ٣٣٢
الشريف بن حريز المالكى - ٢١٥
شعبان « الأشرف »: ١٨ ، ١٤٩ ، ١٦٨ ، ٢٨٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٩
شعبان « الكامل »: ٥٦
شمس الدين بن خلكان - ٦٧
شمس الدين بن عوض - ٣٢٩
« بن المزلق - ١٢٨
« الأمشاطى - فى محمد
« البساطى - ٧٧ ، ١٥٢
« التتائى - ١٥٤ ، ١٩١
« الحلبى - ٤١٦
« الحليبى - ٥٣
« الحنبلى - فى محمد بن ابراهيم
« الديرى - ١١٤
« الركراكى ١٥٠
« الزنكلونى - ٤٠٨ ، ٤١٠
« الشمديسى - فى محمد
« الصغير - ٢٤٣ ، ٢٦٨
« الطرابلسى - ١٥٠
« عبد الله بن عفا - ٦٧
« الغزى - ١٢٤ ، ١٤٤
« القاياتى - ١٤٦ ، ١٥٢
« القسطلانى - ٢١٠
الشنقجى العجمى - ٣٨٥
شهاب الدين بن حجر العسقلانى - فى ابن حجر

شهاب الدين بن فرفور - فى أحمد
« « بن فضل الله العمرى - ٣١٠ ، ٣٩٨
« الخوبى - فى محمد
« السوسى - ٧٣
« الشيشينى الحنبلى - ٣٠ ، ٣١٨
« الفتوحى - ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨
« القلقيلى - ٣٩٣
الشهاب المنصورى - ٤١٤
شهاب الدين النحريرى - ١٥٠
شيخ المحمودى « المؤيد » - ١٧ ، ١٨ ، ٣٤ الى ٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٠ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٤٥٤ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨
شيخو العمرى - ٣٤٠

(ص)

الصالح اسماعيل « ملك دمشق » - ٨٨
« أمير حاج « الملك » - ٣١
صالح البلقينى « علم الدين » ٣٩ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ٢١٠
الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد - ٢٨ ، ٥٧ ، ٢٤٠ ، ٣٩٦
الصالح علاء الدين بن الناصر محمد - فى اسماعيل
الصالح نجم الدين الأيوبى - ٨٨
صدر الدين ابن بنت الأعز - فى عمر
صدر الدين بن العديم - ٧٦ ، ١١١
« « « المرحل - ٧٢
« « « منصور - ١٥٠
« « سليمان الحنفى - ٦١ ، ٦٤
« « المناوى - ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٠ ، ١٥١
« « موهوب الجزرى - ١٠
صر غتمش الناصرى - ٣٤٠
صفى الدين بن جوهر - ٢٤٢
صقر بن بقر - ٣٤١ ، ٣٤٢
صلاح الدين بن بركوت المكينى: ١٥٣ ، ١٥٤
صلاح الدين بن الجيعان - ١٩١
« « الأيوبى - ٣٠٤ ، ٣٠٥

الصلاح الثعلبى القوصى - ٣٩٢
صلاح الدين الصفدى - ١٠٩

(ط)

طاز - ١٦٨ ، ٣٤٠
طرابای الشریفی - ١٩١ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦
طرنطای « نائب السلطنة » : ٣٢٦
ططر « الظاهر » - ٣٧ ، ٣٣٦
طغای - ٢٨١
طقطبای « نائب القلعة » - ١٩٣ ، ١٩٦
طومان بای « الأشرف » - ١٧ ، ٤٣ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٣٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٨ ، ٤١٧
طومان بای الحاجب - ١٩٥
طومان بای « العادل » ١٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٨٦ ، ٢٢١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٧
الطنبغا الأتابکی - ٣٧
الطنبغا الخوارزمی « ناصر الدين » ١٦٦
طيبرس الوزيری « علاء الدين » - ٩

(ظ)

الظاهر برقوق - فی ب
الظاهر بيبرس - فی ب
الظاهر جقمق - فی ج
الظاهر خشقدم - فی خ
الظاهر ططر - فی ط
الظاهر قانصوه - فی ق

(ع)

العادل طومان بای - فی ط
العادل کتبغا المنصوری - فی ك
عبد البر بن الشحنة « سری الدين » - ٦٩ ، ٨٥ ، ١٢٣ ، ١٣٠ إلى ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ٣٦٨ ، ٣٩٩ ، ٤١٣
عبد الحق السنباطی - ٤٠٩
عبد الدايم بن أحمد بن بقر - ٣٤٨
عبد الدايم بن أبی الشوارب ٣٤٨
عبد الرحمن بن بنت الأعز « تقی الدين » ٦٥ ، ٧٥ ، ٩٨ إلى ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٣٩٨
عبد الرحمن بن خلدون « ولی الدين » ١١١ ، ١٥٠ ، ١٥١
عبد الرحمن الديری - ٣٩٧
عبد الرحمن بن علی « زين الدين التفهنی » - ١١٣

عبد الرحمن بن عمر « جـــلال الدين البلقيني » : ٣٦ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٥١ ، ٢٩٨
عبد الرحمن بن قاسم « جلال الدين » : ١٤١
عبد الرحمن بن قدامة « بهاء الدين » : ١٣٠ ، ١٥٤
عبد الرحمن بن محمد « تقي الدين القرشي » : ١١١
عبد الرحيم البارزى : ٧٧
عبدالعزيز بن عبدالسلام « عزالدين » : ١٠ ، ١١ ، ٢١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ٣١٠
عبدالعزيز بن عمر الهوارى « عزوز » : ٣٤٣
عبد العزيز بن محمد بن جماعة : ١٠٧
« بن محمد الصغير : ١٧٠ ، ١٧١
« بن مروان : ٢٠٢
« « المتوكل على الله » الثانى : ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢
عبد العظيم الصوفى : ٤٠٧
عبدالغنى بن أحمد بن تقى : ١٢٥ إلى ١٢٩
عبد القادر بن أحمد « محيي الدين بن تقى » : ١٢٥ ، ١٢٦
عبد القادر بن الرماح : ٤١٦
عبد القادر بن النقيب « محيي الدين » : ٧٣ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٦
عبد القادر الدشطوطى : ١٣٩ ، ٢٢٠ ، ٤١٦
عبد الله بن شرف « محيي الدين بن عين الدولة » : ٩٤ إلى ٩٦
عبد الله التركمانى « جمال الدين » : ٥٧
عبد المؤمن العجمى : ٢٣٦ ، ٢٧٠
عبدالوهاب بن بنت الأعز « تاج الدين » : ١٠ ، ٢١ ، ٤١ ، ٥٩ إلى ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٠ إلى ٩٥ ، ١٠٤ ، ٣٩٨
عبد الوهاب البهنسى « وجيه الدين » : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩
عبيد بن أبى الشوارب : ٣٤٨
عثمان بن جقمق « المنصور » : ٣٨ ، ١٨٣
عز الدين بن تركى : ٢٧٩

عز الدين بن جماعة المقدسى : ١٤٩
عز الدين بن عبد السلام : فى عبد العزيز
عز الدين بن القلانسى : ٢٧٩
عز الدين الحنبلى : أنظر أحمد بن ابراهيم
« الحلى : فى إيدمر
« الشيشينى الحنبلى : ١٣٠ ، ١٣٨
« الكنانى : ١٥٣
« المحلى : ٤١٣
عزيزة بنت السطحى : ٣٩٠
علاء الدين بن الأثير : ١٦١ ، ١٦٧ ، ٣١٠
علاء الدين بن الأهناسى « على » : ٣٧٢
« بن الصابونى : ٣١٨
« بن الطبلاوى : ٣٣١
« بن قرطام : ٣٤٦
« بن مغلى : ١٥٢
« بن النقيب : ١١٥
« الإخميمى : ١٣٨ ، ١٣٩
« إيدكن البندقدار : ٩ ، ١٦٦
علان والى القاهرة : ١٩٧
علم الدين بن شاكر الجيعان : ١٧١
« البلقينى : فى صالح
« سنجر الشجاعى ، فى س
« شمايل : ٣٣٠
على بن أبى الجود : ٣٧٨
« « أبى طالب : ٤٢ ، ٢٠٣
« « الأشرف شعبان « المنصور » : ١٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤٠
« « بركات الحسنى : ٤٠٠
« « رحاب المغنى « نور الدين » : ٣٨٧ إلى ٣٨٩
« « غانم : ٣٩٠
على التمراوى : ٢٨٨
على دولات أمير التركمان : ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
على الكيزانى : ٢٨٨
عماد الدين الحموى « القاسم بن ابراهيم » : فى ق
عماد الدين الكركى : ١١٠
عمر بن ابراهيم « الواثق بالله الثانى » : ١٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣
« « أبى بكر « سراج الدين بن حريز » : ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥
« « الخطاب : ٢٠٣

عمرو بن العاص : ٢٠٢ ، ٢٠٣
عمر بن علاء الدين النقيب : ٤٠٤
« « الفارض : ١٢٢ ، ١٤٢ إلى ٤١٤
« « موسى : ٣٤٨
عمر البلقينى « سراج الدين » : ١١١ ، ١١٦ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٩٨
عمر السبكى المالكى « شرف الدين » : ٦١ ، ٦٤
عمر « صدر الدين بن بنت الأعز » : ٨٠ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ٣٩٨
عنان بن مغامس : ١٦٩
عيسى بن بقر : ٣٤٢
عيسى بن مهنا : ٢٣

(غ)

غازان « ملك التتار » : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
غرس الدين خليل : ٤٠٨
غياث الدين ملك الهند : ١٦ ، ٤٠ ، ٢٤٦

(ف)

فارس الدين أقطاى الجمدار : ٣٣٩
فارس الدين أقطاى المستعرب : ٣٣٩
فارس الركنى : ١٧٨
فاطمة بنت أسد : ٤٢
فخر الدين بن العفيف : ٢٩٥
« بن قرونية : ٣٢٧
« بن لقمان : ٩٨
فرج بن برقوق « الأشرف » : ١٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢١١ ، ٢٤٤ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤
فرج بن عبد الله المغربى : ٤٠٢

(ق)

القاسم بن ابراهيم « عماد الدين الحموى » : ٨٧
قاسم بن قطلوبغا : ٤١٣
قاسم الغريب : ٣٤٨
قانصوه بن سلطان جركس : ١٩٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩
قانصوه بن قانصوه « الظاهر » : ٤٣ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٨٥ ، ٢٢١

٣٧٥ ، ٣٨٧
قانصوه أبو سنة : ١٩١ ، ٤٠٦
» البرجي المحمدي : ١٨٦ ، ٢٣٦ ، ٣٤١
» دولات بردي - ١٩٢
» الخفيف - ٣٤٢
» خمسمائة - ٤١ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ٢٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦
» الغوري « الظاهر » - ٤٣ إلى ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١٢٧ إلى ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، إلى ١٤٧ ؛ ١٥٤ إلى ١٩٨ ، ٢٠٣ إلى ٢٠٥ ، ٢٥٠ إلى ٢٦٦ ، ٢٧٠ إلى ٢٧٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٨ إلى ٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٥ إلى ٣٥٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ إلى ٣٧٢ ، ٣٨٣ إلى ٣٨٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ إلى ٤١٠ ، ٤١٧
» الفاجر - ١٨٧
» كرت - ١٩٥ ، ٢٣٧
قانم أخو الظاهر قانصوه - ١٨٧
قانم التاجر - ٢١٥
قانى بك قلقسير - ٣٤٢
قانى باى سلق - ٢٥١ ، ٢٥٥
قانى باى قرا - ١٨٩ ، ٢٧٣
قانى باى اليوسفى المهمندار - ٢٣٢ ، ٢٤٥
قايتباى « الأشرف » - ١٦ ، ٤٠ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ١١٨ ، ١٢٠ إلى ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ إلى ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٢٣٣ إلى ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ إلى ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ إلى ٣٤٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤١٤ ، ٤١٦
قجماس الإسحاقى - ١٧٧ ، ١٧٨
قرا بغا : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٧٨
قرا بغا - الصرغتمشى - ٣٢٧
قراجا باشا - ٢٦٣
قرا محمد التركمانى : ٢٨١
قرا ملك التركمانى - ٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠
قرا يوسف التركمانى - ٢٨٢ ، ٢٨٣

قرقد بيك بن عثمان - ٣٦٦
قرقماس بن ولى الدين « الأتابكى » - ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٤٠٤
قرقماس الحلب - ٢١٥
قرقماس المقرى - ٣٢٤
قصروه نائب الشام - ٢٣٧
قطز « المظفر » - ٧٢ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣١٤ ، ٣٣٤
قطلو شاه - ٢٨٠
قفجق - ٢٨٩ ، ٢٨٠ ، ٤١٠
قلاوون « المنصور » - ٢٤ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٤١٠
قلج البغدادى « سيف الدين » - ٩
قلقسير الأتابكى - ٢١٦
قنبك بن شاد بك - ١٩٠ ، ١٩١
قوصون الأتابكى - ٣٣٢
قيت الرحبى - ١٣٢ ، ١٨٨ ، ٣٤٤ ، ٣٦٥
قيت الساقى - ٢٨٨ ، ٣٥٦

(ك)

الكامل شعبان « الملك » : فى ش
كتبغا فويز بك - ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٧٧
كتبغا المنصورى « العادل » : ٧٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٠٩ ، ٣٣٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩
كراى نائب دمشق - ١٠٨
كرتباى بن أخت قايتباى - ١٨٣ إلى ١٨٥
كرتباى الأحمر - ٨٢ ، ٣٨٨
كرتباى كاشف البحيرة - ١٨٢
كرتباى والى القاهرة - ٢٥٥
كريم الدين بن السديد - ١٦٢
كزل أم المعتضد - ٣٦
كمال الدين بن الطويل - فى محمد بن على
« بن العديم ٣٩٨
« السربجى - ١١٥
« القادرى - ١٤٠ ، ١٤٤

(ل)

لاجين الظاهرى : ١٧٦ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٣٠٦
لاجين « المنصور » : ٢٣ ، ٢٤ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ٢٧٩ ، ٤١٠

(م)

مالك بن رومى : ٣٤٦
ماماى جوشن : ١٩٢
« الخازندار : ٢٣٨
« الخاصكى بن خداد : ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٣٨٩
المأمون العباسى : ٢٠٢
المؤيد بن إينال : فى أحمد
المؤيد صاحب حماة : فى اسماعيل
المؤيد شيخ المحمودى : فى ش
المتوكل العباسى : ٢٠٢ ، ٢٠٤
المتوكل على الله الثانى « عبد العزيز » : فى ع
المتوكل على الله الأول « محمد » : ٨ ، ٢٩ إلى ٣٤ ، ٢١٠
المتوكل على الله الثالث « محمد » : ٢٠ ، ٤٣ إلى ٤٧ ، ٢٧٢
مجد الدين بن سالم الجهنى : ١٥١
« بن فضل الله - ٣٥٤
« البقرى - ٣٢٤
« الكنانى - ١٥٠
محب الدين بن الأشقر - ١٢١ ، ١٧١
« بن الشحنة - فى محمد
« العسقلانى - ١٥٢
المحلاوى - ٣٩١
محمد بن ابراهيم « بدر الدين بن جماعة » : ٢٧ ، ٧٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ إلى ١٠٨ ، ٢٨٩ ، ٣٩٨
محمد بن ابراهيم « شمس الدين الحنبلى » : ٦١ ، ٦٤ ، ٨٤
محمد بن أبى سعيد - ١٧٥
« « أحمد الأنصارى « ناصر الدين الإخميمى » ١٢٧ ، ١٣٧
« « أحمد « بدر الدين المكينى » - ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦
« « أحمد « شهاب الدين الخوبى » - ٦٥ ، ٩٨ إلى ١٠٠
« « أزبك - ١٨٣
« « الأفضل « الأشرف ملك اليمن » ٢٦٩

محمد بن أيوب ، الكامل الأيوبى ، - ٢٣٠
« « بركات - ١٧٥
« « حاجى ، المظفر ، - ٣٨٦
« « الحسن ، علم الدين ، - ١٠
« « « تقى الدين بن رزين ، - ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٥
« « حلة المغنى ، شمس الدين ، - ٣٨٩
« « خاص بك - ١٨٥ ، ٣١٩
« « عبد الدايم ، ناصر الدين بن الميلق ، - ١٠٩
« « عبد الرحمن ، جلال الدين القزوينى ، : ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٦ ٣٩٨
« « عجلان - ٣٤٣
« « العلائى على - ١٨٤ ، ١٨٧
« « على بن وهب ، تقى الدين بن دقيق العيد ، - ٢٥ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ١٠٣ إلى ١٠٦
« « على ، كمال الدين الطويل ، : ٥٣ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ؛ ١٣٩ ، ١٤٤ إلى ١٤٦ ، ١٤٩
محمد بن عوينة العواد - ٣٩١
« « العينى - ١٨٥
« « قايتباى ، الناصر ، : ١٧ ، ٤١ ، ٤٣ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧ ، ٣١٨ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٥ ٣٧٩
« بن قجق : ٣٩١
« بن قلاوون ، الناصر ، : ٨ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٠٢ الى ١٠٤ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٩ الى ٢٨١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ؛ ٣٥١ ، ٣٥٩ ، ٣٨٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠
« بن كثير المهندس : ٢٠٢
« بن محمد بن أبى بكر ، بدر الدين السعدى ، : ١١٨ ، ١٢٦

محمد بن محمد « بدر الدين السبكى »: ١٠٩
« بن محمد « شمس الأمشاطى » : ١٢٠ ، ٣١٧
محمد بن محمد « محب الدين بن الشحنة » : ٧٦ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ٤١٣
محمد بن النقيب « شمس الدين السمديسى » : ١٤٣
محمد الأمين : ٤٢
محمد الريس فتات العنبر : ٣٩١
محمد الفاتح : ٢٤٥
محمود بن أجا الحلبى : ٧٥ ، ١٣٣ ، ١٩٦ ، ٣٨٣
محمود بن عبد البر « حسام الدين بن الشحنة » : ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤٤
محمود « بدر الدين العينى » : ١١٤ ، ١١٥ ، ١٥١
محمود شاه ملك الهند : ٢٣٨ ، ٢٥١
المحوجب المغنى : ٣٩١
محيى الدين بن تقى « عبد القادر » : فى ع
« بن الدميرى : فى يحى
« بن عبد الظاهر . ٦٧ ، ٣٩٨
« بن عبد القادر بن النقيب : فى ع
« بن عين الدولة « عبد الله » : فى ع
« الكافيجى : ١٣٧ ، ٤١٣
مراد خان بن يعقوب : ٢٥٠
مرداش الطويل . ١٧١
مرهف الطواشى : ١٨٩
المستعصم بالله بن ابراهيم « زكريا » : فى ز
« بالله العباسى : ٧
المستعين بالله العباسى : ١٨ ، ٣٤ الى ٣٦ ، ١١١ ، ١١٢
المستكفى بالله : فى سليمان
المستمسك بالله يعقوب : ١٩ ؛ ٢٠
المستنجد بالله : فى يوسف
المستنصر بالله : فى أحمد
مصرباى : ١٨٥ ، ٣٦٥
المظفر بن المؤيد شيخ : فى أحمد
« شاه صاحب كنباية : ٢٥٦
« قطز : فى ق
المعتضد بالله الأول : ١٨ ، ٣٦
« بالله الثانى : ٢٩
معز الدين الحنفى : ٨٠

معين الدين بن شمس : ١٣٢ ، ٣٣١
مغلباى دوادار سكين : ٢٤١
مغلباى الزردكاش : ١٩٣ ، ٢٢٢ ، ٣٢٠
منجد بن خاطر : ١٦٩ ، ٣٤١
منجك اليوسفى : ٣١٥
المنصور بن المعز أيبك : ٩١
المنصور أبو بكر : ١٥ ، ٢٧
المنصور عثمان بن جقمق : فى ع
« على بن الأشرف : فى ع
« قلاوون : فى ق
« لاجين : ٢٣
« محمد حفيد قلاوون : ٢٩ ، ٢٣٦
منطاش : ٣١ ، ٣٣٦
منكوتمر أمير التتار : ٢٧٨
منكوتمر نائب السلطنة : ١٠٤
مهنا بن عطية : ٣٤٣
موسى بن عمران : ٣٤٢
موسى بن عيد « شرف الدين الدمشقى » : ١٢٠ ، ١٢٤
موفق الدين الحنبلى : فى أحمد
موهوب الجزرى « صدر الدين » : ١٠
ميخائيل المنفلوطى « البترك » : ٣٥٦

(ن)

ناصر الدين الإخميمى : فى محمد
« البارزى - ٣١٠ ، ٣٩٨
« التونسى - ١٥٠
« الصالحى - ١١٢ ، ١٥١
« العسقلانى - ١٥٠
« محمد المازونى - ٣٨٦ ، ٣٨٧
« مهنا - ٢١
الناصر حسن بن الناصر محمد - ٢٦٧ ، ٣١٥ ، ٣٥٣
الناصر فرج بن برقوق - فى ف
الناصر محمد بن قايتباى - فى م
الناصر محمد بن قلاوون - فى م
الناصر ملك دمشق - ٨٩ ، ٢٧٦
نانق الخازن - ١٩٦ ، ٣١٩
نجا تمساح - ٣٢٩
نجم شيخ العرب - ٣٤٦
نجم الدين بن صصرى - ١٠٨ ، ٢٧٩

نجم الدين أبو بكر بن سنى الدولة - ٩٩
» البارزى - ٣٩٧
» يحيى بن حجى - ٤١٣ ، ٤١٦
نجيب الدين الحرانى - ١٠
نصر الدين بن التونسى ١٥١
نكسبيه الأزدمرى - ١٦٩
نور الدين بن الجلال المالكى - ١٥٠ ١٥١
نور الدين المحلى - ٤٠٩ ، ٤١٣
» المشالى - ٤٠٨
نوروز تاجر المماليك - ١٩٣
نوروز الحافظى - ١٧ ، ١٨ ، ٣٤ ، ٣٥ ٢١٢ ، ٢٨٥

(و)

الواثق بالله العباسى الأول - فى ابراهيم
الواثق بالله العباسى الثانى - فى عمر
وجيه الدين البهنسى « عبد الوهاب » - فى ع
الوليد بن عبد الملك - ٢٠٢
ولى الدين بن خلدون « عبد الرحمن » : فى ع
ولى الدين الأسيوطى - فى أحمد
» الأموى - ١٥٢
» السقطى - ١٥٢
» السنباطى - ١١٨ ، ١٥٣
» العراقى - ١٥١

(ه)

هبة الله بن البارزى « شرف الدين » - ٣٩٧
هجار أمير يغمبع - ٣٤٨
هولاكو ملك التتار - ٢٤ ، ٢٤٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
هيفة اللذيذة - ٣٩١

(ى)

يحيى بن ابراهيم « محيى الدين بن الدميرى » ١٢٩ ، ١٤١ إلى ١٤٥ ، ١٥٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٩
يحيى بن الأمير يشبك الفقيه - ١٧٢

يحي بن السبع - ١٣٢ ، ١٩١ ، ٣٤٦ إلى ٣٤٨
يحي بن عبد المنعم « جمال الدين » - ١٠
يحي البرديني « شرف الدين » ١٤٩
يحي المناوى « شرف الدين » - ١١٦ ، ١١٧ ، ١٥٣ ، ٢١٣ ، ٢١٥
يزيد بن عبد الملك - ٢٠٢
يشبك بن حيدر : ١٨٠ ، ٣٨٨
« بن مهدى : ١٧٨
« الأشقر : ١٨٤
« الجمالى : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ٢٣٣
« جن - ١٧٣
« الدوادار - ٢٣٤ ، ٢٤٨ ؛ ٣٢٤ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٤
يشبك الناصرى - ١١٤
يعقوب بن حسن الطويل : ٢٣٤
يعقوب بن عليبة : ٢٨٨
يعقوب شاه - ١٢٤
يعقوب « المستمسك بالله » - ٢ ، ٤٢ إلى ٤٦
يلبغا السالمى - ٣١٦
يلبغا العمرى : ٢٨٧ ، ٣٣٥ ، ٣٨٦
يوسف بن الحسن بن على « بدر الدين السنجاوى » : ٥٩ ، ٦٣ ، ٨٨ إلى ٩٢ ، ٩٧
يوسف الصوفى : ٢٥٦
« « المستنجد بالله » : ١٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٣١٧
« الناصرى : ١٩٤
يونس بن جانم الزردكاش : ٣٢٤
« بن عمر : ٣٤٣
« الأقرع : ١٩٤
« الدوادار . ٢٨٨
« العادلى : ٢٣٨ ، ٢٧١

فهرس القسم الثانى من الجزء الاول

الصفحة	الموضوع
٣	مراجع الكتاب
٥	مقدمة الكتاب
٧	الخلافة العباسية الثانية
٢١	الخلفاء العباسيون فى مصر :
٢١	المستنصر بالله
٢٢	الحاكم بأمر الله الأول
٢٥	المستكفى بالله الأول
٢٦	الواثق بالله الأول
٢٧	الحاكم بأمر الله الثانى
٢٨	المعتضد بالله الأول
٢٩	المتوكل على الله الأول
٣٢	المستعصم بالله
٣٣	الواثق بالله الثانى
٣٤	المستعين بالله
٣٦	المعتضد بالله الثانى
٣٧	المستكفى بالله الثانى
٣٨	القائم بأمر الله
٣٩	المستنجد بالله
٤٠	المتوكل على الله الثانى
٤٢	المستمسك بالله
٤٥	المتوكل على الله الثالث
٤٨	القضاء
٥٠	السلطان وجلوسه للقضاء
٥٤	حاجب الحجاب
٥٨	القضاء الشرعى
٦٢	تعدد القضاة
٦٨	محاسن التعدد ومساوئه
٧٠	شعور الشافعية نحو تعدد القضاة
٧٢	تعيين القضاة وعزلهم
٧٨	أعوان القضاة ونوابهم
٨٢	أجورهم
٨٥	جلوس القضاة للقضاء
٨٦	القضاة :
٨٧	عماد الدين الحموى
٨٧	عز الدين بن عبد السلام
٨٨	بدر الدين السنجارى
٩٠	تاج الدين بن بنت الأعز
٩٤	محيى الدين عبد الله بن عين الدولة
٩٤	تقى الدين بن رزين الحموى
٩٥	صدر الدين بن بنت الأعز

الصفحة	الموضوع
٩٦	وجيه الدين البهنسى
٩٧	برهان الدين السنجارى
٩٨	شهاب الدين محمد الخوبى
٩٩	تقى الدين بن بنت الأعز
١٠٣	تقى الدين بن دقيق العيد
١٠٥	بدر الدين بن جماعة
١٠٨	جلال الدين القزوينى
١٠٩	ناصر الدين بن الميلق
١٠٩	بدر الدين السبكى
١١٠	موفق الدين الحنبلى
١١٠	صدر الدين المناوى
١١١	ولى الدين بن خلدون
١١١	تقى الدين القرشى
١١١	صدر الدين بن العديم
١١١	جلال الدين البلقينى
١١٣	مجد الدين أبو البركات الحنبلى
١١٣	زين الدين التفهنى
١١٤	شهاب الدين بن حجر العسقلانى
١١٥	سعد الدين الديرى
١١٦	علم الدين البلقينى
١١٧	شرف الدين يحيى المناوى
١١٨	حسام الدين بن حريز
١١٨	عز الدين أحمد الحنبلى
١١٩	برهان الدين الديرى
١٢٠	شمس الدين الأمشاطى
١٢٠	شرف الدين موسى بن عيد
١٢١	محب الدين بن الشحنة
١٢٣	ولى الدين الأسيوطى
١٢٤	شمس الدين الغزى بن المغربى
١٢٤	سراج الدين بن حريز
١٢٥	محيى الدين بن تقى
١٢٥	برهان الدين المغربى
١٢٦	بدر الدين السعدى
١٢٧	ناصر الدين الأخميمى
١٢٧	عبد الغنى بن تقى
١٢٨	شهاب الدين أحمد بن فرفور
١٢٨	برهان الدين الدميرى
١٢٩	بدر الدين المكينى
١٣٠	شهاب الدين أحمد الشيشينى
١٣٠	سرى الدين بن الشحنة
١٣٤	محيى الدين بن النقيب
١٣٦	برهان الدين الكركى

الصفحة	الموضوع
١٣٨	عز الدين الشيشينى
١٣٨	علاء الدين الاخميمى
١٣٩	جمال الدين القلقشندى
١٤٠	برهان الدين بن أبى شريف
١٤٠	حسام الدين بن الشحنة
١٤١	جلال الدين بن قاسم
١٤١	زين الدين زكريا الأنصارى
١٤٣	شمس الدين السمديسى
١٤٣	محيى الدين بن الدميرى
١٤٥	كمال الدين محمد الطويل
١٤٨	شهاب الدين الفتوحى
١٤٩	يحيى البرديني
١٤٩	قضاة آخرون
١٥٥	المحمل والحج
١٦٦	أخبار ركبى الحج وأمرائهما وما يتصل بذلك
١٩٩	فيضان النيل والاهتمام به
٢٠٨	أخبار فيضان النيل وما يتصل به
٢٣١	السفارة :
٢٣٢	من سفراء مصر الى غيرها من الدول
٢٤١	من سفراء الدول الى مصر
٢٦٥	الهدايا
٢٧٤	حسنات هذا العصر ومساوئه
٢٧٤	حسناته :
٢٧٤	١ ـ دفع التتار عن اقتحام الأراضى المصرية
٢٧٦	حروب التتار فى الممتلكات المصرية ومقاومة سلاطين مصر لهم
٢٨٦	٢ ـ دفع الفرنجة عن ممتلكات مصر ودوائر نفوذها
٢٨٩	٣ ـ المحافظة على استقلال البلاد وبسط نفوذها
٢٩٢	٤ ـ رصد الأوقاف وبذل الاموال وصنع البر
٢٩٦	٥ ـ تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب
٢٩٦	سيئاته :
٢٩٦	١ ـ احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية :
٢٩٨	التعليم
٣٠٠	الجيش

الصفحة	الموضوع
٣٠٣	ملكية الارض
٣٠٨	الوظائف العامة
٣١٠	التقاضى
٣١١	٢ ـ فداحة الضرائب وتعدد أنواعها
٣٢٢	٣ ـ الجوار والعسف
٣٢٥	الاعدام والتعذيب
٣٢٩	السجون الشهيرة
٣٣٣	٤ ـ كثرة الفتن الداخلية
٣٣٨	ثورات العربان
٣٥٠	٥ ـ الزلازل والطواعين والقحط والغلاء
٣٦٢	العادات والتقاليد :
٣٦٣	حفلة تولية السلطان
٣٦٥	حفلات الاستقبال
٣٦٧	الاحتفاء بخروج السلطان من القاهرة أو عودته اليها
٣٦٨	الفرح بشفاء السلطان من مرضه
٣٦٩	عاداتهم فى شهر رمضان
٣٧٢	الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى

الصفحة	الموضوع
٣٧٤	الزواج وحفلاته
٣٧٧	حفلات الختان
٣٧٩	الجنازات وما يتعلق بها
٣٨١	اقامة الموالد والمواسم
٣٨٣	حفلة كسر الخليج
٣٨٥	خروج المحمل
٣٨٥	الحفلات الأخرى وليالى السمر والغنون والمغنيات
٣٩٤	ملاحظات عامة :
٣٩٤	عيد النيروز
٣٩٤	اهتمام برقوق بلعب الرمح
٣٩٥	شرب القمز
٣٩٥	التصدق بثمن الفرس
٣٩٥	عصائب النساء
٣٩٦	خلع أبواب الاسكندرية عند مقدم السلطان
٣٩٦	عمائم النصارى واليهود
٣٩٧	الأسر البارزة
٣٩٩	الآثار النبوية والمصحف العثمانى
٣٩٩	البلسان
٤٠٠	كبار الأضياف

الصفحة	الموضوع
٤٠١	« الطابور » الخامس
٤٠١	تعليم الحيوانات
٤٠١	الأولياء والصالحون
٤٠٢	قصص هذا العصر ونوادره :
٤٠٢	نادرة عن الشيخ تاج الدين الفاكهانى والشاطر الدمنهورى
٤٠٣	رؤيا الشيخ فرج الصفدى الخاصة بالامرد
٤٠٣	زهد بن أبى تمام الصالحى
٤٠٣	من توضأ باللبن
٤٠٤	الشيخ سنطباى المتصوف المزيف
٤٠٤	حادث حريق فى مولد الشيخ سويدان
٤٠٤	قاذف سيدنا ابراهيم
٤٠٥	خديجة الكليباتية
٤٠٥	جملان يحدثان حريقا
٤٠٥	رؤيا بواب جامع الحاكم
٤٠٦	جمال الدين الزغلى صاحب دار الضرب
٤٠٦	طفلة ترى النبى فى منامها
٤٠٧	ملك يرفس النيل برجله
٤٠٧	رؤيا تضطر السلطان إلى العدل
٤٠٧	عبد العظيم يكبر عمامته
٤٠٧	حادثة زنايتهم فيها أحد نواب الحكم ويعزل بسببها القضاة
٤١٠	نبوءة قلاوون بعصيان قفجق
٤١٠	خيبة ابن مفلح
٤١٢	الشيخ أسد الدين المزيف
٤١٢	الاستسقاء ببنى العباسى
٤١٣	انشقاق العلماء بسبب ابن الفارض
٤١٦	كتاب الفصوص لابن عربى
٤١٦	السلطان يقبل رجل الدشطوطى
٤١٧	عبد الصليب يذم النبى
٤١٧	النحال ينظم الشعر

الخطأ والصواب

وقعت أخطاء مطبعية قليلة ومنها :

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٤٣ - ٩	العادل وطومان	العادل طومان
٥٤ - هامش	هذا الكتاب	القسم الأول
٧٥ - ٩	اجتمع	اجتمعا
٩٢ - ١٧	الناشر	الناصر
٩٧ - ١٢	طل	ظل
١٠٢ - ١٩	قضاة	قضاء
١١٦ - ١٠	سنة ٨٩١ هـ	سنة ٧٩١ هـ
١١٧ - ٩	ص ١٢٤	ص ١١٦
١٢٦ - ١٥	بعض	بعضهم
١٣٥ - ٨	فأعفى	فعفى
١٤٦ - ٢ - ١٣	البيرسيه	البيرسبية
١٥٤ - ٤	الذكره	الذكر
١٧٠ - ١٩	الأمين	الأمير
١٧٩ - ٢١	تاج	تاجر
٢٠٢ هامش	(٢) تقويم	(٢) مقدمة تقويم
٢٠٨ - ٤	على الاستيعاب	لا الاستيعاب
٢١٠ - ٢٠	٦٩٧ هـ	٧٩٧ هـ

رقم الصفحة	الموضوع	الموضوع
٤٠١	٥ الطائرون ٥ الخامس	٦ لهنده ٦ قابلة القبيلة ٦ الوجه أشخص دار
٤٠١		
٤٠١	الأولياء والصالحون	
٤٠٢		
٤٠٢		
٤٠٣		
٤٠٣		
٤٠٣		
٤٠٤		
٤٠٤		
٤٠٤		
٤٠٥		
٤٠٥		
٤٠٥		

باب الخطأ

باب الخطأ	الخطأ	صفحة الكتاب
باب الخطأ في الخطأ	باب الخطأ في الخطأ	٢ - ٦٤
باب الخطأ في الخطأ	باب الخطأ في الخطأ	٤٥ - ٥٤
الخطأ	الخطأ	٥٧ - ٢
الخطأ	الخطأ	٦٢ - ٧١
الخطأ	الخطأ	٧٢ - ٧١
الخطأ	الخطأ	٢٠٤ - ٢١
الخطأ ١٢٧ هـ	الخطأ ١٢٨ هـ	٢١١ - ٢٠١
الخطأ ٢١١ هـ	الخطأ ٢٧١ هـ	٢٧١ - ٢
الخطأ	الخطأ	٢٧١ - ٥١
الخطأ	الخطأ	٥٧١ - ٨
الخطأ	الخطأ	٢٨١ - ٢ - ٦١
الخطأ	الخطأ	٣٥١ - ٤
الخطأ	الخطأ	٧١ - ٢١
الخطأ	الخطأ	٢٧١ - ١٢٠
الخطأ في الخطأ (٢)	الخطأ (٢)	٢٠٢ الخطأ
باب الخطأ في الخطأ	باب الخطأ في الخطأ	٨٠٢ - ٤
٧٢٧ هـ	٧٢٤ هـ	٢٠٤ - ٢٠٧

DATE DUE

J. Lib.
1 FEB 1980
J. Lib.
1 JUN 1983

سليم، محمود رزق،
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01034426